فرانسوا راستيي

فنون النص وعلومه

ترجمة : ادريس الخطاب



دار توبقال للنشر

فرانسوا راستيي

فنون النص وعلومه

ترجمة : ادريس الخطاب

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار
بلفيدر، الدارالبيضاء 20300- المغرب
الهاتف / الفاكس: 522.34.23.23 (212) - 522.40.40.38 (212)
الموقع: www.toubkal.ma - البريد الإلكتروني: contact@toubkal.ma

تم نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة
المعرفة الأدبية

الطبعة الأولى، 2010

صورة الغلاف عمل الفنان
عبد الكريم الوزاني

الإيداع القانوني رقم : 2010 MO 305
ردمك : 978-9954-511-06-0

المحتويات

كلمة المترجم

في هذا الكتاب، يقدم فرانسوا راستيي قراءة حديثة للإرث الثقافي الغربي حول النص، إذ يعمد إلى عرض منهجي للحقول المعرفية المتصلة بالنص، وهي نوعان: الحقول المعرفية القديمة ومنها البلاغة والفيلولوجيا والهيرمينوطيقا، والحقول الحديثة النشأة كاللسانيات والأسلوبية والشعرية والموضوعاتية. وقام الكاتب في جل فصول الكتاب بحفر إبيستيمولوجي للكشف عن الخلفيات الفلسفية و الدينية و الإيديولوجية التي تتحكم في المفاهيم والمناهج و آليات تحليل النصوص وتصنيفها، وهكذا يتجاوز الكاتب العرض والتوليف ليطرح تصوره الخاص. وتتمثل أطروحته في توحيد علوم النص على أساس المبحث الجامع و الموحِّد الذي يمكن نعته بـ «دلالة النصوص».

لقد لاحظ الكاتب أن الحقول المعرفية المتصلة بالنص مشتتة ولا تربطها أية جسور. فكان هدفه فك عزلتها واستقلاليتها بهدف ربط الاتصال بينها. ولهذا، حاول تطوير إطار نظري يمكن من تجميع العلوم والفنون المتصلة بالنص بالرغم من أنها تختلف على مستوى الوضع الابستيمولوجي والأكاديمي و الأهداف و المناهج. بالنسبة لراستيي، يمكن لعلوم اللغة أن تتجمع حول موضوع واحد هو النص وحول هدف واحد هو التأويل . إنه يريد بناء معرفة يتفاعل فيها القديم (البلاغة والهيرمينوطيقا) والحديث (اللسانيات و الموضوعاتية و الشعرية...).

وترتكز المهام الأساسية لدلالة النصوص على ثلاثة اتجاهات متقاربة: أولها تأسيس دلالة موحدة بالنسبة لثلاث درجات من الوصف (درجة الكلمة و الجملة و النص)؛ وثانيها إعداد طبقات لتصنيف النصوص (الأدبية والأسطورية؛ العلمية

والتقنية) وثالثها تطوير هذه النظريات الوصفية وربطها بالمعالجة الآلية للنصوص.

يكتظ الكتاب الذي بين أيدينا بمفاهيم و مصطلحات تنتمي إلى مختلف الحقول المعرفية المتصلة باللغة و النص: المعنى، الدلالة اللفظية، التناص، السمات الدلالية، الركيزة، التفكيك، الشفرة، الطوبوس، المعنى المشترك، السياق، الفهم، التأويل، ...الخ. ولقد حاول المترجم التدقيق في كل ما تقدم لمنحه المعنى الذي توخاه له الكاتب.

تطلعنا الموسوعة العالمية *Encyclopedia Universalis*(2003)أن راستيي من أبدع اللسانيين في القرن العشرين والقرن الحالي، حيث تتسم كتاباته المتعددة والمتنوعة بالجرأة في الطرح، والدقة في التعبير، والنقد الحاد للمشتغلين في مجالاته نفسها. راستيي باحث في السيميائيات والدلالة، المبحث اللغوي الذي يفتقر إلى التنظير والتحليل العلمي بالمقارنة مع التركيب والصواتة.

لقد قدمت الدلالة البنيوية على يد غريماس وبوتيي وكوزوريو وغيرهم مقترحات هامة من حيث المفاهيم وآليات استشراف المعنى، وكانت للدلالة التأويلية المرتبطة بالنحو التوليدي بعض الإسهامات التي اصطدمت بمشاكل جمة مثل عدم التنبؤ بالمعنى في الاستعارة والعبارات المسكوكة ومشكل المعنى المرتبط بالخصوصيات الثقافية،.... ولكن مجموع أفكار اللسانيين سواء البنيويين أو التوليديين أو المنتمين إلى مدارس لسانية أخرى لم يشكل مشروعا فكريا متكاملا، كما أن هؤلاء لم يتطرقوا إلى تحليل نسقي للدلالة بمعية علوم النص. وهكذا، فكتابات راستيي قد أسست لمبحث معرفي جديد وهو «دلالة النصوص» التي أصبحت تدرس في العشرات من الجامعات في العالم .

وفي هذا الإطار النظري، المعنى لا يبنى في الكلمات أو في الجمل، وإنما في النص بأكمله. إن موضوع إشكالية المعنى هو النص وليس العلامة. ثم إن المعنى ليس معطى، بل هو مسار يتلمسه الباحث من العناصر اللغوية للنص ويستمد تأويله من أقطاب خارجية تتمثل في المعايير المجتمعية والمعتقدات والإيديولوجيات. باختصار يوجد المعنى في سياق معين وضمن شروط تتحكم في إنتاجه و تأويله.

عندما التقيتُ الكاتب وناقشتُ معه الخطوط العريضة لكتابه، لمست مدى متانة وأهمية هذا المشروع في نطاق العلوم الإنسانية. ولاحظتُ أن كتبه قد ترجمت

إلى الانجليزية والألمانية والروسية والبلغارية والايطالية واليونانية...الخ، لكنها لم تترجم بعد إلى العربية.

من ثمة أزمعت على الاضطلاع بنقله إلى اللغة العربية، علما أن ترجمة هذا النوع من التخصص يحتاج إلى جهد كبير وإلى تفرغ تام. و بالفعل، استغرقت ترجمة هذا الكتاب وقتا غير يسير، ولكنها شجعتني على المضي في تكملة هذا المشروع. ومن أهم العوامل المساعدة معرفتي الجيدة بصاحب الكتاب و كثرة مراسلاتي معه في مواضيع تخص اللسانيات والنصوص.

تم الاستئناس بالعديد من الترجمات العربية و المعاجم الحديثة و الكتابات الأدبية و الفلسفية و اللسانية، بغية توضيح أفكار الكاتب، وتمت الإحالة على مراجع في موضوع ما أو لتبني ترجمة معينة لمصطلح من المصطلحات.

وإذ أقدم للقارئ العربي هذه الترجمة، أود أن أؤكد على الطابع الفلسفي لجل الفصول. و أذكر بعدة صعوبات اعترضتني مردها إلى ما يلي:

1. الطابع التقني لبعض الفصول وعلى الخصوص الفصل الثالث الذي يطرح مشروع الفيلولوجيا الرقمية.

2. الطابع الموسوعي للكتاب ، إذ يبحث الكاتب في ثمانية حقول معرفية، ولقد ارتأيت التعليق على الأفكار الواردة في كل مجال، على الرغم من كون بعضها عصية على الفهم ولكون بعض المصطلحات لا مقابل لها في العربية.

3. تنوع مصادر الأمثلة (اللاتينية والفرنسية و الانجليزية والألمانية).

4. كثرة المؤلفين الذين يحيل عليهم المؤلف.

5. إتباع أسلوب التلميح لبعض الأفكار، نظرا لأن المؤلف يحيل إلى جل أعماله، فيلخص مثلا مقالا مكونا من 40 صفحة في جملة واحدة.

6. غزارة المصطلحات وهي نوعان: مصطلحات رائجة في ميدان اللسانيات مثلا و مصطلحات حديثة من إبداع المؤلف.

ولتسهيل قراءة هذه الترجمة، اتبعت المنهج التالي:

1. كتابة اسم العلم بالعربية وإتباعه بالمقابل بالحروف اللا تينية.

2. وضع المصطلح اللاتيني بين قوسين في مقابل كل مصطلح عربي.

3. تعقيف الكلمات التي لا توجد في النص الأصلي.

4. عدم إعطاء ترجمة عربية لعناوين المؤلفات التي لم تترجم بعد إلى العربية أو التي لا نعلم بأنها مترجمة، لذا أحتفظ بالعنوان الأصلي لمعظم المؤلفات.

5. إعادة تنظيم بعض الفقرات وذلك بالعودة إلى السطر ووسم الأفكار بالأرقام (1، 2، 3،...) أو بالحروف الأبجدية (أ، ب، ج، ...).

- أما التعليق، فكانت منهجيته كالتالي:

1. الشروح:

أ- شرح الكلمات الصعبة،

ب- شرح المصطلحات،

ج- - إعطاء نبذة عن الفلاسفة واللغويين والمفكرين والأدباء الذين ذكرهم الكاتب.

2. تعريب المفاهيم: إتباع طريقتين في تعريب المصطلحات: الاستعانة بالمعاجم المتخصصة مثل قواميس اللسانيات والاجتهاد في وضع مصطلحات عربية و نتمنى أن نكون موفقين فيها.

3. تقديم بعض النظريات التي تطرق لها المؤلِّف، وإحالة القارئ على أهم المؤلفات العربية التي تعالج المواضيع المدروسة.

و الله ولي التوفيق

الرباط ، ادريس الخطاب، 2008

المقدمة

دأب النقاد والمدرسون ومحترفو تحليل المضمون [مضمون النصوص] على توظيف مفاهيم مستوحاة من حقول معرفية مثل البلاغة والأسلوبية والسيميائيات والشعرية، الخ. و هنا يحق التساؤل: هل يعتبر هذا التوليف المحمود مؤشرا على وجود تقاليد مشتركة و استعارات متبادلة و ربما أيضا على وجود آفاق تكاملية بين هذه الحقول المعرفية المذكورة ؟ يبدو أنه من الصعوبة بمكان تحديد وجهة نظر عامة تمكن من تنظيم هذه المعارف، لأن هوياتها مازالت متسمة بالتشتت؛ ونعني بذلك أن الفيلولوجيا واللسانيات تدَّعيان الانتساب إلى العلوم، في حين تعتبر البلاغة والهيرمينوطيقا مادتين ذات طابع تقني، والأليق أنهما تنتميان إلى ميدان «الفنون»[1]. وفي نهاية الأمر، ظهرت في فرنسا خلال ستينيات القرن العشرين كل من الموضوعاتية (Thématique) والشعرية (Poétique)، وكأنهما يتمتعان بنوع من الاستقلالية ؛ إذ تميل الأولى نحو النقد الأدبي، والثانية صوب « علم الأدب » الذي دعا إليه الشكلانيون الروس، مجددين بذلك مشروع الرومانسيين الأوائل. أما الأسلوبية التي تعتبر مزيجا من أشكال عديدة من النقد واللسانيات، فان خاصيتها الفرنسية كمادة «للمباريات» تعتبر أكثر من كافية لتبرير حضورها الأكاديمي.

من جهة أخرى، و على الرغم من أن مفردة Discipline تعد مصطلحا شائعا -و نوعا ما قدحيا في وقتنا الحاضر- فقد كانت كفيلة بان تستعمل للإشارة في الوقت نفسه إلى «الفنون» والعلوم و أيضا إلى الخطابات النظرية التي لا تدعي بأنها من قبيل العلوم أو التخصصات ذات الطابع التقني. سنحاول دراسة كل هذه المعارف ، و سنعتبر مؤقتا

1. يصنف شليرماخر (Chleiermacher) الهيرمينوطيقا ضمن التقنيات (*Kunst*).

أن لها موضوعا موحدا ألا وهو النصوص الشفوية والمكتوبة، ولكن لن نصدر أحكاما مسبقة تخص أغراضها المتباينة.

لقد شكلت النصوص، بصورة متواضعة، موضوع اهتمام اللسانيين والسيكولسانيين، وبصفة خاصة «الأدباء» وعلماء آخرين في مجال الديداكتيك والمعلوميات، وباختصار، تعد النصوص محط اهتمام أهل النص المشتتين والمنتشرين في العديد من التجمعات الأكاديمية. لم يحن الوقت بعد للقيام بعملية تركيبية بين هذه الاختصاصات. وإذا قمنا بهذا، ستكون هذه العملية سابقة لأوانها أو بالأحرى وهمية، لأن مجموع النصوص يُكون ميدانا للموضوعية، تتمسك فيه كل مادة بخصوصياتها. وبغض النظر عن علوم اللغة، فكل العلوم الاجتماعية تعالج النصوص بطريقة صحيحة وقطعية من زاوية أهدافها المعينة.

لقد قمتُ بمراجعة موضوع بحثي من الناحية الابستيمولوجية -و«الأكاديمية»- وتمنيتُ أن أجد وجهة نظر تمكنني من تنظيم -ولو جزئيا- هذا الكم الهائل من المواد، وأن أطرح مشروعا ثقافيا من شأنه أن يجمع الفيلولوجيا والهيرمينوطيقا في إطار دلالة النصوص جمعا ذا طبيعة وصفية، ولهذا الغرض استندتُ إلى الوصف الدقيق واستعنت بالإمكانيات الآلية للنصوص الرقمية [2]. وبدلا من وضع «بانوراما» أو رصد لحالة هذه الميادين، تمنيتُ أن أعرض عدة مقترحات وأن آخذ بعين الاعتبار حساسية المجالات المعرفية غير المتوقعة وأن أبحث فيما يمكن أن يؤسس لفدرالية معرفية تجمع كل الاختصاصات المتصلة بالنص.

لنسلم بأن للنص بعد لغوي وبأن اللسانيات تتخذ النصوص موضوعا أمبيريقيا لبحثها[3]. إن النص الذي لم يتم تجاوزه عند ظهور قنوات جديدة قد عرف عصرا جديدا شبيها بالثورة الفيلولوجية والمطبعية لعصر النهضة. إذ اغتنى بالوسائل الإعلامية المتعددة[4]، و الأكثر من ذلك، هو أن تعقيد النص قد يساعد على فهم السيميائيات المتعددة الأنساق. [5]

2. النصوص الرقمية هي مجموعة من النصوص الالكترونية التي تستغلها لسانيات المتن(linguistique du corpus) كمعطيات (المترجم).

3. ساهمت لسانيات المتن التي تطورت مع الرقمية في إحياء هذا المعطى البديهي.

4. يلاحظ أن العديد من مشاريع المركز الوطني لدراسات الاتصال عن بعد والمعهد الوطني السمعي -البصري ترتكز على إشكالية النص و تهدف إلى فهرسة الصور والوثائق و الوسائل الإعلامية المتعددة.

5 . تضم هذه السيميائيات سيميائيات مبنية على أنساق متنوعة (موسيقى، صورة، رقص) مثل ما هو موجود في الأوبرا و السينما (المترجم).

الاستثناء الفرنسي

على الرغم من وجود مقدمات متعددة وجيدة -في الغالب- حول لسانيات النص والسيميائيات الأدبية والأسلوبية... الخ، فإن هذا الكتاب يرتكز على قليل من المرجعيات بسبب تخليه عن أحد الطابوهات: فلا يزال التميز قائما في فرنسا بين الآداب والعلوم بحدة أكثر بالمقارنة مع البلدان الأخرى. رغم كونه قليل الولوع بالفنون الأدبية، تحسر كوفيي Cuvier [6] على هذا الوضع قائلا: «إن طريقة تفكيرنا توهمنا دوما بأن العلم يلغي الأدب، أو أنه بالإمكان وجود عالم غير مثقف. اقتراح عبثي! [...] إن المعارف المسماة أدباً شرط ضروري لأي تطور حقيقي للعلوم»[7].

في عصر الأنوار، اتسمت الآداب بصرامة الأسلوب المبتعد عن المحسنات البلاغية، وباسم التطور تمت التضحية بفنون اللغة على حساب العقل: لاحظ دالامبير D'Alembert أن **الموسوعة** (Encyclopédie) لا تشير إلى البلاغة إلا في المقال المعنون بـ Collège. إذ تم نعتها بـ«صبيانيات تنميقية». و الملاحظ أن التعليم الذي ساد بعد الثورة الفرنسية قد تميز بحذف البلاغة من مواد الدراسة، في الوقت الذي خُلقت فيه هذه اللغة العصرية (أي لغة الخشب)- و هي للأسف غير قابلة للاندثار- الشيء الذي تَؤول إليه الفصاحة عندما تفقد بعدها النقدي والأخلاقي[8].

وستتوزع محتويات الدرس البلاغي -لاحقا- بين النحو العام والمعقلن- الذي كان معرفيا لأنه يقترح «تحليل الحواس والأفكار والأحكام، وكذلك الوسائل التي تمكن من التعبير عنها بدقة» -والآداب الجميلة المختزلة في «القراءة العاطفية» للمؤلفات الأدبية (Marmontel)[9].

هذه التفرقة مقرونة بتفرقة أخرى بين المسالك الأدبية والعلمية، لقد صرح

---

6. يعد جورج كوفيي(1832-1769) من أكبر العلماء في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. عمل أستاذا في أكبر المعاهد الفرنسية مثل الكوليج دو فرانس و الموزيوم. و يرجع له الفضل في وضع تصنيف حديث للحيوانات و هو مؤسس التشريح المقارن كما شغل مناصب سياسية، حيث كلفه بونا بارت بالإشراف على الشؤون الجامعية و أصبح فيما بعد مستشارا للدولة (المترجم).

7. أنظر: Cuvier, de la part à faire aux lettres et aux Sciences dans l'instruction publique, **Le Moniteur universel**, 3 Novembre 1807.

8. لنطرح هذه الصورة التمثيلية: عندما كانت الأم بلاغة في فراش الموت، ألم تبح بكل أسرارها إلى بناتيها الناكرتين للجميل: الدعاية و الإشهار؟

9. أنظر دووي Douay، 1992، ص 502، دون الابتعاد عن القراءة العاطفية، يجب الإشارة إلى أن الطليعة الأكاديمية المعاصرة قد عملت على السير على النهج نفسه وطرح «القراءة الغريزية(Lecture pulsionnelle) .

الوزير فورتول[10] Fortoul ،عقب إحداثه للباكالوريا العلمية سنة 1852، قائلا: «إنه لمن الوهم أن نفرض على العقول العادية، والتي تشكل الأغلبية، اتباع الدراسات العلمية والدراسات الأدبية في الوقت نفسه»[11]. وفي سنة 1989، التي صادفت الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية، منع وزير آخر تدريس اللغة اللاتينية للتلاميذ الذين يهيئون الباكالوريا العلمية متبعا في ذلك كوفيي الذي استهزأ بهذه اللغة و وصفها بأنها أداة خاصة بفقهاء الدين[12]. لقد أدت العلموية Scientisme المتبعة من طرف اليعقوبيين والروحانية المابعد-رومانسية إلى خلق «ثقافتين» متعارضتين، في الوقت الذي لم تكن فيه إلا ثقافة واحدة. وحين انتقل إلى الميدان الخاص بالآداب، أصبح هذا الجدال الخاطئ يطرح على الساحة الأدبية شجارا موليريا بين النبلاء والمتحذلقين، بل أكثر من هذا بين المتخصصين. ولم تلق علوم اللغة يوما الترحيب اللائق في المؤسسة الأدبية، وخير شاهد على هذا أمداح جون إيتيي[13] Jean Hytier القاتلة و الموجهة إلى ليو سبيتزر Léo Spitzer [14]. يختنق الأسلوب الأكاديمي الجميل من الموسوعية ويفزع من الفنية، وخاصة عندما تجرؤان [أي الموسوعية و الفنية] على الارتباط بالحماس الثقافي.

أما في وقتنا الحاضر، فيبدو أن التمييز بين الآداب واللسانيات غير متجاوز، كما لو أن الأدب لم يكن قط فنا من فنون اللغة، فقد صرح أنطوان كومبانيو Antoine Compagnon [15] بأن «التاريخانية والصورنة يقلصان الأدب ويجعلانه لا-أدبا، وينتج عن ذلك بروز مادتين: التاريخ واللغة»[16]. يتكرر هذا الموقف الرافض بصورة مطردة، مما دفع پافل Pavel **في السراب اللساني** *(Le mirage Linguistique)* إلى إدانة **شيطان النظرية**

10. كان فورتول (1811-1856) وزيرا للتوجهات العمومية و الأديان في فرنسا و قد قام بعدة اصلاحات على مستوى التعليم الجامعي (المترجم).

11. أنظر غوسدورف (Gusdorf)، 1966، I، ص 32.

12. نظرة إجمالية للجرد التاريخي حول تطور الفكر الإنساني، الحقبة التاسعة. أنظر Œuvres، éd. Garat et Gabanis، 1801، p. 300.

13. جون ايتيي: جامعي فرنسي (المترجم).

14. يعتبر ليو سبيتزر من أكبر منظري الأسلوبية و من أهم أعماله Gallimard، 1970، *Etudes de style* (المترجم).

15. للمزيد من المعلومات حول المنهج النقدي لكومبانيو ، أنظر أعماله و من أبرزها :
La seconde main ou le travail de la citation, seuil, 1979.
La troisième république des Lettres de Flaubert à Proust, seuil, 1983
Les cinq paradoxes de la modernité, seuil, 1990
Le démon de la théorie, seuil, 1998 (المترجم).

16. أنظر: *Dictionnaire des genres et notions littéraires*, Paris Albin Michel, 1997, p : 417, S.V. critique.

(Le démon de la théorie) **ومدح الحس المشترك** (أنظر كومبانيون Compagnon،1998).

لقد ارتكزت الأحكام الأكاديمية المسْبقة التي تحولت إلى حس مشترك على الامتثالية التي تعد ضرورية في المباريات. في الوقت نفسه، تم خلق امتحان التبريز (أوالاكريكاسيون) في عهد لويس الخامس عشر من أجل ملء فراغ ترحيل اليسوعيين. ومنذ تلك الفترة، ظهرت عدة اختصاصات غير محظوظة لأنها ظلت «بدون مباريات»، من بينها اللسانيات والانثروبولوجيا وعلم النفس أو علم الاجتماع: إذ يلاحظ أن وضع هذه الاختصاصات في حقل الدراسات الأدبية ظل بالطبع شديد التكتم.

وظل النقد الجامعي - في تياره الغالب - يتميز بفقر مريح و فاضل، إذ أهمل بعده النقدي إزاء موضوعه و إزاء نفسه، بل فقد موضوعه و لغته لأنه لم يستطع تحديد المسافة التي تفصلهما. وأصبح بشكل تلقائي خطابا أدبيا، اندماجيا نوعا ما، حول الأدب الذي بلغ أوجه في رامبو الابن *(Rimbaud, le fils)* لبيير ميشو Pierre Michon [17] والشخصية الرئيسية لهذا الكتاب المهم تسمى أرتور (Arthur). و أصبح النقد الجامعي في خطابه العادي يعانق المثاليات الرومانسية المملة والتي عوضت النصوص، «كالخاصية الأدبية للنصوص» (Littérarité)[18] و«الأسلوب» و«القارئ» و«المؤلِّف» و«لا-وعي النص»، و«التناص» و«الجسد»، و يبدو أن كل هذه المفاهيم تعد قلبا بسيطا للفكر (Esprit)[19] .

ومقابل مبدأ اللذة النقدية، أقترحُ تلقائيا مبدأ الواقعية الفيلولوجية وسأضربُ لذلك مثالا: أطلعتُ على طبعتين لهيروديا س *(Hérodias)* [20] وحصرتُ اثني عشر فرقا في الجمل الست الأولى إن على مستوى علامات الترقيم أو على مستوى المعجم. إننا متخمون بالأساطير، وعلى سبيل المثال، ففلوبير لم يقل ولم يكتب العبارة التالية: «مدام بوفاري هي أنا».

فمن حسن الحظ ، و بخصوص اللغة، كان المبدعون -ولماذا لا ننصت إليهم؟-

---

17. بيير ميشو روائي فرنسي و تعتبر روايته رامبو الابن(*Rimbaud le fils*) التي صدرت سنة 1993 من الأعمال الأدبية التي حظيت باهتمام النقاد في فرنسا (المترجم).

18. ليس علم الموسيقى -مثلا- سوى علم يبحث في موسيقى الأشياء، ومن تم هل من المعقول التصريح بأنها ليست مؤلفة من أصوات؟

19. يكتب الكاتب المصطلحات(..... Auteur, Lecteur, Style)التي تشير إلى هذه المثاليات بتكبير الحرف الأول للكلمة (*majuscule*) وارتأينا كتابتها بين مزدوجتين (المترجم).

20. *Herodias* : قصة قصيرة لفلوبير، منشورة ضمن المجموعة القصصية المعنونة *Trois contes* (المترجم).

أقل صرامة من النقاد. لقد وجه مالارميه القول التالي إلى ديكا[21] Degas: «لا تكتب القصائد الشعرية بالأفكار ولكن بالكلمات»، ويمكننا أن نضيف: «لا يُعتبر الأدب شيئا آخر سوى توسيع وتطبيق لبعض خصائص اللغة» (Borges, OC,I. p. 1154).

وبدون إصدار أحكام جمالية، نستنتج أن لعلوم اللغة دور في هذه المعارف. لنأخذ مثال المتقابلات الهومبولدية: الشكل الداخلي والشكل الخارجي، التي طرح على أساسها داماسو ألونسو Dàmaso Alonso تمييزا بين ما هو شعري و ما هو نظمي. و وظف النقد الفرنسي الراغب في هذه المتقابلات ليقدم تقابلا بين المعنى (Sens) والتدليل (Signifiance) (يعتبر هذا الأخير مصطلحا غريبا)، ويرفض كل وصف دلالي. وبحسب النقد الفرنسي، تبدو الأشكال الأدبية شاهدة على هذا التدليل الذي تسرب إليها في وقت سابق وبواسطتها أمكن التعبير عن الحواس والأفكار واللاوعي، أضف إلى هذا أن قراءة هذه المضامين تستدعي إقحام النظرية الانفعالية للإبداع والتطابق مع الهيرمينوطيقا المابعد-رومانسية. ويبلغ المؤلَّف الأدبي أوجه في الإنسان [أي مؤلفه، بكسر اللام] و اللغة في أسلوبها و الشكل الخارجي في الشكل الداخلي.

فكيف ستكون-إذن-الأمور لو لم يكن الشكل الداخلي سوى الجزء غير الموصوف للشكل الخارجي ؟ لقد أدى التقليد النحوي- المنطقي في علوم اللغة إلى إهمال الأشكال التنظيمية للنص، مثل الاختلافات الكيفية والنبرات الصوتية والدلالية... إلخ، إلا أنه حين تُطالب هذه العلوم بموقع لها داخل سيميائيات الثقافات، يتوجب عليها ، بالنظر إلى مستواها التحليلي، وصف مزاياها التي بقيت غامضة. فحين غاب الإله الخالق، كما يقال، أوشك الفنانون (وهم الحرفيون الشرفاء) أن يحلوا محله و أصبحوا كائنات مقدسة تتكاثر، وبعد إخراج الكتابات المقدسة (Ecritures) من الطابوهات الدينية و بعد تموضعها الفيلولوجي، تم تعويض ذلك بتقديس الأدب. وأصبح كل شيء إذن من شأنه أن يُموضع الأدب أو يكون متنا صالحا للدراسات النقدية وخاضعا للنقاش والظرفية تدنيسا زاحفا. طالما وقفنا عند حدود التعليق الشديد الحماس، فكل الأمور تبدو على ما يرام؛ لكن عندما نريد تفحص الحرف، أو الخروج عن القداس الأكاديمي، أو التركيز على اللوحات والأشكال والأرقام، يصبح كل ما يقدم عبارة عن رطانة، مع

21 . ديكا (1834-1917): رسام ونحات انطباعي، تميزت أعماله بنوع من التركيب بين الأشكال و الحركات و الفضاءات (المترجم).

التذكير أن مجلات الدراسات الأدبية لم تعد تنشر ما هو خارج-النص (hors- textes)، اللهم بعض الصور مثل الصورة الشمسية لمنزل مدام بوفاري أو النقوش المحببة لديها.

إنه من البديهي أن تكون الدراسات اللغوية والدراسات الأدبية متكاملة، لقد قام دوني لوطراس Denys Le Thrace [22] ، وهو فيلولوجي وربما كان تلميذا لاريستارك Aristarque [23] الذي قنن تقاليدنا النحوية، برفع مكانة النحو وجعله مادة تدخل ضمن نقد الأشعار وهو «أجمل ركن» *(Technè grammatikè, I,I)*.

وفي عصر النهضة، أصبحت الإنسانيات مقرونة بعلوم اللغة، وهل من الضروري أن نذكر بالنص الشهير الذي دعا فيه بوليسيان Politien إلى إعطاء النحو الحق في تأويل بل و تقييم الأعمال الفنية ؟[24]. وأخيرا، نشأ مشروع التاريخ المقارن للآداب في ألمانيا الرومانسية في الوقت نفسه الذي نشأت فيه اللسانيات التاريخية والمقارنة: و يمثل فريدريش شليغل Friedrich Schlegel وفيلهم هومبولت Wilhelm Humboldt هذا المجال، و من الواضح أنه لا يمكننا وضع تاريخ للغات دون التطرق إلى تاريخ النصوص التي تجسد اللغات وتؤسسها وتخلقها.

تكامل الحقول المعرفية

كل شيء يوحي بأن هناك فرقا بين الاختصاصات المتعلقة بالنص، والملاحظ أن هذه المعارف لم تظهر في الحقبة نفسها، إذ إن بعضها يبدو عريقا والبعض الآخر حديث النشأة (مائة سنة). تجاورت البلاغة والنحو الألف سنة و نصف ضمن الحقل المعرفي الذي يسمى الثلاثي (Trivium)[25] . أما الأسلوبية واللسانيات، فيرجع تاريخ ظهورهما إلى القرنين الماضيين، في حين لا يتجاوز عمر الموضوعاتية بضع عشريات.

والملاحظ أن الاختصاصات المتصلة بالنص متجاورة في نفسه الحقل الامبريقي،

---

22. د وني لوطراس نحوي وهو تلميذ لاريستارك ، درس الآداب في روما إبان الازدهار الذي عرفته بومبي (Pompée) و كتابه منشور بالأرمينية و الإغريقية و الفرنسية و عنوانه *Grammaire de Deny Le Thrace*. (المترجم) .

23. أريستارك نحوي و ناقد من مدرسة الإسكندرية (143ق. م) (المترجم).

24. أنظر *Lamia*, 1492 ; texte latin, in 1971, I, p.460 , trad.*infra.*,chap.I, p.34, n.I .

25.هذا الثلاثي، وهو التقسيم الأدنى لسبعة فنون تحررية، متكون من النحو والمنطق والبلاغة. وقد عمل الارتباط الألفي بين النحو والمنطق في إطار هذا الثلاثي على توحيد هذه المعارف الأساسية والتي تكون مترادفة في مقدمات الدرس المدرسي. أما البلاغة و الهرمينوطيقا اللتان تمت دراستهما لاحقا ، فقد ظلتا حكرا على الدكاترة.

لكنها تختلف إن على مستوى الوضع الابستيمولوجي - والأكاديمي أو الأهداف والمناهج وإجراءات التصديق. وأخيرا، فهي تختلف على مستوى تصور النص الذي تدرسه وتتحدث عنه.

فلا يوجد مجال معرفي يمكن أن يدعي الهيمنة، واللسانيات ليست أكثر حظا من الحقول المعرفية الأخرى. وبالمناسبة، نقدم هذا الاستنتاج الذي توصل إليه ريكور Ricoeur: «تظل البلاغة فن الحجاج من أجل إقناع المستمع بأن رأيا ما أفضل من الرأي المنافس. الشعرية هي فن بناء الحبكات [أو الروايات] وغرضها توسيع المتخيل الفردي والجماعي. أما الهيرمينوطيقا، فهي فن تأويل النصوص في سياق مغاير لسياق مؤلفي النصوص وكذلك متلقيها الأوائل، وذلك بهدف اكتشاف أبعاد جديدة للواقع. البرهنة والتشكيل وإعادة الوصف، تلك هي العمليات الثلاث الكبرى التي تضطلع بغرض شمولي يجعل كل حقل معرفي يستغني عن الآخر، ولكن محدودية موقعها الأصلي تؤدي حتما إلى التكاملية» (1986 ص155).

وإذا كانت بعض الحقول المعرفية مثل الأسلوبية، وهي ميدان نافع للإلتقاء الأكاديمي، تسعى إلى الانتقائية عبر هذه التكاملية، فهل سيؤدي هذا إلى رد الاعتبار إلى تخصصات كل حقل معرفي ؟ نحن لا ندعي إعادة تأسيسها، ولكن أليس من الضروري إعادة تنظيم أجزائها، أو على الأقل، تحديد موقع مشترك بينها، وتدبير التمازج فيما بينها، واقتراح طريقة تُمكن كل حقل معرفي من التعلم من الآخر؟

من أجل التواصل مع الحقول الأخرى، خصوصا الحقول الأدبية، على اللسانيات أن لا تكتفي بدراسة- أو بسن- قواعد اللغة، وأن تطرح بالمقابل مشكل الوصف الإديوغرافي: إن وصف الفروقات بين نصين أو حتى بين مقطعين من النص نفسه، انطلاقا من المستوى التحليلي المتبع، ليس عملا منحطا. لقد كانت اللسانيات مرتبطة بالمنطق (على مستوى المضمون) وبالنحو (على مستوى التعبير)، وبإمكانها أن توجه اهتمامها نحو الاختصاصات التي يظهر أنها بعيدة عنها مثل البلاغة والهيرمينوطيقا.

الإشكاليتان

منذ الوسم الأفلاطوني للسفسطائيين، وعندما وضع أرسطو الملفوظات التقريرية (المنتمية إلى المنطق الثنائي (نعم/ لا)) في خانة الديالكتيك التي أصبحت فيما بعد علم المنطق، وكذلك عندما أدخل الملفوظات الأخرى في نطاق البلاغة، ظهرت إشكاليتان

تتقاسمان تاريخ الأفكار. هاتان الإشكاليتان تحددان مفهومين للغة: الأول يعتبرها وسيلة للتمثيل (Représentation) والثاني وسيلة للتواصل؛ وباختصار، يمكن القول إن الإشكالية الأولى تحدد المعنى انطلاقا من العلاقة بين المتكلم والموجود (الشيء) والثانية استنادا إلى العلاقة التي تربط المتكلمين. و بالنظر إلى مجمل التقاليد المنطقية والنحوية، تقترن الإشكالية الأولى بالعلامة (signe) و بالقضية (proposition)، وتطرح بالتالي مشاكل المرجع والحقيقة، ولو في إطار التخيل. كان محور الإشكالية الأولى، التي أخضعت ظواهر الكلام إلى قوانين التفكير العقلاني، هو المعرفة (cognition) التي تُعتبر النظرية المعرفية (cognitivisme) ذروتها المعاصرة.

أما الإشكالية الأخرى، وهي الأقل توحدا، والنابعة من التقليد البلاغي والهيرمينوطيقي، فتتخذ النصوص والخطابات موضوعا لها لتدرسها من ناحية الإنتاج والتأويل، ويمكن القول إن محورها هو التواصل.[26] وتطرح هذه الإشكالية عدة مشاكل تتعلق بشروطها التاريخية وبتفاعلاتها الفردية والاجتماعية، خصوصا على المستوى الفني.

الإشكاليتان إذن متناقضتان مثل تناقض النظري و التطبيقي أو علوم اللغة وفنون اللغة، أو بصورة قاتمة، مثل تناقض العقل والخيال أو الفضيلة واللذة. باختصار، نسمي الأولى إشكالية العلامة والثانية إشكالية النص، استنادا إلى تمييز مفهومي يعود على الأقل إلى ديمارسي Dumarsais. سنعتبر الدلالة اللفظية (signification) سمة تخص العلامة، و المعنى (sens) «خاصية» تتصف بها النصوص وإذا عمقنا التمييز بين هذين المفهومين، نلاحظ أن العلامة لا معنى لها على الأقل حين تكون منفردة، وأن النص لا يطرح دلالة لفظية.[27] ويمكن اللجوء إلى مفهوم السياق وهو مفهوم انتقالي يمكننا من مقابلة هذين المصطلحين، لأن الدلالة اللفظية تنتج عن عملية تسمى نزع السياق (décontextualisation)، وهو ما نلاحظه في الدلالة المعجمية وعلم المصطلح وهذا ما يظهر رهانها الأنطولوجي، إذ أننا نعرف تقليديا «الموجود» بتطابقه الدائم مع ذاته. بالمقابل، يفترض المعنى إدخالا تاما في «الكلام»- السياق هو المحدد الأكبر للنص- وأيضا في السياق التاريخي الذي يتمثل في التاريخ والثقافة، بعيدا عن المسائل الآنية

26. نظرا لضآلة نظريات التواصل، نفضل مصطلح إرسال (transmission) (أنظر الكاتب، b1995) ونعني به الإرسال الثقافي أو التراث السيميائي.

27 . سنفصل هذه المواضيع في الفصل الثاني.

التي تشكل الموضوع الوحيد للتداوليات. ويستنتج مما سبق أنه إذا كانت الدلالة اللفظية تقدّم تقليديا على أنها علاقة، فإن المعنى يمكن اعتباره مسارا.

وتفضل الدلالة التأويلية[28] دراسة المعاني لأن موضوعها الأساس هو النص وليست العلامة، و تعرف المعنى على أنه نتيجة لعملية التأويل. فهي ترتكز على المعارف المتصلة بالنص وعلى النقد الأدبي وحتى القانون، ويمكن أن تستند إلى نوعين من النظريات: الهيرمينوطيقا الفلسفية والهيرمينوطيقا الفيلولوجية. وبسعيها وراء وصف التنوعات الكبيرة، تعتبر الدلالة التأويلية -طبيعيا- الأقرب إلى النوع الثاني من الهيرمينوطيقا، لأنه إذا كانت الأولى تبحث في الشروط القبلية لكل تأويل، فإن الثانية، على العكس من ذلك، تبحث في تحديد إسقاطات التجليات الاجتماعية، وتخلص بالتالي إلى تنميط النصوص.

وإذا كانت دراسة العلامات و دراسة النصوص متكاملتين، فإن الإشكاليات المنطقية- النحوية والبلاغية/ الهيرمينوطيقية تختلفان بشكل أوسع. فالأولى لها سلطة عالية ووحدة قوية، لأنه إلى وقت قريب، تطور النحو والمنطق معا ودرسا المقولات نفسها، مثل مفهوم المقولة والإسناد والوحدات المقولية (catégorèmes)، والوحدات النحوية-المقولية (syncatégorèmes)... إلخ. أما الثانية، فليست لها وحدة ، وكل شيء يوحي بفصل البلاغة عن الهيرمينوطيقا : فصل الشفوي عن الكتابي، والتلفظ (énonciation) عن التأويل، والإصلاح الديني عن الإصلاح-المضاد، والإقناع عن العفو المسيحي، واللاتينية عن الجرمانية... الخ. بالنسبة لنا، فالأساس هو الإقرار بأن البلاغة والهيرمينوطيقا صناعتان، ولا تعتبران حقولا تنظيرية مثل المنطق والنحو الكلي. وفي هذا الإطار، تنفصل إشكالية البلاغة / الهيرمينوطيقا عن الفرضيات الأنطولوجية التي تؤسس الإشكالية المنطقية-النحوية لأنها تسلم بوجود خاصية قطعية للسياقات والحالات وتصل في نهاية المطاف إلى نوع من «الديونطولوجيا» (dé-ontologie) أي نفي الأنطولوجيا. لا يمكن فهم الفنون، التي تعد حقولا تطبيقية، أو على الأقل أمبريقية، إلا في إطار البراكسيولوجيا (Praxéologie)، وتحتاج إلى إطار أخلاقي ينظمها.

دلالة النصوص

في بحثها عن منهج علمي شبه نيوطوني، سعت اللسانيات من تشومسكي إلى ميلنير إلى الابتعاد ليس فقط عن الإنسانيات ولكن عن العلوم الاجتماعية، معرضة

28. أنظر راستيي 1987.

نفسها للسخرية، حين تخلت عن التوجه النقدي الذي كان بالإمكان أن ترثه عن الفيلولوجيا.

ما دامت اللسانيات تُسقط على النصوص تصورها المنطقي-النحوي فإن توقعاتها تظل ضئيلة، و هذا ما تؤكده أنحاء النص (grammaires de texte) التي استنفدت طاقتها في البحث عن «قواعد» نصية وهمية، و على كل حال، فـ«تنصيص» اللسانيات أفضل من الحقول المعرفية الأخرى المتصلة بالنص، الشيء الذي يؤدي إلى الالتزام بعمليتين متوازيتين وهما وصف التعقيد و التفكير الابستيمولوجي حول علوم الثقافة.

إن مصطلح اللسانيات النصية ليس له من وظيفة بيداغوجية سوى التذكير بأن النص هو البعد الأساسي للغات. ولهذا، فنحن في حاجة إلى اللسانيات فقط عوض لسانيات النص، ذلك العلم الذي يعطي الحق لدراسة كل درجات التعقيدات الموجودة في موضوعها، دراسة تبحث في الكلمة لتنتقل إلى الجملة و إلى النص، ثم تبحث في قضايا الجنس الأدبي، والخطاب، والمتن.

المكان الهامشي الذي تُرك مؤخرا للدلالة لا يزال موضع تنازع. فعلا، تعمل الدلالة التي تزيغ عن الإطار الصرفي-التركيبي على الربط بين درجات الكلمة والجملة، ثم بين درجات الجملة والنص الذي، كما نعلم، ليس له تعريف صرفي-تركيبي. ولكونها جزءا صغيرا من اللسانيات، سعت دلالة النصوص إلى الالتقاء بالحقول المعرفية الآتية : الأسلوبية والبلاغة والموضوعاتية والسردية والهيرمينوطيقا. إن دلالة النصوص لا تدعي تأسيس تركيب بين الحقول السالفة الذكر أو الأجسام النظرية المتباينة، ولكنها تحاول أن تصوغ بلغة مشتركة بعضا من مكتسباباتها. ولابد لها- أيضا- من إيجاد جسور مع معارف أخرى، تشريعية ودينية وأدبية بالخصوص، مع احتمال توطيد علاقات مطردة مع حقول معرفية توصف بأن علميتها قليلة. ونعتقد أن هذا الاتجاه أفضل من الاتجاه الذي يهدف إلى ربط علاقات غامضة بين الدلالة و بعض العلوم الصلبة.

إذا كانت علوم الثقافة غير دقيقة، فإنه بإمكانها، مع ذلك، إدعاء الصرامة العلمية. و بالتالي توجد الدلالة أمام البديل الذي طرحه فيزيتي Visetti بقوله : «إما أن تكون الدلالة علما وصفيا (علم التباينات الكيفية، التي من المفروض أن لا ينكرها هوسيرل Husserl ، أو تكون فنا منهجيا، أي علما صارما يندرج في إطار أشكال العلم، لكن

بشرط أن تقرأ هذه الأشكال بطريقة أخرى للمتعلمين. و في الأخير، يمكن القول، بخصوص التوافق، إن الدلالة تبحث في ظواهر متعددة تعمل في الواقع على تحديدها، ليس من أجل تدقيق الموضوعات (objets) ولكن بهدف تحديد نمط الولوج أو العبور» (أنظر المؤلف، 1999، ص 115).

حول الجماليات

علينا أن لا نبدد -كليا- الغموض المحمود الذي يلف كلمة فن (art)، التي تظهر في عنوان هذا الكتاب، والتي تدل على الفنون والحِرف كما تدل أيضا على الرهانات الجمالية للآداب؛ في الواقع، غالبا ما يكون المستوى الجمالي الجانبَ الذي تتنافس فيه الحقول المعرفية المهتمة بالنص، وهو الجانب الذي يُظهر نواقصها.

فحتى الحقول المعرفية غير الأدبية تعترضها قضية فنون اللغة. من جهة، يلاحظ أن اللغات تختزل في «موادها» نجاحات جمالية. ويعرف اللسانيون التطبيقيون أن المخبرين يستعملون دوما مقولات تقديرية للبرهنة على صحة تعبير ما أو صياغة ما؛ أليس الحس اللساني مجموعة من الأحكام الذوقية؟ فإذا أخذنا كلمتين سليمتين، فغالبا ما تُفرض علينا الكلمة «الأحسن تعبيرا»، فللسانيات الدياكرونية (التاريخية) اطراداتها، لكنها غير مستقلة عن التقييم الجماعي (أنظر المؤلف، 1996b). من جهة أخرى، نلاحظ أن اللغات مبنية ومشكلة بواسطة مقولات تقديرية. فعلى سبيل المثال، لا يمكن لأي قياس أن يفرق بين البارد والجليدي، والساخن والمحرق، اللهم الحدود التقييمية التي تنظم أصغر المجموعات المعجمية، مما يتيح لنا الحديث عن جمالية أساسية تكون فوق فنون اللغة ولكن تظل بالنسبة لها أساس هذا الفن.

باختصار، لقد أحسن گي جوكوا Guy Jucquois التعبير حين قال : «التفرقة بين اللسانيات والأدب اصطناعية : لا يمكن العمل بها، على أعلى تقدير، إلا في المستوى الذي تنتهي فيه الجملة ويبدأ النص، وليس لهذه التفرقة هدف سوى إبعاد هؤلاء الذين تصفهم بالمؤولين من السلطة الهيرمينوطيقية » (1986، ص 199). إن «المناهج اللسانية» المزعومة لن تجعل حدا لأزمة الدراسات الأدبية، التي ستتطور إذا ما أولت اهتماما نوعيا بالأشكال اللغوية. وتتمة لما سبق، يجب على اللسانيات أن تعيد التفكير في تقنيات اللغة وفي الأدب؛ لأنه يتعين على دارسي اللسانيات تكوينا أدبيا كما يتعين على دارسي «الأدب» تكوينا لسانيا. و ستكون الآداب في وضع مريح إذا ما سعت إلى

تداخل الحقول المعرفية الداخلية التي تمكنها من مواجهة التداخل المعرفي الخارجي.

وبالمناسبة، فقد استلهم مؤسسو اللسانيات الحديثة أفكارهم من دراسة الأدب والأسطورة، حيث كان هومبولت يعير اهتماما كبيرا لدراسة اللغة انطلاقا من متون أدبية، وهو ما توضحه دراسته لـ *Bhagavad -Gita* و *Tchoung young* وحتى لروايات نشكونية تتعلق بجزر الطونكا (Tonga). وقدم بريال Bréal، مؤسس الدلالة الحديثة، بحثه لنيل الدكتوراه حول أسطورة هرقل وكاكوس. أما سوسير فقد قام بثورته الابستيمولوجية ابتداء من سنة 1903، كما يشهد على ذلك كتابه «دروس في اللسانيات العامة»، معتمدا في ذلك على أعماله حول «البيت الزُّحلي» و«الأساطير الجرمانية»[29].

ولهذا، فالدراسات الأدبية واللغوية متكاملتان حقيقة، لأن «اللغة تتكون بواسطة متكلميها في إطار الأدب الذي يلعب دوراً فعالا ومحرِّكا في تميزها، والذي يعتبر مكونا مندمجا في دراسة اللغات». (توار Thouard،2000، ص 170).

التأويل الموحِّد

إذا لم نستطع توحيد الحقول المعرفية المهتمة بالنص، فإنه بإمكاننا طرح القضية المشتركة بينها، وهي قضية التأويل. ولكن يبدو أنه يعترضها منع، فقد حاول ديكمب Descombes جر الهيرمينوطيقا إلى المعبد، متناسيا الهيرمينوطيقات التشريعية والأدبية، في محاولة منه لإعادة تأسيس الأسلوبية بالاستناد إلى النحو، ويعترف أدم Adam بأهمية أعمال سبتزر«رغم مُفْترضاته الهيرمينوطيقية» (1999، ص 11)؛ أما دي بيازي De Biasi، فلا يتردد في وصف الهيرمينوطيقا بالتطرف، وذلك من وجهة نظر «إعلامية، ولائكية وضد-أصولية»[30].

ولهذا فلا يسمح بالموضوعات (التيمات) الهيرمينوطيقية إلا في الأشكال التنكرية الملائمة، فقد رجع باختين Bakhtine بلطف إلى الهيرمينوطيقا الألمانية المتأخرة، وهو يعرفها حق المعرفة ولكنه لا يستطيع طبعا أن يحيل عليها، زد على ذلك أن اتجاهه الماركسي سمح له اعتماد المواضيع الرومانسية حول التناص، والحوارية... الخ[31].

29 .كتابه الأول يحمل العنوان التالي: *Mélanges de linguistique et de mythologie* (1877).

30. كانت الهيرمينوطيقا دوما تغازل المثالية واللازمنية، إنها تكره العلم، لأن نموذجها الضمني هو الكتاب والنص المقدس الذي يتم شرحه بواسطة المعاجم والتعليقات. بالنسبة للهيرمينوطيقا، فالنص هو الإله الوَحيد والناقد هو رسوله. وفي خضم هذه الشروط، من الصعب النجاة من التطرف (لوموند، 14 فبراير 1997، ص 12).

31 . نظرية باختين مشتقة من جدلية شليرماخر.

وبالمقابل، تظل التفرقة بين الدلالة والتأويل عند اللسانيين عبارة عن فرضية ليس إلا. وقد كان تعبير جورج كليبير Georges Kleiber واضحا حين قال: «لبناء المعنى، يجب أن نعيد لسيزار دلالته، وللإله تأويله»[32]. و يقصد بذلك أن أجزاء من المعنى مستقلة عن التأويل، وهو بدون شك، ما سمي قديما بالمعنى الحرفي (sens littéral) الذي تم تجديده من طرف الوضعية التي ينتسب إليها كليبير.

لكن مسالة التأويل يعاد طرحها دائما، في كل مناسبة وبإلحاح، و السؤال المطروح هو: كيف السبيل إلى التعرف على المعنى الحرفي؟ والموضوع؟ والمعاني المشتركة(topiques) والطوبوس (topos)[33] ؟والوحدات الأسلوبية (stylèmes)؟ إن قضية التأويل ستكون الخيط الرابط بالنسبة لنا. وسنوحد مبدأ اللذة والواقع داخل ابستيمولوجية التعقيد، أي أن المعنى موضوع بحث لا ينجح فيه إلا المشككون.

أما داخل علوم اللغة، فلم يطرح مشكل التأويل إلا في نطاق ضيق، وكان الغرض منه البحث في الكلمة عوض البحث في النص. ولهذا اقترحت الدلالة التأويلية توسيع موضوع وأهداف اللسانيات، ورسم الحدود التي تفصلها عن الهيرمينوطيقا الفلسفية والفيلولوجيا، وتحديد الخصوصيات التي تميزها عن الحقول المتصلة بالنص، مثل الشعرية والبلاغة والأسلوبية.

وللتذكير، فاللسانيات تشترك مع علوم الثقافة في الوضع الابستيمولوجي، مما يؤدي إلى جعل الوصف أيضا تأويلا و المطالبة بأن ترتكز المنهجية على الأخلاقيات.

إن الحقول المعرفية التي سنذكرها لاحقا تجتمع في رباعيتين متواضعتين: الرباعية الأولى متكونة من اللسانيات والسيميائيات والفيلولوجيا والهيرمينوطيقا، وتبحث في جميع النصوص؛ الرباعية الثانية مكونة من البلاغة و الاسلوبية والموضوعاتية والشعرية و تبحث إلى يومنا هذا في النصوص الأدبية. عملا بمبدأ الإنهاء الأصلي المعترف به من طرف ريكور Ricoeur، لم نقم بوضع سلمية لهذه الحقول المعرفية ولا إلى إقامة تجانس اصطناعي بينها.

32 . أنظر. *Lettre du département* SHS، 54، CNRS، mai 1999، p.26.

33 . الطوبوس : وهو نوعان أ- الطوبوس الداخلي : تسلسل اطرادي للجزيئات الدلالية (جزيئتين على الأقل) أو للتيمات. هذا التسلسل يكون الرابط الزمني النمطي بالنسبة للتيمات المتكررة (topoï) الجدلية (السردية) و الرابط الجهي (modal) بالنسبة للتيمات الحوارية (التلفظية). إذا كانت التيمة تظهر مرة واحدة على الأقل في نفس النص، فإن الطوبوس يظهر علي الأقل مرة واحدة في مؤلفين مختلفين. ب- الطوبوس الخارجي: أكسيوم نمطي يتضمن تجليا دلاليا (afférence) له بعد اجتماعي. أنظر قائمة المصطلحات في نفس الكتاب(*Arts et sciences du texte*) ص303 (المترجم).

وداخل الرباعية الأولى، تتنافس اللسانيات والسيميائيات حول معالجة النص، وسنحاول أن نبين كيف أن الفيلولوجيا والهيرمينوطيقا متكاملتان. وفي الرباعية الثانية، تعنى المعارف السالفة الذكر أولا بالخطابات والنصوص الفريدة (textes singuliers)، وهي أغراض تهم البلاغة والأسلوبية، و تُعنَى هذه الرباعية أيضا بالاختصاصات التي تعالج المعايير، والموضوع المشترك (La topique)، وشعرية الأجناس.

الفصل الأول

اللِّسانيَات ودلالَة النُّصُوص

منذ ثلاثين عاما، ظهرت أصناف من اللسانيات النصية، خصوصا في أوربا. ولدينا العديد من الدراسات العامة التي لن نأتي على التذكير بها (أنظر انطولوجيا فان ديك 1985Van Dijk؛ جانديللو Jeandillou 1997) . دون الخوض في الافتراض الذي يعتبر أن اللسانيات النصية حقل معرفي مستقل بذاته، سنحاول مساءلة كفاءتها في وصف النصوص. وغالبا ما يقتصر هذا التخصص على الجملة، لأنه ينحدر من الموروث النحوي القديم. لقد عمدت اللسانيات التاريخية والمقارنة إلى تأسيس مقارناتها في ضوء التحليل الصرفي-التركيبي وساهمت الأنحاء الصورية المعاصرة في تعميق هذا التقليص. و تظل اللسانيات النصية مجالا معياريا يسعى، في الواقع، إلى وضع أو تثبيت معايير النحوية وحتى الخاصية الدلالية (sémanticité)، وذلك بواسطة الأمثلة والأمثلة المضادة. أما بخصوص الاتجاه المعاكس، فإن الجانب الوصفي مسيطر بينما تتسم المعطيات بوضعها الخاص، وذلك لأن المؤيدين لاتجاه اللسانيات النصية يرفضون أن يُفرض على هذه المعطيات نظام يمكن أن يتخذ شكل قواعد مطلقة. وبطبيعة الحال، فإن هذه القواعد غير قابلة للتوظيف في درجة النص.

وعلى الرغم من سلطوية التقاليد النحوية، فإن كل المعطيات تؤهل النص لكي يكون موضوعا للسانيات، التي ترصد ظواهر تنبثق من مستوى مغاير لما عهدته، وهي ظواهر كبيرة الحجم إن صح التعبير. ومع كل هذا، فإن اللسانيات لا تغادر مستوى الجملة، ولكن يمكنها أن تعود إليها بنهج طريقة جديدة، عملا بالفكرة القائلة إن الشمولي هو الذي يحدد المحلي. وإذا تعذر تقليص النص إلى متواليات من الجمل، فإن كل جملة تتلقى، بطبيعة الحال، من النص الذي توجد فيه تحديدات لا يمكن نسيانها،

ولو على مستوى تركيبها و مورفولوجيتها[34] أو حتى على المستوى الأصواتي.

ما هو النص[35]؟

لنأخذ مؤقتا كلمة نص في إطار معناها الموسع والتي تُعرف بأنها درجة[36] (palier) من الوصف اللساني. ولكن يجب تحديد مفهوم النص وتطويره. نلاحظ في البداية أن بعض التقاليد الفيلولوجية والهيرمينوطيقية قد ورَّثت تصورا تقديسيا للنص، أي أن النص بالنسبة لهذه الحقول المعرفية هو أولا وقبل كل شيء المادة المكتوبة؛ وهو الحرف المثبت، ويُعد مرجعا للفيلولوجيا وله سلطة في إطار الهيرمنيوطيقا التشريعية، كما أنه يتمتع بسلطة عقائدية بالنظر إلى الهيرمينوطيقا الدينية. وباختصار، فإن للنص وظيفة مؤسسية في المجتمعات التي تعتمد على القانون المكتوب وفي الديانات التي ترتكز على الكتب المقدسة.

ومن جهة أخرى، يجب وضع تعريف لمصطلح النصية (textualité) والحرص على تدقيقه. وينبغي الانتقال من النص كدرجة نظرية من التعقيد- مثل ما يوجد في «أنحاء النص»- إلى النصوص المُعرفة بأنها وحدات أمبريقية.

الأقطاب الخارجية للنص

ترتبط الدلالة[37] بالدلالة المعجمية التي تقترن بالعلامة (signe) المعزولة عن السياق والتي غالبا ما تحيل على تمثيل ذهني أو على مرجع، أكثر مما تحيل على العلامات الأخرى. وهذا يعني أن العلامة لم تخرج بعد من وحدتها الخانقة.

سنُقدر الصعوبات والمشاكل التي تثيرها المقاربة التقليدية للدلالةاللفظية[38] (signification) مع الاهتمام في الوقت نفسه بمعالجة تأثير منهج العلامة عند بوهلر

34. بخصوص التنويعات الصرفية-التركيبية المتعلقة بالنصوص، أنظر Malrieu et Rastier, 2001.

35. كلمة (texte) من أصل لاتيني (textus) و تعني النسيج أي نسيج من العلاقات اللغوية المركبة التي تتجاوز حدود الجملة. أما في الثقافة العربية، فيلاحظ نصر حامد أبو زيد، أن الدلالات الواردة في لسان العرب لابن منظور (النص و التنصيص السير الشديد) لا تشير إلى معنى النسيج و التعالقات. فمن الأفضل إيجاد مصطلح عربي آخر للإشارة إلى هذا المعنى. وللمزيد من التفاصيل، أنظر «نظرية الأدب»، رولان بارط، ترجمة و تعليق محمد خير البقاعي، مجلة **العرب و الفكر العالمي**، العدد الثالث، 1988، ص .89 و مقال لعبد القادر بودومة، «النص و آليات القراءة: محمد أركون - نصر حامد أبو زيد»، **فكر و نقد**، السنة الخامسة، العدد 45، يناير 2002، ص 107 (المترجم).

36. درجة (palier) : درجة من التعقيد و الدرجات الأساسية هي المورفيم و المركب و الحقبة والنص، أنظر *Arts et sciences du texte* (AST اختصارا) ، ص 130 (المترجم).

37 . نختار ترجمة sémantique بمصطلح «دلالة» وليس بـ «علم المعاني» عملا بمبدأ الاقتصاد اللغوي، لأن المصطلح الأخير مكون من كلمتين بينما الأول من كلمة واحدة (المترجم).

38 يعرف الكاتب الدلالة اللفظية كالتالي: مدلول وحدة لغوية يتم تحديدها خارج السياق و الحالات. و كل دلالة لفظية تعتبر أداة مصطنعة، أنظر AST، ص 302 (المترجم).

bühler في التصور الوظيفي للنص. ويفترض بوهلر، بناء على مقولة كراتيل Cratyle، أن اللغة عبارة عن أداة[organon حسب منطق أرسطو]، ولكنه ينتقد موقف أفلاطون المتمسك بالعلاقة التي تجمع بين الأصوات والأشياء. وفي مقابل المنهج الكلاسيكي للتمثيل الذي ينطلق من الكلمة ويتجه نحو الأشياء عن طريق المفهوم، يضيف بوهلر قطبين جديدين هما المُرسل (بكسر السين) والمُتلقي، ويحدد بذلك ثلاث علاقات سيميائية تمنح للظاهرة الصوتية مكانة مشرفة، ألا وهي مكانة العلامة [39] . و هذه العلاقات هي:

أ- **تمثيل** الأشياء و الأحوال أو العلائق بالنظر إلى أن العلامة رمز؛

ب- **التعبير** وهو مُعرف هنا على أنه أمارة على وجود المرسل (émetteur)؛

ج- **التسمية** التي تم تحديدها على أنها إشارة (signal) إلى المتلقي، *Sprachtheorie* (1965، I.1.2). لقد تقلصت العلامة إذن لتصبح مجرد شيء مادي لا يتحدد معناه إلا بتفاعله مع ثلاث علائق (relata) غير-لغوية وهي: العالم المرجعي والمُرسِل والمتلقي. ويتميز منهج بوهلر بأنه قد أضاف إلى المنهج الأرسطي المقدم في بداية[40] *peri hermeneias* قطبين هما المُرسِل والمتلقي، ونسب إلى المدلول مواقع نفسية، وذلك بربطه، استنادا إلى أنواع سيميائية مختلفة، بهاتين الشخصيتين أي القطبين. كما ألحق بوهلر بمنهج التعبير- كلمة *Peri hemeneias* تعني «من التعبير» وليس «من التأويل»- منهجَ التأويل وهو ذو طبيعة إشارية. وللتذكير فهذا المنهج قد نبع من التقليد البلاغي وتبنته الأُوغسطينية [41]. وتتجلى قوة منهج بوهلر[42]، فضلا عن تميزه، في خلق توليف بين شكلين رئيسيين من أشكال الدلالة اللفظية والمرجعية والاستدلالية، واللذين في

---

39 . خالفنا النص الأصلي وفضلنا الرجوع إلى السطر للترقيم و لإبراز الأفكار التي سيناقشها الكاتب (المترجم).

40 . حول التقديم الذي يبرز هذا المنهج الذي أحدث هذا الثلاثي السيميائي الكلاسيكي المكون من العناصر التالية: الكلمة- المفهوم- الشيء، أنظر راستيي (1990).

41 . -حول المنهج الإشاري للاستدلال، أنظر راستيي (1991)، الفصل الثالث.

42 . كارل بوهلر Karl Bühler (1879-1963): هناك قصور في ترجمة أعمال هذا الباحث إلى العربية والفرنسية، فجلها مكتوبة بالألمانية. و يتأرجح مذهبه بين اللسانيات المقارنة والمدرسة التوزيعية. و ظلت كتاباته معزولة عن المناخ الثقافي العام في أوروبا و هو ما يفسر عدم شهرته. ويتميز بوهلر بالموسوعية و بتداخل العلوم في أبحاثه. ولا يعد بوهلر لسانيا بالمفهوم الحالي للكلمة، لأنه تطرق إلى اللغة في علاقتها بعلم النفس ونظرية الجشطلت، هذا فضلا عن اهتمامه بالاتجاهات الفلسفية التي كانت سائدة في عصره. و يرى بوهلر أن المعنى خاصية موضوعية للبنيات ولكنه وحدة وظيفية .كما اهتم كثيرا في أبحاثه بالرابط الذي يجمع بين الوظائف النفسية ووصفها على المستوى الميتالغوي، وهذا المستوى هو السيميائيات (المترجم).

إمكاننا ربطهما رمزيا بأرسطو وأوغسطين[43].

وإذا كان من الضروري الإقرار بهذه الأقطاب الخارجية الثلاثة للدلالة اللفظية، فإنه من الواجب التذكير بأنه تقابلها ثلاثة مناهج كلاسيكية وهي الآتية:

أ. منهج المرجع (référence) وهو غير مخصص للنص. وعلى الرغم من ارتكاز الشرح الظاهري للدلالة اللفظية بواسطة المرجع على الواقعية الفلسفية[44]ذات التقاليد العريقة والقوية، فإن المرجع يظل متميزا بخاصية العلامة والقضية (proposition)، ولكنه يصبح مراوغا حين يُعالَج في درجة النص.

ب. منهج القصد (intention) أوالانتاج لا يمكن أن يوظف لمعالجة النص، على الأقل مادام أنه غير مرتبط بمنهج لغوي؛ وحتى لو افترضنا وجود هذا المنهج، فإن القصد يظل مجرد تخمين.

ج. منهج **التأويل** وهو أيضا منهج لا ينطبق على النص. إن المصطلحات المجردة من قبيل **القارئ-النموذجي** (إيكو Eco) أو **القارئ الأعلى** (superreader)عند ريفاتير Riffaterre لتكرس المجهود العلمي المعترف به لدى هذين المؤَلفَين، ولكن يبدو أنه ليس بإمكانها الإدعاء – أي المصطلحات المجردة- أن لها شرعية واسعة النطاق.

وترتكز هذه المناهج الثلاثة على تبسيطين عاديين في علوم اللغة المتأثرة دوما بعلوم الطبيعة أو بعلوم الحياة. فهناك **التبسيط السببي**(simplification causale) الذي يشير إلى وجود أسباب يُمكن عزلها و إلى أثر يتم ضبطه داخل السبب، ويعني هنا نية المرسِل أو المتلقي. ويدل هذا التبسيط على هيبة العلوم الفيزيائية التي مجدتها الفلسفة

43.القديس أوغسطين Augustin: فيلسوف مسيحي كانت لأفكاره في الفلسفة واللاهوت آثار كبيرة في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية خلال القرون الوسطى. ويتميز فكره بمحاولته الهادفة إلى دمج المسيحية بالفلسفة الأفلاطونية. بالنسبة له « الكلمة هي العلامة على الشيء، ويمكن أن تفهم من طرف المستمع عندما ينطق بها المتحدث». وبخصوص بعض النصوص المختارة حول العلاقة بين اللغة و الفلسفة، أنظر **اللغة (سلسلة دفاتر فلسفية)**، إعداد و ترجمة محمد سبيلا و عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، 2005(المترجم).

44. ينسب جاك Jacques (1992، ص 94) هذين المعيارين إلى أرسطو: « النص وحدة لأنه يتناول شيئا واحدا ومماثلا و الذي يشار إليه أو لأنه يُنظر إليه كمجموعة(*sundesmô*) بواسطة الروابط » و يحيل على،1457 a 28 sq *peri hermeneias*؛ 17a 15-17 ، *Poétique*؛ و*Métaphysique* 1045a 12sq .
الرائز الأول امتدادي (extensionnel)، ويفترض أن المرجع يحدد الانسجام؛ أما الثاني، فإنه مفهومي (intensionnel) و يقترن بما يسمى حاليا الاتساق (cohésion) بل وحتى عامل الترابط(connexité)، وذلك استنادا إلى روابط منطقية ونحوية. إن هذا التقديم مُغْر، و لكن يجب أن نميز فيه بين مفهومين لكلمة «لوغوس» (*logos*) في نص أرسطو: يعتبر **التعريف اللغوي** مثالا للأولى **والإلياذة** مثالا للثانية. إن التصور الأول مستوحى من المنطق ومن النظرية المرجعية وينبئ بالتصور الذي يفترض أن اللوغوس عبارة عن جملة قابلة للتقرير (décidable)، أما التصور الثاني، فإنه مستلهم من البلاغة ومن الشعرية.

الوضعية[45]، إذ يُمكِّن هذا الاتجاه النظري من اختزال الأحداث الإنسانية في وقائع فيزيائية فعصبية ثم في الأخير فيزيائية-كيماوية. و يرتكز هذا التبسيط أيضا على فكرة الحتمية الكونية التي تسعى إلى التحكم في كل مستويات الواقع أو بالأحرى في كل «طبقات الكائن» بواسطة القوانين نفسها.

ويضع التبسيط الوظيفي في عمق اللغة بصمة الفكر التي تعتبر، حسب التقاليد، استكفائية ومسيطرة. و حين نفترض بأن اللغة جهاز محدَّد بوظائفه، فإننا نقوم بإعادة منهج الحياة، ونستند إلى مبدإ التكييف القائل إن الوظيفة هي التي تخلق العضو. وتنحدر اللسانيات الوظيفية من هذا النوع من الحتمية [46]. وفي اللسانيات النصية، تشمل الوظيفية عدة مناهج تصنف النصوص حسب الوظائف المهيمنة (أنظر على سبيل المثال منهج بوغراند Baugrande و دريسلير Dressler 1984؛ للمزيد من المناقشة، أنظر ما سيأتي في الفصل الثامن). و مع ذلك، فإن علوم الثقافة لا تصل إلى الأسباب، ولكن إلى شروط قابلة بأن تكون موضوع سُلمية وإشكالية. ومن جهة أخرى، يلاحظ أن وظائف الموضوعات (objets) الثقافية تتغير بتغير الثقافات، وذلك حسب الممارسات والحالات. ويكمن الشك في إمكانية تحديدها مسبقا[47]. ينتمي منهج بوهلر، بصفته منبعا رئيسا للتصنيفات الوظيفية المعاصرة، خصوصا تلك التصنيفات التي وضعها جاكبسون Jakobson ، إلى سيميائيات العلامة التي يعرِّفها لذاتها، أي أنها تكون منعزلة

45.أنظر على سبيل المثال تصريح طين Taine الشهير: أن تكون الأحداث فيزيائية و أخلاقية فإنها تظل دائما أسبابا[...]فالفضيلة و الرذيلة نتائج مثل المر أو الحلو(*Introduction à l'histoire de la littérature anglaise, in* Molino, 1989,p.16). وقد أعادت الوضعية المنطقية الأطروحات نفسها وتلتها النظرية المعرفية الأرثوذوكسية في سياق البرنامج الذي يسعى إلى معيرة الفكر.

46.أنظر الأطروحة الأولى لمجموعة براغ ، 1929 :« بما أن اللغة نتاج للنشاط الإنساني، فإنها تتقاسم معه خاصية المبتغى. و عندما نحلل اللغة على أساس أنها تعبير أو تواصل، فإن قصد المتكلم هو الشرح الذي يظهر لنا سهلا و طبيعيا. و لهذا، وجب علينا أن نحتاط في التحليل اللساني من مسألة الوظيفة. و من هذا المنظور، فإن اللغة عبارة عن نسق من الوسائل التعبيرية الصالحة لهدف معين»(trad.fr.، in *Change*، 3، 1969). هذا التصور العادي هو المتبع بالخصوص في وظيفية مارتيني Martinet أو في أبحاث هاليداي Halliday .

47.فكرة التحديد المسبق للأشياء منحدرة من الحتمية (déterminisme) وهي« مذهب يفيد علوم القوانين الطبيعية وثبوتها فلا تخالف ولا مصادفة، ويقوم هذا المذهب على مجموعة الشرائط الضرورية لتحديد ظاهرة ما، وعليه يعتمد الاستقرار في العلوم الطبيعية، ويمتد إلى السلوك الإنساني حيث يتحدد عن طريق سوابق فيزيائية أو نفسانية هي علله. و تختلف الحتمية عن الجبرية (fatalism) التي تعتقد بأن كل الحوادث مقدرة أو مكتوبة مقدما، و بالتالي فإنها محتومة بغض النظر عما نبذله من جهود للحيلولة دون وقوعها». أنظر معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، الدكتور أحمد زكي بدوي، مكتبة لبنان، بيروت، 1978، ص 105. و بخصوص التعريفات الفلسفية لمفهوم الحتمية،
أنظر لالاند Lalande، *Voabulaire technique et critique de la philosophie* ، ص224 - 221(المترجم).

عن كل سياق لغوي. وتفيدنا القاعدة العمومية أن فلسفة اللغة ترتكب أخطاء في حق المعنى النصي، وذلك بتعريفه استنادا إلى معايير سيميائية[48]. و أن إخضاع العلامة إلى ثلاث علائق خارجة عن اللغة قد يعوق تصور النصية، وذلك عندما يُربط النص بمستويات أنطولوجية أخرى، غير المستويات التي تهم اللغة، وبالتالي يتم إخفاء وضعه الحقيقي.

وعلى العكس من ذلك، تنطلق المقاربة اللسانية التي نود وصفها من النص في اتجاه الأقطاب الخارجية أو في اتجاه المتلازمات (corrélats)غير اللغوية. و بهذا تختلف هذه المقاربة عن المقاربات الأخرى، إذ تنطلق المقاربة الفلسفية التي طرحتها الوضعية المنطقية[49]من المرجع لتجعل من العلامة تمثيلا لها. وتفضل المقاربات النفسية والسوسيولوجية منهجا يعتمد الانطلاق في التحليل من المُرسِل أو المتلقي. وتعتمد كل هذه المقاربات البداية من الأقطاب الخارجية في اتجاه النص لتحليله، وذلك بإتباع الاقتصاد المكلف في وصفه[50].

و لا يعني رهان دلالة النصوص التنكر لوجود هذه الأقطاب حين يُفضل نوع من الأحادية اللغوية، ولكن يجب تقنين اللجوء إلى هذه الأقطاب بالنظر إلى المعنى النصي. إن تفاعل العلامات داخل نص ما يحدد في الواقع إشكالية دلالية من نوع آخر. وفي مقابل إشكاليات العلامة، وهي مناهج تخص **الدلالة اللفظية** الخارجة عن السياق، فإن هناك إشكالية النص المؤسس على التحليل التبايني، و التي تعَرِّف المعنى بالاستناد إلى التفاعل الجدولي(paradigmatique) والتركيبي للعلامات اللغوية، ليس فقط فيما بينها، ولكن مع النص في مجمله.

ويمكن التفكير في الأقطاب الخارجية للنص من إثارة المشاكل المتعلقة بموقعهم المشترك وبتفاعلاتهم. و في الإطار المحدود للدلالة اللغوية، تكون لهذه الأقطاب تفاعلات مع النص بواسطة الجنس(genre) الذي يحدد مكان المتلفِّظ (énonciateur) والمتلقِّي؛ وتضبط أيضا موقع المرجع (أنظر الفصل الثامن). وتعتبر هذه المواقع الثلاثة «أقطابا داخلية»، ذلك أن العلاقة بالمتلفظ وبالمتلقي الحقيقيين وبالعالم الواقعي– وهي

48. نتناول هنا مصطلح «سيميائيات» بالمعنى الضيق لنظرية العلامة، لمزيد من النقاش، أنظر الفصل الثاني.

49. بخصوص اللغة، لا بد من الإشارة إلى أن للوضعية موقف واقعي يتجلى في أن الكلام يحيل على الأشياء المحسوسة غير المرتبطة به و يكتفي بتمثيلها (المترجم).

50. تقلصات المسارات متباينة ولكنها، في كل الحالات، تربط النص، الذي ينتمي إلى السيميائيات، بأنطولوجيا العالم (المرجع) أو بتمثيلات المرسِل أو المتلقي.

أقطاب خارجية ومجازية في منهج بوهلر - غامضة أو أنها على الأقل تثبط همة الباحث عن دلالة النصوص. ويبدو لنا أن هذا المنهج ينتمي في الواقع إلى الفلسفة، ويمكننا أن نقرأ في مؤلفات ريكور[51] المسار الثلاثي الذي ينطلق من هذه الأقطاب الخارجية الثلاثة ليصل إلى النص،.والعكس صحيح؛ وهذه طريقة مُثلى « لتوسيط الكوجيطو *(cogito)* استنادا إلى عالم العلامات».

لقد تبنينا المنهج العكسي، الذي ربما يعتبر تكميليا، والذي ينطلق من النص لاستخلاص الأقطاب الداخلية مع العودة إليه. وسنترك الميمسات (mimésis) الثلاث التي وضعها ريكور(1983) ونعمل على نزع النص من «الواقع»، وذلك بتبني نظرية الانطباع المرجعي ونظرية « المؤلِّف» مفترضين أن الأسلوب نوع من الاطراد اللغوي. كما سنطرح نظرية « القارئ»الذي أصبح مجرد منجز (opérateur) لمسار الميمسات الثلاث. ونقترح إذن القيام بعملية [تحليلية] مفادها تفكيك الأنطولوجيا (désontologisation) التي تتمحور حول ثلاثة اتجاهات:

أ) استبدال مشكل المرجع بمفهوم الانطباع المرجعي(impression référentielle)؛

ب) استبدال مفهوم المُتلفِّظ **بالموقع التلفظي**(foyer énonciatif)، حسب ما هو ممثل له في النص و/ أو حسب ما هو متموضع بواسطة قواعد الجنس؛

ج) حذف مفهوم المتلقي وطرح مصطلح الموقع التأويلي (foyer interprétatif) في

---

51. بول ريكور (2005– 1913): ظل المسار الفلسفي لهذا الكاتب بمعزل عن النقاش الفرنسي في السنوات 1960-1970 و تعرض مشروعه الفلسفي للرفض و الإقصاء و لم يتم رد الاعتبار لأعماله في الوسط الفرنسي إلا في السنوات 1980. تأثر براسل و بالظاهراتية الألمانية و كتب في مجالات ذات طابع ديني، مما أدى إلى اعتبار أعماله عبارة عن تيولوجيا مقنعة. اهتم بالعلوم الإنسانية و بالتحليل النفسي الفرويدي خاصة في وقت هيمنت خلاله الفلسفة الوجودية عند سارتر. ويعد أيضا من رواد الفلسفة التحليلية المركزة على اللغة و الذي يعد من أبرز العاملين على التعريف بها في فرنسا. أولى اهتماما بالهيرمينوطيقا وانشغل بمسألة التأويل. وتميز فكره بالانفتاح على مختلف العلوم، حيث أنشأ حوارا فكريا مع اللسانيات و مع التحليل النفسي و التيولوجيا و التاريخ... و يذهب إلى أنه. «ليس هناك من هيرمينوطيقا عامة ولا من سنن كوني بمقدوره الإفادة في عملية التفسير، لكن هناك بعض النظريات الخاصة بقواعد التأويل و هي متعارضة و معزولة عن بعضها». أنظر «مسار فكر متفتح»، كاترين هابيرن، ترجمة أحمد اللويزي، جريدة العلم، بتاريخ 06 أبريل 2006. وأنظر أيضا مقال ريكور: «النص والتأويل»، ترجمة منصف عبد الحق، مجلة **العرب و الفكر العالمي**، العدد الثالث، 1988، ص 36-52. راجع أيضا مؤلفات ريكور ومن أبرزها:

- Ricœur, P. *Le conflit des interprétations. Essais d'herméneutique I*, Seuil, 1969
- *Temps et récit ; Tome I : l'intrigue et le récit historique*, Seuil, 1983
- *Temps et récit, Tome II, La configuration dans le récit de fiction*, Seuil, 1984
- *Temps et récit, Tome III, le temps raconté*, Seuil, 1985
- *L'herméneutique biblique*, Le Cerf, 2000(المترجم).

إطار شروط متشابهة [52].

إن القارئ الحقيقي هو كائن يتخيل عالما ومؤلِّفا، ومن الممكن أيضا أن يتخيل نفسه. وحينما تُربط هذه التمثيلات بالواقع المفترض للأقطاب الخارجية، تصبح في نظره هي«الواقع». وبخصوص هذا الأخير، فإننا نتبنى موقفا لا أدريا (agnostique) مطابقا للرغبة في الحديث عن المؤلفات بصفتها مؤلفات، وليس بصفتها مواضيع وعوالم.

تعريفات خضعت للنقاش

سنقدم في ما سيأتي ثلاثة تعريفات للنص انطلاقا من مقترحات صادرة أولا عن فيلولوجي وثانيا عن فيلسوف تحليلي وثالثا عن ظاهراتي. وستمكننا هذه التعريفات من توضيح إشكاليتنا.

كتب جاك بيري Jaques Perret بصفته فيلولوجيا ما يلي: « يُطرح النص المكتوب ويتضمن دائما مجموعة من الوقائع المنفصلة: 1/ العالم أو بالأحرى جزء من العالم، ويُفهم من العالم تشكيلة من الموجودات أو من الأشياء المحتمل وجودها بمعزل عن النص، فهناك مثلا: أفكار أفلاطون، الله، النجوم، معركة واترلو... الخ.؛ 2/ لغة ما (الإنجليزية، الألمانية... الخ) يكون النص أحد عيناتها؛ 3/ مؤلف؛ 4/ النص نفسه» (1975 ص 14). لقد قام الكاتب في هذا التعريف الملتوي بتحديد النص مقارنة باللغة ومقارنة بقطبين خارجين عن النص ألا وهما العالم والمؤلِّف..

وقدم فرانسيس جاك Francis Jaques، وهو أحد رواد الفلسفة التحليلية،[53] التعريف التوضيحي التالي للنص: « لنأخذ مجموعة من الجمل التي تتسم بالتناسق الشامل، والتي تقدم بداية ووسطا ونهاية. ونضيف بأن وحدتها العابرة للجُمل يمكن أن تصبح موضوعا لتشفير مكثَّف (surcodage) تجعل منها شيئا كُليا » (1999، ص93). ولكن النص ليس مجموعة من الجمل، إذ إنه لا يعد مجموعة، والجملة التي تعتبر

---

52. تظهر لامبالاة النص بموضوع الأنطولوجيا وبتحديداته المزعومة جليا حينما تتعدد الأقطاب الداخلية: يمكن للأقطاب مثل المتلفظون والمتلقون و العوالم المتمثلة أن تتعدد دون أن يتغير أي عنصر جوهري على المستوى اللغوي .

53. الفلسفة التحليلية: يذهب رواد هذه الفلسفة ومن أبرزهم فريجه Frege و راسل Russel إلى أن المنطق الحديث له آثار فلسفية عامة و يساعد على تحليل المفاهيم و تصنيف الأفكار. ويعد المنطق و فلسفة اللغة من المعارف الرئيسة التي ترتكز عليها الفلسفة التحليلية، إلا أنه مع تراجع الوضعية المنطقية وتطور العلوم المعرفية أعيد النظر في هيمنة المنطق (المترجم).

وحدة تركيبية ليس لها أي امتياز قد يؤهلها لتعريفه. إن كل ماله بداية ووسط ونهاية يُعد بالفعل معيارا لتعريف كل ما من شأنه أن يشكل كُلا، وهذا وارد في الفصل السابع من **شعرية** أرسطو. ولكن، إذا كان هذا التصور قد ينطبق على التراجيديا و على«الحكايات المحكمة السرد»؛ بالنسبة للأجناس القصيرة، وخصوصا الأجناس الحِكمية أو المبنية على أساس الأمثال التي تفتقد عادة البنية السردية، فإن أخذ هذا المعيار بعين الاعتبار مشكك فيه. و أخيرا، فإن مصطلح « **الانسجام الشامل**» (cohérence globale) قد يقصد به، دون شك، الاتساق (cohésion) أو « الوحدة العابرة للجمل». وبماذا تختلف هذه الوحدة عن الكل؟ إن هذه الخاصية الزائدة قد استمدتها من « التشفير المكثف». وفي الواقع، لا يعتبر النص تشفيرا مكثفا و لكن الجملة المعزولة بصفة اصطناعية هي التي توصف **بالتشفير الضعيف** (sous-codé)، وذلك حينما لا نأخذ بعين الاعتبار المعايير المتحكمة في جنس النص. إن التعريف الذي اقترحه ف. جاك يملك، على الرغم من ذلك، ميزة مفادها أنه يعرف النص لأجل ذاته وبصفة منفصلة عن المؤلِف والقارئ والعالم. ولكنه تعريف توضيحي، و يعترف جاك نفسه في سياق آخر بأنه تعريف ناقص وبأن كل نص يخلق عالما[54]يحيل على العالم الواقعي؛ وفي الأخير، يقدم تعريفا للنص في علاقته بهذا القطب الخارجي.

قدم ريكور التعريف المفيد لموضوعنا كالتالي: «يتميز النص بالخصائص التالية: 1- تثبيت الدلالة اللفظية؛ 2- انفصاله عن قصدية المؤلِّف الأخلاقية ؛3- استعمال المراجع غير المعلنة ؛4- تشكيلة مستقبليه الكونية (a 1986، ص 199). إذا ظل النص مرتبطا بالأقطاب الخارجية الثلاثة المقترحة في منهج بوهلر (المؤلَف والعالم و المتلقي)، فإنه يتخذ إزاءها ثلاثة أشكال مختلفة من الاستقلالية: إذا حافظ النص على المؤلِّف، فإنه سينفصل عن نية هذا الأخير، بالإضافة إلى أنه يشير إلى عالَم، ولكن

54.يعتقد جاك أن اللغة الأدبية تحيل على واقع خارجي سواء عانقته أم لم تعانقه (1992، ص 119). هذه **الإحالة المعلقة لا تظل على هذا الحال**، لأن المحمولات المطبقة على موضوع الخطاب تمكن من «توليد العالم النصي» (ص 120). و لكن العوالم النصية المتصلة بالنصوص الخيالية تشير إلى العالم الحقيقي: «يمكن رصد المراجع الأدبية التي تنتمي إلى العوالم المتخيَّلة انطلاقا من عالمنا. وعلى النقيض من ذلك، يمكن رصد العالم الحقيقي انطلاقا من المراجع الأدبية» (ص 114). و يتم إبدال المرجع بعلاقة موصلية بين العوالم، ولكن العالم الحقيقي يظل هو النموذج، ويعمل بطريقة ما على تفسير المرجع المتخيَّل. كل الروايات الكبيرة إذن « تندد بمبدأ الخيال الذي يغذيها. إنها تسير في اتجاه مرجع في العالم الحقيقي الذي يعتبر محطتها النهائية «*terminus ad quem*»(ص 112). وبواسطة العوالم الممكنة، تمكن هذه الدورة الليبنيتزية منَ« صيانة محتوى حقيقة النص» (ص 109) وتمنع «التخلي عن الواقعية الفلسفية للمرجع» (ص 97).

دون الإحالة عليه مباشرة؛ كان له متلقون، ولكنه الآن يتلقاه كل الناس. ويمكن النظر إلى موضوع التشكيلة الكونية للمتلقين على أنها تيمة مسيحية، وإلى موضوع تثبيت الدلالة اللفظية على أنها تيمة خضعت للإصلاح الديني، بيد أن هذا المنحى سيقودنا إلى التوجه نحو الأحكام الأخلاقية، وهي أمور غير واردة في طرحنا هذا. إن المهم والأساس هو تراجع النص عن الأقطاب الخارجية الثلاثة التي لا يمكنها أن تدعي بأنها تحدده مباشرة.

وعلى الرغم من التباين في توجهاتهم الفلسفية، يتمسك الكُتاب الثلاثة، الذين ذكرناهم وعلقنا عليهم، بالتصور الواقعي للدلالة اللفظية، إذ إن النص يستقي معناه بالنظر إلى علائق غير لغوية. وعلى الرغم من التساؤلات التي أثيرت حول المؤلِّف والمتلقي، فإن الدلالة اللفظية تحيل دائما على العالم، وذلك طبقا للتقليد الأرسطي الذي يفيد بأن الكلمات تمثل الأشياء بواسطة المفاهيم.

ظهرت الآن تصورات جديدة حول النص في مجالات مثل الذكاء الاصطناعي واللسانيات المعرفية، ومن الواجب مناقشتها قبل أن نقترح بخصوصها تعريفا إيجابيا.[55]

هل النص سلسلة من الحروف الخطية كما هو متعارف عليه في المعلوميات اللسانية؟ إذا وافقنا على هذا التعريف، فإننا سنختزل النص في مادته الخطية، وسنشجع معالجته التسلسلية (séquentiel)، أو بالأحرى التحديدية، بالاعتماد على نافذة القراءة المتحركة على المستوى التخطيطي، وهذا هو العمل الذي يقوم به عادة المحلِّل التركيبي (les analyseurs syntaxiques)؛ وفي نهاية الأمر، يقتضي هذا التصور فصل النص عن إطاره المحلي (وضعه) والشمولي (أي الثقافي). ونتيجة لذلك، سيتم اختزال الكلام في الدال، وهذا التصور شبيه بالموقف الذي يتبناه مؤيدو الدبلوماتكية؛ هذا بالإضافة إلى أن الأمر لا يقتصر على مجرد كلمات تقابلها، في غالب الأحوال، هذه السلسلة من الخطوط. وفي الواقع، يبدو أن الدلالة تراوغ، ونعتقد أنه في إمكاننا المرور بسهولة من سلسلة الحروف الخطية إلى المفاهيم.

لا يعد النص متوالية من التعليمات(instructions) سواء كانت تلك التعليمات خوارزمية أم لا، وقد تبنت الدلالة الإجرائية والسيكولوجيا التي أثرت فيها هذه

55. نعيد في هذه الفقرة ما قدمناه في بحث سابق، أنظر المؤلف وآخرون(1994)، الفصل السابع.

الأطروحة، و على سبيل المثال، يعتبر جونسون لير [56] Johnson-Laird ممثلا لهذا الاتجاه. ويشبِّه هذا التعريف النص بالبرنامج المعلوماتي التقليدي (الذي يعد بالفعل متوالية من التعليمات) ويُنسب الفهم إلى أجرأة يقوم بها برنامج الحاسوب. ولكن المعرفة المعلوماتية تُنفَّذ بالضرورة بواسطة الحاسوب، أما المؤوِّل، حسب التعريف الذي تقدمه الدلالة التأويلية، فلا يُعتبر إلا إشارة يجب التعرف عليها كما هي من طرف القارئ. ويمكن، على الرغم من كل هذا، أن تتعرض للإهمال. ويفترض مفهوم التعليمات تصورا معياريا للتأويل. و من جهة أخرى، إذا كان برنامج ما عبارة عن متوالية من التعليمات، فإن هذه التعليمات تكون، بصفة إجمالية، ضرورية وكافية لتنفيذها. و في المقابل، من المحتمل أن يكون مؤولو النص أقطاباً خارجيون، بدءاً بالميثاق النوعي الذي أبرمه القارئ أو المستمع مع النص لإعطائه معنى.[57]

وفي الأخير، لا يعد النص سلسلة من خطاطات معرفية (schémas cognitifs) (مسائل قضوية متعلقة بالذهن، مناهج ذهنية، سكريبت، لقطات... الخ.). تستدعي قراءته فعلا اللجوء إلى المتعالقات الذهنية، ولكن بنيته لا تؤسس وفقا لهذه المتعالقات. وبالنسبة لعلم النفس، لا يعد النص مجموعة من التمثيلات، ولكن يُعرَّف بأنه مجموعة منظمة من القيود حول تكوين التمثيلات.

---

56 . جونسون لير Johnson-Laird : عالم نفساني من جامعة برنسطون بالولايات المتحدة الأمريكية، طرح مع صديقه جورج ميللر نظرية التمثيل الذهني للكلمات في كتابهما *Language and Perception* (1976). ويعتقد جونسون أن الفهم صيرورة يتم من خلالها بناء نموذج ذهني، و يجب الإشارة إلى أن لهذه النظرية تطبيقات على مستوى برنامج الحاسوب. لقد تجاوز الكاتب المقاربات الدلالية المبنية على الحقيقة والسمات الدلالية والشبكات الدلالية. و باختصار، فإن الدلالة النفسية التي ينتسب إليها المفكر « تهتم برصد المبادئ التي يقوم عليها اكتساب المعارف الدلالية في الذهن وتنظيمها واستعمالها. و بعبارة مختصرة، فإنها تهتم بكيفية حساب المعنى باعتباره ظاهرة نفسية». انظر محمد غاليم، **المعنى والتوافق**، منشورات معهد الدراسات و الأبحاث للتعريب بالرباط، 1999، ص 47؛ راجع أيضا مؤلفات جونسون لير التي تقدم مشروعه ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

- *Mental Models*. Cambridge, Cambridge University Press, 1983 ;

- *The Computer and the Mind: an Introduction to Cognitive Sciences*,
Cambridge, MA: Harvard University Press. London: Fontana, 1988.
(المترجم).

57. يستحسن مناقشة مفهوم التعليمات كما ورد عند إيكو(*Lector in fabula*)، و كما ورد عند مدرسة كونسطانس (Constance): « النص مجموعة منظمة من تعليمات القراءة »(Rutten، 1980، ص 73). وينتمي مصطلح حل المشاكل (Adam 1990 ، ص 114) ، الذي يُطرح من حين إلى آخر، إلى النموذج الحاسوبي نفسه والحسابي.(للمزيد من التفصيل في هذا الموضوع ، أنظر الفصل الرابع).

اقتراحات

في التقليد الفيلولوجي، يقابل النص الخطاب، مثل ما يقابل الكتابي الشفوي [58]. في عصر النزع المادي للرقمية، يجب التفكير في تعديل ما، لأنه يجب تجاوز المقابلة بين الكتابي والشفوي وطرح مفهوم بديل ألا وهو مفهوم الركيزة(support). لنلخص ما سبق في التعريف التالي: **«النص متوالية لغوية وأمبريقية قد تمت المصادقة عليها، ويعتبر إنتاجا في إطار حركة اجتماعية محددة، وهو ثابت بالاعتماد على ركيزة ما»**. وعلى هذا الأساس، يمكن أن يكون النص مكتوبا أو منطوقا أو مقدما بأنظمة تقليدية مثل لغة المورس والآسكي(Ascii)، كما يمكن أن يظهر في شكل سيميائي (الفيلم... الخ). وتُفهم هذه الشروط التعريفية الثلاثة على النحو التالي: 1- يكون النص مصادقا عليه: هذه المقولة تعني أنه ليس إبداعا نظريا مثل اللسانيات التي يصوغها اللسانيون. ويعبر هذا الشرط الأول عن مبدأ الموضوعية. 2- يُنتج النص في إطار منظومة اجتماعية معينة: وهذا هو المبدأ الإيكولوجي. وعلى الرغم من أنها غير كافية، فإن معرفة (أو تحقيق) هذه الممارسة ضرورية، على الأقل لأنها تؤَمِّن تحديد النص[59]. 3-النص مثبت بركيزة: وهذا شرط لدراسته النقدية وهو ما يستدعي مناقشة الظرفية. إن الشرط الأمبريقي يحطم الخاصية الضيقة للمكتوب ويعيد للأذهان أن المادة التعبيرية لا تحدد النص.

لا تُصدر الوحدة الأمبريقية للنص حكما مسبقا لا حول ثبوت دلالته اللفظية ولا حول نوايا مؤلفه (أو مؤلفيه) ولا حول مراجعه غير الجلية، كما لا تصدر حكما حول التأويل المقترح من قبل المتلقين؛ أي أن الوصف اللغوي هو الذي يحدد هذه الأقطاب الأربعة [60].

لن نتطرق هنا إلى السمات البنيوية التي تمكن من تحديد النصية في حد ذاتها، ولا

58. يظهر هذا التحديد عند بيري Perret في مقاله المعنون « نص الكتابة» (1975 ، ص 14)، كما نجده عند التفكيكيين الذين يعتقدون بأن النص هو خطاب مكتوب و ثابت (أنظر لوگوازيو T. Le Gouaziou في *Encyclopédie philosophique*, Paris, PUF, 1990,II,)و يفسر هذا الاتجاه التحفظ الذي عبر عنه مجموعة من البلاغيين بخصوص مفهوم النص، حيث يلاحظون أنه مرتبط على نحو مفرط بالمكتوب.

59. يطرح فاينغايش Weinrich التعريف التالي:«يمكن تعريف النص [...] بأنه متوالية دالة من العلامات تظهر بين انقطاعين ظاهرين للتواصل (1982 ، ص 198)». ويتعارض هذا التعريف مع المكتوب، ولكنه يرتكز على التواصل بصفة لصيقة. أما مفهوم الانقطاع الظاهر، فهو أمر يستدعي بعض التوضيحات، إذ يمكن اعتبار الحوار نصا، على سبيل المثال.

60. هناك أعمال مماثلة تفرض نفسها على المعارف المجاورة في إطار سيميائيات الثقافات، مثل الإيكونولوجيا.

نفترض وجود كليات نصية (universaux textuels)، على الرغم من قدرة الأنثروبولوجيا اللغوية على تمييز علاقات القرابة في المبادئ البنيوية للأساطير. إن بعض الأجناس تنظم نصوصا مؤلفة إما من جملة، أومن كلمة، أو من تعداد، فضلا عن أن التجارب الاجتماعية الجديدة قد تخلق في المستقبل أجناسا تبدو لنا غير مرتقبة: إذا كانت هناك قواعد سلامة التكوين [61]، فستكون رهينة الأجناس ولا يكون لها ارتباط بالنصية (textualité). ثم إن هذه الكليات السالفة الذكر لا تعتبر سوى «ماهيات إسمية» (essences nominales)، وبصيغة أخرى، فإنها تعد مفاهيم ضرورية لوصف الخطابات والأجناس والنصوص.

وضع لسانيات النصوص: الغرض والأهداف

تواجه لسانيات النصوص صعوبة كبرى لامناص منها وتتمثل في ربط « حرف» النص (ويقصد بالحرف هنا معناه الفيلولوجي والنحوي) «بفكره»، ونعني بهذا مختلف التأويلات التي تُفرض على النص أو التي يطرحها. لم تهتم اللسانيات الضيقة المجال بوصف «حرف» النصوص، واكتفت بدراسة الأمثلة التي تنتجها أو ترصدها وذلك لأنها كانت خاضعة لهيمنة الوضعية و للنظريات الصورية.

لقد كان الهدف من وصف «الفكر» من مطالب الهيرمينوطيقا النابعة من فلسفة هايدغر Heidegger والتي كانت، (وهذا أمر مؤسف) منقطعة عن جوهر النص. وبالنظر إلى وضعها المتأرجح ما بين الفيلولوجيا الوضعية والفلسفة النظرية، لا بد للسانيات المنفتحة على النص والواعية بوضعها الهيرمينوطيقي أن تعمل على نكران التفرقة بين الحرف و الفكر أو تقليصها أو إلغائها. و من الملاحظ أنه يوجد بين الشكل المادي للنص وتأويلاته نسق من المعايير التي تشهد بها البنيات النصية والتي نؤَمن

61. إذا كان جنيت Genette قد عرَّف النص بشيء من اللامبالاة، حين قال عنه إنه «متوالية طويلة أو قصيرة من التلفظات الفعلية التي قد تحمل معاني»(1987 ، ص 7)، فإن سلاكطا Slakta قد قدم، في مقابل ذلك، تعريفا دقيقا و هو كالتالي: «إن النص متواليات من جمل سليمة التكوين تتدرج للوصول إلى النهاية » (1985، ص 138). وتعترض هذا التعريف عدة مشاكل ويثير عدة تساؤلات:
(أ) لا يعد النص متوالية من الجمل، ولو كانت مرتبطة ببعضها البعض.
(ب) ماذا تعني عبارة« متوالية سليمة التكوين» ؟ يفترض مفهوم « سلامة التكوين» وجود قواعد تركيبية صارمة، بالمعنى المنطقي والرياضي للكلمة. فلنستحضر هنا النقاش الذي دار في مجلة *cognitive science*، في بداية الثمانينات، حيث اتضح بالنسبة للمشككين أن أنحاء النص لا تنتج قواعد سلامة التكوين بالمفهوم التقني؛
(ج) أما عبارة « تتدرج للوصول إلى نهاية» فإنها تعتبر، بالنظر إلى التقليد الأرسطي، من صميم الأجناس السردية، أو على الأقل، من الأجناس المغلقة. و اعتبار ما سبق خاصية تميز كل النصوص أمر مشكوك فيه.

الوساطة الضرورية. والأكثر من هذا، لا ينفلت ضبط أصغر العلامات من الشروط الهيرمينوطيقية؛ و الاعتراف بالقيود اللغوية كفيل بأن يحرر الهيرمينوطيقا من التراجع إلى الفكر التأملي (أنظر، الفصل الرابع).

تناقضات الفيلولوجيا

ظهرت الفيلولوجيا العتيقة والمعقدة مع أول نظرية سفسطائية، حيث كانت تمثل الحقل المعرفي الوحيد في زمانها. وكانت تولي عناية فائقة بالنص، وذلك من أجل دراسته لذاته دون إخضاعه لنقد أخلاقي أو أنطولوجي. ولا تشير مؤلفات أرسطو، مثل كتاب **الشعرية** وكتاب **الخطابة**، بصورة غير مباشرة إلى هذه الفيلولوجيا الأولى التي ربما اندثرت. واتضحت الروابط التي جمعت بين النحو والفيلولوجيا في القرن الثاني الميلادي في الإسكندرية، حيث ساد وقتئذ رأيان متكاملان: الرأي الأول يقول إن النحو مبحث ملحق بالفيلولوجيا وأن النقد يعد منتهى النحو. وفي هذا الإطار، قدم دوني لوطراس، وهو تلميذ لأريسطارك، التعريف التالي: « النحو هو المعرفة الأمبريقية لكل ما يقوله الشعراء وأدباء النثر» [62] (*Technè grammatikè*,I.1) ويشكل النقد (*Krisis poèmatikon*) جزأه الأخير والأجمل[63]. وفي ذلك العصر، لم يكن مشكل التأويل غائبا عن الفيلولوجيا، وهذا ما توضحه الشروح الرمزية التي كان يقدمها الرواقيون. ولكن كراطيس Cratès، وهو الخصم والمنافس لأريسطارك، كان يرفض مسبقا التوليف الديونوسي [64]. وكان يلح، حسب سكطوس إمبريكوس[65]، على التمييز بين الناقد والنحوي حين قال: « يجب على الناقد أن يكون في خدمة علم اللغة (*logos*) بأكمله، أما النحوي فيكتفي بشرح الكلمات النادرة وبرصد النبرات، ولا يعرف غير

62. أضاف سيكطوس إمبريكوس Sextus Empiricos هذا النص البديل :« المعرفة الأمبريقية المدفوعة إلى أبعد حد» (*Contre les grammairiens*، § 57). ويعتقد دي بنيديتو Di Benedetto أن هذا التعريف ديونوسي ومتأصل و يعكس بحق النشاط الفيلولوجي للإسكندريين. إن الدرس العادي متطابق إلى حد كبير مع التقليد النحوي السكولائي الذي يستبعد دراسة الكتاب لذاتهم ويكتفي بالبحث عن قواعد مكتوبة.

63. في هذه الحقبة، لم يكن ينظر هذا النقد (krisis) إلى جمالية النص ولكنه كان يهتم بالتوثيق. ويقدم دوني Denysإهداء إلى مدرسة بيركام التي كان كتابها يقولون بالنقد(*kriticos*) ، أما مدرسة الإسكندرية، فكانت تقتصر في اهتمامها بالنحو (*grammatikos*).

64. نسبة إلى دوني لوطراس (المترجم).

65. سكسطوس إمبيريكوس: فيلسوف يوناني من رواد مذهب الشك (scepticisme) الذي طوره وأعطاه شكله النهائي. ربما عاش في القرنين الثاني أو الثالث الميلاديين و هو تلميذ لفيلسوف الشك بيرون Pyrrhon. وتهدف فلسفته إلى تعليق جميع الأحكام وإلى احترام الحقيقة، ومن هنا برز تعارض فكره مع الدوغمائيين (المترجم).

هذه الأشياء». (*Contre les grammairiens,* §79). إن النقاش في هذا الموضوع لم يحسم بعد و لا يزال قائما !

إن رهبان الكنيسة، الذين لم يقتصروا في أبحاثهم على الحرف، قد اعتمدوا التفسير الرمزي(allégorisme) بنجاح دون البحث عن التوازن بين الفيلولوجيا والهيرمينوطيقا.[66] أما مفكرو العصور الوسطى، فإنهم لم يعيروا كبير الاهتمام بالتدقيق اللغوي، ودأبوا على التفريق بين النص وشروحه. وفي المقابل، ساهم تطور الدراسات الطبية و القانونية، التي تعتمد النصوص الموَثقة ودراسة المخطوطات القديمة ونقدها، فضلا عن أعمال الأدباء البيزنطيين، في أن تصبح الفيلولوجيا، منذ القرن الرابع عشر،الأساس التطبيقي للإنسانيات. وهكذا، شجعت الفيلولوجيا الأبحاث الصورية حول بنية النص، وشجعت في الوقت نفسه الأبحاث الموسوعية حول تاريخ اللغات والمجتمعات.

ومنذ بداية القرن السابع عشر والثامن عشر، اتسع مجال الفيلولوجيا ليشمل مجموع التراث الأوروبي، وقد انتشرت عن طريق اللغة الشعبية. وأهلتها تاريخانيتها أحيانا إلى رفض الديكارتية (أنظر فيكو Vico. *Di constancia philologiae*,1725). وهذا ما يفسر التحفظات التي أثارها العلماويون بشأنها، وخصوصا في فرنسا.[67]

وتظل التيمة النقدية[68]، المتصلة بالنزعة الإنسانية التي تم إصلاحها وبالهيرمينوطيقا

66. في العصر نفسه، وصف مارتيانوس كابيلاMartianus kapella، وهو أفريقي وثني، مستندا إلى صورة مجازية ساخرة، زواج إلاه الهيرمينوطيقيين، عطارد، بالفيلولوجيا، التي تألقت وأصبحت إلهة. ولا يبدو أن هذا الارتباط الألفي قد أصبح متجاوزا.

67. في الموسوعة الفرنسية *Encyclopédie*، يعرف دالامبيرالفيلولوجيا كالتالي: « فرع من العلوم يتكون من النحو و الشعرية ومن آثار القدماء والتاريخ والفلسفة وأحيانا من الرياضيات والطب والتشريع دون أن تعالج أيا منها معالجة معمقة أو أن تدرس هذه المعارف دراسة منعزلة عن المعارف الأخرى ، ولكنها تدرسها بطريقة جزئية (sv).

68. يعد منهج النقد النصي، الذي ارتقى إلى المستوى النظري، الأساس الأصلي للفلسفة النقدية منذ كانط. وينحدر مشروع فلسفة النقد عن طريق التوحد التنظيري من النقد الفيلولوجي بواسطة الثلاثي السابق الموجود في كتاب *Traité théologico-politique* لسبينوزا وفي الكتاب المعنون *l'histoire critique du vieux testament* لمؤلفه ريشار سيمون Richard Simon. وقد تعرض هذا الفصيح للنقد من قبل بوسوي Bossuet عندما قدم أجناسا متنوعة في الإنجيل كما تعرض لنقد بايل Bayle في *Dictionnaire historique et critique* . واحتفظ مفهوم النقد بشيء من أصله القانوني لأن الناقد كما يقول بايل « يُساند شخصية المحامي الطالب والمحامي المدافع » (art.Archélaos ،290b). أصبح هذا النشاط عند كانط هو العقل (la Raison) الذي يتقمص في الوقت نفسه أدوار المدعي العام و المحامي والقاضي بل والمتهم أيضا. و سيُبرأ العقل أولا ثم سيُحاكَم من قبل المفكرين اللاحقين. و لم يبق من الخطاب القانوني سوى موضوع التصديق.

الدينية التي ميزت عصر الأنوار، غير مفهومة لدى مفكري الأنوار الفرنسيين. ومن جهة أخرى، تعرض طموح الفيلولوجيا الشمولي في ألمانيا، التي سعت إلى فهم شمولي لكل الثقافة العتيقة عند وُلف Wolf و بيك Boeckh على الخصوص، للتراجع النظري المقترن بشيلين Schelling على سبيل المثال.

وعلى العكس من هذا، أصاب الممارسة الفيلولوجية خلال القرن التاسع عشر تراجع وضعي أدى إلى الفصل الأكاديمي للحقول المعرفية التي تدرس النص في شكله المادي، مثل الباليوغرافيا [علم قراءة النصوص القديمة]، عن المعارف التي تُعنى بتأويلها، مثل الأسلوبية. وكادت الفيلولوجيا أن تتقلص لتصبح مجرد حقل معرفي يهدف إلى الدراسة الدقيقة للنصوص المكتوبة باللغات الميتة. وللتذكير، فإن اللسانيات قد انسلخت تدريجيا عن هذا الحقل المعرفي، وذلك بالتوجه نحو دراسة اللغات بدلا من النصوص.[69] واشتهرت الفيلولوجيا بأنها المادة الأم التي أنجبت اللسانيات، ومع ذلك فإن مناهجها الصارمة قد أورثتها صفة الأم الطاغية، حسب تعبير كوليولي Culioli. ولكن هل تبرر صرامة الأم نكران الجميل من قبل ابنتها ؟

تناقضات الهيرمينوطيقا

لم تكن الهيرمينوطيقا حقلا معرفيا مستقلا، إذ تميزت دوما بالتجاذب بين التفكير الفلسفي ومجموعة من القضايا التقنية ومن قواعد التأويل. وفي تقاليدنا الخاصة، كانت الهيرمينوطيقا أولا وقبل كل شيء فنا، الغاية منه هي شرح النصوص الأساسية، أدبية كانت أو قانونية أو دينية. وقد خضع شرح النصوص عموما لأهداف أخلاقية، إذ، من التأويلات الرواقية لهومير إلى تأويلات آباء الكنسية، كان الامتثال للأخلاق أوللإيمان هو الموجِّه لتلك التأويلات ومبررها الأساس.

وفي الوقت الذي اختارت فيه النزعة الإنسانية العودة إلى النصوص- المصادر والعمل على إعادة تأسيسها فيلولوجيا، كان الإصلاح الديني يضع حدا لهيمنة الدوغمائية ولسيطرة التقليد، وذلك بالإقرار بأن الكتابة (Ecriture) تـؤَوِّل ذاتيا (*scriptura sui ipsius interpres*). وعند رفضها للترميز، كانت المنهجيةُ التي اقترحها

69. أنظر سوسير الذي قال « ليست اللغة مبحث الفيلولوجيا الوحيد التي تريد قبل كل شيء التحقيق والتأويل والتعليق على النصوص. تستغل الفيلولوجيا منهجها الخاص ألا و هو النقد. وعندما تتطرق إلى قضايا لغوية، فإنها تقوم بمقارنة النصوص المنتمية لعصور مختلفة وتعمل على تحديد اللغة الخاصة بكل كاتب وعلى التنقيب على المخطوطات وشرحها وخصوصا المخطوطات المكتوبة بلغة قديمة وصعبة (1972 ، ص 13-14).

فلاسيوس إلليريكوس Flacius Illyricoss [1575- 1520 مصلح ألماني ينتمي إلى المدرسة اللوثيرية وهو منظر للهيرمينوطيقا الجديدة] تساعد على إعادة تعريف المعنى الحرفي و على إعادة وصفه ، ولو في النصوص الأكثر غموضا. كما عملت على توضيحه بواسطة السياق الشامل(*Clavis scriptura sacrae*,1567). ويمنح هذا المبدأ، الذي لا شك في أصله البلاغي، خاصية الكلية التي تميزالنص. تلك الكلية التي لا يستطيع التفسير الرمزي أن يتصورها، أو على الأقل أن يُضعفها، وذلك باللجوء إلى القراءات الجزئية، على الرغم من كونها / أو لأنها مطابقة للإيمان. وقد عوَّض فلاسيوس الدوغمائية الكنائسية بالنص ذاته، معتمدا في ذلك على تطبيق شعار مارتن لوثير القائل : *scriptura sola* أي «الكتابة ذاتها». وأياً كانت التوقعات التيولوجية، فقد كان هذا القرار وراء العناية الخاصة بالنص، لأنه[أي القرار] يوحد، بطريقة أو بأخرى، بين الحرف والفكر، ويسمح بالتالي بتصور معايير وصفية من داخل النصوص.

لقد عرفت الهيرمينوطيقا تطورا كبيرا، حين اتسع نطاقها ليشمل نصوصا أخرى غير دينية. وعلى سبيل المثال، وحدت هيرمينوطيقا دانهاور Dannhauer العامة (*Circa* 1630) بين الهيرمينوطيقا الدينية والقانونية والطبية. و كانت تميز بوضوح بين المعنى والحقيقة، مسجلة بذلك تأثير فعل النظام الداخلي في النص.[70] وازدهرت الهيرمينوطيقات «الخاصة» في القرنين 17 و18، وبالخصوص منها الهيرمينوطيقات الدينية و القانونية. ويرجع الفضل لشليرماخير[71] (1768-1834) في إعادة تصور برنامج طموح وعام، انبثقت منه الهيرمينوطيقا المادية المعاصرة. فمن جهة أولى، وسع شليرماخير دائرة الهيرمينوطيقا حيث جولها مما هو ديني إلى ما هو أدبي، ثم من الأدبي إلى الكتابي ومن الكتابي إلى الشفوي، طارحا بذلك لأول مرة مشكل هيرمينوطيقا المحادثة (أنظر زوندي Szondi، 1975 ص 295). ومن جهة أخرى، فقد اقترح شليرماخير بانتقاله من العمومي إلى الكوني مشروعا يهدف إلى تأسيس هيرمينوطيقا تعتمد على مبادئ كونية للفهم. و لهذا السبب، يعتبر بحثه امتدادا لتطور النزعة الذاتية التي كانت، في القرن الماضي، وراء ظهور نظرية الأثر (théorie des affects) عند فرانك A.H Francke، أونظرية وجهات النظر (*Sehepunkte*) عند كلادينيوس Chladenius. وقد قاده هذا المسار، في نهاية

70. يظهر هذا التمييز الأساسي في الفصل السابع من كتاب سبينوزا(1670) وعنوانه-*Traité théologico-politique*

71. سنعلق على أبحاث شليرماخير في الفصل الذي خصصه صاحب هذا الكتاب للهيرمينوطيقا (المترجم).

حياته، إلى تحويل اهتمامه الأساسي من هيرمينوطيقا التأويل والنص إلى هيرمينوطيقا المؤوِّل وإلى القارئ، وذلك حينما عمد إلى تبني النظرية المتعالية التي تطرح الشروط الذاتية للتأويل. لقد حاول شليرماخير Schleiermacher طرح إشكالية توحيد علم عام للنصوص مع الفلسفة المتعالية للفهم. وفي هذا السياق، يعطينا مشكل التكَون مثالا توضيحيا، حيث طرح شليرماخير مشروع بناء النص بالموازاة مع صياغة الهدف الذي يتمثل في فهم المؤلِّف أكثر مما يفهم (أي المؤلف) نفسه. ويعتبر النقد الجيني، كما مارسه زوندي Szondi (أنظر مثلا 1975، ص 190 وما بعدها) مثالا للتطور العلمي المرتبط بهذا المشروع.

واختار أتباع شليرماخير، بطيبة خاطر، اتجاها تنظيريا. وكتب ديلتاي Diltey تاريخ الهيرمينوطيقا المعاصرة أو على الأقل حدد أصلها، ولكنه لم يجتهد كثيرا في منحها خاصيتها الروحانية عندما أقدم على تنحية اسم هومبولت الذي منح للهيرمينوطيقا كل بعدها اللغوي. لقد ضعف نموذج النص مع ديلتاي وأصبح الشعور المعاش هو أصل كل فهم ونهايته. وفي نهاية الأمر، أدى وسم الهيرمينوطيقا بالأنطولوجيا مع هايدغر، إلى عدم الاكتراث بالقيود الفيلولوجية، وإلى تعمد «تعنيف النص» التي تبناها التفكيكيون بفتح الطريق أمام انتشار النزعة المضادة للأشكال الكلاسيكية.

يجب على دلالة النصوص أن تربط «حرف» النص (و يقصد بالحرف الوضع الفيلولوجي والنحوي) بـ«فكره»، أي بمختلف التأويلات التي يفرضها ويثيرها، وستتمكن بالتالي من تجنب موقفين أحاديي الجانب ونسميهما «بالحرفية» و«الروحانية». وتنتمي مدرسة الحَرفية(littéralisme) إلى اللسانيات الضيقة التي سيطرت على الوضعية وعلى الصورنة، المقترنتين معا بالوضعية المنطقية وبفلسفة اللغة عند الأنجلوساكسونيين. و قد أفضى هذا الطرح إلى وجود اتجاهين: الاتجاه الصوري غير الدلالي، الذي يقلص العلامة ويختصرها في الدَّال وحده، و لا يأخذ هذا الاتجاه بعين الاعتبار إلا شكل «الرموز» التي تستخلص معانيها انطلاقا من التكوين التركيبي. أما الاتجاه الجوهري، فيمنح للكلمة معناها الحرفي، الذي يفرض نفسه على نحو بديهي، مع أنه نتاج لبناء تأويلي لم يقترح أحد طريقة لاشتقاقه. و بما أن الاستعمالات العملية لا تشير إلا نادرا إلى المعنى الحرفي، فقد طرح مفهوم المعنى المشتق، بحيث إذا كان المعنى المشتق متميزا عن المعنى الحرفي نظرا لأنه يُعوضه عن النواقص، فإن المعنى المشتق يعمل مع ذلك

على تأكيد تميزه (انظر ما سيأتي في الفصل الخامس).

وسلكت «الروحانية» بدورها اتجاهين، إذ يتمثل الاتجاه الأول في هيرمينوطيقا ما بعد فلسفة هايدغار التي أدت إلى نشأة التفكيكية. أما الاتجاه الثاني، فقد نبع من الذهنية الكلاسيكية التي تحولت فيما بعد إلى الدلالة المعرفية، والتي تحل معنى اللغات لتُصهره في الفضاء المتعالي عند (لانككير) Langacker أو في الظاهراتية التجريبية عند جونسون Johnson .

وستتطرق في الفصل الثالث إلى الفيلولوجيا و إلى الهيرمينوطيقا في الفصل الرابع، لنبين إمكانية تجنب هذين الموقفين الأحاديَي الجانب، وذلك بتفضيل وحدة المستويين اللذين يطبعان النص.

تناقضات اللسانيات

سنحاول رصد العرَض الأول وهو ندرة كلمة **نص** في الكتابات اللسانية. وقد كانت غائبة أولا في مصطلحات لسانيات ماروزو Marouzeau، على الرغم من أنها كانت موسومة بالطابع الفيلولوجي. وظلت هذه الكلمة قليلة الاستعمال في اللسانيات الفرنسية. وحسب دراسة إحصائية لبروني Brunet ، فإنها لا ترد بكثرة في اللسانيات مقارنة مع معظم المعارف الأخرى. [72] ويمكن للاستعمالات المصطلحية التي ظهرت مؤخرا أن تشرح هذا المعطى الفريد، إذ « يلاحظ في اللسانيات الفرنسية أن مفهوم النص قليل الاستعمال. ويفضل اللسانيون توظيف مفهوم الخطاب والملفوظ (énoncé) (أريفي Arrivé وآخرون، 1989، ص 670). كما تُستعمل كلمة **نص** حسب المؤلفين بمعنى المتن الذي يكون مكتوبا في الغالب أو المتن المُكون من الكلام (أي « الكلام» كما يعرِّفه سوسير). وبناء عليه، هل من الضروري أن نتبنى موقف كوكي Coquet لنستخلص أن النص«ليس موضوعا قابلا للدراسة من لدن اللساني، كما أنه لا يعتبر حقلا للدراسة من لدن المتخصص في المنطق و المشتغل بالتداوليات» (1988 ص91)؟

يُفترض أن النص متوالية من الملفوظات. وفي هذا السياق، يقول هورست إزامبير Horst Isenberg:« نشير بكلمة **نص** إلى متوالية منسجمة من الملفوظات التي تُستعمل في التواصل اللغوي » (1970، ص 21)؛ ويقترح في موضع آخر على سبيل المثال هذا النص الغريب: Pierre a brûlé le livre. Il ne lui plaisait pas(أحرق بيير الكتاب (لأنه)

72 . يُحسب ترددها النسبي في متن بنك فرانطيكس (Frantext) بالراسيو و يصل إلى 20,2 مقابل2,30 في التاريخ و2,30 في الاثنولوجيا و 13،30 في الفلسفة و 78,50 في القانون.

لم يعجبه). وامتد هذا الرأي إلى كُتاب مختلفين مثل سطاتي[73] Stati ودانلو Danlos الذي ذهب إلى أن « الخطاب» زوج من الجمل. والأكثر من هذا و ذاك أنه قد تم تعريف النصوص بأنها « سلسلات خطابية طويلة شيئا ما» (أورو Auroux، 1996، ص 260). سنبحث في ما يلي عن أسباب هذا التقليص.

الحقيقة و حَد الجملة

إن اقتصار اللسانيات على فضاء الجملة الضيق دليل على هيمنة المنطقية [فلسفة قائمة على غلبة المنطق و يمثلها برتراند راسل] على التكوين الصرفي-التركيبي الذي تمثل الجملة أكبر وحداته. و إذا أردنا أن نوسع إطار البحث، فإن اللسانيات الضيقة تنحدر من القضية الأفلاطونية الكبرى التي مازالت تؤرق دلالة شروط الحقيقة (sémantique véricondititionnelle) التي طرحت السؤال الآتي: كيف يمكن أن تقول اللغة الحقيقة؟ الجواب العادي قدمه التصور التمثيلي للغة، إذ يخلق الربط بين الأشياء نفسها حقيقة الإسناد[74]. ومن المعلوم أن القضايا التقريرية هي القضايا (propositions) الوحيدة المخول لها أن تُؤول بالنظر إلى قيمة الحقيقة، ويستخلص من هذا الموقف تعريف الجملة بأنها كُلية (totalité) ذات معنى. وهذا ما أجمع عليه النحويون الرئيسيون الذين عملوا على تثبيت تقاليدنا النحوية (أنظر Denys, *Technè*, 11; Apollonius Dyscole, *Syntaxe*, 2, 10, Priscien, II, 53,28). استنادا إلى هذا التصور، يبدو تطور معنى الثنائي **لوغوس/ لفظة** عرضيا شيئا ما عند أفلاطون وأرسطو. إن تعارض **اللوغوس** مع اللفظة **(lexis)** مثل تعارض المحتوى مع التعبير، و قد حاول السفسطائيون مقابلة لوغوس (وحدة معقدة، حُكم أو جملة) **بلفظة** (وحدة بسيطة أي كلمة). ولم يبق للنحاة المنتمين إلى مدرسة الإسكندرية إلا ربط الوحدة المعقدة بالوحدة الكاملة. و يشير **اللوغوس** عندهم إلى الجملة التي اعتبروها كلية دلالية، و تشير **اللفظة** إلى الكلمة التي تعد جزءاً من الجملة. ولهذا، اختزل النحاة الجملة في معنى كلمة لوغوس التي يمكن أن تشير، عند أرسطو، إلى نص طويل من حجم الإلياذة[75].

73. سنقتصر في هذا المؤلّف على تسلسل ملفوظين ومقطعين حواريين (1990- ص 12).

74. قارن المثال الذي قدمه أرسطو : « أنت أبيض ليس لأننا نفكر بالحقيقة ، ولكن نقول إنك أبيض لأنك كذلك، إننا في خضم الحقيقة» (*Métaphysique*, 10 , 1051 b 6 ; *Catégories*, 12, 14b 16 s.). ونشير كذلك إلى مقولة طارسكي Tarski الشهيرة :«الثلج أبيض قول حقيقي إذا كان وفقط إذا كان الثلج أبيضا».

75. على الرغم من أن هذه الملاحظات المتسمة بالعمومية، مستوحاة من لالو Lallot (1989 ، ص119-125)، فإنها لا يمكن أن تنسينا أن كلمة لوغوس ظلت من أكثر الكلمات تعددية، حتى عند النحاة. ولكن كلمة منطق

وبصفة خاصة، يظل مفهوم كلية المعنى مضلِّلا. يفترض بنفنيست Benveniste أن الجملة « وحدة كاملة، لأنها تتضمن المعنى والمرجع معا، بحيث تتوفر على معنى لأنها مشَكَّلة بالدلالة اللفظية، ولها مرجع لأنها تحيل على حالة ما»(19 66، ص130). ويُفترض أن الخاصية المميزة للجملة هي أنها محمول(prédicat)، إذ « لا توجد وظيفة قضوية يمكن للقضية أن تملأها. كما لا يمكن للجملة أن تستعمل كجزء ينتمي إلى صنف مغاير من الوحدات. و يرتبط هذا المعطى بالخاصية المميِّزة والملازمة للجملة، وتتمثل في كونها محمولاً» (ص 128). ويشهد دليل بنفنيست، وهو منطقي خالص، على خضوع النحو للمنطق: «سيتم وضع القضية في مستوى مقولاتي (catégorématique).**[...]**. «**لا يوجد مستوى لغوي فوق المستوى المقولاتي**» (ص129-128، التأكيد من عندنا). ونستنتج أن بنفنست يفصل الجملة عن الخطاب، واللغة- النسق (المعرفة بصفتها نسقا) عن اللغة-التواصل (المعرفة بصفتها أداة تواصل)، لقد رُمي الخطاب خارج لسانيات اللغة (أنظر1966،ص130)[76]، ومن ثمة فإن الإحراجات المقترنة بلسانيات «الكلام» (parole) فشلت في إيجاد حل.

«الخطاب العادي» ومعيرة اللغة

عرف دوني لوطراس الجملة (logos) بأنها « تركيب نثري يظهر فكرة كاملة» (*Technè* §,11). لماذا الاقتصار إذن على النثر، وبالضبط على الملفوظ الراجل (pezè *lexis*)؟ لقد استدل بعض المعلِّقين القدامى، استدلالا صائبا و مشروعا، بالقول إن النثر يمثل اللغة بدون تصنع، ويقصد بذلك اللغة الطبيعية *(kata pusin)*؛ وهذا الحصر غير المبرر نحويا ربما يعيد طرح (وهذا ما اقترحه كلود أمبيرClaude Imber) تعريف ذي مرجعية لاهوتية يسوعية، وهو التعريف الذي جعل من **اللوغوس** ملفوظا معياريا ومضبوطا

مازالت تشهد بذلك. كان للوغوس دوما جزء مرتبط بالعقل (raison) وبالتفكير (raisonnement). يشير هذا المصطلح عند أفلاطون، على سبيل المثال، إلى القدرة على التفكير(*Parménide*,135 *e; République, 582e*). وانطلاقا من هذا التصور، غر غالبا إلى التصور الحكمي أو الإسنادي.

76. عرفت نظرية بنفنست نجاحا معروفا،لأنها تستند إلى أحكام مسبقة كانت كثيرة التداول في أوساط الباحثين. و قد لخص بارط على سبيل المثال هذه الأحكام كما يلي:«نعرف أن موضوع اللسانيات الذي يحدد موضوعها وحدودها في آن واحد هو الجملة (مهما كانت صعوبات تعريفها)، بمعنى أنه لا توجد لسانيات في مستوى أعلى من الجملة، لأنه عند انتهاء مستوى الجملة، يبدأ الخطاب. بالإضافة إلى ذلك، يلاحظ أن قواعد تركيب الجمل مغايرة لقواعد تركيب المونيمات. ولكن، فوق هذا المستوى أيضا، لا وجود لتحليل مقترن باللسانيات، لأنه في هذه الحالة، لا نجد إلا المركبات غير المشكلة، أي المركبات الناقصة و الفاقدة للكرامة» (1984، ص154).

بصرامة، دون اللجوء إلى التنكر البلاغي (أنظر لالو، 1989،ص122). إن هذا الملفوظ الذي نتحدث عنه هو أولا وقبل كل شيء ملفوظ تأكيدي (énoncé assertif) ولا غرابة إذا علمنا أن أرسطو قد بادر منذ البداية إلى إلحاق هذه العبارات غير التأكيدية بالشعرية وبالبلاغة (أنظر *Peri hermèneias* 17, a). و سار مناصرو دلالة شروط الحقيقة [77] على المنوال نفسه، حين ربطوا الملفوظات بالتداوليات التي عوضت البلاغة، أو على الأقل اقتطفت منها بعضا من أجزائها. و باختصار، فإن السيطرة العتيقة للمنطق على النحو هي التي تفسر اقتصار الدراسات اللغوية على الجملة الأكثر تصريحا والأكثر بساطة.

عزلة الجملة

و يُظهر الاستعمال النسقي للأمثلة والأمثلة المضادة في اللسانيات أن فضاء التصديق مازال يقتصر على الجملة، لأن القاعدة العامة تقول إن الأمثلة لا تمتد إلى مدى بعيد. و يفترض هذا الوضع أن هناك مكتسبا، إذ يُعتبر مكتسبا الحكمُ المسبق الذي يفيد أن القضية، وهي كلية أو مجموعة من المعاني اللفظية، لا تُحدد من خلال سياقها ويمكن بالتالي أن تُدرس بمعزل عن الأمور الأخرى، دون الارتكاز على الأطروحة القائلة بتحديد المحلي عن طريق الشمولي. واستنادا إلى هذا التعريف، تتحول الجملة إلى تجريد، وهو ما عبر عنه هاريس (Harris) بكل وعي ومسؤولية حين قال:«لا توجد الجملة إلا في الاستعمال الحقيقي للغة التي تمنح دائما سياقا للتلفظ» (1969 ،ص 10) وهذا القول يفيد أن الجملة أداة صنعها النحاة.[78]

وفي مقابل هذا التصور، طرح كوليولي Culioli ما يلي:« يرغمنا النص المكتوب، وبصورة مثالية، على فهم ما يفيد أننا نستطيع المرور من الجملة (خارج النبرة، خارج السياق ، خارج الأحوال) إلى الملفوظ، عبر عملية تمديد. و يعتبر هذا التوجه قطيعة نظرية تترتب عنها نتائج لا مناص منها» (1948، 10). و تكون هذه القطيعة مزدوجة، لأنها تُدمج التموضع والسياق معا. وبالنظر إلى ما يشغلنا، فإن السياق يمتد إلى النص.

77. تستند دلالة شروط الحقيقة إلى مفهوم التحقق، وتحديد معنى جملة ما يعني «تحديد الطريقة التي تتحقق بواسطتها من صدق أو كذب تلك الجملة» وتقتصر النزعة التحققية في نظرية المعنى على الجمل الإخبارية. أنظر عبد المجيد جحفة، مدخل إلى الدلالة الحديثة، 2000، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ص 28 (المترجم).

78. لم تمنح اللسانيات المحدودة لنفسها الوسائل للتفكير في محدوديتها لكونها أهملت هذه الفكرة. وعندما لاحظ فوكونيي Fauconnier أن عبارة Elle a de bonnes jambes (لها ساقان جميلان) جملة ملتبسة، لأنها يمكن أن تحيل أيضا على مشهد لآكلي لحوم البشر، فالكاتب قد أوضح دون تعمد إلى أي حد يمكن للمشاكل الوهمية أن تؤدي إلى دراسة جمل تفتقر إلى المصداقية وإلى السياق والنص والتموضع.

إن على لسانيات الجملة أن تستفيد من تبعات هذه القطيعة. فلا يمكننا إهمال مثلا الفكرة القائلة إن الصرف-التركيب يختلف حسب الأجناس والخطابات. و في هذا الصدد، أوضحت جويل طامين Joëlle Tamine أن البدل (l'apposition) يمكن أن يكون مرتبطا بأداة تعريف أو غير مرتبط بها حسب موقعه في الرواية أو في الصحيفة. و استنتجت الكاتبة أن تصنيف النصوص يجب أن يوضح التحليل التركيبي (1976، ص139)[79]. وحتى الأصواتية (la phonétique) فإنها تتغير (أو تتشكل) حسب الأجناس اللطيفة المقترنة بالأصوات الاحتكاكية و بالحركات الأمامية.

وخلاصة القول إنه لا وجود شرعا لشكلين من اللسانيات، الأول يبحث في المستوى الصرفي-التركيبي، بينما يبحث الثاني في النص: إن هاتين الدرجتين من الوصف متكاملتان بطبيعة الحال. وإذا كانت النصوص موضوعا أمبريقيا للسانيات، فإن عزل الجمل أو بالأحرى عزل الكلمات ينتج عن إجراءات منهجية أكثر تعقيدا مما يُتصور.

بعض مظاهر الاختزال

أدت الهيمنة المزعومة «للفكر» على اللغة إلى الاستهانة بل وإلى إهمال التنوع الذي تتميز به اللغات والنصوص.[80] كما أفضت في الوقت نفسه إلى أن جعلت الجملة تعبيرا عن قضية ذهنية. و لا تنفرد الدلالة المنطقية بهذا الاعتقاد، بحكم وجود أشكال عديدة من الذهنية (mentalisme): إن الفكر يتجلى أيضا وبقوة في الدلالة المعرفية وذلك على الرغم من ظهوره في أشكال أخرى.

ويدل مفهوم التلفظ و«تكوين النص» أيضا على مدى هيمنة النزعة الذهنية. إن طريقة إدراك المستوى التصوري قد تطورت بالفعل، لكن المعنى اللغوي لا يزال مرتبطا بتمظهر المفاهيم أو بالعمليات الذهنية. وقد تجلت سيرورة التوليد التي جعلت المضامين والعمليات الذهنية تتمظهر في تعبيرات لغوية (وأدت

79 .حول التحليل النسقي للمتغيرات الصرفية-التركيبية، أنظر مالريو وراستيي (2001) .

80 . منحت فلسفة اللغة، بواسطة الفلسفة التحليلية على الخصوص وبفضل مؤسسها ستيوار ميل Stuwart Mill إلى يومنا هذا، الإطارات النظرية للفكر في العصور الوسطى، وهو الفكر الذي لم يكن يعير أي اهتمام خاص إلى تنوع اللغات. ومن هنا يلاحظ ثبات أو استمرار مشاكل معينة مثل قابلية استقلالية التفكير عن التعبير (effabilité)، التي انتقدت أو انقضت صلاحيتها من طرف فيلولوجيا عصر النهضة في مرحلة أولى، وفي سياق اللسانيات التاريخية والمقارنة في مرحلة ثانية. وبما أن فلسفة اللغة التي تتضمن دلالة شروط الحقيقة والتداوليات لا تهتم بتنوع اللغات، فقد كان عليها أن تفسح المجال للفلسفة اللسانية.

بالتالي إلى ربط النظرية الكلاسيكية للأفكار بالنحو) في أشكال متنوعة، ومنها السيكوميكانيك (psychomécanique) التي يتبناها كيوم Guillaume و المسار التوليدي الذي طرحه غريماس ونظرية التلفظ عند كوليولي، فضلا عن العديد من المناهج السيكولسانية، كما هو الحال مع منهج لفيلت Levelt... الخ. وتستمر الآن الدلالة المعرفية في اتباع هذا التقليد التنظيري القديم الذي ينطلق مما هو ذهني إلى ما هو لغوي، ويعبر بالتالي، في مراحل متعددة، عن انصهار الفكر في المادة[81].

حاولت التقاليد الأنطولوجية حل قضية النصية عن طريق مبدأ التأليفية (compositionnalité)، إذ إن الكل هو تجميع للأجزاء (Plotin) [82] ، وهذه هي الفرضية التي أعادها ليبنتز Leibniz ثم فريجة Frege . ويؤسس هذا المبدأ كل النظرية المنطقية للنص عند مونتيجو Montague و كامب Camp و أشير Asher... الخ. غير أن المبدأ نفسه ينطبق أيضا انطباقا غير محمود على الدرجات السفلى، لأنه لا يوجد مستوى تركيبي للنص كفيل بأن يعالج تكوين الجمل و تماسكها[83].

وظلت شرعية اللسانيات بخصوص تمديد الوصف إلى النصوص مصدر خلاف متعدد الوجوه، وهذا ما أكده مولينو حين شكك في وجود علم أوحد يخص تباين النصوص وسخر من **العلم العجيب للنصوص** (1989، ص 40). وفي المقابل، فإن العلاقة غير المباشرة التي تربط النصوص بالميادين الموضوعية المختلفة لا تؤدي إلى استنتاج قد يفيد بأن اللسانيات تتبوأ مكانة **العلم**[84] الكلي. ويعتبر التباين(hétérogénéité)، بمعنى التعدد المقترن بالموضوع، القسمة الممنوحة لكل علم وصفي، كما يعتبر شرطا لوجوده وليس حاجزا يحول دون ظهوره؛ ذلك أنه لا يمكننا أن نستنتج من تباين النصوص استحالة علم النصوص، ولكن على العكس من ذلك، فإن وجود علم يُعنى

81. هنا يحق التساؤل عن الخاصية التوليدية للأنحاء العامة والأنحاء الكونية منذ القرن الثامن عشر. لقد خضعت هذه الأنحاء لتأثير الأفلاطونية الجديدة؛ وكما هو معلوم، فقد وصف بلوتان Plotin و مدرسته كل أصناف الوساطات التدريجية بين الفكر والمادة. و إذا كان الفصل بين الشكل والجوهر تيمة أفلاطونية، فإن التدرج في الوساطات أو في التحولات التي تتيح الانتقال من الأشكال إلى الجواهر قد يبدو بأنه خاصية مميزة للأفلاطونية الجديدة.

82. أنظر راستيي (1992 a).

83 .على المستوى الإبستمولوجي، تعتبر اللسانيات الصورية المعاصرة وريثة الأنحاء الكلية التي ازدهرت في القرنين 17و 18 والتي تذهب إلى أن العلم ركام من المعارف العقلية التي يُبرهن عليها بالاستنباط.

84. يكتب الكاتب كلمة (Science) بتكبير حرف S، للتعبير عن الفكرة القائلة بأن اللسانيات ليست علم النصوص الأوحد(المترجم).

بالنصوص ليُعد أمرا ضروريا.

مكتسبات

يمكننا التمييز بين نظريتين أساسيتين للنص: نظريات سيميائية وأخرى لغوية. وتعتبر النظريات السيميائية الذائعة الصيت مثل نظرية غريماس المستوى اللغوي كمتَغير(variable) سطحي. وعندما اتسع مجال حقل الدراسات اللغوية، أصبح من الصعب الدفاع عن مبدأ السيميائيات الخطابية الذاتية (أنظر أسفله، الفصل الثاني)، أما النظريات اللغوية، فتنقسم إلى أربعة أصناف:

أ- النظريات المستمدة من الدلالة الصورية، وأشهرها نظرية كامب Kamp التي تتميز بتعقيدات تقنية ملحوظة، ولكنها لا تصلح للوصف المقارن للنصوص. و في الواقع، لا تمتد هذه النظريات إلى أبعد من الفقرة؛ وعلى سبيل المثال، فإن مفهوم الجنس (genre) لم تتم صياغته في إطار هذه النظريات.

ب- هدفت النظريات التداولية والتلفظية إلى تعيين أمـارات التلفظ مثل المؤَشِّرات(les indexaux) وإلى تصنيف الأفعال الكلامية ودراسة البنيات الحجاجية للنصوص التي تتقبل مقاربة من هذا القبيل. وتتأقلم هذه النظريات مع تحليل التفاعلات الميكروسوسيولوجية وبالخصوص مع دراسة المحادثات. وترتبط هذه النظريات ببعض الأجناس الشفوية، لكنها لا تنسجم وتصنيفات النصوص، لأنها تستند إلى تعريف متعال للتواصل. وهذا ما اقترحه، بعد غرايس Grice ، كل من سبيربير وويلسون Sperber et Wilson الذين طرحا فرضيتهما المتمحورة حول المبدأ القبلي للملاءَمة التواصلية. وهذان الصنفان الأوليان من النظريات اللغوية منسجمان، على الأقل، بالنظر إلى صلة القرابة التي تجمعهما بالتداوليات وبالدلالة الصورية في إطار الوضعية المنطقية.

ج-الميادين المفضلة في نظريات كوزوريو وهيجر Heger وغريماس (1966) المستوحاة من النظرية السوسيرية هي الدلالة المعجمية ونظرية التشاكل(isotopie) والتحليل السردي.

د- تهدف النظريات «البلاغية» المنحدرة من دراسة اللغات المتخصصة (سوال Swales، باتيا Bhatia) إلى وصف تنوع النصوص، مع الأخذ بعين الاعتبار الممارسات المجتمعية. و قد استطاعت هذه النظريات أن تراكم عدة ملاحظات قيمة في بعض الميادين مثل لغة القانون.

ويعود تقارب النظريتين الأخيرتين إلى رفضهما لكل من النزعة الموضوعية[85] والمحايثة.[86] و قد سبق أن أظهرتا قدرة عالية على الوصف، خصوصا في التطبيقات المعلوماتية؛ مما مكن، في المدى المتوسط، من الحسم في عدة أمور بفضل ما تتميزان به من الفعالية.

إبعاد الأنطولوجيا عن النصوص

لكي تتسنى دراسة النصوص لذاتها ومن أجلها، يجب تجريدها من الأنطولوجيا التي كان المعنى دائما يراهن عليها، تحت تأثير التصور الواقعي للدلالة اللفظية.

وفي إبان السنوات المثالية التي ميزت عصر النهضة المثالي، سلك نقد الأنطولوجيا عدة اتجاهات. في البداية، قاده التخلي عن المنهج الاستنباطي وتبني المنهج الاستقرائي و استبدال البرهنة بالتخمين المفتوح على الرفض[87] إلى إعادة تعريف صنف من **الحقيقة** التي كانت علوم اللغة تزعم معالجتها. وبعد ذلك، أدى التخلي عن المرجع، الذي يعتبر عربونا للحقيقة، إلى البحث عن المحيط الخارجي (entour)[88]، وهو مجموعة من الشروط الضرورية لإنتاج النص و تلقيه. كما يعتبر هذا المحيط ضامنا **للأصالة**. وهكذا، قال لورينزو فالا Lorenzo Valla (1417-1739) 1982) بإبعاد **الأنطولوجيا** عن اللغة: أثنى فالا، حينما مدح كانتيليان Quintilien ، على إيجابيات الاستعمال وخلص إلى ما يسمى « الأمبريقية المعجماتية » و « النسبية التاريخية».

وفي الحركة نفسها، تقلص ورود المقياس النحوي و كما قال لاردي « ننزع للنحو جهازه الوصفي المتكون من المقولات لنعطيه متنا من الأمثلة» (لاردي Lardet 1992، ص200). ويُترجَم هذا التحول التوقعي في التعليم. وإذا كان المنطق، وهو الضامن للحقيقة والركن الأساسي للتعليم الجامعي خلال القرون الوسطى، قد أزيح من الدراسات الإنسانية(*studia humanitatis*) ، فقد احتُفظ بالنحو الذي رُبط بالبلاغة الموسعة، وأعيد الاعتبار إلى الحقول المعرفية التالية: الشعرية والتاريخ والفلسفة

85. نظرية تؤكد على الحقيقة الموضوعية المتميزة عن الخبرة الذاتية ، أنظر سهيل ادريس، **المنهل**، دار الآداب، بيروت، الطبعة الثالثة والثلاثون، 2004 (المترجم).

86. ترجمة لمصطلح immanentisme و هو موقف فلسفي نقله هيلمسليف إلى الإبستيمولوجيا اللغوية، ويذهب إلى القول إن المعطيات التي لها بنية تتموقع داخل الظواهر ولا يمكن تحليلها خارج هذا الإطار(المترجم).

87. في إطار الأكسيوماتيك وبصورة متباينة، يمكن تغيير الإواليات والقواعد استنادا إلى القياس الرائد ، ولكن لا يمكن تغيير الاستنتاجات، لأنها تتبع بالضرورة الإواليات و القواعد.

88 .المحيط الخارجي (entour) : مجموعة من الظواهر السيميائية المرتبطة بفقرة أو بنص. و بصفة عامة، يدل هذا المصطلح على الشروط غير اللغوية التي تتضمن الشروط التاريخية، أنظر AST، ص 298 (المترجم).

الأخلاقية وتدريس اليونانية[89] (لاردي 1992،ص189). وبناء عليه، يمكن للنحوي، حسب بوليسيان، أن يتخذ لنفسه وضع **الناقد** العتيق[90]. وعندما خرج الفكر من الأزل ومن الحاضر، نشأ العقل التاريخي و الوعي التاريخي؛ فكانت النهضة أول عصر تم فيه التفكير بهذه الطريقة. و في مواجهة كونية العقل (*ratio*)، اعترف بعض الإنسانيين بالتعددية الحتمية للنصوص وباللغات و بالثقافات في وقت لاحق.

يمكن إذن لمفهوم النص أن يربط اللسانيات بالفيلولوجيا و بالهيرمينوطيقا. ويمكننا الآن صياغة مشروع توحيد البحث الفيلولوجي مع نظرية دلالة التأويل. والسؤال الجوهري المطروح هو: كيف يمكن تصور وحدة تجمع بين مستويين للغة، مع العلم أن اللغة مادة مختلطة وتتميز بكونها غير متسامحة من ناحية الإدراك بالمحسوس وبالمعقول؟ وبطبيعة الحال، يمكن الإجابة بأن اللغة تملك، بالواقع أو بالأحرى بالموهبة، وظيفة الوسيط بين هذين القطبين، شريطة أن تنصف هذه الإجابة وحدة المستويات اللغوية، وهما المضمون والتعبير. ولابد للتصور غير الثنائي أن يقحم الدوال [جمع دال] والمداليل في نفس المسارات: فقد تم عزلها بواسطة أصناف العمليات نفسها، والدوال ليست أكثر« بروزا » من المداليل. وبدراستنا للعلاقات الدلالية داخل السياق، فصَّلنا على سبيل المثال التماثلات بين التضاد المعالجة في التصور الدلالي وفي التصور البصري أو السمعي (أنظر راستيي 1991، الفصل الثامن)[91].

---

89. دراسة المنطق ضرورية في الإنسانيات لأن لغته كونية، أما النحو فهو حقل معرفي مرتبط بلغة معينة. وباختصار، «الفرق بين المنطق والنحو هو فرق العموم والخصوص. فالمنطق يعطي قوانين تشترك فيها ألفاظ الأمم. أما النحو فيعطي قوانين تخص لسان أمة بعينها»، أنظرعبد الرحمان بودرع، «منهج المعرفة عند علماء العربية» ، مجلة **عالم الفكر**، العدد 3 المجلد 34 يناير–مارس 2006 ، ص 140 (المترجم).

90. في سنة 1492، أجاب أنج بوليسيان Ange Politien زملاءه الذين يؤاخذون عليه نقده لأرسطو مع أنه لم يكن إلا نحويا، بالعبارات الآتية : « على النحاة أن يشرحوا ويؤولوا كل صنف من الكتاب و الشعراء والمؤرخين والفلاسفة والأطباء و المشرعين. إن عصرنا، الذي يعرف القليل عن الأشياء القديمة، قد ترك النحاة في دائرة؛ ولكن إلى جانب القدماء، كان لهذا النظام سلطة، إذ كان للنحاة وحدهم الحق في المراقبة والحكم على جميع الكتاب، وبالتالي كانت لهم أيضا صفة النقاد. ولهذا، كما قال كونتيليان، إنهم لم يكونوا يقتصرون على التأشير على الصفحات القابلة للرقابة بفواصل صغيرة، ولكن كانوا أيضا يبعدون الكتب المزيفة تماما كما يُبعد الأبناء غير الشرعيين عن العائلة : وأكثر من هذا، فإنهم كانوا يقررون من هو المؤهل للانتماء إلى الكتاب ومن لا يستحق هذا الاسم. وفي الواقع، فكلمة نحوي لا تعني شيئا آخر في الإغريقية سوى رجل آداب في اللاتينية، ولكن قلصناه إلى لعب مبتذل، وهذا ما يمكن تشبيهه بما يقع في خلفية دكان»،(1971، I، ص 490 ؛ ترجمة فوسكا ماريا ني زيني Fosca Mariani Zini).

91.يتطرق الكاتب في هذا الفصل من كتابه (*Sémantique et recherches cognitives* 1991) إلى الخصائص النفسية و الفيزيائية المتعلقة بالإدراك وبالتمثيل الدلالي. و يفترض أن النسق الدلالي، و وهو معطى جد معقد، يقيِّد كلا من النشاط الإدراكي (خلق مدلول انطلاقا من دال) و التصور الذهني (imagerie) (خلق المفاهيم انطلاقا من المداليل). و يلاحظ أن ربط ما هو نفسي (التصور و التمثيل الذهني) بما هو لغوي (الكلمات

يُجيز مصطلح مسار تأويلي[92] معالجة الرابط الإشكالي بين المستويات السالفة الذكر. في الحقيقة، تركز الدلالة التأويلية دوما على أن تحصيل السمات الدلالية يفرض المرور من المؤولين المتمثلين، حسب هذه الدلالة، في الدوال. وعلى سبيل المثال، فإن القافية مؤشر لعلاقة دلالية بين السيميمات. وإذا أخذنا بعين الاعتبار التنغيم والتطريز، فإنه لا تنشأ بين مستويات اللغة فقط تجانسات، ولكن أيضا اتصالات قارة. إذ تستطيع النبرات أن تكرر وأن تعوض وحتى أن تناقض مضمون الوحدات المعجمية بل وحتى مضمون الحقب[93]. وأخيرا وفي كل مكان، شفرت الأجناس مختلف العلاقات بين المستويين اللغويين[94]. وباختصار، تشدد دلالة النصوص على الاتصالات التي تربطها المسارات التأويلية مع مستويات اللغة، ليس فقط من أجل تأكيد تضامن هذه المستويات، ولكن لإضعاف الحكم المسبق القديم والقائل إن المعنى مستقل عن اللغات.

يظل الشك مخيما، إذ يمكن للتأكيد على ذاتية ما هو سيميائي و على ذاتية النص بالخصوص أن يفضي إلى « إعادة انطولوجيا النص»؛ وسيجد النص المعنى في ذاته ويمكن أن يشكل موضوعا لدراسة محايثة. وعندما أكد أدُوْرنُو Adorno في إطار نظريته حول الجماليات في كتابه«نظرية الجمال» *Théorie esthétique* أن العمل الفني جوهر فرد ومحور للقوى وعمل فاقد لحقوق الملكية في آن واحد، فإنه قد أعاد فلسفة ليبنتز وأعاد بالتالي صياغة قضية الكمال الأول الأرسطي[و تعني عند أرسطو، حال الموجود المتحقق بالفعل]. وقد استخدمت السيميائيات البنيوية في بعض الأحيان المحايثة التي يبدو أنها تجدد فلسفة الأنطولوجيا، لأن فكرة المحايثة تفترض دائما الاكتفاء بالموضوع، وهذا ما يتلاءم وتعريف هيلمسليف للبنية بأنها «وحدة ذاتية مكونة من ارتباطات داخلية».

يخفي التصور الأنطولوجي المرتبط بالموضوعية مشكل وجهات النظر تحت «إجـراءات» منهجية تكون مستقلة عن هذه الوجهات، دون طرح قضية الشرعية

والمعنى) من أكثر المواضيع تعقيدا في الدلالة المعرفية (المترجم).

92.المسار التأويلي (parcours interprétatif): متوالية من العمليات تمكن من إسناد معنى أو معاني لفقرة أولنص ما. أنظر AST، ص 301 (المترجم).

93. الحقبة (période) هي وحدة نصية مكونة من مركبات تنسج علاقات ائتلافية ضرورية، المرجع نفسه (المترجم).

94. أنظر الفصل الثامن . تختلف أشكال هذه الروابط حسب اللغات، و لكن المبدأ الذي يحكم هنا له دون شك توجه أنثروبولوجي، ذلك أن التطابق بين التعبير والمضمون بواسطة التجانس البنيوي قد يبدو مرتبطا بأثر للحقيقة.

الهيرمينوطيقية ولا قضية تعيين العلاقات البنيوية. ولكن الذاتية البنيوية ليست هي الاستقلال، بحيث إذا هيمنت العلاقات الداخلية، فغالبا ما تميزها العلاقات الخارجية وحدها، بدورة المتن. و عليه، فإنه لا يمكن تأسيس العلاقات الداخلية إلا عن طريق العلاقات الخارجية. والمؤولون الخارجون عن النص ضروريون للقيم. على سبيل المثال، غالبا ما تكون التقييمات التي تمكن من تعيين المفاعلين والوظائف في حَكْي ما ضمنية في النص الذي ندرسه.

يمكن للقرار القاضي بإغلاق النص ودراسته على أنه مجموعة أن يتنصل من الأنطولوجيا، شريطة تأسيس العلاقات البنيوية وتمييزها بطريقة نقدية، أي إذا كان كل صنف وحتى كل توارد لعلاقة ما يفترض وجهة نظر قادرة على تمييزها، فإن البنية تُعرَّف بأنها تجميع (globalisation) لوجهات النظر هاته.

يستنتج مما سبق أن التصور النقدي للتأويل لا يعرف أية موضوعية، وإنما يحقق الذاتية المتعددة، المعبر عنها بتعدد التأويلات و« بآفاق انتظار» أو بالتوقعات التي تتحكم فيها، إذ لكونه مؤوَّلا، فالنص هو الأساس الذي ترتكز عليه مختلف التأويلات المنبثقة من تنوع الآفاق. وموضوعيته نابعة من كونه ركيزة لمختلف الأوصاف، أو بعبارة أخرى، تلتقي فيه عوالم مختلفة.

إن هذا التنوع في التأويلات لا يؤدي بالضرورة إلى تقسيمها. و نعني بذلك أن التنوع يثير أيضا منازعات، لأنه لا توجد فلسفة حوارية دون مجادلة. ويمكن للتصور النقدي أيضا أن يتملص من قيود النظريات التفاهمية (السلمية) التي تعنى بالتطابق مع الغير (*Einfühlung*) والتي تستند كثيرا إلى التيولوجيا المتعلقة بالمذهب التعبدي المناوئ للأرثودوكسية اللوثرية .

دلالة النصوص

من إشكاليات العلامة إلى إشكالية النص

تهيمن ثلاث إشكاليات مرتبطة **بالدلالة اللفظية** على تاريخ الأفكار اللغوية الغربية [95]. وهذه الإشكاليات التي تتمركز حول العلامة هي:

أ- إشكالية المرجع المنبثقة من التقليد الأرسطي، وتعرف الدلالة اللفظية بأنها

95. نلخص هنا مقترحات وردت مفصلة في راستيي (1991، الفصل الثالث ؛ 1994a، الفصل الثاني).

تمثيل ذهني، و تعتبرها بالضبط مفهوما؛ وتستثمر الآن دلالة شروط الحقيقة والدلالة المعرفية[96] هذه الإشكالية بطرق مختلفة.

ب ـ إشكالية **الاستدلال** (inférence) النابعة من البلاغة ومن التقليد الأوغسطيني. وتَعتبر هذه الإشكالية الدلالة اللفظية بأنها حركة قصدية للفكر، تعمل على ربط العلاقة بين علامتين أو بين شيئين. وقد تطورت هذه الإشكالية حاليا في إطار التداوليات.

ج ـ إشكالية **الاختلاف** (différence) المنبثقة من السفسطائية، وقد طورها فلاسفة الأنوار وخاصة منهم مؤيدو مبدأ الترادف، و بعدئذ طورها سوسير مع نظرية القيمة و تبنتها في الأخير الدلالة البنيوية. و تفترض هذه الإشكالية أن المعنى نتاج للتصنيف التبايني.

إن موضوع إشكالية المعنى هو النص وليس العلامة، وتعرفه بأنه تأويل متحرك أو ساكن.[97]

و لتوحيد الإشكاليات الثلاث للدلالة اللفظية في إطار إشكالية المعنى، نلاحظ أن إشكالية الاختلاف قد تلعب دور الوسيط حين ننقلها من الجدول إلى المركب ومن الكلمة إلى النص، وذلك لمعالجة قضية تصنيف(catégorisation) الأشكال الدلالية. ويمكن تصور هذا التجميع في مرحلتين: تكمن المرحلة الأولى في ربط إشكاليات المرجع بإشكالية الاستبدال تحت نظرية الاختلاف؛ و تتمثل المرحلة الثانية في تطبيق هذا الجهاز على النص لوصف المسارات التأويلية. وفي إمكاننا إذن توحيد الإشكالية المعجمية للاختلاف مع إشكالية المعنى وربط السيميائي بالنصي لمعالجة قضية الاستدلال والمرجع[98] . ولبلوغ هذا المبتغى، يجب توضيح مفهوم المسار التأويلي؛

---

96. تفترض نظرية الدلالة المعرفية أن اللغة لها علاقة وطيدة بسيرورات الإدراك البشري وبتجارب الإنسان الاجتماعية و العاطفية والبيئية . إن للغة بعد نفسي ومن تم فإن دراستها تدخل في إطار علم النفس المعرفي، و لهذا يفترض جاكندوف (1983) أن البنية الدلالية هي البنية التصورية. واهتم باحثون آخرون بالأنساق غير اللغوية مثل الحركة و البصر والفضاء وبمدى إسقاطها في التراكيب اللغوية. للمزيد من التفاصيل والأمثلة، أنظر بحثنا لنيل دكتوراة الدولة:
Lexicographie arabe :vers un dictionnaire cognitif, 2002, Faculté des lettres, Rabat, pp.38-61
(المترجم).

97. يتميز التقابل بين الدلالة اللفظية والمعنى بنزعة أكثر شمولية، وقد يعمد الباحثون لتوسيعه ليشمل سيميائيات أخرى. ولهذا يبدو أن هذا التقابل يقترن بالتمييز بين الايكونوغرافيا و الايكونولوجيا كما اقترحها بانوفسكي .(*Essais d'iconologie*, 1967, p. 26 sq.)Panofsky

98. نريد هنا معالجة الاستدلال والمرجع في إطار الدلالة الاختلافية. لقد عالجت نظرية السمات المجالية الاستدلال في الدرجة الميكرودلالية، والتي ينتج ترهينها عن القيد السياقي، بخلاف السمات الملازمة التي تنتج من خلال تجليها في اللغة. ويمكن للمسارات التأويلية التي تميز هذه القيود أن تتضمن جميع أصناف

يفرض رسم المسار التأويلي في درجة النص تضافر جميع الإشكاليات الدلالية، سواء لمعالجة التنوع السيميائي الداخلي للغات أو لتحديد سير النصوص المميز.

يمكن إذن لعلوم اللغة أن تتجمع حول موضوع واحد هو النص وحول هدف واحد هو التأويل. بالفعل، إن برنامج علوم اللغة مرهون بقضية الملاءمة (pertinence) التي تتحكم في عملية تعيين الوحدات وخاصة منها الوحدات الدلالية. ولكنها ترتبط بالنظام الهيرمينوطيقي، بما أن ملاءمة الوحدة اللغوية، كيفما كان نوعها، مرتبطة بالتأويل.

و باختصار، لا توجد مُلاءَمة في اللغة، بمعنى أن اللغة تقترح مجموعة من الاحتمالات (و للإشارة، فالنص يمتلك جزءا منها) التي لا تُحوَّل إلى وحدات لغوية إلا بتحصيلها في التأويل وبالتأويل.

وصف بعض الاقتراحات

ترتكز المهام الأساسية لدلالة النصوص على ثلاثة اتجاهات متقاربة: أولها تأسيس دلالة موحدة بالنسبة لثلاث درجات من الوصف (درجة الكلمة ودرجة الجملة ودرجة النص)؛ وثانيها إعداد طبقات لتصنيف النصوص (الأدبية والأسطورية؛ العلمية والتقنية) وثالثها تطوير هذه النظريات الوصفية وربطها بالمعالجة الآلية للنصوص. وهذه بعض الاقتراحات النظرية (وقد تم تطويرها في راستيي، 1989، 1994) التي قد تمكن من تحديد هذه الأهداف.

مكونات مستوى المدلول

نستطيع تصور إنتاج النصوص وتأويلها بأنه تفاعل لا-متوالي لمكونات مستقلة: مكونات موضوعاتية و دياليكتيكية و حوارية ثم تكتيكية.

أ - الموضوعاتية: لمفهوم التيمة استعمالات متعددة في النقد الموضوعاتي وفي اللسانيات المستلهمة من مدرسة براغ (في مقابل الموضوع) وفي تحليل الخطاب (المحور(topique) مقابل البؤرة). وقد عمدت الدلالة الوصفية إلى إعطاء توضيحات

الاستدلالات التي تطرح جميع أشكال المعارف المتصلة بدرجة الجملة والنص. وفيما يخص المرجع، فإن الدلالة الاختلافية تعالجه أولا بوصف القيود الدلالية حول التمثيلات؛ أما الصور الذهنية فتُعد، بالخصوص، متلازمات نفسية متعلقة بالمداليل. وبالتالي، فقضية المرجع تصبح قضية تكوين الانطباعات المرجعية، وهذا التكوين يقتضي إقامة رابط بين الدلالة وعلم النفس. وعلى إثر تحولها من النظام الجدولي إلى النظام التركيبي، تخطت إشكالية الاختلاف مشكل الدلالة اللفظية وانفتحت على قضية المعنى: على سبيل المثال، لا يتم تحصيل السمات الملازمة إلا حين نرفض التعليمات السياقية والنصية.

بخصوص هذا المفهوم، وذلك بتعريف التيمة بأنها تجميع مُنظم للسمات. وبالنظر إلى وضع هذه السمات، يستحسن وضع تمييز بين التيمات النوعية (génériques) والتيمات المخصِّصة (spécifiques) (أنظر الفصل السابع الموالي).

تٌعرَّف التيمة النوعية بواسطة سمة أو ببنية من السمات النوعية المطردة. ويحدد هذا الاطراد التشاكلات أو شبكة من التشاكلات النوعية(أي تجميع لهذه السمات المطردة في السياق نفسه (sèmes co-réccurrents). وتحدد التشاكلات النوعية، وخصوصا المتعلقة منها بالمجالات الدلالية، « الفاعل» (sujet) أو المحور المتجلي في النص، وذلك باستنباط الانطباعات المرجعية المهيمنة. و على سبيل المثال، لا يظهر في النصوص التقنية إلا مجال دلالي واحد، لأن هذا النوع من النصوص مقيد بالميدان التطبيقي، على خلاف النصوص الأدبية التي تستطيع أن تظهر عدة مجالات.

وبالنظر إلى أصناف الطبقات(classes) الدلالية المتجلية، يمكن التمييز بين أربعة أنواع من التيمات:

1.تيمات الطبقات المعجمية التي يحملها أعضاء الطبقات المعجمية نفسها[99] أوطبقة معجمية صغرى عابرة للتعريفات.

2.التيمات المجالية التي يحملها أعضاء من نفس المجال[100] الدلالي. و تصف وتُبَنين اللغاتُ الخاصة عدة مجالات دلالية.

3.التيمات البُعدية التي يحملها أعضاء من نفس **البُعد**[101]الدلالي. وتحدد الأبعاد التقييمية أو النبرية والأنغام والفضاءات الجهية والمستويات الزمنية أوالكرونوطوب [102] في النصوص عددا كبيرا من أصناف التشاكلات البعدية.

4.التيمات المرتبطة بالحقل الدلالي وهي كثيرة التغير، بما أن الحقول ليست طبقات

99. الطبقات المعجمية (taxèmes) : طبقة من السيميمات الصغرى في اللغة؛ مثال، طبقة أدوات الأكل : «سكين»، «ملعقة»، «فرشة»، أنظر AST ، ص 302 (المترجم).

100. المجال (domaine) : مجموعة من الطبقات المعجمية المرتبطة بتجربة اجتماعية. والمجال مشترك بين مختلف الأجناس الملتصقة بالخطاب الذي يتطابق و هذه التجربة في مجال معين، ولا وجود عموما لظاهرة الاشتراك (polysémie) أنظر AST ، ص 298 (المترجم).

101. البُعد (dimension): طبقة من السيميمات ذات عمومية عليا وهي مستقلة عن المجالات. و تتجمع الأبعاد في إطار أصناف صغيرة ومغلقة، مثلا: // متحرك// مقابل // غير متحرك // . وللإيضاح، فإن هذه التقييمات تنتمي إلى الأبعاد الدلالية. AST، ص (298المترجم).

102. الكرونو طوب(chronotope) : خلفية دلالية متكونة من توارد السمة الزمنية نفسها؛ تشاكل زمني،AST ، ص297 (المترجم).

لغوية ولكنها تجميع مرتبط بحالة تطبيقية.

التيمات المخصصة هي تجميع مطرد من السمات المخصصة وقد اقترحنا تسميتها **جزيئات دلالية**. وتجدر الإشارة إلى أن الجزيئات الدلالية غير مرتبطة حتما بمَعْجَمة معينة. وفي المقابل، تملك هذه الجزيئات مَعجمة مفضَّلة بل حصرية في النصوص التقنية ، لأن المعارف التقنية تكره الالتباس.

ب ـ الجدَل[103]: ويتضمن، من بين نظريات أخرى، نظرية السرد، بحكم أنه يعالج الفواصل الزمنية والتطورات التي تحدث. وتطرح هذه النظرية مستويين، وسنقوم بالتذكير بصورة مبسطة بأهم المفاهيم. المستوى الأول هو المستوى الحدثي ويتجلى في كل النصوص المنظَّمة على أساس المكون الجدلي. ووحداتها الأساسية هي الفاعلون والأدوار والوظائف، ويقصد بهذه الوحدات أصناف الحركات الممثَّلة.

الفاعل (acteur) نوع من العوامل (actants)[104] ويتكون من عملية تجميع كل الفاعلين الذين يلعبون دون العوائد وتُمعجم تسميتهم سمة واحدة أو عدة سمات. ويتكون الفاعل من ثلاثة أصناف من السمات: الجُزيئة الدلالية المكونة من السمات المميزة والمقترنة بالمفاعلين؛ السمات النوعية (في بعض الأجناس، لا يحتوى « الفاعل» ضرورة على سمة / متحرك / [105]) ؛ وفي الأخير، هناك السمات المجالية (sèmes afférents) التي تعتبر أدوارا مكونة انطلاقا من حالات دلالية مرتبطة بالفاعلين. وتحدد مجموع أدوار عامل ما نطاقه التفاعلي الذي يتطور مع الفواصل الزمنية. ويمكن أن نصنف الفاعلين حسب عدد وطبيعة الأدوار التي تميزهم.

الوظائف هي تفاعلات نموذجية بين الفاعلين، وتعتبر طبقة من السيرورات. على غرار الفاعلين، تُحدد الوظائف بالجُزيئة الدلالية وبالسمات النوعية. وهكذا، فإن العطاء وظيفة تفاهمية، سلمية (متعلقة بالإرسال، تركيبة ثلاثية) وأما التحدي فإنه وظيفة جدالية (متعلقة بالمواجهة، تركيبة ثنائية). و تكون الوظائف مطابقة للتركيبات الفاعلية (valences actorielles)[106]. و بالإضافة إلى ذلك، فإنه من الممكن أن تتجمع الوظائف

103. الجدل (dialectique): مركب سيميائي ينظم تسلسل الفواصل الزمنية في النص، مثل الحالات المتموضعة و السيرورات التي تتحقق فيها ، المرجع نفسه، ص 298 (المترجم).

104. للتمييز بين مفهوم acteur وactant، نختار ترجمة الأول بـ« فاعل» « والثاني بـ «عامل» (المترجم).

105. مفهوم عامل المعرَّف هنا ليس له علاقة متميزة بمفهوم «شخصية». فالشخصيات الملحمية على سبيل المثال تعد فاعلا، وهي بذلك شبيهة بقطع أو أجهزة في مختصر التوضيب .

106 . نسبة إلى الفاعل (المترجم).

في شكل مركبات وظيفية. مثلا، يتكون التبادل (échange) من وجهين للإرسال، وهما **مواجهة الهجوم والهجوم المضاد.**

أما المستوى الثاني فهو **المستوى الصراعي**(agonistique) وهو أسمى من المستوى الحدثي، وتتكون وحداته الأساسية من المصارعين (agonistes) ومن المتواليات. أما المصارع فهو صنف مكوِّن لطبقة من الفاعلين. وفي النصوص الأسطورية على الأقل، غالبا ما يوسم الفاعلون الذين ينتمون إلى الطبقة ذاتها المكونة للمصارع، بواسطة تشاكلات نوعية مختلفة، فضلا عن أن الفاعلين مرتبطون في المقابل بالعلاقة المجازية. فإذا تناولنا مثلا العجوز كما هو وارد في *Toine* للكاتب الفرنسي موباسان، فإنه يمثل الشخصية المنتمية إلى التشاكل الإنساني ولكنها مرتبطة في إطار علاقة مجازية «بالديك» المتعلق بالتشاكل الحيواني، والريح مرتبط بالتشاكل الجوي و « الموت» مقترن بالتشاكل الميتافيزيقي [107]. و هكذا، يُعرَّف المصارع بعوامل مشتركة بين الجزيئات الدلالية وبين أدوار الفاعل.

و تحدَّد **المتواليات** [108] بالنظر إلى تجانس المُركَّبات (syntagmes) الوظيفية المنتمية إلى الشكل نفسه. وبما أن هذه المركبات تحتل مواقع مختلفة في الزمن الجدلي، فإنها منظمة في نطاق علاقات المنطق السردي (افتراضات) غير الكرونولوجي.

ويقود التمييز بين المستوى الحدثي والمستوى الصراعي إلى تفصيل مفهوم السرد. وعلى العموم، فإن المركب الجدلي في النصوص التطبيقية لا يملك إلا المستوى الحدثي، في حين تتميز النصوص الخيالية، فضلا عن المستوى الأول، ببروز المستوى الصراعي.

وفي هذا الإطار الذي قدمناه، تنتمي الحكاية إلى المستوى الجدلي، بينما ينتمي السرد إلى المستوى الحواري. و بطبيعة الحال، هذان المكونان مترابطان إلى حد كبير. وعلى سبيل المثال، فوظيفة **التعاقد** مكونة من تبادل سيرورة الإرسال المتموقعة في العوالم الممكنة والمرتبطة بفاعلين تعاقديين. وبعبارة أخرى، تُدرس وظائف التعاقد في إطار الجدل، بما أنها تبادل مجموعة من الوُعود، ولكن هذه الوعود نفسها تُعد جزءا من المستوى الحواري، باعتبارها وحدات مُوجَّهة (modalisées).

---

107. أنظر راستيي (1989)، و سنجد في هذا العمل أمثلة مفصلة.

108. المتوالية (séquence): وحدة جدلية تنتمي إلى المستوى الصراعي و هي مكونة انطلاقا من تصديقها لمجموعة من التسلسلات التي تفيد الوظائف،AST ، ص 302 (المترجم).

ج ـ **المستوى الحواري** : يعالج هذه المستوى توجيه الوحدات الدلالية في كل درجات تعقيد النص. إن الكون هو مجموعة من الوحدات النصية المرتبطة بفاعل أوبموقع التلفظ. وكل وجه (modalité) يكون متعلقا بموقع (كون) وبمَعلم (فاعل). وعلى سبيل المثال، عندما تحدث الراوي في رواية *La Cousine* Bette عن حركة جميلة وقبيحة في الوقت نفسه، فكلمة «جميلة» تحيل على الكون المتعلق بفاعِلَيْن، وتحيل كلمة «قبيحة» على كونه. إن كل كون قابل للتجزئة إلى ثلاثة عوالم: العالم الواقعي المتكون من وحدات تتضمن الوجه التأكيدي؛ العالم المُتخيل المتضمن لوحدات تتضمن بدورها وجه المستحيل و اللاواقع؛ أما العالم الممكن، فيتكون من وحدات تتضمن وجه الممكن[109]. يُستخلص مما سبق أن العوالم والأكوان تتطور حسب فواصل الزمن الجدلي.

يؤسس المستوى الحواري تصنيفا للمتلفظين الممثَّلين. مثلا، لا تتضمن النصوص ذات التعليمات التقنية إلا موقعا تلفظيا واحدا و موقعا تأويليا. و للتذكير، فإن هذه المواقع ليست لها تسمية. أما المقالات العلمية، فتحتوي على عدد كبير من المتلفِّظين المفوضين بالشواهد والإيحاءات. وتُحَدَّد المواقع التأويلية عبر الطقوس الإيمائية الموجهة للمبتدئين.

د ـ **التكتيك**: يعالج هذا المكون الأخير التنظيم الخطي للوحدات الدلالية على مستوى كل الدرجات. و تربط خطية المدلول في الواقع علاقات متينة مع خطية الدال، ولكن لا تختلط معها في أي من الدرجات. وبالطبع، يمكن للموقع النسبي لوحدات الدال أن يُستعمل كإشارة لعلاقات توزيعية بين وحدات المدلول. وباختصار، حينما يكون للنص بنية جدلية، وحينما يتميز الزمن الممثَّل بالخطية، فإن مواقع الوحدات الدلالية لا تنَظم بالضرورة لا حسب خطية الدال ولا حسب خطية الزمن الممثل.

التفاعل بين المكونات الدلالية

تُحدد كل وحدة دلالية، في مختلف درجات التحليل، بالنظر إلى المكونات الأربعة، أي أن هذا التحديد يأخذ بعين الاعتبار موقعها داخل الكون الدلالي والكشف الهوياتي والوجهي والزمني أو التوزيعي.

109. على الرغم من هذا التقديم، لا نزعم أن نظرية العوالم الممكنة تنطبق على دلالة النصوص. فالعالم الممكن ليس هوالعالم الممكن بالمفهوم الليبنيتزي، حيث طرح ليبنتز في كتابه *Théodicée* إمكانية تحقيق المتخيل في روايات الآنسة دو سكوديري de Scudéry .

و لا بد من قرار منهجي كفيل بعزل هذه المكونات الأربعة التي تتفاعل تفاعلا متزامنا ولكن دون تراتبية.

تهدف دلالة النصوص بالخصوص إلى وصف هذا التفاعل، حسب أنظمة الوصف اللغوي الأربعة، وهي النظام الجدولي والتركيبي والمرجعي والهيرمينوطيقي. و الحقيقة أن كل صنف من التخصيص الذي يهم الوحدة الدلالية التي تسمح بها المكونات الأربعة قابل للخضوع لأربعة أصناف من الوصف. ويمكننا إذن وصف شكل دلالي ما بعلاقته بقائمة من الأشكال، ونُحوِّله بالتالي إلى وصف جدولي؛ ويمكن وصفه بأنه جزء من تسلسل لعدة أشكال (وصف تركيبي)؛ أو نتيجة لمسار تكوين أو إعادة تكوين (وصف هيرمينوطيقي)؛ وبعلاقته بأشكال غير لغوية (وصف مرجعي).

إن كل مكوِّن قابل لأن ينخرط في ثلاث درجات من النسقية، حسب التصور الذي يقضي بربطه بالنسق الوظيفي للغة وبالمعايير اللهجية-الجماعية للخطابات والأجناس أو بالمعايير اللهجية-الفردية للأساليب.

الأشكال الدلالية وديناميكيتها

في الدرجة النصية كما هو الحال في الدرجات التحليلية الأخرى، تنشأ الوحدات عن التقطيع وعن التقسيمات التي تتعرض لها الأشكال والخلفيات الدلالية[110] التي يمكن أن نطلق عليها اسما عاما و هو المورفولوجيات. وتنقسم دراستها إلى ثلاثة مقاطع: الروابط بين الخلفيات، في حالة الأجناس التي تتضمن العديد من التشاكلات النوعية مثل الأجناس الحِكمية؛ الروابط بين الأشكال؛ و بالخصوص التعالقات التي تربط الأشكال بالخلفيات، وهذه الروابط أساسية لدراسة الإدراك الدلالي.

ويمكن لهذه المورفولوجيات الدلالية أن تكون حسب المكونات موضوعا للكثير من الأوصاف. على سبيل المثال، بالنظر إلى المكونات الأربعة، يوصف التكتل الثابت للسمات الدلالية (أو الجزيئات الدلالية) بأنه محور أو فاعل أو هدف أو موقع لرؤية موجهة، مثل الموقع الذي يوجد في خطية النص. ومن جهة أخرى، هناك أصناف من العمليات الإنتاجية والتأويلية التي تقابل كل مكون .

إذا كان الوصف السكوني يطابق بعض التطبيقات في المستوى الجدلي مثلا، فينبغي على أي وصف دقيق أن يعيد الخاصية الديناميكية المتعلقة بإنتاج النصوص وتأويلها.

110. الخلفية الدلالية (fond sémantique) : مجموعة من التشاكلات التي تنحدر منها الأشكال الدلالية، أنظر AST، ص 299 (المترجم).

وتقتضي المرحلة الأولى وصف القوى المحركة لهذه الخلفيات ولهذه الأشكال، أي الاهتمام مثلا بوصف تكوين الجزيئات الدلالية وتطورها واندثارها المحتمل. و يتم توسيط هذه القوى المحركة وتوسعها بأشكال مختلفة حسب الأجناس والخطابات، لأن الأشكال و الخلفيات مكونة داخل هذه الأجناس ومعرفة بالنظر إلى معايير مختلفة. ومن جهة أخرى، بما أن تعاقد الإنتاج والتأويل المرتبط بالأجناس والخطابات يوجه مسارات هذه المورفولوجيات، فإن دلالة النصوص تعمل على تكييف وصفها مع هذه الضوابط المورفولوجية (أنظر الفصل الثامن).

يبدو أن تصور الخلفية الدلالية مرتبط بالإيقاعات، في حين أن تصور الأشكال مرتبط بالتقاطيع (contours) ، ومنها التقاطيع التطريزية التي تقدم صورة.

الإيقاعات[111] والخلفيات

إذا كانت الخلفيات الدلالية تتكون من عدة تشاكلات، مع العلم أن التشاكلات تنتج عموما عن اطراد السمات النوعية ، فإن التحيين الزمني (temporalisation) لهذا الاطراد مثبت بالإيقاعات. ونعلم الدور الأساسي الذي تلعبه الإيقاعات داخل الإدراك، أي أن لها أثر تسهيلي في المدى القريب، زد على ذلك أن تعالقها اللغوي يقتضي خلق محيط للاطراد. ونتيجة لذلك، تعالج الايقاعات جزءا من التخمين التشاكلي (présomption d'isotopie) الذي يضطلع بدور تحصيل السمات (أنظر راستيي، 1987 ،الفصل الثالث)[112]. وفي هذا السياق، يمكن التمييز بين الإيقاعات المتجانسة التي يتم تثبيتها بتكرار السمة نفسها أو التكتل السمي نفسه، من جهة والإيقاعات المتنافرة التي تعمل على تناوب السمات أو التكتلات، مثل التناظر العكسي[113] من جهة أخرى. وتمتد هذه الإيقاعات إلى الدرجة الماكرودلالية[114]. وعلى سبيل المثال، فإن

---

111. الإيقاع الدلالي(rythme sémantique): تطابق منَمط بين شكل تكتيكي وبنية موضوعاتية، جدلية أوحوارية؛ و يعتبر التناظر العكسي مثالا له. أنظر AST، ص 302 (المترجم) .

112. هذا التبسيط ليس إلا تفعيلا قبليا ومحليا، ولكن يلاحظ أنه توجد عدة تفعيلات قبلية وشاملة، مرتبطة بالنوع و بالتموضع.

113. ترجمة لمصطلح chiasme ، أنظر **قاموس اللسانيات** لعبد السلام المسدي 1984، الدار العربية للكتاب، تونس (المترجم).

114. يفترض راستي .ثلاث درجات في النظرية الدلالية التي تهدف إلى الوصف اللغوي:
أ) الميكرودلالة : و تنطبق على المعجم و وحداتها الأساسية هي المورفيم و الكلمة والمركب؛
ب) الميزودلالة: ومجال تطبيقها المركبات؛
ج) الماكرودلالة: وتهتم بالدرجة العليا و المعقدة وهي النص. (للمزيد من التفاصيل، أنظر F.Rastier, « La microsémantique », 2000, CNRS, in www.texto-revue.fr (المترجم).

البنية الأولية للمحكي كما وضعها غريماس ترتكز على التناظر العكسي دون الرجوع إلى تيمة الأصل الشعري [أو البويطيقي] للغة، التي درسها مثلا فيكو Vico. ولابد أن نشير هنا إلى الدور الذي تتحمله الإيقاعات في مختلف السلّميات الزمنية عند إنتاج وتصور اللغة [115].

تقاطيع الأشكال

بناء على ما سبق ذكره، فإن الحقب تقاطيع (contours) دلالية تظهر متلازمة مع التقاطيع اللحنية، وتقدم النصوص في درجتها العليا تقاطيع يسعى التأويل إلى التعرف عليها والمرور عبرها، علما أن التعيين والمسار يظلان ملتحمين.

في السابق، ارتكزت الدلالة البنيوية على مجاز صواتي وطَرحت السمات الدلالية على منوال السمات الصواتية، ولكنها أهملت العوامل التطريزية لأن خاصيتها الدلالية المباشرة مخالفة، من دون شك، للفصل الأنطولوجي بين المستويين المكونين للغة. وبصفة عامة، وبالطريقة نفسها التي يقابل فيها التصور العروضي والكمي للبيت الشعري التصورَ النبري (accentuel)، يمكن إتمام التصور التوزيعي للنص وربما تجاوزه، وذلك بطرح تصور مورفودلالي يمكن من معالجة الفروقات الكيفية.

يجب إثارة مشاكل أخرى من قبيل تعيين الوحدات من هذه الزاوية: فمثلا، الجملة عبارة عن تقطيع منطقي، بينما الحقبة تقطيع فيزيولوجي و/ أو عاطفي[116]. إذا نظرنا إلى أبعد من الحقبة التي تتضمن الشّبر(empan)، والشبر يقاس دون شك بقدراتنا الحركية والتنفسية، فإن النص ليس له دال ذاتي يتم تعيينه استنادا إلى عمليات التقطيع، إلا إذا استثنينا التحديدات القوية مثل الوقفات الطويلة أو تغيير الفصل (chapitre).

115. على سبيل المثال يرتكز تطابق إيطوس المخاطب وباطوس المستمع دون شك على التزامن الإيقاعي للتدفق العاطفي.

116. في درجة الحقبة، يؤدي التطريز إلى طرح مشكل التعرف على الأشكال الدلالية. في الواقع، بدأنا نقيس دور التطريز في تصور اللغة وخاصة في التعلم، حيث يتعرف الطفل على النماذج التطريزية ويشرع في تقليدها قبل المرحلة المسماة المرحلة اللغوية . و لكن الدراسات قليلة جدا في موضوع التطريز وحتى الموجود منها رديء في اللسانيات، لأن خاصيتها الاستمرارية لا تتناسب والعمليات النحوية مثل التقطيع والتفاصل. أضف إلى ذلك أن تعبيرها المباشر للتقييمات وللأثر يقلق العقلانية النحوية. ومع ذلك، فإن كثيرا من النصوص لا يمكن تقطيعها الا عن طريق التلفيظ (verbalisation) التطريزي، سواء كانت الجمل طويلة (سان سيمون و بروست) أو غير مرقمة (كلود سيمون) أو أن كتابتها تكون خفية (elliptique)، مثل التوراة التفسيري الذي لا يمكن قراءته إلا باللجوء إلى التآميم té'amim، وهي تنغيمات مضبوطة « و » نبرات رابطة- فاصلة وغائبة خطيا» . ثم إن التآميم تمكن من وضع الوقفات وتعديل سرعة القراءة، و تعمل بالتالي على خلق الإيقاع» (أنظر بنان Banan 1987، ص 42).

وهذا سبب أساسي لتجنب منهج العلامة، لأن الوحدات الدلالية النصية ليست لها دوال يمكن عزلها مثل أجزاء الكلام؛ ثم إن هذه الوحدات مؤلفة من ترابط المداليل المتموقعة في الدرجات السفلى للحقبة وللمركب وللوحدة الدلالية. و تجدر الإشارة إلى أن هذا الترابط لا يُكَون شبكة متماثلة، إذ أن بعضها مُبرَّز و له قيمة ومُوجَّه. كما أن هذه النتوءات تحتوي على النظام الكيفي الذي يميز ما هو مُمرر بالتنغيم(intonation).

المسارات

لا يُستنبط معنى النص من متوالية من القضايا، ولكنه ينتج عن مسار الأشكال الماكرودلالية التي تملك دلالاتها الذاتية، عبر دورتها وعبر التقويمات التي ترتبط بها. وفي فهم النصوص، نجد أيضا مشاكل شبيهة بما يطرحه التعرف على الأشكال المتضمنة للضجيج أو على الأشكال الناقصة [117].

توسم الفروقات الكيفية الأماكنَ واللحظات المتميزةِ التي نسميها نقط التقاطع (points nodaux) الدلالي، التي تتميز بدرجتها العليا في الترابطية: النقط التي يسهل عزلها هي الحوارات التي تحول البنية السردية أو الكلمات المرتبطة بالعديد من التشاكلات النوعية [118]. وتعد هذه المعطيات أهدافا للحركات التلفظية[119].

تمكن الإشارات والحركات ونقط التقاطع واللحظات النقدية وزمنية الإيقاع وفنية التقاطيع من تصور النص على أنه مجرى حركة (cours d'action) سيميائية[120]. ويأخذ هذا التحليل بعين الاعتبار أمورا أبعد من مسألة ترابط الرموز. إن جنس النص هو الذي يقنن سلوك هذه الحركة، ولكن ما يمكن أن نسميه المخصِّص التلفظي *(ductus)*[121] يميز المتلفِّظ، ويساعدنا على تمييز الأسلوب الدلالي عبر الإيقاعات والتخطيطات

117. تعالج السميائيات المنبثقة من التقليد الهيلمسليفي هذه الأشكال (المتضمنة للضجيج أو الناقصة) بعمليات المساعد السيميائي (catalyse). في الذكاء الاصطناعي، الهدف من السكريبت هو معالجة هذه التهيئة التصورية، ولكن في إطار إشكالية الحِساب فقط، وهذا ما يفضي إلى عدم حل مشكل انطلاق العمليات الإجرائية (fram-problem).

118. لا يؤدي هذا التحليل إلى الفكرة القائلة بأن هذه النقط التوليفية أو مسألة التقاطع تُكون «مصفوفات» للنص؛ على الأقل، لأن الوراثة النصية تمكن من صياغة فرضيات بخصوص هذه المسألة (أنظر المؤلف،1992a، 1997a).

119. على المسارات التأويلية أن تتعرف على الحركات النصية، مثل الخط التصاعدي والقطيعة التي تتناسب مع ما نسميه، بعد فرانسوا دوي، التحركات (mouvements) أو إشارات (gestes) المتلفظ.

120 . ينتمي النص، وهو جزء سيميائي من الحركة الاجتماعية، إلى مجموعة مقننة من الحركات (actions).

121. المخصِّص التلفظي (ductus): استنادا إلى هذا المخصص، يتم تحديد الأسلوب الدلالي عبر الايقاعات والتخطيطات التي تنتمي إلى تقاطيع الأشكال. AST ، ص 298 (المترجم).

(tracés) الخاصة بتقاطيع الأشكال.

لا يخضع التصور المورفودلالي المتعلق بالنص للذرية التي تعتبر من خصائص التقليد النحوي، غير أنه يساعد على الدراسة التفصيلية لمفهوم المسار التأويلي. إن هذه التمثيلات التي تُظهر قوى محركة في فضاء ما أو إيقاعات في الزمن ليست لها أهمية. ويُطرح مشكل التقطيع الأساسي كالتالي: إن الإيقاع هو الذي يمكن من إدراك الفاصلة (intervalle) وإن التحرك هو الذي يسمح بتجزيء المتوالية. كما تسمح هذه المفاهيم الوسيطة بتصور العلاقة التي تربط الشمولي بالمحلي بطريقة أقل تبسيطا وأقل سكونية من العلاقة التي تجمع العضو بالمجموعة أو الجزء بالكل. إن المرور من الشمولي إلى المحلي، في ما يخص التخزين مثلا (كل تأويل يفترض تخزيناً) يتم عبر الأشكال الدلالية[122].

والحاصل هو أنه من الممكن أن نُنمذج التصور المورفودلالي انطلاقا من نظرية الأنساق الديناميكية وانطلاقا من الخلفيات الدلالية التي تبدو في هذه الحالة مثل متواليات من نقط مطردة، كما تخضع الأشكال للترقيم بواسطة نقطها الفريدة (أنظر المؤلف، 1999b). ويفترض مسارها الإنتاجي أو التأويلي إيقاعا، وهو خلية قاعدية لكل حركة. والملاحظ أن الإيقاع يحدد المقاطع المطردة للأشكال التي يشير تغيرها إلى النقط الفريدة.

تُترجَم أيضا المقابلة بين التصورات المنطقية-النحوية و البلاغية/ الهيرمينوطقية في ما يخص التأويل عبر الاختلافات في النظام الزمني و الجهي (aspectuel) للسيرورة الإنتاجية والتأويلية. ويقابل الاطراد التوزيعي والتكراري للفواصل المتساوية المتعلقة بالزمن المنطقي-النحوي تناوبَ اللحظي(ponctuel) والاستمراري (duratif)، والتام (perfectif) وغير التام (imperfectif) في الزمن البلاغي/ الهيرمينوطيقي.

التحولات

يمتد الترابط الموجود بين مستويي اللغة، الذي يتجلى في المسارين التلفظي والتأويلي بين العلامات، إلى وحدات منتمية إلى درجة عليا، مثل الخطاطات التطريزية أو العروضية في مستوى التعبير، والترددات أو تحولات الجزيئات الدلالية

122. لنأخذ مثال هذا الشاعر الشيخ من مملكة نزاكارا، في أوبانكي العليا، و قد طلب منه ايريك دامبير Eric Dampire توضيحات لغوية: «فسماع تسجيلاته الخاصة غير كافية. ويلزمه أخذ القيثارة، وعزف قطعة أولا ثم التعليق عليها ثانيا »،(Préface aux *Satires de Lamadani*, Paris, Les Belles Lettres1994) .لا يتعلق الأمر هنا بمسائل حول تقوية الذاكرة، بحيث يجب أن يُفهم جزء من نص ما على أنه لحظة من عمل تطبيقي.

(تكرار تيمي (topoï) ، فاعل، وظائف سردية) في مستوى المضمون. ويجب التمييز في درجة النص، حسب المكونات المقترحة، بين التحولات التيمية والجدلية (السردية) والحوارية (جهية، حسب«وجهات النظر» و«مواقف الكلام») والتكتيكية (موضعية). ونسمي **ميتامورفيزمات** (Métamorphismes) مجموع هذه التحولات. ونقحم فيها **الميريمورفيزمات** (mérémorphismes) ، وهي علاقات بين أجزاء من النص تقدم بطريقة متماسكة وعبر فضاء محلي أشكالا تكون مضخمة في الفضاءات المغايرة التي تتميز بالشكل الشمولي والمُسهب. و على سبيل المثال، تُنقل الأشكال المشفَّرة مثل الوصف الأولي والحكاية الدينية والحلم المبشِّر إلى النص عبر أشكال أخرى أكثر اتساعا. وتُترجم الميريمورفيزمات في اللسانيات ظواهر من قبيل التضامن السلّمي (solidarité d'échelle).

إلى جانب الميتامورفيزمات التي تهم الأشكال الدلالية، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار التنقلات (transpositions) التي تهم الخلفية [123]. وانطلاقا مما سبق، سنضع الأمثلة حسب المكونات الدلالية الأربعة التي تظهر في الجدول التالي:

المكونات الدلالية	الميتامورفيزمات(التحولات)	التنقلات
الموضوعاتية	تحويل التيمة	تغيير التشاكل
المستوى الجدلي	تحويل سردي	تغيير المتوالية
المستوى الحواري	تغيير الموقع	تغيير النغم(ton)
التكتيك	تغيير السلسلة(مثال: قلب أو تناظر عكسي)	تحويل الإيقاع الدلالي

يقتضي توليد النص وجود سلسلة من الميتامورفيزمات والتنقلات التي توضَّح شفويا استنادا إلى دراسة إعادة الصيغ، وكتابيا استنادا إلى المسودات. كما يقتضي تأويل النص في مجمله تعيين الميتامورفيزمات وتقييمها: وخير مثال على هذا ارتكاز معنى المحكي على التحولات التيمية و الجدلية.

123. لقد عالجنا مشكل الخلفيات الدلالية في إطار نظرية التشاكل (1987) ويجب بذل مجهود أكثر لتطوير قضية التشاكلات النظمية والألوان العاطفية التي تثيرها .

من الناحية المبدئية، تعتبر الميتامورفيزمات المنتمية إلى المتناص وإلى التناص[124] متساوية، ولكن الوحدات الأولى تمتد في فضاء موصول ومرتبط بانغلاق النص، في حين تمتد الثانية إلى فضاءات بعيدة وذات مسار افتراضي.

ولكن العلاقات الثنائية بين النصوص مُثبتة فعليا، سواء على مستوى الدال أو على مستوى المدلول. ولهذا، فإن قصيدة أبولينير Apollinaire، التي تحمل عنوان جسر ميرابو (Le pont Mirabeau)تعيد خطاطة القافية المستعملة في أغنية تعود إلى القرن الثالث عشر؛ كما تعيد القصيدة المعنونة بأغنية المحبوب التعس(La chanson du mal-aimé) هي الأخرى، عبر عملية التحويل، المعنى المشترك الموجود في بداية النشيد الثاني وعنوانه الجنة، وهو من تأليف دانتي Dante (أنظر أسفله الفصل السابع). وتُنقل الأشكال النصية بطريقة تمكن من التعرف على القياسات رغم التحولات الطارئة. ولا يمكن فهم التناص ووصفه إلا بتأسيس سلالة من الإشارات التحولية التي يدرسها المعنى المشترك.

وفي الوقت الراهن، تنتمي التصورات الثلاثة الكبرى للشكل، ألا وهي الوزن (schème) و الجشطلت (gestalt) و الوعي الإدراكي(noème) (بالمفهوم الهوسيرلي) إلى فلسفة التعالي، أي أن الوزن، المنحدر من التقليد الكانطي، يلعب دور الوساطة بين المُدرَك بالعقل وبين المحسوس، و لكن لا تربطه باللغة أية علاقة. بالفعل، لقد منحه بيرتليت Bertlet دور إعادة التذكر وهو شبيه بالدور السردي. و لكنه، منذ ظهور نظرية منسكيMinsky1975، أهملت النظرية المعرفية «الكلاسيكية» على العموم هذا البعد الزمني.

يشير مفهوم الوعي الإدراكي الهوسيرلي من جهته إلى الموضوع المحتمل كما هو مكون ومعرف بأنه متعالق تفاعلي مرتبط بتعددية الوحدات المسماة «noèses»، إذ يمكن هذا المصطلح من دراسة ما يسمى بالثابتية التصورية (invariance perceptive). وبما أن مصطلح الجشطلت منحدر أساسا من النظرية التصورية، فإنه يُدمج كليا في نهاية المطاف في الأبعاد التي تهم الحركة والزمن.

ولمعالجة مسألة الأشكال النصية دون تقليصها إلى أوزان أو إلى وعي إدراكي[بالجمع في النص] ظاهراتي، فإننا قد طورنا مصطلح جزيئة دلالية (molécule

124.المتناص هو مجموعة من النصوص التي نتذكرها عند قراءة نص معين أو مقطع من نص ما (المترجم).

sémique) وهو شكل كفيل بالانصهار في مختلف عمليات المَعجمَة التوليفية والتحليلية، في النص نفسه و في اللغة نفسها و في لغتين أو في نسقين سيميائيين. ولما كانت الجزيئات الدلالية أشكالا، فإنها تخضع للعملية التحولية داخل لغة ما أو خارجها ، كما أنها تتعرض لعدة تنقلات من خلال إبدال الخلفية الدلالية التي تبرز هذه التنقلات. و تمكن هذه الجزيئات من معالجة الترجمة ومن التداخل السيميائي دون افتراض وجود مستوى من التمثيل المجرد والمستقل عن اللغات وعن أنساق العلامات.

التلفظ و التأويل

التلفظ والتأويل متلازمان، إذ لا يعتبر المفهوم الأول صورة معكوسة للثاني، بل ويمكن اعتبارهما شكلين لنشاط واحد مطبق على الميدان نفسه المقرون بالموضوعية السيميائية. إن الحركة السيميائية، شأنها في ذلك شأن كل حركة، تحقق دون شك مزاوجة تطرح دائما إشكالية المحسوس والمُدرك، وذلك بحكم العلاقات المعقدة التي تبنيها بين المستويين اللغويين والتي تفترض أن كل علامة ملفوظة أو مؤولة تنتمي بالضرورة إلى نص ما.

ويتم إعادة المسارات الأولية و تطويرها في درجة النص وفي مستوى جد معقد. في إطار التلفظ كما في إطار التأويل، تؤثر الحركة و التصور الدلالين على ثلاثة أصناف من «الوحدات»:1. على **الخلفيات التصورية** التي تنشئها التشاكلات النوعية؛ 2. على **الأشكال المطردة** أو الأجزاء المطردة من الأشكال التي تطرحها التشاكلات النوعية ؛ 3. و أخيرا على **الأشكال الفريدة** أو الأجزاء الفريدة المستمدة من الأشكال الموسومة بالانقطاع التشاكلي[125].

بما أن كل شكل مُعرف بقابلية التنقل، فإن انقطاع هذا التنقل يخلق حدثا يوصف بعدم التساوي الكيفي المباغت. ويقوم النشاط التلفظي والتأويلي بإعداد الأشكال و بإنشاء الخلفيات وبالعمل على تنويع العلاقات التي تجمع بين الخلفية والشكل. كما يتم توليد الخلفيات والأشكال عن طريق التعديل المكرر (إعادة صيغ ومراجعات واسترجاع). وكنتيجة لهذا التحليل، فإن كل نص يُتولد حين يُعاد تأويله، إذ أن إنتاجه يعتبر في المقام الأول تأويلا، و حين يصحح الكاتب نصوصه بمراجعتها فإنه يؤول نفسه. وفي الأجناس الشفوية، يعتبر القول أيضا تعليقا خاصا يتجلى دوره في الشرح

125. الانقطاع التشاكلي(allotopie): علاقة فصل إقصائي بين سيميمَين (أو شكلين سيميَين) متضمنة لسمات متنافرة؛ وبصورة أعم، يشير المصطلح إلى انقطاع التشاكل. AST ، ص297 (المترجم).

وفي المعارضة. وتسمح هذه التشكلات للمتلفظ بالتوفيق، قدر المستطاع، بين قيود اللغة والخطاب والجنس الأدبي و التموضع و بين ما تلفظ به أو كتبه .

وموازاة لذلك، لا يعتبر المسار التأويلي الذي يهم الأشكال النصية سيرورة حتمية للمتواليات؛ ويمكن أن ينقطع هذا المسار في المستوى الشفوي بإعادة الصيغ وبطلب التوضيح، و في المستوى الكتابي عبر عملية الرجوع إلى الوراء. وباختصار، سواء كان ذلك أثناء التلفظ أو عند التأويل، لا يعتبر الفاعل أو بالأحرى لا يعد موجها (manipulateur) للمقولات المُستعلِية. فالفاعل متموضع ثلاثيا في تقليد لغوي وخطابي؛ في ممارسة تتجلى في جنس النص الذي يستعمله و يؤوله؛ وفي حالة تتطور ومن الواجب عليه دائما أن يتأقلم معها.

يعرف مسار حركة الفاعل السيميائية بالفعل اتجاهين متكاملين وهما التذكر والتوقع (anticipation). و نعلم حاليا أن الذاكرة لا تعد مجرد ولوج إلى ذكريات مخزّنة في مكان ما يكون ثابتا، ولكنها عبارة عن خيال و إعادة خلق حسية-حركية انطلاقا مما يسمى في علم النفس بإشارات الاسترجاع (indices de récupération). و لهذا، فإن التذكر شأنه في ذلك شأن التوقع يستدعيان الخيال معا، إذ توجد بين الخيال الاستعادي للتذكر و بين الخيال المستقبلي للتوقع تلك التسوية التطبيقية للحاضر والتي تكون مقيدة بما قيل و بما سيكون. و يستخلص مما سبق أن موضوع التلفظ والتأويل هو العلاقة بين ما قيل، وما سُمع – أو ما كُتب وقُرئ- وبين المتواليات المرتقبة، وليس هو العلاقة بين الشيء الواجب قوله أو فهمه و التعبير عنه.

لإثبات ذلك، سنذكر هنا أنه يمكننا الاستعانة بنظرية الذاكرتَين. و هناك اتجاه حديث في علم النفس المعاصر يفترض أن «الذاكرة الدلالية» إحياء لأحداث عاشها الإنسان. وكما لاحظ ذلك كورنويجول Cornuéjols ، فإن الجمع بين الكلمات مرتبط بتكرار حالات «واقعية» أو سردية. (1998 ، ص 272). وينطبق هذا التحليل أيضا، على المستوى الآخر للغة، أي على مستوى الترابط الصوتي: بطرحهما لما سمي بنظرية حركية التصور، برهن ليبيرمان وماتنغلي Lieberman et Matingly على أن تأويل الأصوات اللغوية يوقظ تمثيلات مفصلية. وأثبت المتخيَّل الوظيفي أن التحليل السمعي، في عملية الحكم على القافية مثلا، يحرك الأنغام المتضمنة في التمفصل (articulation) وخصوصا تمفصل بروكا Broca . وبناء عليه، فإن تصنيف الأصوات المشابه لكل

تصنيف يستدعي نقلا تَذَكُّريا، ويضع تخطيطا للحركة. وإجمالا، سواء تعلق الأمر بما نسميه الذاكرة الدلالية أو الذاكرة الأصواتية، شريطة أن نتمكن من التفريق بينهما، فإن التأويل و(إعادة) الإنتاج يمضيان في الطريق نفسه، و ليس الماضي و المستقبل إلا البعد الزمني للحركة التي تمكننا من تأويل الحاضر و التحرك في إطاره.

وإذا كان التوقع مصحوبا بحركات رجعية تصحح أو تعمل على انسجام فارق مجرى الحركة مع تخطيطها الأول أو الحاضر[126]، فإن هذا المبدأ يتجاوز تلفظ النص و تأويله أو كل إنجاز سيميائي، و ينطبق على زمن التقليد و على الحركات الأخرى المتعلقة بالحركة الانتقالية (translation) والترجمة والتعليق(أنظر راستيي1996a)[127]. والخصائص الرجعية وكذا التوقعية للمحكي ليست إلا حالة خاصة ومُثلى لهذا الإطار العام للانجازات السيميائية.

وتمكن التكاملية بين التلفظ والتأويل، مع الأخذ بعين الاعتبار للتكاملية بين الاستذكار والتوقع لكل منهما، من مماثلة المقابلات العامة بين المعرفة و الحركة، وبين التأمل و التطبيق، وبين اللغة والأفعال.

126. يمكن القول إن التلفظ يعكس إبرام عقد بين مبدأ الواقعية اللغوية و مبدأ اللذة التلفظية. فاللغة إذن ليست وسيلة للتعبير ولكنها مبدأ للواقع.

127. بما أن الحالات التاريخية لا تتكرر، فإن إعادتها مستحيلة والتقليد نفسه يتأسس بواسطة توقع ماهو جديد أكثر مما يتأسس على إعادة إنتاج الماضي.

الفصل الثاني

السيميائيات: من العلامة إلى النص

يبدو أن السيميائيات حقل معرفي شاسع الأطراف ولا حدود له، وسندرسها إذن من زاوية ضيقة لمساءلتها حول النص. وبالنسبة إلينا، فاللسانيات هي سيميائيات اللغات والنصوص. لكن، وبما أن السيميائيات واللسانيات عرفتا مسارات متباينة، فمن الواجب أيضا مساءلة العلاقة القائمة بينهما.

سيميائيات أم سيميولوجيا[128]؟

تترجم التباينات الاصطلاحية دون شك عدة اختلافات ابستيمولوجية. الاختلاف الأساسي يهم الحقل المعرفي الذي أنشأ علم العلامات. وبالنسبة للتقليد الذي طوره بورس[129]، فإن المنطق الفلسفي هو الأصل؛ أما عند سوسير، فإن اللسانيات هي المنبع. ويرتبط التقليد الأول بتصنيف العلامات وبالتحديد الصوري لعلاقاتها، ويمنح الامتياز للغات الصورية[130]، كما يدرس ،انطلاقا من نظريات العلامات، المقولات الأساسية التي تعنى بدراسة اللغات.

تنطلق الإشكالية الأخرى من اللغة عوض انطلاقها من العلامات، ولكنها تسعى

---

128 . الفرق بين السيميائيات و السيميولوجيا هو الفرق بين الخصوصي و العمومي، فالسيميائيات تبحث في «أنظمة العلامات المختلفة كنظام اللغة و الألوان و الصور و الرموز، أما السيميولوجيا فهي الهيكل النظري لعلم العلامات بصفة عامة و دون تخصيص لهذا النظام أو ذاك « د. سيد نفادي، «السيميوطيقا و علاقتها بالفلسفة والعلم عند كارناب» ، **عالم الفكر**، العدد 1 المجلد 31 ، 2002، ص47 (المترجم).

129. ينبه سعيد بنكراد، أن اسم Peirce يُنطق بورس [Peurce] و ليس بيرس كما يكتبه جل الباحثين الذين اطلعت على أبحاثهم. وقد قدم المؤلف مجموعة من الباحثين الأنجلوساكسون الذين لاحظوا هذا الخطأ. أنظر كتابه **السيميائيات و التأويل**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005، ص 12-11(المترجم).

130. وهكذا، فقد واصل *Formal philosophy* لريشار مونتيكو Richard Montague ، بطريقته الخاصة، المشروع المنطقي الذي اقترحه كارناب Carnap.

إلى تجاوز اللسانيات: ولهذا فإن مؤلَّف هيلمسليف *Prolégomènes* à une théorie du langage الذي صدر سنة 1934 يقدم سيميائيات عامة تسعى إلى وصف كل أنساق العلامات. وتقترض هذه السيميائيات من نظرية سوسير منحاها اللا- واقعي، بحيث لم يعد يُطرح مشكل المرجع على النحو الذي يطرح في المناهج التقليدية، كما تقترض شكلا من الهولية (holisme) البنيوية التي تفترض أن النسق يسبق عناصره، مثل العلاقات التي تسبق حدودها (termes).

وفي وقتنا الحاضر، هناك أربع تصورات للسيميائيات[131]، ممثلة بشكل كامل، تقابلها مجموعة من التوسعات في موضوعها. يقتصر التصور الأول على البحث في أنساق العلامات غير اللغوية، مثل علامات الطرقات وفن الشعارات والبِدلات؛ وقد مثل هذا التصور اللسانيون الوظيفيون مثل جورج مونان أو لويس بريطو Louis Prieto . أما التصور الثاني، فيرى أن اللغة مجموعة من المبادئ المشتركة بين اللغات وبين أنساق العلامات غير اللغوية (لويس هيلمسليف ، أرجرداس - جوليان غريماس)[132]. فاللغة تبحث إذن في العلاقات السيميائية وفي البنيات الأساسية، مثل «المربع السيميائي» عند غريماس، وهو شكل قبلي لكل دلالة لفظية.

وإذا مددنا السيميائيات إلى مدى أبعد من أنساق العلامات القصدية، فإنه يمكننا تعريفها بأنها دراسة الطريقة التي يتمكن العالَم بها من وضع المعنى، متضمنا للعلامات. ولهذا، ففي النظرية الأوغسطينية التقليدية حول العلامات الطبيعية، يمكن للسيميائيات أن تدرس الأمارات(indices): فالسحابة تعني المطر خلافا لكلمة مطر، ولكن بالنسبة لايكو Eco، مثلا ، تستطيع السيميائيات أن تكشف وحدة هذه الطرق المؤدية إلى المعنى، وبالتالي، تعرَّف العلامة بأنها شيء يعوض شيئا آخر، وذلك استنادا

131 للمزيد من التفاصيل حول السيميولوجيا بشكل عام، أنظر على سبيل المثال لا الحصر، مارسيلو داكاس: **الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة**، ترجمة مجموعة من الكتاب، سلسلة البحث السيميائي، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1987 ؛ عادل فاخوري، «حول اشكالية السيميولوجيا (السيمياء)»، سلسلة **عالم الفكر**،المجلد الرابع و العشرون، العدد الثالث، يناير/ مارس 1997 وحول السيميائيات، أنظرجميل حمداوي، «السيميوطيقا و العنونة»، سلسلة **عالم الفكر**، المجلد الخامس و العشرون، العدد الثالث يناير/ مارس 1997 ؛ ومجلة **عالم الفكر**، المجلد 35 ، يناير- مارس،2007،عدد خاص عن السيميائيات (المترجم).

132. يمكن التمييز إجمالا بين اتجاهين داخل السيميولوجيا المعاصرة:«المدرسة الأمريكية المنبثقة عن بيرس ويمثلها مؤلفون مثل موريس و كارناب... الخ. و المدرسة الفرنسية أو بالأحرى الأوروبية و المنبثقة عن سوسير والتي يمثلها بويسنس و هيلمسليف و بريطو و مونان و بارط» . د. سيد نفادي، المرجع نفسه، ص50 ، راجع أيضا جيرار دو لودال، «بيرس أو سوسير»، ترجمة عبد الرحمان بوعلي، **العرب و الفكر العالمي**، العدد الثالث، 1988، ص (125-113) المترجم.

إلى الصيغة الأرسطية[133] : *aliquid stat pro aliquo* . يؤدي هذا التصور السيميائي غالبا إلى الظاهراتية، مثل الفانيروسكوبيا (phanéroscopie) [ظاهراتية جديدة أسسها بورس و تعتمد وصف السمات الصورية وتفكيكها وتركيبها لمختلف مكونات الفكر] التي يمثلها بورس.

وفي الأخير، هناك كتَّاب يوسعون إطار السيميائيات ويمددونه إلى أبعد من العالم الإنساني، تاركين بذلك مكانا مبررا للسيميائيات الحيوانية أو الزوسيميائيات (Zoosémiotique). يستغل هؤلاء الكتاب، في إطار جمعهم بين العلوم الاجتماعية وعلوم الطبيعة والحياة، حتى المفاهيم المرتبطة بالتخصصات العلمية مثل مفهوم الشفرة الجينية، وذلك للارتقاء بنوع من البانسيميائيات [المبحث الذي يرى أن كل شيء له طبيعة سيميائية] ، وهي شكل متطور لفلسفة الطبيعة.

يقابل هذه التصورات الأربع العديد من الأصناف الابستيمولوجية. يجعل التصور الأول من السيميائيات حقلا معرفيا وصفيا يستخدم المنهج المقارن. وباختصار، فالسيميائيات علم اجتماعي له وضعه بين العلوم الأخرى؛ و يتميز التصور الثاني بكونه طموحا وبأنه يوكل للسيميائيات مهمة مفادها طرح معايير لكل العلوم الإنسانية (هيلمسليف)؛ ويختلط التصور الثالث بفلسفة المعنى اللفظي؛ أما التصور الأخير، فيسعى إلى محو التفرقة بين العلوم، مثل التفرقة القائمة بين العلوم و الفلسفة.

السيميائيات ونظرية النص

لم تمنع هذه التباينات حول السيميائيات العامة من تناسل السيميائيات النوعية ، عكس ما كان متوقعا. إن **السيميائيات الخطابية**، التي عملت في سبعينيات القرن الماضي على ملء الفراغ الذي تركه غياب لسانيات نصية متطورة، قد انقسمت إلى حقول معرفية فرعية، حسب أصناف الخطابات: تشريعية وسياسية ودينية... الخ[134]. و أصبح من الضروري تطوير السيميائيات الخطابية، لأنه في اللسانيات، يلاحظ

133 . *aliquid stat pro alique* : تعبير لاتيني يعني أن « شيئا ما يأخذ مكان شيء آخر »، فالدخان مثلا يشير إلى النار أو الدال يشير إلى المدلول (المترجم).

134 . هناك سيميائيات أخرى تتميز بروائز حسية أو «صيغ» التعبير: سيميائيات بصرية، سمعية... الخ. تتخصص بعض السيميائيات في مجالات لها علاقة بالممارسات الثقافية: سيميائية الرقص و السينما والإشهار و الطبخ... الخ. وبعضها يهتم بالأنساق الخاصة (السيميائيات الحركية) أو مجالات الواقع المحدد اعتباطيا: سيميائيات الحكي و السيكوسيميائيات... الخ.

أن نظريات النص المرموقة ظلت مرتبطة بالإشكالية المنطقية-النحوية[135]. ولكن السيميائيات الخطابية خلصت إلى اعتبار المستوى اللغوي متغايرا «سطحيا» حسب غريماس[136]. في وقتنا الحاضر، ومع توسع حقل الدراسات اللغوية، أصبح من الصعب الدفاع عن سيميائيات خطابية مستقلة. و لن يكون هذا الصنف من السيميائيات إلا «الوجه الشريك» للسانيات الضيقة؛ بغض النظر عن ضرورة إعادة تجزيء علوم اللغة، لا يمكننا التمسك بحدود مبحثية بين النص والجملة. على سبيل المثال، يؤسس التشاكل بتوارد السمات (وحدات ميكرودلالية لدرجة أقل من السيميم)؛ ومع ذلك ، يمكنها أن تتوسع لتشمل النص بأكمله. ولكن، يمكن الاعتراض بالقول إن بعض الوحدات النصية تبدو مستقلة عن اللغات: فالوظائف السردية أو الفاعل هي وحدات سيميائية، أو لنقل، بصورة ارتجالية في وقتنا الحاضر، إنها وحدات تصورية ومعرفية. يجب مساءلة هذا الحكم العادي. فمثلا، تبني الدلالة النصية الفاعلين والوظائف وتعتبرهم جزيئات دلالية نوعية؛ غير أن السمات وحدات لغوية وليست مفاهيم أوتمثيلات[137]. و مع ذلك، ما يزال بعض الباحثين يفترضون أن الوحدات النصية تكون مستقلة عن اللغات والثقافات، وأن الوحدات اللغوية ليست إلا أشكالا سطحية، ليس من الضروري تجليها.

لقد ورثت السيميائيات المعاصرة من علوم اللغة بعض النفور عند محاولتها معالجة النص، وفضلت البحث في العلامة، وهي موقع للمرجع، مثل ما أن القضية موقع للحقيقة. ويعد بنفنست شاهدا على هذا التوجه حين عبَّر بطريقة قطعية : «الدلالة» هي «المعنى» النابع من التسلسل ومن التخصيص إلى السياق ومن تماسك

---

135. إنها تقلص النصية وتختصرها في علاقات بين جمل متجاورة: تطابق زمني و عوائد تُكون تناظرات محلية. للأسف، إن دراستها مصحوبة باختزال قضوي للنص. يتجلى مبدأه، الذي مثله على الخصوص فانديك Van Dijk، في حذف القضايا التي يُعتقد أنها ثانوية، بعد تشفير الجمل وتحويلها إلى قضايا (propositions)، ويتم الاحتفاظ في النهاية بقضية واحدة تسمى الماكروقضية (macroproposition) وهي الوحدة المخول لها تمثيل النص. في بداية الستينات من القرن الماضي، كشف روفي Ruwet عن طريقة بحث جديدة حين قام بتلخيص سونيتة للويز لابي Louise Labet إلى ماكروقضية وهي **أحبك** (je t'aime). تبدو القيمة المميزة لهذا النوع من الوصف ضعيفة، لأنه كان في الإمكان أن تؤدي آلاف السونيتات [السونيتة: قصيدة من 14 بيتا] في ذلك الزمان، بالطبع، إلى النتيجة نفسها. يمكن «للشكل القضوي» أن يقلص النص إلى ما يمكن أن تتصوره الإشكالية المنطقية- النحوية؛ ولهذا، حقق هذا الشكل خصوصا في السيكولسانيات نجاحا كبيرا.

136. يربط المسار التوليدي المعنى اللفظي، الذي تشكلت بنيته البدائية، «المربع السيميائي»، كمنهج تأليفي (الأكثر» عمقا» في أي سيميائيات)، بالنص الذي ينتمي إلى البنيات السطحية.

137 . للمناقشة، أنظر المؤلف،(1987)، الفصل الأول و (1991)، الفصل الثالث.

مختلف العلامات بعضها ببعض. وهذا شيء لا يمكن توقعه على الإطلاق. إنه الانفتاح على العالم. بيد أن السيميائيات هي المعنى المنغلق على ذاته والمتضمَّن بصورة ما في ذاته» (1974؛ ص 21). وهو يمثل حد القضية الفاصل بين الحقلين المعرفيين، أو على الأقل بين موضوعاتهما. وبالنظر إلى المضمون، تتعلق إشكالية العلامة بالمنطق وفلسفة اللغة، وبالنظر إلى التعبير، فإنها ترتبط بالتقليد النحوي الذي بلغ أوجه في التحليل الصرفي-التركيبي المعاصر. وهذه الإشكالية لها علاقة بالسيميائيات، أما الدلالة فإنها بحق مرتبطة بالنص.

وبما أنها وريثة الفلسفات المنطقية التي تهتم **بالمعنى اللفظي**، فإن السيميائيات فلسفات تسعى في المقام الأول إلى تعريف العلامات و تصنيفها، بدلا من البحث في نظريات **المعنى** المنبثقة عن البحث الهيرمينوطيقي[138]. وبصفة تلقائية، تعتبر السيميائيات النصَّ علامة.

إن هذا التصور، الذي نجده عند بورس وإيكو«Le message équivaut au signe» (1992 ص32)[139]، وحتى عند غريماس[140]، لا يعير بطبيعة الحال اهتماما للاختلاف الموجود، من ناحية مستوى التعقيد، بين العلامة والنص، ويمتنع عن التفكير في تأثير النص على علاماته.

في الواقع، لم تنتج السيميائيات المعاصرة نظرية للنص تكون مطابقة للإشكالية البلاغية / الهيرمينوطيقية[141]. فعلا، غالبا ما تتجاوز التطبيقات الوصفية للسيميائيين المعاصرين النظريات المنطقية- النحوية التي يتبنَّوها، ولكن نظرياتهم تظل رهينة المعنى اللغوي المرتبط بالعلامة، ولا تهتم **بالمعنى** المرتبط بالنص. عندما لجأ اللغويون إلى

138. تدرس السيميولوجيا و السيميائيات جميع أنواع العلامات، أما الهيرمينوطيقا فإنها مرتبطة باللغات الطبيعية. وتقول سيزا قاسم: « تسعى السيميوطيقا إلى تعريف العلامات التي يبدعها البشر و تصنيفها وتحليلها، بينما تسعى الهيرمينوطيقا إلى كشف الطرق والوسائل التي تمكن من فهم النصوص». وفي هذا السياق، فالسيميائيات أعم لأنها تهتم بجميع أنواع العلامات، أما الهيرمينوطيقا، فإنها ألصق بالنصوص. د. سيد نفادي، نفسَ المرجع ، ص48 (المترجم).

139. «يمكن النظر إلى الماكروعلامة التي يمثلها *Le Rouge et le Noir* بأنها المؤوِّل للقضية التالية:«*Napoléon est mort le 5 mai 1821* : مات نابليون في 5 ماي 1821» ، نفس المرجع .

140. «يعتبر النص علامة، وخطابه، المقسم إلى عدة تشاكلات شكلية، ليس إلا الدال الذي يسعى إلى كشف مدلوله» (1976، ص 267).

141. الإشكالية البلاغية/ الهيرمينوطيقية: إشكالية قليلة التوحد، نابعة من التقليد البلاغي أو الهيرمينوطيقي، وموضوعها النصوص والخطابات والانجازات السيميائية المعقدة من حيث إنتاجاتها وتأويلاتها. لكونها تتمركز حول التواصل وبصفة عامة الإرسال، فإنها تسعى إلى تحديد شروطها التاريخية وآثارها الفردية والاجتماعية، خصوصا على المستوى الفني. أنظر AST، ص 302 (المترجم).

عملية التعاوض(commutation)لتحديد الوحدات اللغوية في كل الدرجات، راهن هيلمسليف على نموذج العلامة[142] في سعيه لتعريف المضمون. تُميز النظرية الغريماسية، وهي أشد تعقيدا في هذا الميدان، بين المعنى اللفظي والمعنى النصي، ولكنها تنشئ الأول من الآخر. ويحاول المسار التوليدي الغريماسي على الخصوص أن يشتق، بواسطة سلسلة من التحويلات، المعنى النصي من البنية الأولية للمعنى اللفظي، المختصر رمزيا في المربع البولوني (booléen) المضعَّف، هذا «المربع السيميائي» الذي ما زال يشهد بالأصل المنطقي لمفهوم المعنى اللغوي[143].

تظل العلاقات بين الدلالة والسيميائيات غامضة جداً [144]، إلى درجة أن السيميائيات، في إطار بحثها المقتصر على العلامة، لم تنتج إلا نظريات للدلالة اللفظية. غير أن الدلالة،عند ما تعالج النص، فإنها تكون مدعوة لأن تنتج نظريات تخص المعنى النصي.

هيلمسليف : حدود النموذج السيميائي للنص

مضى أكثر من نصف قرن على ظهور كتاب *Prolégomènes à une théorie du langage*[145] وهو مؤلَّف رمزي حول السيميائيات السوسيرية، ومن الأفيد تقييم المسافة التي قطعها. سأبدأ إذن بمساءلة الكتاب حول النص.

هيلمسليف والحركة الخطابية في كتاب *Les Prolégomènes*

العمل الأول لهيلمسليف له طبيعة خطابية، أو على الأقل يُمكن أن يُدرس على هذا الأساس، لأن الخطابة تتحكم في العقل. استنادا إلى أشكال العرض النظري، يفصح هيلمسليف بوضوح أكثر من سوسير وبورس، عن نيته في القطيعة مع التاريخ، رغم أن مؤلفاته السابقة، وخصوصا كتابه *Les principes de la grammaire générale* وكذلك كتابه *La théorie des cas*، تتموضع داخل تاريخ الأفكار اللسانية، وغالبا ما كانت تساهم في بلورتها بطريقة جيدة. هنا تأخذ نظرية اللغة شكلا استنباطيا و تفصح

142. يعرف المعنى اللغوي أو الإحالة (*dénotation*) بأنه علاقة بين وحدة تنتمي إلى مستوى المضمون ووحدة تنتمي إلى مستوى التعبير.

143. من وجهة نظري، أعتبر ببساطة هذه البنية الأولية المقدمة في غريماس وراستيي (1968) كواحدة من البنيات المثبتة بين الأقسام المعجمية البسيطة.

144. مثلا، سبقت سيمياتيات هيلمسليف دلالته البنيوية (1975)، ولكن سيميائيات غريماس (المقدمة في كتابه *Du sens* في سنة 1970)، منبثقة من كتابه *Sémantique structurale* (1946).

145. ظهر النص الأصلي بالدانماركية سنة 1934 وتُرجم إلى الفرنسية سنة 1968.

جليا عن معارضتها للنظرية الإنسية (humaniste) (أنظر 1971a، ص 15)[146]؛ لا تترك النظرية الأكسيوماتيكية عادة أي مكان للدوكسوغرافيا[147].

وفي الاتجاه نفسه، تخلى هيلمسليف عن طرح الموضوعات في صورة إشكالية، إذ إن نظرية اللغة ليس لها طبيعة نقدية، ولا تفتح المجال للنقاش ولا للظرفية، وهذا ما يشهد به القصر المفرط في الفصول، التي لا تتعدى معدل خمس صفحات في الطبعة المرجعية. كانت الإيجازية تغري دوما المدافعين عن الفضيلة العلمية غير المنسجمة مع فتنة البلاغة؛ وتتناقض هذه الإيجازية ضمنيا مع النسخة (copia) الإنسية – رغم كونها إحدى الأشكال العليا للفصاحة، التي كانت وراء سلطة *les prolégomènes*.

إن مصدر تصور العلم كما مثله كتاب هيلمسليف هو مؤلَّف أرسطو «التحليلات الثانية»، الذي اعتبره الكاتب مجموعة من المعارف العقلية المتولدة عن طريق الاستنباط. و في علوم اللغة، نحن مدينون له بكل مشاريع الأنحاء الكلية، منذ القرن الثالث عشر،لأن المنهج المعاصر هو منهج *Principia Mathématica*، كما هو مطروح في المقدمة الخاصة بالمسلّمات في ملخص هيلمسليف (1975) *(le résumé)*. ومن الواجب التذكير بمشروع بلومفييلد Bloomfield : *(A Set of Postulates for the Science of Language,* 1926) ومشروع بوهلر(*Die Axiomatik der Sprachwissenschaften,* 1933) في فترة ما بين الحربين. إن تقديم الملخص (Résumé) المكون من مجموعة دوغمائية من التعريفات والقواعد مستوحى من هذه البرامج، أولا يوجد هنا شيء من الفردوسية في هذه التسمية المتكررة مئات المرات؟

أصبحت إ رادة القطيعة مع التاريخ مصحوبة بقطيعة مع الدياكرونية[148]. و بعد ذلك، يُترجم هذا العمل التكويني، وهو صفة مميزة للحداثة، بغياب البيبليوغرافيا التي تؤشر إلى الرغبة في محو كل شيء[149]. لقد كان هيلمسليف يسعى إلى تأسيس

146 . نحيل على الطبعة الفرنسية الثانية لـ *Prolégomènes* (1971a) ونلجأ للضرورة إلى النص الدانماركي الذي أعيد نشره سنة 1993.

147 . الدوكسوغرافيا (doxographie) : نشاط فكري يتمثل في إعادة أفكار و نظريات الفلاسفة والباحثين القدامى و المعاصرين والتعليق عليها. وتتجلى أهمية هذا النشاط في وضع تاريخ الحقول المعرفية أو الأفكار (المترجم).

148 .في كتاباته التي تعود إلى ثلاثينيات القرن الماضي، نظَّر هيلمسليف للبانكرونيا (panchronie) ولكن هذه التيمة أختفت فيما بعد.

149 يحتوي *Prolégomènes* على مراجع متفرقة، ولكن الملخص لا يتوفر على أي منها. وبهذا، يصبح النقص البيبليوغرافي تقليدا، لأن غريماس، على غرار هيلمسليف ، حذف البيبليوغرافيا بداية من 1966، وسار بوتيي Pottier على منواله.

السيميائيات، مرة ثانية، دون مراعاة الموروث العتيق والكلاسيكي، المرتبط إلى حدود بورس بالميتافيزيقا. وكان من المتوقع أن يجعله هذا النهج ينقطع عن الواقعية التي تميز هذا التقليد.

Les Prolégomènes : برنامج من أجل العلوم

لم يثر الفصلان الأولان والكلمتان الأخيرتان للكتاب، *Humanistas et universitas* كثيرا من الاهتمام. في بداية الكتاب، يتخذ هيلمسليف موقفا رافضا للفيلولوجيا والنظرية الإنسية، وذلك على الرغم من أنه كان فيلولوجيا بارعا. ومرد ذلك إلى اعتبار هذين الحقلين المعرفيين نسبويين. ولضمان أساس متين للعلوم الإنسانية، اقترح هيلمسليف مؤسسة صورية للسانيات، فور توسيعها لتشمل العلوم الإنسانية الأخرى (1971a ، ص 18)، إذ كان لهذا التوسع أثر على الصنف الابستيمولوجي؛ على سبيل المثال، يمكن للتاريخ أن يصبح توقعيا، حيث «تستطيع نظريته وصف كل الأحداث الممكنة (أي كل التركيبات المحتملة للعناصر)، وشروط تحقيقها» (ص 16)[150].

في مرحلة ثانية، وفي نهاية الكتاب، انتقلت نظرية اللغة من الحروف إلى الرياضيات بواسطة اللسانيات (ص 137)، ومن تم إلى كل العلوم، بل والأكثر من هذا، «إلى المعرفة الإنسانية بأكملها». وهذا ما يبرر، دون شك، الكلمتين الأخيرتين اللتين انتهى بهما الكتاب. وبناء عليه، يجعل هذا البرنامج من نظرية اللغة النموذج الموحَّد لكل العلوم. في هذه النظرية، صاغ هيلمسليف، بطريقته الخاصة، أطروحة الوضعية الجديدة لوحدة العلم، وقد أعاد طرحها كل من موريس Morris [151] و كارناب في سنة 1938 في *Encyclopaedia of Unified Science*؛ ولكن هيلمسليف وضع هذا التوحد في إطار اللسانيات وليس في إطار المنطق[152].

150. يتجاوز هذا البرنامج العظيم طموحات الماركسية، ولكنه يشبهه من حيث إنه حوَّل تاريخ التخصص الوصفي إلى التخصص التوقعي. ينتج الولوج إلى المحتمل عن البرنامج الصوري، ويرى هيلمسليف أنه مرتبط بالطموح العلمي: «الهدف من كل علم هو معرفة التوصل إلى المحتمل مرورا بالملاحَظ».

151. اقترح شارل موريس (1979-1901) في الثلاثينات من القرن العشرين ثلاث مكونات للسيميائيات: التركيب و الدلالة و التداوليات. ويميز هذا النموذج السيميولوجي بين «الأبعاد الدلالية و التركيبية والوظيفية للإشارة. و وفقا لرأيه، فإن العلاقة بين الإشارة والمجموعة الاجتماعية هي علاقة دلالية والعلاقة بين الإشارة و بين الإشارات الأخرى هي علاقة تركيبية، أما العلاقة بين الإشارة ومستعمليها فهي علاقة وظيفية». بيير جيرو، **علم الإشارة (السيميولوجيا)**، ص. 16 ، عن. د. سيد نفادي، المرجع نفسه، ص51 (المترجم).

152. في مقابل الرغبة في التوحد النظري، يطرح كتاب هيلمسليف(*La catégorie des cas*) وحدة الموضوعات: «تخضع اللسانيات، التي تشبه موضوعاتها من ناحية الموضوعية مواضيع أي علم آخر، لنفس الشروط العامة للمعرفة» (1935، ص 86). ويفترض مصطلح شروط عامة أطروحة وحدة العلم، التي أنكرت كل ميزة نوعية لعلوم الثقافة.

كان لوك Locke يفترض- وهو أول باحث معاصر تمكن من تسمية ومن تعريف السيميائيات- ، وبصورة تقليدية، أن العلامات ليست سوى أدوات بسيطة للفكر[153]. وقد أعاد صياغة التجزيء الثلاثي الرواقي المرتبط بالمعارف و المتضمن للعلوم التالية: الفيزياء والمنطق والأخلاق. أما السيميائيات، فلا تعد سوى اسما جديدا لمنطق يعطي الأهمية القصوى للعلامات.

يسعى التقسيم الثلاثي «الجديد» إلى الانفصال عن ثنائية المادة والفكر بما أن السيميائي لا يُختزل لا في العنصر الأول ولا في الثاني .الحاصل أن السيميائيات المعاصرة لعبت دورا ابستيمولوجيا إيجابيا ربما لأنها استطاعت أن تتعارض والمنهج الاختزالي الذي يتجلى في أطروحة وحدة العلم. وفي الوقت الذي كانت فيه السيميائيات ذات التوجه المنطقي - الوضعي عند موريس وكارناب[154] تنتصب بمعية الثلاثية (تركيب/ دلالة/ تداوليات) كعقبة أساسية في وجه تطوير علوم اللغة إبان النصف الأول من القرن الماضي، يبدو أن سيميائيات هيلمسليف، نظرا لأصلها اللغوي، قد تطابقت تطابقا جيدا مع موضوعها، خصوصا رفضها لواقعية الإحالة الساذجة[155] ولقيم الحقيقة. وكانت هذه السيميائيات تعترف بصورة غير مباشرة بالخاصية الأنطولوجية لما هو سيميائي.

هل يمكن حل مشكل كفاية السيميائيات باللجوء إلى المنهجية؟

يعود أول مشكل تصادفه نظرية هيلمسليف إلى مبدأ **المحايثة** (principe

---

153. يميز لوك بين ثلاثة أصناف من العلوم: الفيزياء هي«معرفة الأشياء كما هي موجودة، وكما هي مركبة، بكل خصائصها وعملياتها»؛ التطبيق، الخاضع للأخلاقيات، «يدرس الوسائل التي تمكن من تطبيق أفضل لقواتنا وأفعالنا»؛ وفي الأخير، نجد السيميائيات وتسمى أيضا المنطق، لأن «الكلمات تكوِّن فيه الجزء العادي»، و السيميائيات « تأخذ بعين الاعتبار طبيعة العلامات التي يستعملها الفكر ليتمكن من فهم الأشياء، أو لتبليغ المعرفة إلى الآخرين» (*Essai sur l'entendement humain*، IV،21).

154. يتجلى الجانب المنطقي في سيميائيات كارناب في شروط الصدق التي وضعها للشفرات و للعبارات، فهو يميز بين نوعين من الأنساق الدلالية: أنساق الشفرة Code systems وأنساق اللغة Language systems. و«يضع لنسق الشفرة قائمة بشروط الصدق لكل عبارة بشكل متفرق. في حين يعطي لنسق اللغة قواعد عامة لتعبيرات جزئية للعبارات، بحيث يكون شرط الصدق لكل عبارة محدداً بقواعد التعبيرات التي تتألف منها.» د. سيد نفادي، المرجع نفسه ، ص 54 (المترجم).

155. لتفادي اللبس في المفاهيم، ترجمنا dénotation بإحالة و référence بمَرجع. و يشير كلا المصطلحين إلى نفس الشيء أي الماصدق أو extension. لكن الإحالة بالمعنى اللغوي تشير إلى«المعنى الأول» و يقابلها الإيحاء connotation، أو ما يمكن أن نصفه بالمعنى الثاني و الخفي. أنظر إيضاحات هامة حول هذه المصطلحات اللسانية عند عبد القادر الفاسي الفهري، **اللسانيات و اللغة العربية**، 1985، دار توبقال، الدار البيضاء، ص 230-234 (المترجم).

d'immanence)[156]. بعضهم استخلص منه أن المعنى ملازم للنص ويستدعي إظهارُه العودةَ إلى المنهج المناسب[157]. يجب أن نعارض هذا التأويل، ولكن يبقى أن نشير إلى أن موضوع البحث، في النظرية الهيلمسليفية، هو المنهجية. وبالتالي، فإن السيميائيات معرفة بأنها انتقال (mutation) وهذا مصطلح عام يجمع كلا من التعاوض (commutation) والتبادل (permutation) المرتبطين بنفس الدرجة وبنفس الرتبة.

غير أن الذرية المتصلة بالوضعية المنطقية لا تزال تفرز الفرضية القائلة بأن الوحدات اللغوية متفاصلة[158] على المستويين، وهذا ما يمكن من القيام بعملية التعاوض[159]. نشك في أن هذه الفرضية قد تصلح لمعالجة النص؛ فمثلا، يفترض هيلمسليف استعمال عملية التعاوض لتحليل الأجناس والمؤلفات (أنظر، 1971a، ص 229): إنه لأمر مدهش أن تطبق هذه العملية، وقد كان في الماضي مشكوك في نجاعتها على مستوى المورفيمات وعلى مستوى الوحدات الكبرى، لأنها ترتكز على تابثية السياقات المؤاخية للوحدة المرغوب في تحديدها. ماذا سيكون مثلا تعاوض الوحدات النصية الكبرى، مع العلم أن أكثرها مختل (الوظائف السردية تتعدى فصلين، آثار الاختلال الزمني،... الخ.)، بل والأدهى من كل هذا أنه ليس لها موقع قابل للتقطيع ثم العزل؟ لا يقتصر التعاوض فقط على الوحدات اللغوية الأولية، وهي الوحيدة التي يمكن أن تخضع للمقارنة، ولكنه لا يعير بالطبع اهتماما للسياقات ولا للتناص، التي لها، رغم كل هذا، طابع تكويني للنصوص، بحيث إن المعنى غير محايث للنص، ولكنه محايث لعملية التأويل[160].

ولما كان التعاوض نتاجا للسانيات العلامة، فإنه يصل ذروته مع التحليل المورفولوجي؛ وعندما يوسع نطاقه ليشمل السيميائيات، فإنه يمكن من كشف المعنى اللغوي للعلامات المعزولة، ومن تجميعها في إطار نماذج صغرى، كما يمكن استخدامه

156. يعد هيلمسليف أكبر شارح ومطور لنظرية سوسير. فالمتقابلات مثل دال و مدلول أصبحت عنده شكلا و جوهرا و اللغة و اللسان تحولت إلى خطاطة و نص. والمبدأ الكبير عند سوسير « موضوع اللسانيات هو اللغة معتبرَة لذاتها ومن أجلها» سيتحول إلى مبدأ المحايثة في مقابل مبدأ التعالي(المترجم).

157. أنظر غريماس وكورطيس « herméneutique » .Greimas et Courtès, 1979, art

158. متفاصل (discret): الوحدات المتفاصلة هي الوحدات المنفصلة الواحدة عن الأخرى، بحيث يمكن تعويض الوحدة بقرينتها، فتقابل الميم و الباء في مات و بات يؤدي إلى تغيير المعنى، و بالتالي فالميم والباء وحدتان صوتيتان متفاصلتان. إن الخاصية المتفاصلية شرط أساسي للتقطيع. أنظر ،Dubois, J.et *al*., (1973) *Dictionnaire de linguistique*, Larousse(المترجم).

159. للمزيد من المعلومات حول عملية التعاوض، أنظر راستيي (1982)، وبيوتروفسكي(1997) ،Piotrowski.

160. أنظر راستيي،(1989)، I، الفصل الثالث.

في حدود قصوى، لتحليل الدلالة المعجمية. ولرصد معنى النص أو أي انجاز سيميائي معقد، لا تكفي إجراءات التحليل، لأن التأويل لا يُختزل في التحليل.

رفض التأويل

إذا لم يأخذ هيلمسليف بمفهوم التأويل، حتى في التعريفات المذكورة [454 تعريفا] في الملخص*(Résumé)*، فهذا راجع دون شك إلى أنه عديم الفائدة عنده: بالفعل، «ما يقرر بوجود العلامة أو عدم وجودها ليس كونها مؤوَّلة» (1971a، ص 140). يبدو أن هذا الموقف مرتبط بالوضع المتدني، أو بالتدقيق، بالوضع غير الأساسي للدلالة في نظرية هيلمسليف. و تؤدي التفرقة بين الشكل والجوهر إلى الفصل بين التحليل والتأويل، الذي ظل غير وارد بالنسبة لتحليل يتسم بالصورية. فالصوري يُعتبر أكبر من الظاهراتي، بحيث تطبق الإجراءات موضوعيا، بواسطة منهجية دون فاعل و لا تأخذ بعين الاعتبار لا التلفظ ولا التوليد، كما أنها لا تأخذ بعين الاعتبار لا مسألة الفهم ولا التأويل.

في الواقع، وبصراحة، إن الرموز الصورية لا تنتمي إلى حقل السيميائيات، لأنها تنتمي إلى « وحدات كبيرة، غير سيميائية و قابلة للتأويل» (1971a، ص 143)[161]. وبالمقارنة مع المنطق، فإن التأويل مستثنى من النسق: «لا يوجد، بالنسبة لحساب النظرية، أي نسق مؤوَّل، وإنما هناك فقط أنساق قابلة للتأويل. فلا يوجد إذن فرق في هذه النقطة بين الجبر الخالص أو لعبة الشطرنج من جهة وبين اللغة من جهة أخرى» (1971a، ص 141). ولا يلعب تأويل نص أو أي إنجاز سيميائي آخر أي دور في وصفه.

من أجل نقد فيلولوجي

لا يمكننا والحالة هذه أن ننتقص من قيمة مسألة التأويل[162]، بما أنه يحكم مشكل

161. تعتبر أنساق الرموز أحادية المستوى، ولا تعد إذن سيميائيات[بصيغة الجمع، أي «سيميوطيقات»] (أنظر 1971a، ص 142).

162. عرض الفلاسفة لأهمية التأويل في العلوم الإنسانية، فمهمته فهم النصوص و قد حاول شليرماخير نقل التأويل من المجال الديني إلى مجالات أخرى بهدف إقامة نظرية هيرمينوطيقية عامة. و طرح بعد ذلك فلاسفة من أمثال ديلتاي ثنائية التفسير و التأويل. و قد أقام هذه الثنائية في صيغة تعارضية، فإما أن نفسر على طريقة العالم الطبيعي، و إما أن نؤول على طريقة المؤرخ. (...) يعلق بول ريكور على ديلتاي في مقاله «النص و التأويل» قائلا: «لم يكن التعارض الأصلي -عند ديلتاي - بين التفسير و التأويل على وجه التدقيق، بل كان بين التفسير و الفهم. و لم يكن التأويل سوى حالة جزئية من الفهم، و يخلص ديلتاي إلى أن التأويل فن للفهم مطبق على التجليات و الشواهد والآثار التي تشكل الكتابة طابعها المميز». أنظر بول ريكور، النص والتأويل، ترجمة منصف عبد الحق، **العرب و الفكر العالمي**، العدد الثالث، 1988، 41-40. أنظر أيضا مجموعة من الكتاب، **الهرمينوطيقا و التأويل**، مجلة ألف، دار قرطبة للطباعة، الدار البيضاء، المغرب، 1993 (المترجم).

تعيين الوحدات. وتُوفر التدقيقات الفيلولوجية البسيطة حول تاريخ الإصدار والجنس الأدبي والكاتب والمتلقين للنص شروطا قوية لفهمه وشروطا أقل قوة لتأويله؛ و ينطلق مسار التأويل من هذه الشروط الهيرمينوطيقية لإعادة تكوين الأشكال الدلالية للنص، ثم يعود لهذه الأشكال سالكا طريق هذه الشروط بهدف إخضاع ورودها للفحص النقدي. وهاتان الحركتان تحددان أصل الدائرة الهيرمينوطيقية.

ولكن هيلمسليف يشترط أن تدرس العوامل الخارجية، ومنها المعايير والأساليب، بعد وصف السيميائيات الإحالية (dénotatives) و الإيحائية (connotatives). وهذا هو موضوع كل من الميتاسيميولوجيا والميتاسيميائيات . فالأولى مطابقة لوصف الجوهر وتعالج الصوت والمعنى؛ والثانية تحلل «معاني المضمون المتعددة » (وطنية، جهوية، أسلوبية، شخصية... الخ):«مثلما تعالج الميتاسيميلوجيا التي تهتم بالسيميائيات الإحالية موضوعات الأصواتية والدلالة في شكل تأويلي مكرَّر. فالجزء الأعظم من اللسانيات الاجتماعية واللسانيات الخارجية عند سوسير يجد، في الميتاسيميائيات المنتمية إلى السيميائيات الإيحائية، مكانه في شكل هو الآخر تأويلي مكرر» (1971a، ص 156).

لقد خضعت العلاقة بين اللغة والميتالغة للتنظير من قبل اللوجيستيك الراسيلي الذي يتقيد به هيلمسليف . ويجب أن تخضع القطيعة التي أسستها للإشكالية، لأن الاستعمالات الميتالغوية لا تحول اللغة بالضرورة إلى ميتالغة: إنها تختلف ببساطة، من ناحية المعايير، عن الاستعمالات الأخرى. يصرح هيلمسليف فعلا بأن اللغة هي ميتالغة، غير أنه كان يريد خلق شفرة رمزية خاصة بنظرية اللغة. ولكن هناك التباس في هذه المسألة، لأن النظرية لا تعد ميتالغة. وتتجلى في مجموعة من التعريفات: ولكن، بالمفهوم الهيلمسليفي، التعريف تقسيم، في اللغة نفسها وعلى المستوى نفسه. فالمعادلة بين المعرَّف والمعرِّف لا يمكن أن تختلط مع التماثل، وترتبط بالمواثيق المحلية[163]. غير أن النظرية الهيلمسليفية لا تميز في هذه النقطة بين المعادلة والتماثل: إنها تفترض تماثل المعرَّف والمعرِّف، ومن هنا نلاحظ كفاية اللغة والميتالغة.

يهم الاعتـراض الأول الفصل بين الميتاسيميولوجيا والميتاسيميائيات فالميتاسيميولوجيا تدرس جوهر المضمون، بالنظر إلى كونها مُكوَّنة من موضوعات

163. ترتبط نقطة مقارنة المعادلة بوجهة النظر الموزَّعة. فمثلا، معادلة مثل الجرد فأر ضخم (le rat est une grosse souris) ستكون مقبولة في الأقسام الإبتدائية ومرفوضة في التعليم الثانوي.

لا يمكن اختزالها في التحليل، ولكن نلاحظ دائما أن هذه الموضوعات (objets) هي بكل بساطة أشياء فيزيائية قابلة، من حيث ماهيتها، للدراسة الإحصائية (ص 150). أما الميتاسيميائيات، فإنها تستقبل إسهامات الايثنولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس (ص 151). و لكن لا يمكن للدلالة كما نفهمها أن تميز بين الشيء والظاهرة: إنها لا تدرس إلا الظواهر والقيود اللغوية حول ما يعد ظاهرة. ولهذا، فإن برامج فيزياء المعنى مختزلة، بينما تتكون الموضوعات في سيميائيات الثقافات من تقييمات اجتماعية وليس من معطيات فيزيائية. وإذا وافقنا على هذا الطرح، يجب على الميتاسيميائيات أن تستوعب الميتاسيميولوجيا.

يشير الاعتراض الثاني إلى العلاقات بين الحقول المعرفية والميتا- حقول (métadisciplines). فمن جهة، يجب على الميتاسيميولوجيا أن تحكم دراسة السيميائيات الإحالية: على سبيل المثال، فالدلالة تتحكم في التركيب، والتعاوض مبني على أساس التعرف على المعادلات الدلالية التي لها أصول ضمنية. ومن جهة أخرى، يجب على الميتاسيميائيات أن تضبط دراسة السيميائيات الإيحائية، لأن وضع النص ووضع المؤوِّل يحكمان التأويل، دون أن يحددانه بدقة. وخلاصة القول، إن هذه الميتا-حقول لا يمكن أن تُرفض في المستقبل: إنها بالفعل مفترَضة بواسطة كل تأويل مقعَّد، لأن التأويل يتحكم في الوصف[164].

نحو إشكالية سيميائية للنص؟

مفهوم النص و موضوعه

عموما، يقف اللسانيون ومن بينهم بنفنست عند حدود الجملة وينظِّرون لهذا الوضع، ولكن هيلمسليف يتميز بكونه من الفلائل الذين لهم الفضل في طرح الفكرة القائلة بأن نظرية اللغة هي نظرية النص (انظر 1971a، ص 26)، إذ يقول: «من المؤكد أن تحليل النص [...] يُفرض على اللساني كواجب لا مناص منه». (1971a، ص 28). إذا كانت معطيات اللساني تتلخص في النص «في كُليته القصوى وفي كونه غير محلل» (1971a، ص 21)، فإن هذا لا يؤدي إلى افتراض أنه بذاته موضوع النظرية. وبعبارة أخرى، يمكن أن يكون موضوعا أمبريقيا عرضيا، دون أن يكون موضوع معرفة[165]. لا

164. للمزيد من التفاصيل، أنظر المؤلف وآخرون (1994)، الفصل الأول.

165. ولهذا، فإن تأثير هيلمسليف على اللسانيات النصية الألمانية، وخصوصا على بتير هارسمان Peter Hartsmann وتلميذه س.ج سميثS.J.Smitdh، لا يعتبر إلا نتيجة لسوء فهم، الشيء الذي وضحه كوزوريو

يحسم التعريف المقترح في *Prolégomènes* في هذه النقطة: «يمكن تعريف النص[...] بأنه خط تركيبي مكون من سلاسل متجلية بواسطة كل المعاني» (1971a، ص 138). وفي هذا الإطار، يتعارض النص مع اللغة التي تعتبر المقابل الجدولي. ولكن النظرية الهيلمسليفية تفترض وصف اللغة، وليس النص.

يوضح مؤلِّف هيلمسليف*(Le résumé)* أن النص هو الخط التركيبي للسيميائيات الإحالية (انظر 1975، ص 14). فالمستويات التركيبية للسيميائيات الإحالية، ومن بينها النقد البارطي أو الغريماسي الذي رتب النصوص الأدبية، لا تعد ببساطة نصوصا. ويخلق هذا التصور مشكلة أخرى، اللهم إذا سلمنا بأن نظرية اللغة تتأسس على نصوص إحالية، و سيكون هذا التوجه أقل معيارية.

وهكذا، وبالنسبة للنظرية الهيلمسليفية حول اللغة، فإن النص أوَّلي وليس أساسي: فهو ببساطة نقطة بداية التحليل. ولكن هذا التفكيك الذي يسميه الكاتب استنباطا يُمكِّن بعد ذلك من الرجوع إلى النص.

هل النص وحدة لغوية؟

تجيب كونت (1985) Conte ص 174) عن هذا السؤال بالنفي: كل ما يقال أو يُكتب قابل لأن يكون نصا. وقد أحالت على فقرات من *Prolégomènes* للاستدلال علي ذلك (1971a، ص 138). و للإشارة إلى النص كوحدة، تحدث هيلمسليف عن المؤلِّف (1971b) *(oeuvre*، ص 228؛ *work* في النص الأصلي، أنظر 1973، ص 151). وفي محاضرة ألقاها سنة 1974، انتقد حتى الفيلولوجيا لكونها لم تدرس الوحدات الكبيرة للمضمون، واستدل على ذلك بالشعر أو الأدب العلمي و كتابات المؤلِّف نفسه والمؤلفات المستقلة عن كل الكتابات وأجزاء هذه المؤلفات[166]. هذا الاستعمال يُعين على اجتناب الغموض العادي الذي يعطي للنص مفهومين متضادين، إذ حين يقابل اللغة، لا يعد النص إلا تجليا لتمديد ما، وحين يتميز مثلا عن الفصل (chapitre) أو عن الجملة ، فإنه يعتبر وحدة، أو بالنسبة لنا درجة من التعقيد.

ولكن مصطلح نص في *Prolégomènes* يشير بصيغة المفرد (text بالدانمركية) إلى النسقية، بينما تشير كلمة **نصوص** [بصيغة الجمع] (texter بالدانمركية) إلى الوحدات

في سطامبيل Stampel éd. 1971 ص 194.

166. يعتبر هيلمسليف المؤلفات وبنيات المضمون الأخرى، والتي نسميها الأجناس والخطابات، علامات، بما أنه كان يسعى إلى حصرها باستعمال عملية التعاوض.

اللغوية – التي ليست وحدات أمبريقية فقط، بما أنه يمكن توليدها بواسطة النظرية[167].

النص دون نصية

نصطدم هنا بثلاث عوائق يُعبر عنها بعمومية ذات تدرج تنازلي.

أ) النصوص المولّدة ليست مؤوّلة

للنظرية التي ترتكز على تحليل النصوص الموثقة خاصية توقعية ولها ميزة مفادها تحديد النصوص الممكنة: «بفضل المعارف اللغوية المكتسبة، نستطيع بناء كل النصوص التي نتصورها أو الممكنة نظريا [...]، بالنسبة للغة نفسها. ويجب أيضا العمل على نفس المنوال بالنسبة للنصوص المنتمية إلى أية لغة» (1971a، ص 27). هنا، يتجاوز المشروع من حيث الشساعة البرنامج اللاحق والمتمثل في النحو التوليدي، الذي يفترض توليد الجمل فقط، وقد اصطدم بنفس المعيقات من حيث المبدأ. ويتمثل العائق الأول في أن النصوص الموثقة والنصوص الممكنة لها وضع مختلف: النصوص الأولى تعتبر تواردات(occurrences)، والثانية أنماطا (types) . النصوص الأولى متموضعة وبالتالي فإنها قابلة للتأويل؛ أما الثانية، فليس لها وضع، وتعتبر إذن عديمة المعنى.

ب) النص متجانس ولكن نسقيته وسيميائيته ليستا متعددتين

لماذا تولّد النظرية نصوصا، وليس النص (du texte)، وأداة التبعيض du تشير (في الفرنسية) إلى المستوى التركيبي اللامتناهي؟ بالنسبة لنا، فإن النظرية لا تستطيع أن تولد سوى النص لأن هدفها الأوحد هو وصف«اللغة التي من خلالها تؤسس بنية كل النصوص التي لها نفس الخاصية المزعومة» (1971a، ص 27). وفي المقابل، فإن النص لا يعد ببساطة إنتاجا منبثقا من استعمال نسق لغوي، شريطة أن نسلم بالتجانس أو الاطراد(isonomie)[168] البنيوي لهذا النسق. ولكنه ينتج عن تفاعل بين هذا النسق وبين أنساق أخرى تنتمي إلى المعايير المجتمعية، ومن بينها الخطابات والأجناس وحتى اللهجات. وبصفة خاصة، إن المعايير التي تمكن من تميز نص ما وتضع حدا لتوليده لا تمت بصلة إلى نسق اللغة. إذن، لا يمكن لنظرية اللغة أن تنتج نصوصا في الوقت الذي تقتصر فيه على وصف النسق الوظيفي للغات.

و من حهة أخرى، يتقلص النص إلى نظام واحد، بما أنه معرَّف بأنه خط تركيبي (نفس المرجع، ص 138). ولكن، يبدو أنه من الضروري الأخذ بعين الاعتبار الأوضاع

---

167. قام سمير بدير (1998) بتحليل واضح للأسباب والرهانات التي تلف هذا التناقض.

168. مصطلح مأخوذ من قاموس سهيل إدريس، المنهل، الطبعة الثالثة والثلاثون، بيروت ، 2004، و يعني بالنسبة لراستيي « الشيء الذي يخضع في كل مكان إلى نفس المعيار» (المترجم) .

الأربعة التي تقابل مجموعة من صيغ الوصف اللغوي: الوضع الجدولي والنسقي والهيرومينوطيقي والمرجعي (أنظر المؤلف وآخرون، 1994، الفصل الأول). وإلحاق الجدولي بنسق اللغة يؤدي إلى نتائج وخيمة، لأن النماذج (paradigmes) النصية، مثل الأجناس، لا تنتمي إلى اللغة.

وفي الأخير، هناك بالخصوص تناقض بين الفرضية المنهجية المتعلقة بالتجانس البنيوي والملاحظة الشجاعة التي تفيد أن كل نص متعلق بمجموعة من الأنساق (أساليب، أنغام، حركات، أنظر المرجع نفسه، ص 145). لقد صاغ هيلمسليف هذه الأطروحة بذكاء حين قال: «لقد اشتغلنا مفترضين أن النص يقدم تجانسا بنيويا [...]. على العكس من ذلك، يحتوي كل نص [...]عادة على وحدات مشتقة ترتكز على أنساق مختلفة» (1971a، ص 145). ولكن هذه الملاحظة كانت تفرض، في نهاية الأمر، في الفصل ما قبل الأخير من*Prolégomènes*، إعادة تأسيس الفصول الإحدى و العشرون السابقة، إذ يجب الاعتراف بخاصية التعدد السيميائي و التعدد النسقي للنص بالنظر إلى مبدأ نظرية النصية.

ج) الكلية دون شمولية

إذا كان هيلمسليف لا يستعمل بإزاء النص كلمة وحدة، فهو يستعمل مصطلح **كلية مطلقة** (بالدانماركية *helhed absolutte*). و يمهد هذا التصور لطرح قضية العلاقة بين الشمولي والمحلي داخل النص. إن لمنهجية التحليل عند هيلمسليف وظيفة تعريفية؛ ولكن «الإجراء الوحيد والممكن لإبراز النسق المتضمن للنص [المعرَّف بأنه كلية][169] يكمن في التحليل الذي يعتبر النص طبقة قابلة للتفكيك إلى مكونات» (1971a ، ص 21). رب معترض يقول إن العنصر لا يعد محليا لذاته وإن الشمولي لا يمكن تعريفه بأنه طبقة. بيد أن هيلمسليف يحترس من الخلط بين العلاقة المجموعاتية و بين الطبقة وعناصرها، وبين العلاقة المنطقية الموجودة بين الجزء والكل. وباتخاذه الموقف المعارض«للواقعية الساذجة» المرتبطة باللوجيستيك، يؤكد المؤلف أن هدف التحليل هو تعيين العلاقات التي تؤسس لأجزاء الشيء وليس تعيين لأجزاء شيء ما (و هو انص هنا)، بحيث إن «الكلية لا تتكون من أشياء ولكن من الارتباطات (المرجع نفسه ص37). إذا كان الأمر لا يقتصر فقط على علاقات وارتباطات بين الأجزاء،

169. هذا التوضيح الموجود بين معقوفين من وضع المؤلف.

ولكن أيضا بين الأجزاء والكل، فيتضح مع ذلك أن «كلية الموضوع المدروس ليس إلا جمعا له» (ص 36)، وهذا ما يحدد نوعا من التأليفية البنيوية، ويمنع من وصف تأثير المحلي [العلامات]على الشمولي [النص]، زد على ذلك أن العلاقات البنيوية الأساسية (تعالقات بينية، تحديد وتكثلات) تتوطد بين أجزاء الشيء، وليس بين الشيء وأجزائه.

إجمالا، أخذ هيلمسليف بعين الاعتبار النص، ولكن الإجراءات التي طبقها عليه لا تقيم وزنا للنصية. فإذا كان التمييز بين النص بمفهوم الخط التركيبي والنص بمفهوم الوحدة غير خاضع للإشكالية، فلأن النظرية لا تعالج النصية، ولا تستطيع تصورها: فالإجراءات الوصفية هي في الواقع أصناف صرفية-تركيبية وتستعمل في درجة النص مفاهيم ومناهج تعود إلى الدرجة السفلى[أي درجة الجملة والكلمة].

إلى جانب عملية التعاوض التي ذكرناها سالفا، يحتفظ تحليل النص من جراء التحليل الصرفي-التركيبي بمبدأ التجانس التركيبي، الذي يمكن من إجراء عملية التقطيع لإفراز وحدات من الدرجة نفسها. ويعمل هذا المبدأ على تعريف الموضوع، على الرغم من أن مفهوم التجانس يعد من المفاهيم المتعذر تحديدها في النظرية. ولكن المقاربة الصرفية-التركيبية لا تعالج التباينات الكيفية بين الوحدات المنتمية إلى الدرجة نفسها؛ فالسيميمات على سبيل المثال، غير مرتبطة بطبيعة الحال بالعناصر الأخرى، وبعضها يتمركز في وسط المصفوفات التشاكلية المعقدة: فالعلاقات التي تنسجها هذه السيميمات لا تتلخص في الارتباطات المستلهمة من المنهج التركيبي، وبالخصوص عندما تنتقي سياقات بعيدة.

يدرس تحليل المضمون عند هيلمسليف شكل السيميمات وليس الجوهر الذي تدرسه الدلالة لأنه[أي التحليل] يفترض أن النسق اللغوي شكل قابل لأن يدرس باستقلال عن الجوهر. ولكن الدلالة تدرس المعايير وليس النسق اللغوي المختزل في الشكل.

وفي آخر الأمر، على الرغم من أنها تتوقع توليد النصوص الممكنة، تعود النظرية إلى النصوص التي تحللها. وبما أنها لا تنتج تأويلا، فإنها لا تسعى إلى وصف المسارات الاختلافية المتجهة من الشمولي إلى المحلي، ثم من المحلي إلى الشمولي. ويصف التحليل سيرورة تكون على عكس السيرورة التي يسمح بها ويفرضها مبدأ

التأليف[170]. و لا يساهم **التفكيك** في عملية العبور من الكل إلى الأجزاء بأكثر مما يساهم به التأليف في العملية المعاكسة. وينتج هذا العجز عن النزعة الموضوعية [نظرية تؤكد على الحقيقة الموضوعية المتميزة عن الحقيقة الذاتية] المعتمدة في النظرية اللغوية لهيلمسليف ، خصوصا عبر مشروع التأسيس الصوري للسيميائيات.

التأسيس الصوري والأصل الهيرمينوطيقي

لنعد إلى القضية المتعلقة بتأسيس السيميائيات، وذلك بتفضيل قضية النص والانجازات السيميائية الأخرى المعقدة. لقد اتبع التأسيس الصوري للسيميائيات في هذا القرن اتجاهين رئيسيين: التأسيس المنطقي عند موريس وكارناب[171] والتأسيس اللساني عند هيلمسليف . الاتجاه الأول نابع من نظرية بورس التي أثرت في أعمال موريس وفريجة الذي أثر بدوره في أعمال كارناب. وقد قاد هذا الاتجاه إلى تأسيس **الفلسفة الصورية** عند مونتيجو وإلى التداوليات الصورية التي يتبناها كل من لويس Lewis و ستالنكير Stalnacker وفانديرفيكنVandervecken على الخصوص. إن نظرية المعرفة التي يتضمنها هذا الاتجاه، في شكلها العادي، هي نظرية الوضعية المنطقية: في هذا الإطار، تأسست اللسانيات انطلاقا من سيميائيات اللغات الصورية (أنظر شومسكي ومونتيجو). وتعد السيميائيات ذات المنحى الرمزي والمنتمية إلى الأبحاث المعرفية تطورا هاما لهذا التيار.

وفي المقابل، فإن الاتجاه الذي اتبعه هيلمسليف يرتكز على المنطق الهوسيرلي[172] ذي الطابع اللاواقعي الذي يتعارض تعارضا قطعيا مع الوضعية المنطقية. وفي هذا السياق، تعرف الإحالة بأنها علاقة بين المضمون (بالحجم السيميائي) والتعبير، وليس

170. يؤكد هيلمسليف بوضوح على ما يفصل التحليل عن المنهج اللساني الذي يعتبر عاديا :«إنها حركة تتعمد التحليل والتدقيق، وليست حركة تستند إلى التأليف والتعميم ، وهذا عكس المقاربة الاستقرائية التي ميزت اللسانيات التقليدية» (1974a ، ص.21). إنها تقابل الاستقراء الفيلولوجي بوصفها استدلالا و تقابل البناء المنطقي الذي يعد تفكيكا. ولكن يبدو لنا أن الارتباط بين الاستقراء و التفكيك لا يزال عاجزا.

171. «السيميوطيقا عند كارناب هي نظرية العلامات واللغات، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: التداولية (البراجماتيقا) و علم الدلالة (السيمانطيقا) و علم التركيب اللغوي أو المنطقي (السنتاكس).» . د. سيد نفادي، المرجع نفسه، ص.52 و عن علاقة هذه الأقسام بالعلوم البحتة، يعتقد كارناب أن لكل منها جانب وصفي و جانب أمبريقي، فالعلاقة بين علم الدلالة و علم التركيب تشبه العلاقة التي تربط بين الهندسة البحتة التي تعد تحليلية و بين الهندسة الفيزيائية التي تعد أمبريقية». و نشير إلى أن التركيب المنطقي له أهمية بالغة في تحليلاته الفلسفية و العلمية. (المرجع نفسه، ص 65 و ما يليها) (المترجم).

172 .لا يطرح هوسيرل موقفه من العالم الخارجي و هذا ما يسمى بالاختزال الظاهراتي (المترجم).

علاقة بين التعبير والشيء. و من هنا تأتي مشروعية تحليل المضمون وأهميته، في حين أن الوضعية المنطقية تفضل الحساب التركيبي.

ويتضح الخلاف بين التيارين بخصوص العلامة. بالنسبة لهيلمسليف، كل نهج سيميائي له وجهان، شأنه في ذلك شأن اللغات. ولهذا، يرى الكاتب أنه «كان من المفروض أن يقود التصور اللوجيستيكي للسيميائيات ذات الوجه الواحد إلى تعميم سابق لأوانه انطلاقا من بنيات غير سيميائية»[173]. تركز النقاش إذن حول مفهوم الرمز ومفهوم السيميوزيس[174]. تحتفظ إذن السيميائيات الهيلمسليفية، في الواقع، إثر رفضها للواقعية، بحمولة مثالية تمكنها من تصور استقلالية السيميائي. و بمحاذاة هذا، وحين رفضت ربط المعنى اللغوي بأشياء غامضة أو بأوضاع الأشياء ، شرعت هذه السيميائيات في إحداث قطيعة مع الميتافيزيقا.

وتعود المعوقات التي اعترضت السيميائيات الهيلمسليفية إلى المفترضات التي تتقاسمها مع الوضعية المنطقية، والتي تؤكد تأسيسها الصوري[175]، لأن الأشياء تكون متفاصلة (discrets) ومطابقة لذاتها، أما التعيين والتصنيف ، فهما نابعان من المنهج العلمي، وهذا التصور يتم في استقلالية تامة عن كل فاعل (Sujet)، لأن عالم الظواهر لا ينتمي إلى النظرية. وأخيرا، ربما يكون الأمبريقي والصوري منفصلين بصورة تمكن من اختزال الأشياء في شكلها العلائقي.

نستنتج أن هناك ثلاثة عوائق تعترض هذا المشروع:

أ) مصداقية النظرية وكفايتها منفصلتان؛ «إذا كانت النظرية غير مرتبطة بالتجربة» (1971a، ص 24)، وإذا كانت المصداقية منفصلة عن تطبيقها، فما هو ضمان قيمتها الأمبريقية، حينما لا نلجأ إلى النموذج المثالي للفكر [176] ؟

ب) تصل النظرية إلى حد لا يمكن أن تُستعمل إلا عن طريق الاختزال. فداءً

173. راجع 1971a، ص 142. بالنسبة للوضعية المنطقية، العلامة هي « شيء فيزيائي خاص» ولكن دلالته اللفظية نابعة من تأويله الخارجي استنادا إلى المرجع، أما بالنسبة لهيلمسليف، فالتعبير والمضمون غير منفصلين.

174. في مقابل المصطلح اليوناني semiosis ، اقترح مترجما كتاب ج. هيوسلفرمان، **نصيات : بين الهرمينوطيقا و التفكيكية**، مصطلح «سمطقة» و هو بالنسبة لهما« عملية التوليد السيميائي» . مفردة «سمطقة» منفرة من الناحية الصوتية وترجمها بعضهم بالسميوز. لهذا اعتمدنا الترجمة الحرفية أي «سيميوزيس» . على العموم، فراستيي يميز هذا المصطلح من خلال شبكات العلاقات التي تتوطد بين المداليل داخل النص، معتبرا الدال كمؤول يمكن من بناء هذه العلاقات (المترجم).

175. السيميائيات الصورية، مثل اللسانيات الصورية، لم تنتج قط حسابات صورية بالمفهوم التقني للكلمة.

176. قاد مشكل مماثل فودور Fodor إلى صياغة مبدأ الشّك المنهجي (*Solipsisme méthodologique*).

لطموحها الصوري، يجب على النظرية أن تعالج الممكن (جمل ونصوص ولغات ممكنة). ومن جهة أخرى، تتوصل بشكل تلقائي إلى تعميم يقودها إلى الإفراط في خصوصيات موضوعها الأول، إذ تتطور النظرية اللسانية حتما في السيميائيات، لأن إواليات نظرية اللغة لا تستطيع، بسبب التعميمات، أن تبقى خصوصية (1971a، ص 54).

ج) الملاحظ أن مع خصوصية الموضوع ، تفتقد النظرية إلى خصوصية المبحث السيميائي، الذي تتم إعادته إلى النموذج الكائن في العلماوية، النابعة من نموذج الفيزياء النيوطونية، «يسعى العلم دائما إلى معالجة الموضوعات على أساس أنها نتائج للعقل أو على أنها آثار لسبب ما» (1971a، ص. 108). ومع ذلك، لا تصلح هذه الأطروحة المتوحدة ظاهريا للعلوم الاجتماعية، لأن هذه الأخيرة لا يمكن أن تدعى سوى وصف الشروط ولا يمكنها تحديد الأسباب.

يمكن لإشكالية النص هنا أيضا أن توضح لنا الأمور. وعلينا أن نتوفر على نظرية للمعايير بهدف وصف النصوص وليس فقط على نظرية النسق بالمفهوم القوي: القواعد تستلزم و تَقصي ، بينما المعايير تقترح وتتساهل. و لا تتوفر قواعد النسق الصوري على دياكرونية، وتطبيقها لا يخضع لشروط خارجية. وحينما تفترض القواعد الممكنَ، في إطار المجرد، فإن المعايير تقتصر على المحتمل. من جهة أخرى، فإن جرد المعايير وسلّميتها وتطبيقها أمور مرتبطة ليس فقط بالشروط التاريخية المتغيرة، ولكن أيضا بالمجالات المتقلبة حتى في إطارها السانكروني. و نتيجة لذلك، من المحتمل ألا تكون القواعد اللغوية، التي لا تملك الصبغة الإلزامية لقواعد اللغات الصورية، سوى معايير متأصلة ومطروحة في شكل قواعد، وذلك انطلاقا من التقليد المعياري للنحو. كيف تُفسَّر هذه المسألة فقط بالفكرة القائلة إن هذه القواعد لا تعتبر دائما ضرورية ولا تعد قطعا كافية لمعالجة اطرادات المتن النصي؟

يجب إذن مساءلة رغبة القواعد المطلقة التي على أساسها تم التأسيس الصوري للسيميائيات[177]. لا نضع الصورنة ولا المناهج الصورية موضع نقاش ، بقدر ما نناقش قوة التأسيس التي تميزها؛ إن الطموح الصوري ليس، على الأرجح، سوى الشكل

177. يقرل غروندان Grondin: «كل شيء يتم كما لو أن العلوم الإنسانية، التي تعالج مع ذلك العالم الأرضي، كانت في حاجة إلى ما يشبه نقطة أرشيميد Archimède لكي تستحق البقاء كعلوم محترمة» (1992، ص 116).

غير النقدي للطموح المتعالي.

في القرن العشرين، أضافت الوضعية الصورَنة إلى النهج الفيزيائي الأكثر تشيؤا. وهكذا، و على الرغم من اسمها، فإن التجريبية التي تميز الوضعية المنطقية لا تتمتع بأي نوع من الاستنباط، بحيث إنها تطَبّع بإجحاف الواقع وذلك بربطه بالمادة، حسب انطولوجيا موضوعاتية فقيرة. ويُختزل مبدأ التجريبية عند هيلمسليف في الرغبة في الكفاية، التي لم تتحقق[178]، وهذا أمر مؤسف.

في الوقت الحاضر، تتعارض الأنَحاء المعرفية والسيميائيات الفيزيائية المرتبطة بطوم Thom مع النظرية المعرفية الكلاسيكية، حول طبيعة الصورنة والانطولوجيا التي تتضمنها، وليس حول مبدأ الوظيفية. و ظل برنامج المَعيرة وتقليص السيميائي إلى ما هو فيزيائي، إلى يومنا هذا، مشتركا بين النماذج المعرفية.

يمكننا تمييز، بعد جون لادريير Jean Ladrière، ثلاثة أصناف من العلوم: صورية، تجريبية–صورية وهيرمينوطيقية. من الأفضل تسمية **العلوم الإنسانية و/ أو الاجتماعية**، وهي تسمية تشير إلى تعايش النزعة الإنسانية والماركسية في جامعاتنا، **بالعلوم الهيرمينوطيقية**. على الرغم من أن التيار الكبير للوضعية العلمية حاول هزمها من حيث الاختصاصات الصورية أو التجريبية – الصورية، فإن العلوم الهيرمينوطيقية تتميز بنمط من الموضعة الذي يتيح لها تأسيس مجالها، كما تتميز هذه العلوم بموقف خاص من الموضوع العلمي: فهذا التيار محكوم عليه بالفهم، في غياب قدرة تفسيرية، ونستعمل هنا كلمة تفسير بالمفهوم السببي[179]. ولهذا، يعد الوصف تأويلا ويلاحظ أن التفسير العلمي يمنح سلّمية شروط الفهم وإقامتها ووضعها.

هناك طريقان: إما أن نعتبر أن وضع التأويل يجب أن يتميز بالخاصية الاستعلائية، ونربط مشكل التأويل بمشكل الكائن (Etre)، كما هو الحال في التقليد الميتافيزيقي. وقد قاد هذا الحل هايدغر إلى تجاوز تاريخانية النص و إلى إهمال الشروط الفيلولوجية لقراءاته، كما قاده إلى المشروع البين المتمثل في **تعنيف النصوص**). وإما أن نختار

178. للتذكير فإن وصف جوهر المضمون بالنسبة لهيلمسليف، هو، في نهاية المطاف، الدور الموكل إلى الفيزياء (ص 1971، ص156).

179 .يثار مشكل الدليل أو الحجة: « للفهم الفيلولوجي للنصوص، يلاحظ أن العلاقة بين الدليل و الذكاء مغايرة لما تم افتراضها في الماضي انطلاقا من العلوم البحتة [...]. لا تنكشف الخاصية الاستدلالية للحدثي إلا بالتأويل، بينما الصورة العكسية تقول إن الحدثي يشير إلى الطريق المؤدي إلى التأويل. ترابط الدليل والمعرفة يعتبر من مظاهر الدائرة الهيرمينوطبقية (زوندي 1982، ص 23).

إعادة دور اللغات البنّاء، المتميزة بتكويناتها التاريخية والثقافية، ونطرح حسب اللغات مشكل التأويل. ويمكن إرجاع هذا الحل إلى كاسيرير Cassirer، كما يمكن أن يقود إلى تبني مسار ينطلق من فلسفة الأشكال الرمزية ليمضي في اتجاه سيميائيات الثقافات.

ولهذا، فإن التأسيس الفيلولوجي هو في الأصل سند يرتكز على التقليد التاريخي وعلى ثلاثة مستويات: 1ـ مستوى تاريخ النصوص، 2ـ مستوى تاريخ تأويلها و3ـ تاريخ المناهج التاريخية ومناهج التأويل. و يستوعب التقليد من الماضي ما يبقى حيا في الحاضر. فالتقليد يعد دائما **تحويلا** (translation)، أي إعادة النظر في مكتسبات يعاد تغيير ملامحها، في إطار شروط جديدة (أنظر المؤلِّف، 1996a)، حيث تقاس خصوبة التقليد بشساعة هذه التغيرات التي همت الملامح.

إذا أردنا الاحتفاظ بمصطلح **مؤسسة** (fondation)، يجب أن نوضح بأنه لا يمكن ربطها بالقطيعة الأصلية، ولكن نقول إن كل تأويل جديد يمكن أن يشكل مسبقا تأويلات أخرى، ولا يؤسسها إلا بالسماح بظهورها. إن هذه «المؤسسات» المتجددة دوما لا تستحق اسمها، لأنها لا تشرع أي شيء: مثل فرضيات المؤسسات الصورية ودون رسم فضاء ذي صلاحية نهائية، تقتصر هذه المؤسسات على فتح خطوط تأويلية يمكنها أن تختفي أو تتراكم، ولكنها لا تستمد غناها من أي حقيقة موضوعة مسبقا.

تنتمي السيميائيات المنطقية- النحوية والسيميائيات البلاغية-الهيرمينوطيقية إلى أصناف ابستيمولوجية مختلفة جدّاً، ذلك أن الأولى تصبو إلى توليد جمل ونصوص ممكنة، بسَن قواعد وقوانين، أما الثانية فإنها وصفية وتنزع إلى التصور الإيديوغرافي عوض التصور التقنيني للعلم؛ تميل الأولى إلى الدوغمائية، التي تطرح الفرضيات والإواليات، بينما تميل الثانية إلى التجريبية، التي تأخذ بعين الاعتبار السياقات والحالات. وفي الأخير، في الوقت الذي تهدف الأولى إلى المؤسسة المتعالية، تتحمل الثانية الأساسَ التاريخي. ومن جهة أخرى، وبغض النظر عن هذه الأصناف الابستيمولوجية، يوجد تصوران حول نظرية المعرفة وتربطهما علاقة مجابهة وتكامل:

أ) يفترض التصور الميتافيزيقي أنه لكي يتسنى الوصول إلى المعرفة، لا بد من حيث المبدأ من تجريد المحتمل ووضع مجموعة من العناصر في شكل مبادئ. ويشتق هذا المبدأ الأرسطي من علم الكونيات الذي كان سائدا قبل سقراط، والذي يرى أن

الكون نابع من تنظيم العناصر البسيطة. لقد كان هذا التصور وراء نظرية الأرقام في الفيتاغورية، ولاحقا في الأفلاطونية، وكان من جهة أخرى أساسا للذرية عند الماديين القدامى. وقد التحقت الوضعية المنطقية ثم المعرفية الارثودوكسية بتيارين هما الصورنة المتبعة في التقليد المثالي والفيزياوية[180] (physicalisme) المتبعان في النظرية المادية. وفي هذين التصورين، تعد المعرفة انعكاسا للأنطولوجيا ولا تتمحور الاختلافات إلا حول الموقع الاجتماعي أو الروحي لهذه الأنطولوجيا. وهكذا، فإن الهدف من البرنامج المعرفي لمَعيرة المعنى هو إذابة هذا التناقض الأخير.

ب) يعتبر التصور التاريخي-النقدي أن المعرفة هي تعلُّم داخل الممارسات الاجتماعية، الشيء الذي يجعلها تكون غير منفصلة عن طرقها في الإرسال. وفي نفس الحالة، فإن الأخلاقيات هي التي تربح الرهان أمام الأنطولوجيا. أما السيميائيات، فتحل محل المعرفة، ولهذا السبب يشار إلى هذا التصور بتلقائية على أنه نسبوي (relativiste). وبناء عليه، نرى أن مبادئ الأخلاقيات متأصلة ليس في الميتافيزيقا فحسب، بل أيضا داخل الأنثروبولوجيا الثقافية.

تصبح السيميائيات المؤسسة صوريا سيميائيات عابرة، أي سيميائيات توحد كل انساق العلامات تحت نفس المبادئ العقلانية؛ بحيث إن الصورنة نفسها أو على الأقل الإواليات نفسها تساوي كل أنساق العلامات، كما يلاحظ عند هيلمسليف . إنها سيميائيات كونية ونقطة بدايتها، المنطقية أو اللغوية، هي الوحيدة التي تبين اختلافها أو تعارضها.

وفي المقابل، ترى السيميائيات المؤسسة هيرمينوطيقيا أن حقل السيميائيات مبني على نمط التنوع، لأن تعدد أنساق العلامات لا يتقلص إلى مبدأ مشترك، إذ يُتخلى عن المفهوم العام للعلامة، الذي اقترحه فلاسفة العصر الوسيط و تبناه بعدٍ ذلك إيكو، وهو المفهوم المستند إلى مبدأ *aliquid stat pro aliquo* (للمناقشة أنظر المؤلِّف، 1996a). وفي موازاة هذا، تم التخلي عن التصور الأداتي للغة ولأنساق العلامات الأخرى. إذ بما أنه لا يوجد مستوى تصوري محايد بمحاذاة كل شكل من التمثيل، اللهم إن كان ذلك في التقليد العقلاني، فإنه لا يوجد مصطلح ثالث *(tertium comparationis)*[181] بين أنساق العلامات، كما لا توجد لغة وسيطة بين اللغات ولا توجد «لغة الفكر»، بدءا بمؤلف

180 . نظرية حديثة تنزع إلى جعل لغة الفيزياء اللغة الشاملة لجميع العلوم (المترجم).

181 . تعبير لاتيني يعني« المقارِن الثالث» (المترجم).

logos endiathétos للرواقيين ووصولا إلى *lingua mentalis* لمؤلفه Occam، أو *Language of thought* لفودور.

في التقليد الغربي، كان ليسينغ Lessing من خلال كتابه *Laocoom* (1766) أول من رفض وحدانية الشيء الواجب قوله، الذي يسبق التلفظ في الوجود. كما كان أول من سلم بأن مختلف أنساق العلامات تفتح عوالم مختلفة. إذا نظرنا بالخصوص إلى أنه قد أتى بعد شليغل، فإن ليسينغ يعد في نظرنا من رواد سيميائيات التجارب الفنية، المرتبطة بالنقد وبالهيرمينوطيقا، وقد أظهرت إيكونولوجيا بانوفسكي، على سبيل المثال، خصوبتها الكبيرة.

وباختصار، وجد التقليدان المعاصران اللذان تنافسا لإعادة تأسيس السيميائيات، المنهج اللساني السوسيري والمنهج الفلسفي عند بورس، وحدتهما في الإشكالية المنطقية-النحوية. الفلاسفة المؤيدون لبورس يميلون إلى المنطق، أما اللغويون المؤيدون لنظرية سوسير فإنهم يميلون إلى النحو (ولهذا مدد هيلمسليف المناهج النحوية لتشمل دراسة النصوص).

لقد استفحل العجز الهيرمينوطيقي المرتبط بالسيميائيات المعاصرة مع نسيان الهيرمينوطيقا الفيلولوجية. .و استطاع إ يكو أن يقيم تقابلا بين السيميائيات والهيرمينوطيقا الفلسفية المختزلة ضمنيا في النظرية الهايدغارية: «إذا كان هذا التصور مرجحا،[التصور القائل بأن اللغة هي صوت الكائن][182]، فإنه لا مكان للسيميائيات أولنظرية العلامات. لم يبق أمامنا إلا التجربة المستمرة والمتحمسة حول تساؤلات تهم العلامات: إنها الهيرمينوطيقا» (1988، ص 193). على الرغم من أنها ترفض الحكم الانطولوجي المسبق، فإن الهيرمينوطيقا الفيلولوجية أضحت في وضعية المقصي[183].

نلاحظ في المقابل تطورا للإشكالية البلاغية/الهيرمينوطيقية، وهذا التطور ملموس، مع وجود بعض الفوارق، عند مختلف المؤلفين: عند سوسير أولا في **كتابات حول اللسانيات العامة**(2001) وقد ظل هذا الكتاب غير مطبوع لمدة طويلة؛ وعند فيتغانشتاين Wittgenstein من *Tractatus* إلى آخر مؤلفاته، يمكن تتبعه حتى في

182. بين معقوفين في النص .

183. ليس العجز الهيرمينوطيقي عجزا فلسفيا، والشاهد على ذلك تأثير التومائية الجديدة (néo- thomisme) سواء تبناها البعض (كالينوفسكي Kalinovski، ديلي Deely، بوشو Beuchot أم لم يتبناها (غريماس وكورطيس وإيكو).

مشكل العرض ومسألة المرور من إشكالية إلى أخرى، كما يمكن الإشارة إلى تطور فكر إيكو، من(1975)*Trattato de semiotica generale*إلى(1992) *Limiti dell interpretazione*)، وإلى تطوُّر فكر غريماس من الليكسيكولوجيا أو المعجمية النظرية (أنظر أطروحته سنة 1948 حول مفردات الموضة) إلى دلالة النص (أنظر مؤلفه 1976 ،*Maupassant*).

في الواقع، عرف الكتاب، الذين جمعوا بين تحليل اللغة ودراسة النصوص، كيف يتجاوزون التناقض القائم بين الإشكاليتين. وانطلاقا من اتجاهها الفيلولوجي، أضافت أعمال الرومانيين مثل سبيتزر وباغليارو Pagliaro وكوزوريو وهيجر Heger تحاليل جديدة. وفي الوقت الحاضر، أصبحت الطفرة التي تمثلها المعلوميات المتعددة الوسائل الحافز إلى تطوير السيميائيات. بالفعل، إن إشكالية النص لا تهم فقط اللغات، ولكنها تهم أيضا سيميائيات أخرى مثل الأوبرا والسينما... الخ. ونراهن على أنها قادرة على أن تجلب إلى هذه الميادين إضافة هيرمينوطيقية ضرورية، بل وحتى أسسا جديدة.

دون شك، يمكن لتعميق إشكالية النص أن يساهم في إدخال اللسانيات إلى السيميائيات العامة للثقافات. ذلك أن المواضيع الثقافية يشار إليها بتعقيدها وبخاصيتها التأويلية التي تطرح عدة مشاكل، بحيث تنتج هذه الموضوعات في إطار ممارسات وحالات متباينة، وتلجأ إلى مجموعة من الأنساق والمعايير. و لهذا، فإن الرقص والطقوس والألعاب أمثلة على ذلك. من بين الموضوعات الثقافية، تعد النصوص إنجازات سيميائية جد معقدة ومثالية في هذا الشأن.

بالإضافة إلى التعقيد الذي يعد خاصية النصية، فإن الموضوعات الثقافية لا ترتكز فقط على اللغات والأجناس والأساليب، ولكنها تعتمد أيضا على الأنساق الخطية و الطباعية (العلامة الترقيمية ليس لها وظيفة المورفيم) والتطريزية والحركية، فالحركة مرتبطة دائما بالمستوى الشفوي. عموما، إن كل هذه العناصر مهملة من قبل السيميائيات وكذلك اللسانيات التي تنكمش حول المستوى الصرفي- التركيبي. في الأخير، وبصفة خاصة، توظف غالبا، إن لم نقل دائما، العلاقات الدلالية التي يقيمها أو التي يتعرف عليها التأويل بين مختلف أجزاء نص ما، مؤوِّلين ينتمون إلى أنساق سيميائية أخرى، غير اللغات. و لهذا، عندما نفضل قضية التأويل، تصبح دراسة النصوص مسارا لمعالجة العلاقات بين أنساق العلامات.

إن السيميائيات الشمولية هي فلسفات (أنظر لوك Locke، بورس ، أبيل Appel) و ربما تعود صبغتها الشمولية إلى طبيعتها الفلسفية[184]. وفي المقابل، فإن للسيميائيات العلمية موضوعات جهوية: لغات، صور، موسيقى... الخ. وعليه، فإنه لا يمكن أن تكون السيميائيات العامة فدرالية؛ إنها تحدد المجال الذي يتم فيه تبادل الاختصاصات بين اللسانيات وعلم البيئة وعلم الموسيقى وعلوم الثقافة الأخرى.

وبتبنينا للموقف الذي يعتبر أن اللسانيات هي سيميائيات اللغات والنصوص، نكون قد تبنينا السيميائيات المؤالِفة (fédérative) وليس علما وحيدا يعالج جميع اللغات وجميع أصناف العلامات. لا نزعم هنا تحديد نظام هذه المؤالفة ومساحتها، وسنعود إلى المبادئ التي تحكمها في خاتمة هذا الكتاب.

184 . يظهر ارتباط الفلسفة بالسيميائيات في أعمال بورس مثلا الذي اعتبر أن المنطق «علم القوانين الضرورية للعلامات» و أن «العلامة عنده هي شيء يمثل لشخص ما رمزا لشيء معين بخصوص معين أو بالنسبة إلى قدرة معينة. فبموجبها يعمل شيء كدليل أي يدل. و هي تحوي عناصر ثلاثة: إنها أي شيء محدد يصف شيئا ما (المؤول)، و هو الطرف الأول، ليشير إلى موضوع ما تشير إليه العلامة نفسها (الموضوع) و هو الطرف الثاني، وهي ترمز إلى شيء ما لشخص ما (مؤولها)، و هو الطرف الثالث، يضاف إلى ذلك طرف رابع و هو الشخص الشارح.» د. سيد نفادي، المرجع نفسه، ص 51 (المترجم).

الفصل الثالث

الفِيلُولُوجيَا الرّقْمِيّة

إن العجز الفيلولوجي في علوم اللغة المعاصرة قد تجاوز العجز الهيرمينوطيقي لفترة طويلة. حيث كان يعد احتقار الفيلولوجيا موقفا عاديا عند أتباع الرومانسية المتأخرة، وبالخصوص عند ذوي التقليد النيتشوي. ومن جهة أخرى، فقد تخلى اللسانيون الكونيون في النصف الأول من القرن العشرين عن المقاربة الدياكرونية التي كانت تحافظ على تمتين الروابط بين اللسانيات و الفيلولوجيا، مفضلين بذلك المقاربة السانكرونية الكثيرة النسيان والتي يستحيل تعريفها دون وجهة نظر استقرارية.

ومع ذلك، فقد تزامن ازدهار البنوك النصية و لسانيات المتن في العديد من تجمعات البحث، مثل الإحصاء الرقمي للعلوم الإنسانية (*Digital Recenses of Humanities*) مع تجديد غير منتظر للفيلولوجيا التي نسميها الفيلولوجيا الرقمية.

الوضع الإبستيمولوجي

استقرار الفيلولوجيا: الترقيم والصياغة النحوية

منذ بداية سنوات الخمسين من القرن العشرين و بالضبط عندما كان طوماس داكان Thomas D'Aquin يقوم بعملية التشفير على الورق المقوى، صاغ روبيرتو بوزا Roberto Busa مشروع « الفيلولوجيا الإلكترونية»[1]. إننا نسعى من خلال هذا الفصل إلى الانخراط في مشروع هذا الباحث الرائد، الذي أكد بالفعل على ضرورة تجديد

1. في الواقع، أحدثت المعلوميات، دون أن تنتبه إلى ذلك، ثورة في الفيلولوجيا، وذلك بالتخفيف من عبء بعض المهام الأكثر روتينية. إذ يمكن وضع متن مغلق للغة قديمة على قرص مدمج. و من جهة أخرى، أصبحت العمليات الفيلولوجية مثل النسخة ومقابلة الوثائق و مقارنة المخطوطات سريعة جداً. كما يمكن لبعض الأعمال الأكثر تقنية، مثل وضع الأشجار السلالية للمخطوطات(*stemmata*) أن تعالج آليا بالحاسوب.

الفيلولوجيا المرتبطة بالمعلوميات (1997 ص.4). إن المعلوميات اللغوية قد خرجت من المجال الضيق التقني، لأنه إذا انفصلت الفيلولوجيا عن مجال الموسوعية، فإننا سنفهم بأنها لم تكن منفصلة إلا عبر أشكال دوغمائية للتطورية.

إن المنعطفات الكبرى في تاريخ علوم اللغة تصاحب تنقلات الركائز وتحولات سلَّم الموضوعات الأمبريقية التي تفرض مهاما جديدة وتعد موضوع طلبات اجتماعية جديدة. لقد تزامنت التطورات الوصفية لعلوم اللغة مع ظهور المُصنَّفات ووضع المتون النصية وهذه المتون هي كما يلي: المتن الفيدي[من فيدا Veda وهو من كتب الهندوس الدينية الأربعة، أو الأربعة معا] بالنسبة لمدرسة بانيني Panini، والكتابة الخطية، ومقابلة المتون الهوميرية، وتكوين مكتبة الإسكندرية بخصوص مدرسة أريسطارك؛ وهناك أيضا مكتبة الفاتيكان حين نتحدث عن فالا Valla، ومكتبة آل ميديسيس بالنسبة لبوليسيان، ودور النشر الأصلية المرتبطة بكلاسيكيات العصور القديمة عند كل من ألد Alds و بلانتان Plantin و إيتيان Estienne... الخ.

لقد ترسخت تقاليد علومنا اللغوية بفضل الفيلولوجيا المرتبطة بمدرسة الإسكندرية حول المكتبة والتقليد النحوي، وخصوصا ما يتعلق بجرد أقسام الكلام التي ما زالت على حالها، وقد تم إنشاؤها مع تقنية دوني لوطراس. في حين اتسمت المرحلة الثانية الكبرى بظهور فيلولوجيا عصر النهضة التي سبقت تطور المطبعة وأذكتها و رافقتها، وإليها يرجع الفضل في إنشاء الأنحاء الأولى بخصوص اللغات العامية.

بعد الكتابة والمطبعة، دشنت الرقمية مرحلة ثالثة في تاريخ ركائز النصوص (أنظر الكاتب، 1991)، إذ واكبت الرقمية مجموعة من التصحيحات الإبستيمولوجية التي تهم كل علوم اللغة. لكن بالعودة إلى تقسيمنا الزمني[لتاريخ الكتابة]، اندهشنا من فكرة أورو Auroux 1994 التي ألحقت الصياغة النحوية (grammaticalisation) [2] (إعداد الأنحاء) بالمطبعة، واختزلت ثورة عصر النهضة في هذه الصياغة. و قد استعملت هذا المفهوم لتوحيد المراحل الثلاثة، مؤكدة أن تاريخ علوم اللغة يختلط مع تاريخ الصياغة النحوية. ولكن هذا المفهوم [أي الصياغة النحوية] يطرح مشكل ربط الكتابة بالنحو، ويضع أو يحافظ على النحو ضمن علوم اللغة. بيد أن الصياغة النحوية ليست إلا مظهرا للحركة الفيلولوجية الكبرى المرتبطة بوضع نصوص مكتوبة باللغة العامية

2 . نعتقد أن مصطلح صياغة هنا ملائم لأنه مطابق لمفهوم الإعداد النحوي(المترجم).

ونشرها، وفوق كل هذا، بتبشير الجاليات الجديدة وبالإصلاح الديني.

لنميز بوضوح أكثر بين تاريخ الركائز وتاريخ معالجة اللغة، حيث تمكن كل ركيزة جديدة من وضع معالجات، ولكنها لا تحددها. و تعمل التكنولوجيا الحديثة على التحديد الدقيق لشكل جديد من التفاعل بين المعالجة والركيزة. فعلى خلاف المطبعة، لا تعد الصياغة النحوية تقنية، ولكنها صنف من الوصف اللغوي. هذه الصياغة النحوية التي سمحت بها الكتابة وطورتها المطبعة تستمر حاليا بمعية المعالجة الآلية للغة ولسانيات المتن. وتمتلك اللغات موهبة معيارية: «لكونها مبحثا يتم وصفه بالاعتماد على الأنحاء، فاللغات تصبح في حقيقة الأمر ذات طابع صناعي» (أورو، 1995 ، ص 10). ولكن الوصف لا يكفي لتغيير المبحث، ذلك أن التعليمات هي الوسيلة الوحيدة القادرة على ذلك، ثم إن إرثنا النحوي يظل معياريا، لأنه من بريسيان Priscien إلى ميلنر(Milner 1989)، تنبثق النحوية (grammaticalité) عن قرارات تخص اللحن[3]. في الواقع، قبل الصياغة النحوية، كانت اللغات أدوات مصطنعة (أنظر روي هاريس Roy Harris،1982)، ولم تكن « طبيعية» إلا بالمقدار الذي تكون فيه الثقافة طبيعية، بمعنى أن اللغات والثقافة ممزوجتان بالتقليد الثقافي، هذا فضلا عن أن اللغات تتحكم في الثقافة وتنبع منها في آن واحد.

يبدو أن الانطلاقة الحالية للرقمية تُتمم الصياغة النحوية لأنها تفرض مجهودا لوضع معايير لم تكن موجودة من قبل، ولكنها تفتقر إلى الارتباط الوثيق بالإشكالية المنطقية- النحوية؛ على العكس من ذلك، بفرضها لعلاقة جديدة وأمبريقية مع النصوص، وبطرحها لمشاكل جديدة وليدة لتشفيرها ولمسارها، يمكنها أن تقود إلى تحديث الهيرمينوطيقا الفيلولوجية. وهنا سيجد النحو مكانه، وهو مكان مهم ولكنه ثانوي. وبما أن الاشتغال على اللغة ينطلق من النصوص للعودة إليها، فإن النحو هو المبحث الداعم للمشروع الفيلولوجي.

تطور الإشكاليات اللغوية

إن المعلوميات، بصفتها تكنولوجية سيميائية، سائرة في طور تجديد اللسانيات، ليس من الخارج بل من الداخل، وذلك بحكم أنها تقترح ولوج طرق جديدة لموادها، إلى جانب الوسائل الحديثة والأهداف التطبيقية. يبدو أن الوضع الحالي ناتج عن أربعة

3 . كانت المؤلفات مثل القواميس والأنحاء دائما، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ثمرة جهد معياري حدد بعضا من مظاهر بنياتها. فالقواميس مثلا هي أرشيف سياقات جامدة وموحدة ولها شكل مشترك.

تطورات متقاربة.

نهاية الطموحات المعرفية

على الرغم من الانطلاقة المباغتة للمعلوميات، فإنها لم تغير الإشكاليات اللغوية. وهكذا، فأول نظرية لغوية تضمنت المعلوميات قد حددت لها أهدافا معينة قبل ظهورها، إذ أسند إليها شومسكي، و هو أحد تلامذة كارناب، مهمة القيام بتعداد مجموع الجمل السليمة نحويا والمنتسبة إلى لغة ما، ويتطابق هذا التصور مع «العبارات السليمة» في اللغة الصورية. وبما أنها لا تعد تخصصا منتسبا إلى حقل اللسانيات أو المعلوميات، فإن المعالجات الآلية للغة (TAL) قد استخدمتها الشومسكية كفضاء شاسع للتصورات المعرفية الأساسية، واستُعملت «للاستدلال» على النظري بدلا من وصف الموضوعات. وأضاف مؤيدو النظرية المعرفية إلى الصورنة، المُتخذة كهدف، مهمة أخرى تتجلى في محاكاة الفهم، الذي يتطلب قطع مرحلتين: مرحلة التحليل التركيبي ثم مرحلة تكوين أشكال منطقية قضوية [4].

وبناء عليه، فقد اصطدمت المعلوميات اللسانية بنوعين من الصعوبات، إذ يبدو أنها كانت ضحية مفارقة للمعرفة الحاسوبية التي حُددت لها مهام كبيرة، في حين كانت اللسانيات تعاني من قصور في الإشكالية المنطقية-النحوية المفضلة في الأعمال المعلوماتية. لقد سمحت النظريات المنطقية-النحوية بتكوين المحلل الصرفي-التركيبي وبأشكال صورية تتعلق بالتمثيل القضوي؛ ومع كل هذا، فإنها آيلة للنسيان، على الأقل من حيث إنها نظريات تفسيرية ووصفية شاملة.

وعوض التمثيلات الكاملة للجملة، تحتاج التطبيقات الجديدة إلى تمثيلات جزئية للنص. وحينما كان هدف تمثيل المعارف يسعى في إطار الصورنة إلى التقاط أكبر عدد ممكن من «المعلومات»، فإن الأهداف الجديدة للتحليل تفرض اختيار العدد القليل منها، إذ يمكن لخَرج محلل على سبيل المثال أن يتقلص إلى زوج من السمات الدلالية الواردة بالنسبة لأهداف التطبيقات (أنظر كافاسا Cavassa، 1996). وخلافا لهذا التصور، ترتبط هذه التمثيلات بمهام التأويل، و ننتقل بالتالي من إشكالية التمثيل [5] إلى

---

4 . يظل تقليد فهم اللغة هدفا غير محقق لأن الفهم مرتبط بالأشخاص المحددة أوضاعهم وبالمهام. فحتى لو اختزلنا الفهم في بناء الأشكال المنطقية القضوية، لن نتمكن من جعل التشفير القضوي آليا لأن الجمل لا تتضمن معنى لفظياً مستقلا عن الملاءمة المحددة في درجة النص.

5 . في إطار الأبحاث المعرفية، كانت أولوية التمثيلات محل نقاش سواء في الاتجاه الترابطي (connexionniste) الذي ينتسب إليه سمولونسكيSmolensky و ماكللاند MacClelland و روميلهارت Rumelhart، أو في

إشكالية التأويل، ومن برنامج معرفي يهدف إلى تقليد الفهم إلى برنامج مساعد على التأويل. ويمكننا بالفعل تعريف التأويل بأنه فهم جزئي أو حتى تدريجي، ولكن بما أن الإشكالية التأويلية تُخضع تخصيص المعنى لمهمة تحدد أنظمة متعلقة بالملاءمة، فإنه يمكننا على العكس اعتبار التأويل فهما «واقعيا»، وفي الأخير سنعتبره فهما ممكنا لأنه محدد طواعية ولا يفترض أية أنطولوجيا وليس له هدف تمثيلي. و بما أنه[أي التأويل] لا يطرح فرضية كونية حول مقولات الفكر، فإن دلالة التأويل تساعد إذن على وصف المعايير التي تنتسب إلى ما يسمى بالمُعتقدات أو الإيديولوجيات.

تطور لسانيات المتن

إن الوضعية الابستيمولوجية للسانيات في طور التغيير عبر حركتين متقاربتين. فعلى المستوى الابستيمولوجي، بدأت التجريبية تنتصر شيئا فشيئا على الدوغمائية، و على سبيل المثال قد تم التوصل إلى استرجاع التوزيعية أو المناهج الكمية، وعلى المستوى المنهجي، غيرت المعالجات الآلية للغة بشكل ترابطي علاقتها مع الموضوع: لقد استُهدف تحليل الجمل، و حاليا تم إخضاع هذا الهدف للتشفير ولاستغلال المتون المُرقَّمة.

تطلب فرض لسانيات المتن[6] وهيمنتها عدة سنوات. وتكونت واستُعملت أول المتون المعالجة بالمعلوماتيات لطرح منتجات تقليدية مثل المطابقات و القواميس، (في فرنسا، *Le Trésor de la langue française*). منذ مدة، لم يتبين رهان المعالجة الآلية للمتن على الرغم من وجود أعمال رائدة لكل من روبيرطو بوزا أوجان-كلود غاردان Jean Claude Gardin. ولم تنشأ متون مهمة إلا بعد ظهور الماسح [أوالسكانير] وبعد إخضاع المطبعة نفسها للمعلوميات. ومنذ بداية سنوات الثمانين من القرن العشرين، تعددت المتون المعالجة بالحاسوب[7] وتطورت بسرعة فائقة: ما بين 1983 و1993 وعلى سبيل

الاتجاهات الانبثاقية (émergentistes) مثل الاتجاه المسمى autopoièse [التفاعل العضوي للإنسان مع محيطه] ومنهج المعرفة المرتكز على علوم الحياة (enaction) والذي يمثله فاريلا Varela .

=وإذا كانت اللسانيات المعرفية وخصوصا ما ينتمي منها إلى المدرسة الكاليفورنية قد ظهرت على أنها بديل شمولي للشومسكية، فإنها احتفظت بأولوية التمثيلات، وذلك بتغيير شكلها فقط وبمتابعة (على نحو مغاير) التقليد النظري والقبل-لغوي للأنحاء العامة التي تجعل من اللغة « نافذة مفتوحة على المعرفة» (دجاكندوف Jackendoff)-، أي مفتوحة على المتكلم المتعالي. وباختصار، لم يكن النحو نصيا لأنه كان دائما معرفيا.

6 . من المثير للاستغراب أن تمارس اللسانيات دون متن، حيث يتم اللجوء إلى صياغة أمثلة مفتقرة للسياق، وتمثل هذه الأمثلة الميدان التجريبي. وفي الوقت الراهن، يجب الإشارة إلى لسانيات المتن بصيغة الجمع والتي تعرف تنوعا ساطعا.

7 .معالجة بالحاسوب: ترجمة لمصطلح informatisé (المترجم).

المثال، تضاعف حجم المتن الوطني البريطاني (British National Corpus)[8] عشر مرات، حين ارتفع عدد الكلمات من مليون كلمة إلى عشرة ملايين.

وإذا كان العديد من المتون مكدسا دون مبادئ واضحة المعالم، فإن جودة المعلومات المرتبطة ببعضها قد بدأت تتحسن. وتكونت متون مشجَّرة (Treebanks) وأصبحت الآن برمجيات(logiciels) التحليل الصرفي-التركيبي في متناول العموم. وأدى كل هذا العمل إلى إعادة الامتلاك بل وإلى تحول الموضوع التجريبي في اللسانيات، وأصبح التنوع الداخلي للغات يحظى بنظرة جديدة، كما هو معبر عنه داخل تنوع الخطابات والأجناس والنصوص (أنظر الفصل الثامن).

المتطلبات الاجتماعية الجديدة

تطور المطلب الاجتماعي من جهة أخرى وتضاعفت احتياجات المهنيين خصوصا في ميادين استخراج الخبرة وتحليل المضمون. فمثلا، بعض شركات التأمين تطلب خبرة اللسانيين لتحليل بنيات سردية حول 9000 تصريح بحوادث سير قاتلة، بعض الأقسام التابعة لوزارة الدفاع تريد تحليل 120 ألف صفحة من وثائق تاريخية حول البلقان، وذلك لوضع مجموعة من التوقعات انطلاقا من متواليات حدثية. وأخيرا، يتم البحث في مجال إدارة الأعمال عن طريقة لتجاوز مناهج المعجمية الإحصائية[9] استنادا إلى التحليل العاملي الذي يعد مستهلكا ومحدودا في الوقت نفسه.

وفي المقابل، على مستوى المساعد على التحليل الدلالي، تقتصر البرمجيات مثل Tact و Alceste أو Candide[10]، في إطار التقنية المساعدة على التحليل الدلالي، بالأساس على تضام سلسلة من الحروف. إن الوحدات الكبرى التي تضم المركب والوحدات غير المعجمية والبنيات النصية والنماذج المتعلقة بالأجناس لا تخضع لتحليل مضبوط. نلمس ما بين التطبيقات الكلاسيكية للذكاء الاصطناعي والتطبيقات التي تعنى بتقنيات التوثيق ضرورة خلق أدوات البحث واكتشاف الآليات المساعدة، و يتطلب هذا العمل

8 . British National Corpus : بنك للنصوص باللغة الانجليزية المكتوبة والمنطوقة. يتضمن الجانب المكتوب 90 % من الكلمات المنتقاة من الصحف و المجلات و الكتب العلمية و الكتب الشعبية و الرسائل غير المنشورة...الخ. أما الشق المنطوق، فيمثل 10% من البنك و يتضمن المحادثات غير الرسمية لأشخاص من مختلف الأعمار و المناطق في بريطانيا، و قد تم جمع هذه الأحادبث من مختلف السياقات: اجتماعات رسمية بين أعضاء سياسيين واجتماعات رجال الأعمال و العموم عبر الراديو... الخ (المترجم).

9 . المعجمية الإحصائية (lexicométrie) : حقل معرفي يدرس المعجم استنادا إلى مناهج إحصائية (المترجم).

10 . Tact، Alceste ،Candide : برمجيات تعنى بالمعجمية الإحصائية (المترجم).

إيجاد تطبيقات لغوية جديدة: ولوج الدلالة إلى البنوك النصية وخلق المتون الفرعية ذات الملاءمة المخصبة والسؤال نص- نص دون مخزون معجمي والإيداع الآلي والمحدد للوثائق (أنظر بانسمان Pincemin، 1999a)؛ وهذا ما يفسر انطلاقة الأبحاث في ميدان التأويل المُبرمج آليا (أنظر طانكي Tanguy 1997، ثليفيتيس1998، Thlivitis).

أمام هذا الزخم المتصاعد من المعطيات المتوفرة، يبحث الخبراء عن الوسائل المعلوماتية لحذف المعطيات غير الواردة من حيث التطبيق. الإستراتيجية الأولى نابعة من التقليد التوثيقي، و تتولى مهمة توسيط العلاقة بالنصوص عن طريق القواميس إلى جانب احتفاظها بمظهر معياري، فإنه من الصعب تطوير قواميس توثيقية وفهارس. ومع ذلك، فاستغلال المتون النصية يستلزم دون شك القدرة على تغيير الطلبات حسب حاجيات البحث، بدلا من تحديدها مسبقا. كما تتطور الإستراتيجية الثانية مع ولوج المعلوميات إلى داخل النص. و تسمح هذه الإستراتيجية بتحديد النص وفقا للمطلب الآني، عن طريق تحليل السؤال أو المطلب الدائم المحدد بهوية المستعمِل، أو بفهرسته تعارضيا بالنسبة للنصوص الأخرى المنتمية للمتن أو للمتن الفرعي. وليست أي من هاتين الإستراتيجيتين في مأمن من هذه التناقضات، إذ نستعمل الكلمات لدراسة النصوص، ونستعمل سلسلات من الخطوط لدراسة المدلول .

وفي إطار تطبيقات الدلالة النصية، يتموضع التفاعل مع المعلوميات على المستوى المنهجي أو النظري؛ إذ لا يتعلق الأمر بطرح تصميم يُستعمل وظيفيا على بعض الجمل على سبيل التجريب، ولكن باستعمال برمجيات موجودة أصلا. ويتأتى هذا العمل بتركيب مختلف الأدوات (محلل تصريفي[11]، إحصائيات...الخ)، للمساعدة على المعالجة الدلالية للمتن، كما يتحقق هذا العمل بإيجاد نسق مساعد على التحليل الدلالي للكلمات-المفاتيح. و يتجاوز هذا التحليل المناهج المبنية على التوارد في إطار السياق [12]، و يمكن من اختيار المتون الفرعية الواردة حسب المهام الواجب القيام بها (أنظر الفصل السابع).

يجب على أنساق التحليل الدلالي أن تلبي مجموعة من الاحتياجات حتى يتسنى لها أن تتطور خارج التطبيقات. لنأخذ مثال تطبيق يتعلق بنشر آلي يستهدف أشخاصا

11 . يستعمل المؤلف في النص مصطلح «analyseurs morphologiques» بصيغة الجمع، ونقترح ترجمته بصيغة المفرد لأن الجمع غالبا ما يكون غير أنيق مع مثل هذه المصطلحات (المترجم).

12. Cooccurrence : توارد في إطار السياق (المترجم).

معينين [13] (Diffusion ciblée)، إذ حسب الهوية الموضوعة لكل مستعمِل، واستنادا إلى ملخص أنشطته، تُمرَّر إليه النصوص الرقمية عبر البريد الالكتروني. الهدف المتوخى هو تحسين التطبيق، وذلك بتجاوز حسابات القرب بين الوثائق. ولهذا الغرض تؤخذ بنية النصوص المنشورة بعين الاعتبار.

إن الحاجيات الواجب إشباعها ليست تقنية فقط. ولتحديد دفتر التحملات لمحطة عمل ما، يجب التنبؤ باستراتيجيات السؤال. و لهذا الغرض، ينبغي إلقاء نظرة واضحة على بنيات النصوص الدلالية وعلى صيرورة تأويلها.

جماعات البحث

لقد عرفت الجماعات العلمية والأكاديمية تطورات هامة. إن هدف اللسانيات هو الوصف الحاسوبي للأنساق اللغوية، في حين تقترح المعلوميات اللسانية معالجة المعطيات اللغوية من الناحية المعلوماتية، دون أن يكون هذان الهدفان منفصلان دائما بوضوح. أما التطبيقات، فإنها متنوعة. ومن بينها وضع القواميس المعلوماتية والشبكات الدلالية (Wordnet ،Eurowordnet) [14]. هذا فضلا عن أن آليات الرصد المصطلحاتي والترجمة الآلية التي تستعمل أكثر فأكثر المتون الموضوعة كقاعدة للمعلومات، كما تستعين بالمعلوميات الوثائقية *(Information Retrieval)* وبمحركات البحث.

لقد حصل تقاطع جديد بين مجموعات البحث، ليس في شأن الأهداف ولكن في شأن الموضوع، حول المشروع المسمى المبادرة من أجل تشفير النص *Text Encoding Initiative*[15] (الذي تم إطلاقه سنة 1987 على يد جمعية تسمى «جمعية الحواسيب والعلوم الإنسانية» (Association for Computers and the Humanities). و يمثل لنا هذا المشروع أهمية إبستمولوجية خاصة، إذ فضلا أنه يسجل اعترافا بمشكل النصية من قبَل كل الجماعات التي تستعمل المعالجة الآلية في مجال اللغة، فإنه يتطلب تفكيرا جديدا حول المعايير التصنيفية. وهذا ما يفسر الانطلاقة غير المتوقعة للفيلولوجيا التي ظلت إلى يومنا هذا دون رابط مع المعلوميات اللسانية. و عندما نصف النصوص ونعالجها

13 . أنظر نظام Decid الذي طوره بانسمان (a 1999)

14 . ووردنيت (Wordnet): معجم الكتروني انجليزي وضعه خبراء العلوم المعرفية في جامعة برينسطون بالولايات المتحدة الأمريكية (المترجم).

15 . المبادرة من أجل تشفير النص (Text Encoding Initiative) : مشروع يهدف إلى وضع معايير دولية لإنشاء ترميز موحد للوثائق الرقمية (المترجم).

ونغض الطرف عن الأمثلة، فإن هناك أخلاقيات تفرض نفسها لتحديد شروط التدوين والتأسيس ونسخ النصوص. ولا بد أيضا من الإشارة إلى الهدف المتمثل في تشفير تمفصلاتها.

و خلاصة القول، يتبوأ التطور الذي تعرفه المعالجة الآلية في اللغة وانطلاق أنواع جديدة من لسانيات المتن، منذ بداية التسعينات، موقعا مهما من شأنه أن يوفر قاعدة جديدة أمبريقية للإشكالية البلاغية/ الهيرمينوطيقية ويفسح المجال لفضاء تجريبي بخصوص لسانيات النصوص[16]. و بالفعل، فقد أصبح من الممكن الولوج إلى النصوص بوسائل تقنية حقيقية وقوية (Web ، CD ،...الخ). وكبرت بسرعة مساحة النصوص المتاحة، الشفوية منها والمكتوبة، وأضحت مشفرة ومبَنينَة. كما تحسنت جودتها ومكنت من التعبير عن متطلبات اجتماعية جديدة.

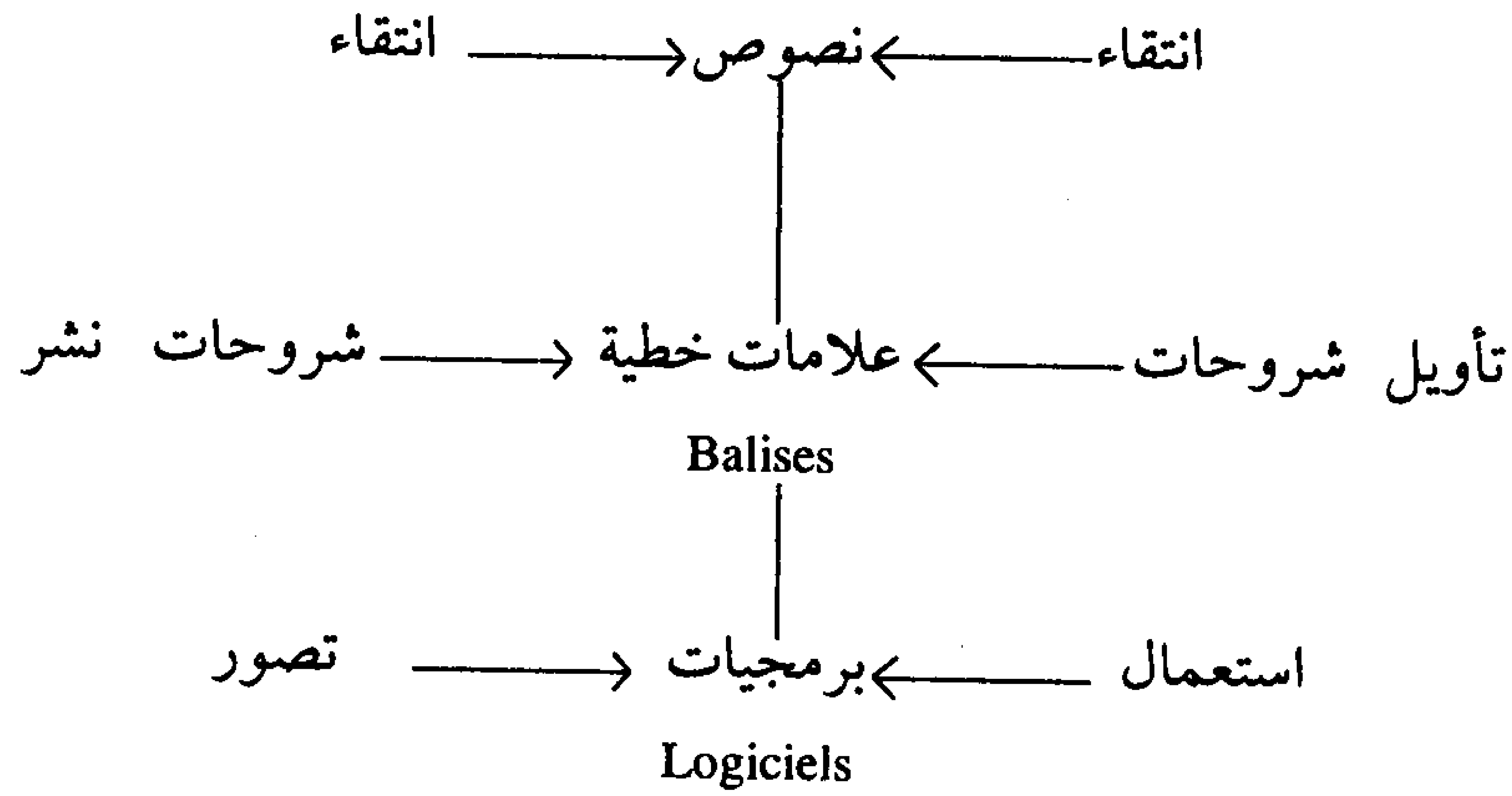
لقد استطاعت دلالة النصوص وضع معالجة آلية تأخذ بعين الاعتبار مشكل النصية[17]، لكونها محررة من الموضوعية البنيوية ومن الذرية النحوية المتعلقة بتحليل الخطاب وبتوفيقها بين النقد الفيلولوجي والممارسات التأويلية المتنوعة حسب المهام والحالات. و تستطيع دلالة النصوص أن تجد في المتون الرقمية مجالات تطبيقية جديدة.

ميادين الفيلولوجيا الرقمية

في الوقت الذي كانت فيه المطبعة مرتبطة ارتباطا غير مباشر بالصياغة النحوية، فإن الترقيم يبدو متعلقا بصورة مباشرة بالمعالجات الآلية. وهذا تمثيل على شكل خطاطة للعلاقات بين الطبعة الرقمية والتأويل المساعَد (assisté) في ثلاثة مستويات: مستوى النصوص ومستوى العلامات الخطية التي توسم النصوص ثم مستوى البرمجيات التي تعنى بعملية الوسم والمسارات.

16 . انظر بالخصوص مجلة TAL، 1995 ص 36 و 2-1 (عدد خاص أشرف عليه بونوا أبير) . هذا التطور ليس خطيا، وقد قال بونوا أبير Benoit Habert بهذا الخصوص : «إننا نسمي المتون المشجرة tree-banks كما لو أن النص يمكنه أن يختزل في متوالية من الجمل».

17 . انظر طانكي Tanguy ، 1998، ثليفيتيس Thlivitis ، 1998 وبانسمان Pincemin 1999a.



تستبق المطبعة كل العمليات وتمكن من تحقيق القراءة التي تؤخذ بعين الاعتبار في تصور إنتاجها. وتتم هذه العملية في ثلاث مستويات: 1 - يقابل انتقاء المتون ووضعها من لدن الناشر اختيار المتون الفرعية من طرف المؤول؛ 2- يكون النسخ ووضع العلامات الخطية على النصوص سابقا للتأويل، لأن كل علامة تعد ركيزة للوصف؛ 3- وفي آخر المطاف، تدير البرمجيات عملياتها حسب العلامات التي تمكنها من معالجة النصوص. وباختصار، في مقابل كل واحد من هذه المستويات، يمكن الترقيم من المساعدة على التأويل ومن انطلاق ممارسات تأويلية جديدة.

توسيع مفهوم النص وتجديده

يتطور مفهوم النص بإيقاع كبير مع الرقمية . إذ مكنت تقنيات تسجيل الصوت من إنشاء نصوص شفوية، وهي موضوعات فيلولوجية جديدة تتيح النقاش والظرفيات و تعد مادة للسانيات الشفوية (بلانش- بنفنست Blanche Benveniste، 1992). لقد فقدت المقابلة بين الشفوي والكتابي مشروعيتها، حيث تعد هذه الكتابة أساسية للتفكير الفلسفي إلى حدود الفترة التي ظهر فيها دريدا Derrida، بل وحتى بالنسبة للتقليد التيولوجي[18]. و يوجد السجال الخاطئ بين الكتابي و الشفوي على عتبة فقدان صلاحيته إ ثر ظهور الرقمية.

18 .يمكن إرسال نص أصلي بطريقة شفوية أو كتابية، إذ يخلق تعايش هذين المسلكين أسئلة صعبة، سواء بالنسبة للتقليد الأفلاطوني أو بالنسبة للتوراة الشفوية و أحاديث الرسول... الخ. و المتعارف عليه أن الشفوي باطني وواضح، أما الكتابي فهو ظاهري وغامض، وهذا ما يستدعي التوضيح استنادا إلى التقليد الشفوي.

لقد استطاعت المقابلة بين الكتابي و الشفوي أن تقتحم تباين الركائز إلى درجة أنه في إمكانهما أن يختلطا، و خير مثال على ذلك هو التعاليق الصوتية الخاصة بالنص المكتوب. إذ نعلم أن في مقدرة أي إنجاز لغوي وضع العديد من السيميائيات [بالجمع] (التطريزية والحسية- الحركية والطوبوغرافية، مثلا). ولكن الترقيم يعمل على تركيبها في نصوص متعددة الأنساق، تبشر بها تبشيرا غير متجاوز المخطوطات المتعددة الألوان و المتضمنة للأشكال[19].

وتنتمي الفيلولوجيا الرقمية بطبيعة الحال إلى علوم الثقافة. لقد كان اللسانيون عادة ما يستندون في عملهم على جمل لا أصل لها، ولهذا كانوا يهملون الفكرة القائلة بأن النص ينتج عن خلق مستمر من قبل أولئك الذين يرسلونه، سواء من أجل لغته أو مضمونه. وعليه، فإنه على غرار كل موضوع ثقافي، كل نص يفرض مسافة نقدية إزاءه، على الأقل للسعي إلى الأخذ بعين الاعتبار وضعه التاريخي و قابليته للدراسة. ربما ستُقلق العقول « المتفائلة»، فالفيلولوجيا تذّكِّر بأن النصوص ليست معطيات ولكنها أبنية تطرح عدة مشاكل وتنبثق من عدة إجراءات.

أ) يضع **التسجيل**(inscription) النص رهن إشارة الجمهور ويُثبَت على ركيزة دائمة، وهذا ما يجعله قابلا لعملية النقد. من ورق البردي إلى القرص الصلب، كل صنف يفرض خاصياته و يضع قيودا على صيغ التقطيع المادي، مثل الصفحات أو الملفات (fichiers). وعلى الرغم من أن التصور العادي للكتابي غالبا ما يكون مرتبطا بالذكريات المدرسية حول الإملاء، فإنه لا يعد بطبيعته تسجيلا للشفوي (توجد أصناف كثيرة من الكتابة غير الأصواتية)، ولكنه يفرض نفسه كوضع مستقل للغة. إذا كان الشفوي هو السابق تاريخيا، فإنه لا يعد أساسيا.

ب) يُشتق **التأسيس** (Etablissement) من التأويل، وهذا ما يبرر مبدأ الهيرمينوطيقا الفيلولوجية. ويقود هذا التأسيس إلى الإتقان الذي يصحح الأخطاء بنقد التأويلات ويفسح المجال لتأويل جديد. كما يقود إلى تخصيب النص المرشح للتأسيس، وذلك بمنح الدروس الأكثر أهمية، بل وإيجاد طبعات جديدة، وغالبا ما يقترح كبار المؤولين طبعات جديدة للنصوص التي يدرسونها (أنظر طبعة أفلاطون على يد شليرماخير). و يمكن اعتبار الوضع كنتيجة للتأويل، على الأقل، تشتق كل نسخة لنص ما من

19 .كان الاغتناء الانعكاسي للسيميائيات المتعلقة بالنص المتعدد الوسائل الإعلامية موضوعا للقليل من الدراسات، ماعدا السينما.

التأويل وتمكن من تأويلات أخرى؛ و تعد هذه الصيرورة شكلا من أشكال الدائرة الفيلولوجية.

ج) يرتبط النص بنسق خطي يستخدم عددا كبيرا من العلامات السيميائية، إلى جانب الحروف، كما نجد الفضاءات و الترقيم و التمفصلات التي تقطع النص إلى فقرات... الخ. إن وضع العلامات الخطية *(tagging)* إجراء حديث، ولكنه ممارسة قديمة لأن الخطوط الملونة بالأحمر و الحروف المزخرفة التي تعود إلى القرون الوسطى كانت، بشكل ما، عبارة عن علامات خطية. وفي الواقع، فإن الحروف والعلامات الخطية عنصران متكاملان لأنظمتنا الخِطاطية [أو الكرافية].

د) لا يمكن تأويل النص الفاقد للسياق، في الإطار الخاص بالهيرمينوطيقا الفيلولوجية و هنا تَفرض المجموعة النقدية المهتمة بالنصوص نفسَها. إن هدفها لا يتمثل في تكديس المعطيات، كما يعتقد المقررون، ولكن في جعل النصوص قابلة للقراءة، طالما أن النصية والتناص متعالقان. إن كل نص، متسم بالفردية، لا يُفهم إلا في إطار تعددية النصوص المنتمية إلى الجنس نفسه وإلى الخطاب نفسه. وعند الاقتضاء تضاف إلى هذه التعددية الخارجية تعددية داخلية متعلقة بالمسودات و المتغيرات.

ر) التمييز (caractérisation) هو منتهى النقد. في التصور التوثيقي، يكون النص معنونا و مرتبا ومرتبطا بالذين يشرفون على وصفه و تعيينه ، كما يكون مصنفا، وهذا ما يربطه بمتون القراءة والتأويل. ولكن فوق كل هذا، يجب وضع برامج تساعد على التمييز تتجاوز استخراج الكلمات- المفاتيح؛ إذ تؤكد الأنظمة، مثل النظام الذي طرحه بانسمان (1991) على الفعالية التطبيقية وعلى الأهمية النظرية التي تحظى بها التوقعات التأويلية في هذا الميدان.

هـ) تُعرِّف الوضعية المعنى بأنه هو كل ما يبقى قارا في سلسلة من عمليات تحويل شفرة (transcodage). في حين تعتبر الدلالة الاختلافية أن المعنى ينتمي، جزئيا، إلى ما هو متغير في هذا التحويل. ويظل مفهوم الشفرة قويا، ونُعرِّف النقل بأنه عبور بين سيميائيتين وبين لغتين، بل وحتى بين خطابين. هناك شكلان من النقل يقابلهما مستويان لغويان. من بين التغييرات التي تطرأ على التعبير، نجد على سبيل المثال تصويت (vocalisation) نص مكتوب و كتابة نص شفوي أو ببساطة، تقديم نسخة لشيء مكتوب. ويمكن للنقل أن «يفقد» معلومات، ولكن يمكنه أن «يضيف» أخرى.

و بناء عليه، تعد قراءة نص بصوت عال ، في نهاية المطاف، تأويلا بالمعنى الجمالي للكلمة. إذ يأخذ التأويل في مستوى المدلول شكل التعليق الذي يحول معنى النص المعلق عليه، وبالتالي ينميه بمتناص جديد. وفي كلتا الحالتين، فإن نقل مستوى نص ما لا بد و أن تكون له آثار على النص الآخر.

«الموارد اللغوية أو المتن»؟

يشير المصطلح الفضفاض « مورد لغوي»، الذي يُستعمل كثيرا في المكتبية الأوروبية، إلى كل أنواع «المعطيات» دون مراعاة مبدإ الوضع المشترك. أحيانا يبحث البعض في شبكة المتون، نصوصا مشكوكا فيها وغالبا ما تكون غير موثقة[20]. ولإرضاء أدنى المتطلبات الفيلولوجية، ولكي يتم تجميع النصوص في شكل متون، ينبغي على البنك النصي أن يتكون من نصوص كاملة وذات مصادر معينة ومدونة حسب المبادئ المشتركة مثل مبادئ النشر والتشفير. و يجب عليها أن تسمح بالتجميع النصي لإنشاء متون العمل الفرعية وأن تكون على قدر كاف من التنوع. وباختصار، تُحوِّل عملية انتقاء ومعيَرة و تشفير (Codification) النصوص البنوكَ النصية إلى متون حقيقية.

يعكس اختلاف الآراء حول «الموارد النصية» تصورات مختلفة حول المتون. ويكتفي التصور المنطقي- النحوي الذي يسود عادة داخل مجموعة المعالجات الآلية للغة بعينات، لأن هذا التصور يعتبر المتن ذاته عينة. وفي هذا السياق ، كتب سانكلير Sinclair على سبيل المثال ما يلي:« المتن هو تشكيلة من المعطيات اللغوية المنتقاة والمنظمة حسب معايير لغوية صريحة لكي تستخدم كعينة تمثل اللغة» (1996، ص9). و يضيف الكاتب أن المتن « مكون من عدة كلمات»، بحيث إن الكلمة، وليس النص، هي الوحدة المعتبرة.

إذا كان مفهوم النص غائبا هنا، فلأن الإشكالية المنطقية- النحوية تقود بواسطة إجراءات انتقاء العينات إلى هدم النصية التي لم تتمكن [أي الإشكالية] من تصورها. إن المتن الوطني البريطاني(British National Corpus) يملك مئة مليون كلمة، ولكنه لا يحتوي على نص كامل؛ إذ تم اقتطاع فقرات في بداية النصوص وفي وسطها وفي

20 . في طبعة ويب web لنص لبروست Proust بعنوان *Les plaisirs et les jours*، وبعد الإهداء المأتمي الموجه إلى ويلي هيث Willie Heath. استهل الكلام بهذه الكيفية : « كان الإغريق القدامى يقدمون لموتاهم حلوى وحليب وخمر. وحينما نكون مستلبين بوهم متسم بالصفاء أو بالحكمة، نقدم لهم الورود! [كلام محذوف]. إذا أعطيتك هذا، فلأن الهدية عبارة عن كتاب مكون من صور.

خواتمها ، وذلك لتجنب التغيرات الناتجة عن بنياتها. ولا يبقى من المؤلفات الأصلية إلا مختارات من 45000 حرف، محددة اعتباطيا داخل الفصول. إذ نجد في متن براون (Brown Corpus) المتخصص في النصوص الأنجلو-أمريكية 500 نص مجتزأ من 2000 توارد في 15 جنسا؛ يتبع المتن LOB (Lancaster, Osto, Bergen) نفس المنهاج بالنسبة للإنجليزية. وتدون هذه المتون النص (du texte) وليس النصوص المرتبطة بالإشكالية التي تفترض البعد النصي، ولكن دون اعتبار النصوص موضوعات ثقافية يجب احترامها في صيغتها الكلية. ماذا سنقول في شأن عالم آثار يكسر الأواني الطينية ويخلط الشقوف، وبعد ذلك يختارها بطريقة عشوائية قبل دراستها ؟ توضع علامة استفهام حول مفهوم « اللغة العامة» كلما قمنا بتقنينها، وذلك بمحو الاختلافات بين الخطابات والأجناس. وتعد اللغة التاريخية تراكما لكل النصوص، بينما تعتبر اللغة «الوظيفية» كلية وتعتبر كذلك وحدة مكونة من كل النصوص المتزامنة، بحيث يُفترض أن اللغة تظل كما هي حسب الأجناس والاستعمالات، أو على الأقل، بالإمكان إهمال تغيرات هذه الأجناس وهذه الاستعمالات التي لها قيمة مع ذلك.

تظل نظرية المتن الذي يعكس اللغة بأكملها فكرة وهمية، لأنه باستثناء قرار معياري، لا يمكننا اعتبار المتن المرجعي كونيا. وفي الواقع، تتم الإحالة على متن ما حسب المتطلبات الاجتماعية و التطبيقات التي يصعب إصدار أحكام مسبقة إزاءها، ويمكن للمنشغل بالتركيب و للمهتم بالدلالة أن يختلفا من حيث الاحتياجات، في حين أنه ليس للسانكروني ولا للدياكروني الشروط نفسها... الخ.

وفي إطار التصور البلاغي الهيرمينوطيقي، يعتبر البنك النصي مجموعة نختار من داخلها متونا للإحالة، كما يعتبر مجموعات من النصوص الكاملة والمدونة والمشفرة حسب المبادئ المشتركة والصريحة . وكل تطبيق و استعمال للبنك و كل مهمة تأويلية تحدد فيما بعد متن عمل داخل متن المرجع المختار.

لقد أكدت التجربة أن النظريات المنطقية- النحوية، التي لا يتجاوز فيها الشِّبْر الحقبة، لا يمكنها تمثيل التأثير الانعكاسي بين أجزاء النص نفسه، ولا بين نصوص منتمية لنفس المتن. لكونها قد عجزت من جهة أخرى عن تحديد مفهوم الملاءمة ومفهوم الإبراز النسبي (saillance relative)، فإن هذه النظريات لا تمكن من استخدام الوسائل الإحصائية. وفي الأخير لا يمكنها تنويع المقاربات حسب المهام.

والحال أن الدلالة التأويلية تستطيع، بافتراضها أن النص وحدة أساسية، طرح مشاكل التناص ومعالجتها (أنظر تليفيتيس ، 1998). وبما أنها ليست مبنية على أساس الأنطولوجيا الموحدة من جهة أخرى، بل على أساس البراكسيولوجيا، فإنه من الممكن للدلالة التأويلية التأقلم مع تغيرات المهام ومع التطبيقات[21]. في الأخير، تتطابق المناهج الكمية للإبراز (مثل منهج الفارق المتقلص) مع المبدأ الاختلافي المتبنى في الدلالة التأويلية. (أنظر ديزا، Deza 1999).

وتجدر الإشارة إلى أنه حتى مصطلح «متن» يحتاج إلى تدقيق، لأن المتن ليس مجموعة من المعطيات، إذ نلاحظ عادة في علوم الثقافة أن المعطيات مكونة مما نمنحه لأنفسنا (أنظر هامش رقم 2 ص 96). ووجهة النظر التي تتحكم في تكوين متن ما تتحكم بشكل طبيعي في الأبحاث اللاحقة. إن هناك أربعة خطوط للتقييم تمكن من تحديد متن ما، و نقدم هذه الخطوط فيما يلي:

أ) ليس للتمثيلية هدف، إذ ترتبط بنوع الاستعمالات المرتقبة. فإذا كنا نفهم من هذا التصور توسعا مقرونا بتجلي نوع من الظواهر، فإننا سنلاحظ أن متنا مخصصا لدراسة الاطرادات الأصواتية أو لدراسة الترقيم يمكنه مثلا أن يكون بمقدار مائة مرة أقل اتساعا من متن مخصص للتحليل التيمي. و في المقابل، إذا كانت التمثيلية تعني المعيار الكيفي الذي يفترض مثلا أن تُختار مؤلَّفات تمثل جنسا أدبيا، فإن هذا المعيار يصبح ببساطة معياريا، طالما أنه يشيِّد قاعدة (canon).

ب) يرتبط تجانس متن ما أيضا بنمط البحث. فلا تأخذ الأبحاث اللغوية التي تهتم بنسق اللغة بعين الاعتبار تغيرات الجنس النصي، إذ يستطيع كل نص فرنسي أن ينتسب إلى متونها.

ويأتي بعد ذلك التجانس المتعلق بالانتساب إلى الخطاب نفسه (تشريعي، ديني،... الخ). يبدو أن لهذا التجانس إلى حد ما قيمة عليا: وعلى سبيل المثال، سنجد بخصوص لائحتين من ستين صفة نابعة من متنين حول التذوق الشفوي والكتابي أن العشرات منها فقط تُعد مشتركة(أنظر نورمان Normand ، 1999، ص 89 و 97)، والملاحظ أنه لا توجد أية صفة في الطبقة نفسها، إذ تتم إعادة تشكيل كل الطبقات عند

21 .لكي تستطيع نظرية ما أن تتأقلم مع التطبيقات الوصفية، عليها أن لا تكون دوغمائية بشكل كبير أو صغير، فتحديد فرضياتها إلى أدنى حد (غياب الأنطولوجيا المحددة مسبقا، غياب الإواليات والمعاجم) يمكنها من توليد نسخ جزئية أو نسخ يتم إضعافها من تلقاء نفسها.

الانتقال من متن إلى آخر.

و في نهاية الأمر، ينبغي تفضيل تجانس الأجناس بالغياب (par défaut)، حتى بالنسبة للأبحاث المتعلقة بالأسلوبية (أنظر الفصل السادس والثامن). والقاعدة العامة تقول إن الأبحاث في دلالة النصوص يجب أن تدرس متونا على قدر كبير من التجانس خاصة من حيث الأجناس، أو على الأقل من حيث الخطابات. و في الواقع، يمكن للنص أن» يفقد» المعنى، إذا ما وُضع بين نصوص عديمة الفائدة، لأن مقارنتها لا تمكن من اختيار المقابلات الواردة. إن التوصية بالتجانس ليس لها مع ذلك أي مظهر إقصائي، لأن النقد الفيولولوجي يقود إلى اعتبار التغيرات التي تطرأ على المتن مشكلة.

ج) إن الأهداف و الوسائل المستخدمة مرتبطة أيضا بانفتاح المتن أو بانغلاقه. وتهم المتون المفتوحة بالخصوص تطبيقات رصد المستجدات التكنولوجية أو المعلوميات التوثيقية. بيد أن للمتون المغلقة مظهر معياري، لأن نصوصها تكون، إلى حد ما، مقننة في شكل قاعدة.

في خضم بحث ما، يكون متن المرجع ومتن العمل دائما مغلقين، لأنه يجب أن يكونا محددين مسبقا. و استنادا إلى منهجية اللسانيات المبنية على المقارنة، لا تستطيع هذه الأخيرة أن تشتغل، بطريقة نفعية، إلا على متون محددة.

د) على غرار أي عمل مصطنع، من الواجب صيانة المتن، مما يعطي فرصة لتطور المتون المفتوحة. و تصبح صلاحية كل متن متجاوزة، حتى ولو كان متنا مغلقا وغير معرض لإعادة التأسيس المستمر. والمفارقة هي أنه يصبح غير قابل للاستعمال في حالة عدم استعماله.[22].

و بالإمكان إدراج مختلف الأهداف حول تأسيس متن ما، وذلك باختبار المعايير وبتحسين تجانسه وتمثيليته وكذلك بتشفيره؛ ويمكن أيضا استغلاله لإنتاج مجموعات صغيرة وواردة من أجل صنف من الملتمسات، و من أجل المساعدة على تحليل البنيات النصية على المستوى الدلالي. أما دَورة صلاحية المتن، فإنها تتضمن المراحل التالية: التخمين التوحيدي الذي يسعى إلى تجميع المتن ثم الوضع فالإغناء فالشروحات فالتعليق؛ وأخيراً الاستغلال.

22 .تنطبق هذه الفكرة على مستوى المضمون، فالنص الذي لم يعد يقرأ يمكن أن يصبح غير قابل للقراءة، لأنه انقطع عن تقليده التأويلي.

التشفير

حينما يخالف المتن النصوص و أجزاء داخل هذه النصوص، فإنه لا يعد حقيقة «عاريا». والملاحظ أن كل علامة خطية تعتبر تشفيراً، إذ يمكن أن يكون للحرف قيمة المقطع داخل نسق الكتابة المفتقرة للحركات، مثل مؤشر أثالي داخل تعبير خطي متسم بالعلمية... الخ. وبعبارة أخرى، فإن تشفير النصوص هو تمديد للكتابة التي ما فتئت أنساقها تغتني وتتعقد، فأصبحنا نقوم بالعمليات التالية: ترقيم الأصوات و « الأفكار» والفواصل بين الكلمات و الفواصل (pauses) والنبرات... الخ.

وعلى العموم، تكون أنساق التشفير عبارة عن سيميائيات [بالجمع] تتسم بالتعدد. وعلى المنوال نفسه الذي تطرح فيه الخريطة الجغرافية، دون أن ننتبه إلى ذلك، سيميائيات جد مختلفة، بعضها نظمي والبعض الآخر ليس كذلك، فإن النص المكتوب يضع أنواعا من الكتابات (notations)[23] على الدرجة الخطية (حروف وعلامات مميِّزة) وعلى درجة التطريز (الوحدات الترقيمية والفراغات) ثم على درجة المتواليات (أبواب و فقرات و فصول وكتب).

من أجل تصنيف للشفرات

إذا كانت كل علامة عبارة عن ركيزة للتأويل، فإن الحروف تعتبر ركائز مرحلية، **والعلامات الخطية** (balises) عبارة عن نقط ضرورية للمسار التأويلي في شموليته. وهكذا نميز بين أربعة أنواع من العلامات الخطية .

- **التمفصل** وهو عبارة عن إضافة علامة إلى سلسلة من الخطوط التي تشير إلى موقع في مقطع (section) متعلق بالدال: بداية الفقرة، الانتقال من صفحة إلى أخرى، الفصول... الخ.
- **الوسم** عبارة عن شرح أدنى ومضبوط ومقحم بواسطة مقولات «ميتا- لغوية»: أصواتية و تطريزية وصرفية-تركيبية ودلالية[24].
- **الفهرست** (index) يشير إلى نقطة محلية غير متجانسة، بواسطة الإبراز الكيفي

---

23 . نترجم مفهوم codage بـ «تشفير» ومفهوم codificat.on بـ «تدوين». أما étiquetage و notation فهما متقاربان في المعنى ، بحيث يعنيان تأشير أو وسم كلمة برمز معين مثل وسم «جملة» بحرف «ج» و وسم «فعل» بحرف «ف». ونقترح ترجمة étiquetage بـ «توسيم» و notation بـ «كتابة » (المترجم).

24. يجسد كل صنف من التوسيم وجهة نظر مختلفة، و يخلق تعددها تعيينا متقاطعا. إذا كانت معظم عمليات التوسيم المستعملة تؤشر لتأثير المركب والجملة على الكلمة، فإن بعض الفهارس الدلالية توسم تأثير النص على الكلمة.

(relief qualitatif) . أما العمليات التي تدخل في هذا الإطار فهي التبويب و رسم الخطوط والوميض(clignotement) (على الويب web) و التوجيه (modalisation) (مثل الحرف الطباعي المائل ثم الموقع الملحوظ (مثل الحرف المزخرف)[25].

- و أخيرا يمكن تمديد مفهوم المرساة الخطية (ancre) للإحالة على أجزاء أخرى من النص (إشارة إلى الهامش أسفل الصفحة) و إلى نصوص أخرى (إحالات) أو إلى سيميائيات (بالجمع) غير متجانسة (نقط إقحام الصور، مثلا).

فعندما نعتبر مجموع العلامات الخطية كنقط في المسارات التأويلية التي توضع على الأشكال النصية، نستطيع أن نميز بين ثلاثة أنظمة في هذا المسار: أولا النقط الاطرادية(points réguliers) وهي الحروف. و ثانيا، شكلان من النقط الفريدة (singuliers points)، و يتعلق الأمر بالخصوصيات المحلية(فهرست) وبالخصوصيات الشاملة التي تهم مختلف الدرجات (التمفصلات). ثالثا وأخيرا، التفريعات التي تفتحها المراسي الخطية و التي تقود المسارات التأويلية في اتجاه أشكال نصية أخرى تنتمي إلى النص الموازي و إلى التناص.

تضاعف عناصر الوسم [26] من خطية النص التي تعد شيئا نسبيا عبر سطور متجانسة ومؤلفة من أقسام تكون عموما قليلة العدد. إنها لا تكوِّن أشكالا مستقلة، ولكنها تعمل على ترقين سلاسل من الحروف و تُقيِّم- النص الأدنى (infratexte) الذي يظل غير قابل للتأويل حينما لا يكون في استقلالية عن النص الذي ترقنه السمات.

تُجمع كل العلامات الخطية تحت اسم تشفير، إذ من حسنات المشروع المسمى مبادرة من أجل تشفير النص إعطاء شكل موحد لكل العلامات التي قمنا بتمييزها (أي التمفصلات والسمات والفهرست و المراسي الخطية) ، وبذلك يمكن أن تصبح متفاعلة.

وبما أن البرمجيات المتطورة لا يمكنها حقيقة استغلال المتون إلا إذا كانت نصوصها موسومة بعلامات خطية، فإن التشفير ينم عن وضع استراتيجي[27]: إن النصوص «غير

---

25. لا يمكن إدراك التبريز بالنسبة للإشكالية المنطقية- النحوية التي تفترض اطراد العلامات.

26. ترجمنا étiquette «بوسم» لنتفادى خلطه بمصطلح» سمة» trait أو marqueur. وتستعمل المصطلحات الثلاث في المجال الدلالي والتركيبي والمعلوماتي، إلا أن مصطلح «وسم» كثير الاستعمال في الدراسات التركيبية و يخضع للصورنة (المترجم).

27. لا يسعنا هنا إلا الإحالة على المعايير الدولية التي صدرت مؤخرا مثل TEI liteوXML-(وللتذكير XML هي الحروف الأولية لمصطلح eXtended Markup Language) وهي لغة موسعة بواسطة العلامات الخطية.

المنظمة» قليلة الاستعمال من أجل البحث، لأنها لا تتضمن إلا نقطا مطردة، ولكن كل شكل يعرف للوهلة الأولى بالنقط الفريدة.

من أجل تشفير متعدد الخطوط

يظل تسلسل العلامات الخطية دقيقا في الأنساق الألفبائية المهيمنة، على الرغم أن بعض المميزات، مثل النقطة- الفاصلة في الكتابات السامية، تبدو متطابقة وكأنها موضوعة فوق سلم موسيقي. ومع الترقيم، تصبح حاليا صورة السلم واقعا، ويمكننا توسيم النصوص بالنظر إلى ثلاثة مستويات أساسية: على المستوى الأصواتي، بواسطة المحول المرتكز على الوحدات الخطية والفونيمات (من أجل حالة الفن في الفرنسية، أنظر، إ يفون وآخرونYyvon et al. 1998)، وحتى البرامج النظمية (أنظر بودوان Baudouin، 1986، 2000). وعلى المستوى التركيبي، يسند المحلل أو Parser السمات المورفولوجية (أقسام الكلام) ولكن يشير أيضا إلى المجموعات التركيبية وإلى وظائفها[28]. وفي الأخير، على المستوى الدلالي، تشير التوسيمات التي تضع السمات العامة إلى الأبعاد وإلى المجالات الدلالية. وهذا النوع من التوسيم الذي لا يزال جنينيا يصلح لوضع القواميس الالكترونية.

هذه الأنواع الثلاثة من التوسيمات لا تقدم أي جديد من الناحية المبدئية ، ويتم استغلالها في جو من الاحتراس، لكن المعالجات الآلية قد سمحت في آن واحد بالتأشير عليها و باستغلالها. وبالتالي فإننا نحصل على نصوص«جدولية» تكون فيها كل وحدة، كيفما كان حجمها، مطابقة للائحة مفتوحة من الشروحات، التي تجسد ماديا الفكرة القائلة بأن القراءة تغني النص. وهذا ما يلاحظ في التجربة العتيقة للحاشية [أو التعليق] (Glose)[29]. ويتجلى الهدف المتبع والواعد، بالنظر إلى النتائج الأولى، في السماح بالتساؤلات المزوجة بمجموعة من القيود على أكثر من درجة. مثلا، عندما قامت دوني مالريو Denis Malrieu بدراسة السياقات التي يظهر فيها الليكسيم مثل بحر في متون أدبية، فإنها قد وضعت (بحث قيد الطبع) علاقة متبادلة مع موقع الوحدات الترقيمية (ponctèmes)، حيث تُتبع هذه الكلمة بصورة تعبيرية بالترقيم القوي و توضع

=وتبسّط هذه المتالغة التمثيلية لبنية ولمضمون الوثائق المعيارَ المسمى SGML وتصبح نموذجا لتبادل الوثائق على شبكة الانترنيت.

28. بالنسبة للفرنسية ، يمكننا التأكيد على نجاعة البرنامج المسمى Cordial U (أنظر مالريو و راستيي ، 2001).

29. حسب توصيات TEI lite، ومن الناحية المادية، فالنص المشفر في مستوى تفصيلي متوسط يتوسع بمقدار النصف.

غالبا في آخر المركب أوفي آخر الجملة. كما يمكن توسيع هذا التعالق ليشمل مفردات [ليكسيمات] غير منجزة مثل كلمة سماء...الخ.، ولكن لا تشمل الوحدات المعجمية المنجزة مثل كلمة حائط. وعليه، فإننا نكتشف شكلا مطردا من الصيغ الدلالية التي تنهي المجموعة أو الحقبة بالمفردات غير المنجزة استنادا إلى نوع من التوسيع. يمكن توضيح كل أنواع الظواهر غير المتجلية مثل المتغيرات الصرفية- التركيبية حسب الأجناس (أنظر مالريو و راستيي، 2001) و العلاقات المتبادلة بين الزمن الفعلي والترقيم، أو بين الطبقات الصرفية والبنيات السردية.

من أجل ابستيمولوجيا التشفير

تفضل الإشكالية المنطقية- النحوية العلامة، وبالخصوص التوسيم الصرفي- التركيبي. وتروم أيضا إلى رصد المتواليات «الصورية» مثل النماذج الصرفية- التركيبية من صنفN de N. وعلى المستوى الدلالي، تفضل هذه الإشكالية العلامة المرجعية، بحيث تعمل أولا على تشفير الذوات وعلى الخصوص أسماء الأعلام. وفي المرحلة الثانية، تسعى إلى نمذجة العلاقات بين الذوات استنادا إلى العلاقات الأنطولوجية (علاقة انتماء، علاقة جزء-كل)، وذلك بإسقاط الشبكات الدلالية كالقواميس (أوالمخزون المعجمي) على النصوص المرغوب في توسيمها. و تعتبر شبكة ووردنيت (Wordnet) المثال الأكثر تطورا في الوقت الراهن (أكثر من 100000 كلمة). و تفسر الأفضلية الممنوحة للقواميس و للمخزونات المعجمية و للشبكات الدلالية التي تمثل أنطولوجيا الميدان بسهولة، لأن هذه الأنواع من الوثائق هي نفسها إنتاجات مادية للإشكالية المنطقية- النحوية. ومع ذلك، يظل هناك شك يخيم على التبوئية وعلى الخاصية التمفصلية للوحدات الدلالية، عندما نربطها بعلامات داخل السياق، إذ لا يمكن نقل التوسيم المورفولوجي إلى التوسيم الدلالي، لأن الوحدات الدلالية في درجة النص تكون مسهبة. فمثلا يمكن للتيمات أو للفاعلين (acteurs) أن يتلقوا معجمات متعددة، و لكن لا تمنح الأفضلية لأية تيمة. (أنظر الفصل السابع).

وفي المقابل ، يفضل التصور البلاغي الهيرمينوطيقي ما هو شمولي، وعلى الخصوص، رؤوس الصفحات (en-têtes) الوصفية المتعلقة بالمتن وبالنص؛ بعد ذلك، يعمل هذا التصور بكل عناية على تشفير التمفصلات الكبرى للنصوص وعلى استغلالها. بدلا من الانطلاق من الانطولوجيا المحددة مسبقا، على اعتبار أن النص

لا يمثل دائما إلا تجليا جزئيا وغير كامل، تسعى الأنطولوجيا إلى إظهار الإطرادات والتميزات بطريقة ترابطية، و إلى جعلها مطابقة للخلفيات وللأشكال الدلالية وذلك عن طريق البناء التأويلي.

تجديد التأويل

لوضع متون موثقة، يجب على الفيلولوجيا أن تؤولها، على الأقل من أجل وضع النصوص. لقد تم في الوقت الراهن تمديد الوضع والتأويل في نوعين من التطبيقات ألا وهما التوسيم باعتماد الحاسوب و اللجوء إلى الآلة من أجل التأويل[30]. ولهذا فإن الفيلولوجيا الرقمية غير المقتصرة على المستوى التعبيري تتضمن مكونا دلاليا يهم النص والتناص. وبعد أسطوانة التحبير(rouleau) و الكوديكس (codex)، تبشر الرقمية بعصر ثالث للمكتوب، المتميز بالولوج الآني للمتن والقراءة غير الخطية. و الملاحظ أن هذين العاملين يقودان إلى إعادة الاعتبار للنصية وللتناص معا.

تحديدات

دون الدخول في نقاش حول المحايثة، لنعتبر أنه بالإمكان تحديد النص بصفة داخلية أو خارجية. ويختزل التحديد الداخلي النص في سلسلة من الحروف وفي متوالية من الكلمات خصوصا عندما يكون التحديد تحليليا. أما التحديد الخارجي، فإنه يدقق الاستعمال الموكول للنص ووجهات النظر المرتبطة بمهام التأويل (التي تكون أحيانا مستقلة عن الاستعمال المرتقب) عندما يكون التحديد محليا. أما عندما يكون شموليا، فإنه يُموضِعه في التناص كما يموضعه في المقام الأول في متنه المُعرض للدراسة، حيث ينظر إليه بموازاة مع النصوص الأخرى، لأن علاقات التأويل المتبادل تخلق وضعا يستدعي«المرور بمنعطفات» لقراءة نص ما ، عن طريق نصوص أخرى.

يمكننا نهج ثلاث استراتيجيات بهدف التحديد الآلي للنصوص: الفهرسة التباينية لكل النصوص المنتمية إلى متن دون تحليل دلالي مسبق، وذلك بالاعتماد على برمجيات تمكن من إبراز الارتفاعات و المنخفضات الإحصائية، ومن تحديد المقاطع (الفقرات مثلا) الواردة بالنسبة لأي تطبيق وتحديد الروائز التي تعمل على إبرازها (موقع، مؤشرات)؛ وفي الأخير، تمكن من خلق متون فرعية يتم إغناؤها دلاليا

30. تعتبر النمذجة المعلوماتية للمسارات التأويلية برنامجا طموحا. في الواقع، من الضروري معرفة المسارات الحقيقية ووصف استراتيجيتها ومنهجيتها بهدف معالجتها آليا دون إحاطتها بقيود (أنظر طانكي Tanguy 1997).

استجابة لأهداف المهمة الموجودة قيد الإعداد.

درجات السياق والتناص

يقوم النشاط التأويلي على أساس الوضع داخل السياق . فهو يُرجع الفقرة المعتبرة، حتى ولو كانت جد مختصرة (يمكن أن تكون كلمة) إلى محيطها، حسب مناطق المحلية (مركب، حقبة) ذات الحجم المتطور. كما يرجعها إلى فقرات أخرى من النص نفسه، و يتم استدعاؤها بإجراءات المماثلة أو التباين. و أخيرا، يربط النشاط التأويلي الفقرة بفقرات أخرى منتمية إلى نصوص أخرى، مختارة من داخل المرجع، وهي النصوص التي تدخل ضمن متن العمل.

لا يعتبر أي من هذه التشكلات السياقية (contextualisations) الثلاثة محددا بالمعنى الذي نضع فيه المعطيات في الذكاء الاصطناعي بحكم أنه يفترض مسارا خطيا كلمة بكلمة. إن التشكل السياقي الأول متقهقر، أما الآخران فإن درجة تقيدهما بخطية النص أو بخطية النصوص التي تتعرض لعملية التقارب قليلة. وسواء شَكّلت سياقا أو أعادت تشكيل سياق في كل الحالات، فإن عملية التقارب تولد المعنى، بصورة حتمية إن لم تكن بصورة إلزامية ، حسب مبدأ الخاصية السياقية (contextualité) الذي يعبَّر عنه كما يلي: تنتقي (انتقاء انعكاسيا) علامتان أو فقرتان لنفس النص، موضوعة جنبا إلى جنب، عناصرَ مكونة للمعنى اللفظي (سمات). يحَول هذا التبادل المعنى اللفظي إلى المعنى النصي، عن طريق السمات الملازمة، أو بتحصيل السمات المجالية أو نشرها.

ويقابل مبدأ الخاصية السياقية مبدأ التناص الذي ينطبق على درجة أخرى، ولكن بصورة مماثلة: تختار(بشكل انعكاسي) فقرتان من نصوص مختلفة، و إن كانت مختصرة ومقلصة إلى بعد علاماتي، عناصرَ من المعنى اللفظي (سمات)، حينما توضع جنبا إلى جنب. ويحدد هذا التبادل بشكل مفرط المعنى، بتحصيل أو بنشر السمات المجالية.

يمكن صياغة مبدأ التناص الجامع[31] (architextualité) على درجة تحليلية قصوى: كل نص موضوع داخل متن يتلقى تحديدات دلالية، ومن المحتمل أن يغير معنى كل

31. لا يتعلق الأمر هنا بالمعمار، فبعض المترجمين اقترحوا مصطلح « معمار النص» في مقابل المصطلح الفرنسي architexte ، و لكنّ المبدأ الذي يستعمل في الدراسات التي تعنى بعلوم النص يشير إلى معنى الجمع أو «النساج» الذي يستعمله المعلوماتيون، وبخصوص مصطلح «نَساج»، أنظر معجم المعلوميات، إشراف عبد القادر الفاسي الفهري، منشورات معهد الدراسات و الأبحاث للتعريب بالرباط، 1997 (المترجم).

واحد من النصوص التي تكونه.

و في إطار العلاقة بين النص والمتن، يمكن في الأخير أن يتم « اللقاء» بين المؤلِّف والقارئ: الأول يكتب النص انطلاقا من متن يقوم الثاني بإعادته انطلاقا من النص. و ينبثق فهم النص، سواء في علاقاته الداخلية والخارجية، من خلال تشكيل السياق وتشكيل التناص، إلى درجة أنه (أي الفهم) يستطيع إعادة المتون المرجعية ومعها عمل المؤلِّف[32].

القراءة غير الخطية

بالمقارنة مع أسطوانة التحبير التي تفرض مسارا أو على الأقل بسطا خطيا للنص، استند الكوديكس إلى مجموعة من العمليات مثل تقليب الصفحات واستعمال الفهارس والجداول و الملخصات ليتمكن من تقريب فقرات أو نصوص بصورة سريعة، وللسرعة أهميتها، ونعلم مدى قوة تأثيرات الحداثة في القراءة. لقد أحدثت هذه الإمكانية ثورة في نمط القراءة وحفزت على دراسة النصوص، و ذلك بالتمكين من الانتقال من الفضاء الثنائي الأبعاد لأسطوانة التحبير إلى الفضاء الثلاثي الأبعاد والخاضع للسُّلمية.

إذا كانت معالجات النصوص تبدو أنها قد عادت إلى الأسطوانة السالفة الذكر، متبنية مبدأ التتابع الخطي بواسطة شريط التلاحق الجانبي الموضوع على الشاشة، فقد تحسنت وظائف المسار والبحث، و أصبحت تمكن في وقتنا الحاضر من استدعاء كل تواردات الكلمة، بل وحتى تواردات السلسلة أو الجدر(lemme)[33]. في السابق كانت مميزات الكوديكس تعد بمثابة ثورة. أما الآن، فقد أصبحت متعددة، إذ يمكن لكل فقرة في الفضاء الثلاثي الأبعاد للنص الرقمي أن تكون لها علاقة مع كل النص، سواء كان ذلك موضوع مسبقا أم غير مسبق بواسطة روابط النصوص اللاحقة (hypertextuels liens). وتغير هذه الأنماط من التشكيل السياقي المنقح مفهوم النصية ومفهوم التناص. من جهة أخرى، تظهر النصوص تنوعها الداخلي. إن الأنطولوجيا الكلية التي جعلت من الكتاب في الرومانسية المتأخرة جوهرا فردا و مغلقا قد تعرضت للرفض من قبل

32. انظر على سبيل المثال طاولة العمل لدومارسي Dumarsais والتي أعادتها فرانسواز دواي Françoise Douay في طبعتها لكتاب *Traité des tropes* . و ينطبق هذا المبدأ أيضا على الشفوي، حيث يتكون المتن من «كون خطابي» للمتكلمين، ومن تاريخهم الحواري المشترك عندما يتعلق الأمر بعلاقة حوارية تتسم بالامتداد.

33. في سنوات الستين من القرن الماضي ، صاحب إنتاج المطابقات المشَكّلة آليا انطلاق الموضوعاتية الأدبية، ولكن بصورة خفية.

الإمكانية التطبيقية التي تعمل على عزل الأجزاء والمقاطع. و بعد ذلك تتم مقابلة هذه الأجزاء و المقاطع بمجموع المؤلَّف أو بمجموع المتن الذي يوجد فيه.

و من جهة أخرى، تأخذ الصفحات أبعادا متغايرة حسب المؤوِّل وحسب التشفير، ويتعدى حجمها حجم الكتاب، ليضاهي مثلا مؤلف كاتب، أو مجموع نصوص منتمية إلى الجنس نفسه. وهذا ما يجسد المبدأ المفاجئ الذي اقترحه كل من فريدريش شليغيل وشليرماخير: كل الكُتاب الذين كتبوا في الجنس نفسه النصي يعتبرون ككاتب واحد. وعلى كل حال، تمكن القدرة على وضع عدد كبير من النصوص في متسلسِلة (série)، ولو حول نقطة تفصيلية، من دحض فرضيات، بل وحتى من إثارتها دون الارتكاز على الثقافة «العامة»، التي تكون عادة ناقصة ونرتاح لها مع ذلك [34]. إن مبدأ الواقع هذا لا يتعارض البتة مع مبدأ اللذة.

الولوج الفوري إلى المتن

حينما أصبحت المكتبة افتراضية، بدأ فضاؤها يتغير باستمرار ليس فقط من حيث المساحة[35]، ولكن أيضا من حيث علاقة هذا الفضاء مع النصوص، و نورد هنا بعض العوامل المختلفة لهذا التطور:

الأصالة: غالبا ما تعد الشبكة العنكبوتية متنا شاسعا، وهذا ما ينفي الادعاء الفيلولوجي بالأصالة والسلطة. من جهة أخرى، تفقد النصوص هويتها، وفي بعض الأحيان يتجدد التحيين من ساعة إلى أخرى. و في الأخير، غالبا ما تكون هذه النصوص غير موثقة، إذ إنه في حالة سيادة طوفان من المعطيات المشكوك فيها، يكون تأسيس التصنيفات وحتى المراسي الخطية موضوع طلبات ملحة.

الجاهزية: في الماضي، انفردت النصوص ذات القيمة العالية بالاستنساخ، وكانت لها وفقا لذلك سلطة وكنا متعلقين بأصالتها، وكانت مع ذلك مصطنعة (forgés). وفي وقتنا الحاضر، أصبحت النصوص بكل أصنافها جاهزة و بأعداد هائلة، ويجب تصور تقنيات التصفية بهدف الحفاظ على هذه المعطيات.

النصية: قبل حلول عصر المطبعة، كانت النصوص القيمة معروفة بمختارات

34. أورد أحد النقاد المرموقين في إحدى الندوات كلمة مميزة عند شاطبريان Chateaubriand ظلت ويا للأسف غائبة عن مؤلفه. وعبر المتخصصون عن آرائهم، لأن ناقدنا العبقري قد خلق كلمة نموذجية. والاطلاع على نص رقمي هو الكفيل بتجنب الوقوع في مثل هذا النوع من الأخطاء الواضحة ومن حذف مختلف الأساطير.

35. حاليا، يلاحظ أن مخزون كتب مكتبة صغيرة في مجلس بلدي ما يفوق مائة مرة ما كانت تتوفر عليه مكتبة أميرية كبيرة في القرن 15.

ودواويـن شعرية كان لها صدى متأخرا في الكراسات المدرسية. ويتطابق هذا مع جمالية المروءة ومع شيء من الشجاعة والحفظ. لقد مكنت المطبعة من تقريب النصوص الكاملة ومن نشر أعمال كاملة. في حين، كان القدامى يكتفون على الأرجح بالكتب الكبيرة. أما حاليا، فيتم الاشتغال على متون تفوق القدرات السالفة. فمثلا، من كان بوسعه التفكير في الإقدام على أعمال موضوعاتية حول 350 رواية (أنظر الكاتب و آخرون، 1995 وأسفله، أنظر الفصل الثامن)، أو إقامة تقابل صرفي-تركيبي لأجناس تعود إلى ملايين النصوص (أنظر ما لريو و راستيي، 2001)؟

المساواة: في الوقت الذي قُدر أنها صالحة للتصنيف، لم تكن النصوص الرقمية، حسب القاعدة العامة، خاضعة لسلمية ما. وأصبحت كلها متساوية حسب القانون، وهذا ما يهدد، بالنسبة للنصوص الأدبية، بعض الأحكام المسبقة التي تهم الذوق. بالفعل، يمكن للإجابات على طلب ما أن تضع جنبا إلى جنب مقاطع من نصوص قيمة وغير معروفة، معقولة و هزلية، نبيلة وفظة. وهذا التصور يدحض بفظاظة التصور العظيم للأدب، ويحدث قلقا خفيا في سماء البيداغوجيا.

المناهج

فيما يخص التساؤل حول «إمكانية حمل» البرمجيات والحضور الكلي للمنهجية التي يطرحها المعلوماتيون، يجب الإجابة بأن المنهجية لا يمكن أن تُحدد بصورة مجردة، لأنها ترتبط دائما بمهمة ديداكتيكية مثلا. واعتمادا على الدور المهم الذي تلعبه الاستراتيجيات التأويلية، من الأفضل إذن ربط القيم العامة بالانحرافات التطبيقية المفروض القيام بها.

في الغالب، لا تتوصل النجاحات التكتيكية إلى تعويض النقائص المتعلقة بالإستراتيجية التأويلية. ويمكن إيضاح تقنيات الاستخراج باستعمال تصاميم صرفية-تركيبية لتصفية النتائج. مثلا، إذا قمنا ببحث حول الفواصل الزمنية، فإنه يجب طبعا حذف الصفة الثانية ولكن لا يكفي إيضاح سكريبت الاستعمال من أجل بناء منهجية، و الشيء نفسه بالنسبة للخلق ولاستعمال الأدوات.

وتطرح هذه المعطيات المشكل الدقيق المرتبط بالتكوين وبتصديق الفرضيات التأويلية. و يمكن ولوج البنوك النصية من إقامة تجارب في هذا الميدان الذي ينطوي على أهمية استكشافية معتبرة. مثلا، يستطيع نسق يقترح متونا فرعية، ذات ملاءمة

مخصَّبة، من إلغاء الفرضيات التأويلية، بسهولة فائقة . ولكن يستطيع أيضا صياغة فرضيات أخرى، لأن بعض الاطرادات المشتتة داخل المتن تبدو أنها « تفرض نفسها» وتأخذ قيمة استكشافية؛ و على سبيل المثال، إذا كان متن المرجع مبنيا بعناية، فإن وضع خطوط فوقية على الكلمات التي تتعدى عتبة الفارق المقلص يمكن بعضها من «طرق الباب»[36]. وفي المقابل ، تظل هذه الخطوط الفوقية (surlignage)، وهي صورة قديمة لكلمات مصنفة في مخطوطات قديمة، جد نسبية؛ إذ لتغييرها لا يتطلب الأمر سوى تعتيب (seuiller) الفارق المقلص بطريقة أخرى أو تنويع متن المرجع. نحن إذن بصدد توسيم مؤقت، ولكنه يجسد في آن واحد فرضية عامة حول عمل أو سير النص والتناص، كما يساعد على إطلاق بل و إثارة الفرضيات التأويلية .

وبناء عليه، فإن الفيلولوجيا الرقمية تفتح مجالا مستقبليا لعلوم اللغة، يسمح بالخروج من بعض المآزق. فمثلا، تعمل الضوابط الأخلاقية التي تتحكم في بناء المتون من إضعاف الموضوعية الساذجة لأنها لا تملك من المعطيات إلا تلك التي نمنحها لأنفسنا[37].

و في موازاة هذا التحليل، وبشكل غير خال من المفارقة، يمكن لمبدأ اللذة أو على الأقل لمبدأ اعتباطية اللساني- وهو مبدأ أكثر وثوقا من اعتباطية العلامة- أن يكون محدودا. ومن هنا، أصبح من الواجب على وجهة النظر النقدية في الفيلولوجيا أن تسمح بترسيخ المنهجية.

لقد أضحت النظريات الجزئية، وهي عموما منبثقة من فلسفة اللغة، مثل الدلالة التحققية أو تداوليات الروابط المنطقية، غير مجدية لمعالجة المتون. وبصفة أكثر عمومية،

36. مثلا في الوقت الذي تطلب مني فهم أهمية العدد عشرة عشر سنين في القصة القصيرة المعنونة *Toine* لموباسان Maupassant (الكاتب 1989، الكتاب الثاني، الفصل الخامس) وضع اختبار الفارق المقلص وبسرعة فائقة هذه الأهمية أمام عيني بل ومكنني من الاستفادة من توارد في السطر الأول، وأعترف أنني لم أنتبه إلى هذا الأمر، على الرغم من أنه[أي التوارد] قوى فكرتي.

37. يستدعي مفهوم « المعطى» الحذر. أولا وقبل كل شيء، لا تستحق المعلومات غير المؤوَّلة، مثل الدبدبات المطلقة، أن تعتبر كمعطيات. فإذا أخذنا بالفكرة التي تقول إن هناك فرضية تحكمت في تصنيفها، فالمعطى لا «يُعطى» للملاحظ ولكن بواسطة الملاحظ. مثلا، كل معنى متعلق بجنس وبخطاب ما، إذ لكي يصبح المعنى قابلا للتأويل ولكي يحوَّل تورده إلى معَطى، من الأفيد إذن استرجاع هذا المحيط (entour) . وكما في الطريقة المتبعة في الحفريات، يقود خلط بقايا حفرية في ميدان الحفريات إلى الفشل، ويمنع خلط نصوص غير متجانسة من ناحية نوع الخطاب والأجناس والحقبة من استرجاع معاييرها الدلالية. و إذا كان اختيار متن يستجيب لتوقع شمولي، فإن كل مجموعة صغيرة من المتن، والمطلوبة من جراء الالتماس، تعتبر إجابة على فرضية. ويتجلى «فن» التأويل في تقاطع الالتماسات لموضعة (objectiver) التوقعات، وذلك بإشباعها أو بالأحرى بتجديدها.

يفقد التقسيم غير الثابت بين التركيب والدلالة والتداوليات نفوذه[38].

38. عانت النظريات اللغوية من التحديد الثلاثي المنبثق من التقسيم الثلاثي الذي يضم التركيب والدلالة والتداوليات: فهناك الاقتصار على ما هو تركيبي وبالتالي على الجملة، و الاقتصار على ما هو دلالي تحققي وهذا التوجه غير مناسب بالنسبة للغات وغير قادر على إدراك تنوعها. و في الأخير، هناك الاقتصار على التداولي الذي يفضي إلى ميكروسوسيولوجيا المبادلات الكلامية، ولكن هذا التيار غير صالح لمعالجة النصوص المكتوبة، ويكون مفصوما عن المحادثة.

الفصل الرابع

الهِيرْمينُوطيقَا المَادِيّة

إلى روح بتير زوندي Peter Szondi

عندما نوحد الهيرمينوطيقا بالفيلولوجيا، فإن الهيرمينوطيقا المادية تضع إشكالية التأويل في عمق علوم اللغة.

رهانات إبستيمولوجية

كانت الهيرمينوطيقا، وهي النظرية التي تعنى بتأويل النصوص و الإنجازات السيميائية الأخـرى، قد تحولت مؤخرا إلـى فلسفة بفعل العديد من الاتجاهات الظاهراتية التي أهملت مجال النصوص[1]. ومن جهة أخرى، تكونت الهيرمينوطيقا الفلسفية المعاصرة انطلاقا من نفيها لعلوم اللغة، وهو ما يشهد به تجاهل هومبولت من لدن دايلتي و احتقار العلوم عامة من طرف أتباع هايدغر.

وهكذا، فإن الهيرمينوطيقا الفلسفية ما زالت بالنسبة للساني متفرقة وبعيدة المنال. وتوقفت أكبر التصنيفات الهيرمينوطيقية مع المذهب التعبدي المناوئ للوثر عند فلاسفة فكر الأنوار الذين أسسوها عبر عدة مراحل، وقام بعد ذلك شليرماخير

1. ترد كلمة هيرمينوطيقا (وهي كلمة يونانية) في المعاجم الأجنبية و العربية بمعنى التأويل أو فن التأويل. وتهم النصوص الدينية القديمة، ولكن هذا التخصص اتسع ليصبح نظرية تأويل العلامات. وبصفة عامة، فالهيرمينوطيقا «تأمل فلسفي حول الرموز و الأساطير، وكل شكل من أشكال التعبير الإنساني». و تتمثل مهمتها الأساسية في إخراج المعنى الخفي العميق للنصوص وللأعمال الأدبية، معتمدة في ذلك على عملية الفهم. أنظر د. محمد المتقن، «في مفهوم القراءة والتأويل»، **عالم الفكر**، ع 2، م 33، أكتوبر 2004. وبخصوص المراجع العربية حول الهيرمينوطيقا (على سبيل المثال)، أنظر، حسن حنفي وآخرون، في مجلة ألف، عدد بعنوان **الهرمينوطيقا والتأويل**؛ محمد مفتاح، **المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، 1999؛ بول ريكور، **من النص إلى الفعل**، (الفصل الثاني)، ترجمة محمد برادة و حسان بورقية، دار الأمان، الرباط، 2004 (المترجم).

بتوليفها وبإعطائها شكلا جديدا[2]. كما ظلت مشاكل التأويل قائمة ولكنها تطلبت صياغة جديدة. ولم يستغل الباحثون في علوم اللغة قوة الهيرمينوطيقا النقدية بعد، ذلك أنه يبقى أن نستفيد، في خضم دلالة النصوص، من مكتسبات الفيلولوجيا واللسانيات المقارنة، وذلك بهدف إعادة تمتع علوم اللغة بوضع يصفها كحقول معرفية هيرمينوطيقية.

على الرغم من أن بعض أشكال العلماوية تريد أن تنكر مزايا الحصانة الدولية التي تمتع بها العلوم، فإنه ليس بإمكانها ادعاء حل مشكل التأويل، كما أنه من الواجب تأويل هذه الأشكال. إذ بما أنها تكوينات ثقافية، فإنها تستدعي التوقع الهيرمينوطيقي.

ومع ذلك، يستحسن تعديل التيمة الهيرمينوطيقية. وإذا تعلق الأمر بالابستيمولوجيا، فإن هذه التيمة تلزمنا، على الرغم من موقف ديلتاي، على ألا نفصل مبدئيا بين علوم الفكر وعلوم الطبيعة، مع أنها تعالج صيغ التعقيد المختلفة التي يتعذر تبسيطها. أما إذا تعلق الأمر بنظرية المعرفة، وإذا كانت المعرفة تتجلى في استحضار الشروط، وإذا كان الأمر يتعلق بالحالة الشمولية التي تمكن من تصنيف المحلي وتخصيصه، فإن التوقع الهيرمينوطيقي يساعد على اقتراح مبادئ مشتركة لنفي النزعة الموضوعية (objectivisme) ولاختزال الوصف العلمي في الشرح السببي وفي الأنطولوجيا التلقائية المرتبطة بالنزعة التمثيلية (représentationalisme).

وإذا واصلنا نعت علوم الثقافة **بالعلوم الهيرمينوطيقية**، فإنه يبقى أن نطرح المشكل الهيرمينوطيقي في العلوم الفيزيائية والمنطقية-الصورية. ثم إن التحديد التقليدي لعلوم الطبيعة التي تعد أسمى من علوم الثقافة يثير صيرورة اختزالية، ويُمثل البرنامج المعرفي المتعلق بمعيرَة المعنى النتيجة القصوى لهذا التوجه. كما يمكن الاعتراف بالنظام الخاص بعلوم الثقافة، بصورة انعكاسية، من تثقيف المعنى.

هل من الواجب التحدث عن **النموذج** الهيرمينوطيقي؟ إننا نفضل الحديث ببساطة عن **التوقع** الهيرمينوطيقي، ونشدد على قيمته النقدية، ونشير إلى أننا لا نتبنى

2. في مقاله حول «اللغة كوسيط للتجربة التأويلية»، يقول هانس جورج غادامير: «لا ننس هنا أن مهمة التأويل كانت أولا و خاصة، فهم النصوص. وكان شليرماخير أول من قلل من أهمية التدوين بالنسبة للمسألة التأويلية؛ إذ كان يعتبر أن مسألة الفهم تطرح على صعيد الخطاب الشفهي، لا بل إنها تجد، ها هنا، تحققها الفعلي» . أنظر مجلة العرب و الفكر العالمي، العدد الثالث، صيف 1988، ص 26. وقد كان غادامير من الذين حاولوا مواجهة سلطة القراءة الأحادية للنصوص المقدسة وكان يلح على فكرة أن وظيفة المؤول تكمن في «الكشف عن دلالة أصلية تماما متوارية في المكتوب المراد معالجته»، د. محمد مفتن، «في مفهومي القراءة والتأويل»، عالم الفكر، العدد2، المجلد 33 أكتوبر-ديسمبر 2004، ص 28 (المترجم).

ابستيمولوجيا كاهن Kuhn. بالنسبة لنا، إن الهيرمينوطيقا ليست عقيدة ميتافيزيقية توجيهية، ونتبنى الفرضية التالية: «وجهة النظر الهيرمينوطيقية تكون [...] وجهة نظر ترفض مبدئيا كل فكرة مفادها أن الكائن البشري يتناول واقعه انطلاقا من بنيات ناتجة عن المصفاة وعن البنيات المعطاة، سواء كانت هذه البنيات منطقية أوجمالية. كما نفترض أن الهيرمينوطيقا تخصص مُناقض تماما لفلسفة التعالي، وهي العقيدة التي تقول إن كل شكل من التصرف المعرفي لدى الإنسان يتأسس دائما كتصحيح تأويلي ذاتي» (سلانسكيس Salanskis، 1997، ص 413). ويتمثَّل هذا التوجه في علوم اللغة.

في السنوات الماضية، طرح بتير زوندي مشروع الهيرمينوطيقا المادية. وتشير عبارة **هيرمينوطيقا مادية**، المقتبسة من أعمال شليرماخير، إلى شكل كامل وطموح من الهيرمينوطيقا النقدية المطبوعة بالتقليد الفيلولوجي[3]. ويمكن إعطاء مبررات لهذه التسمية التي تعتبر نوعا ما مفارقة لأن هذا التوحيد [بين النقد والفيلولوجيا] يدعو إلى التفكير في وحدة المستويين المميزين للغة، وهما المضمون والتعبير. ويمكن الوقوف عند ثلاثة تيمات رئيسية في هذه التسمية: تيمة النزعة المضادة للد وغمائية أو النقدية؛ تيمة النزعة المناقضة للتعالي أو التيمة الوصفية (التجريبية)؛ و تيمة النزعة المضادة للأنطولوجيا أو تيمة اللاإرادية. وتستجيب هذه التيمات لاحتياجات الدلالة التي ينبغي عليها التفكير في تنوع النصوص داخل سيميائيات الثقافات وذلك لبلوغ هذا الهدف. ومن الضروري تحطيم الرأي المسبق القائل بأن المعنى دليل على الكائن (Etre)، إذ ينبغي الحكم عليه بمقياس ميتافيزيقا المرجع والحقيقة[4]. وفي الأخير، تتطابق هذه التيمات الابستيمولوجية مع تصور الحياة كنشاط هدفه التغيير والتأويل الدائمين للأومفيلت Umwelt[5](أنظر المؤلف، 1996).

3.اقترح زوندي أن يعاد النظر في المنهجية الفقهية التقليدية التي أصبحت مغلقة على كل النظريات ، ورأى أن تطوير مذهب تأويلي يوفق بين علم الفقه و علم الجمال سيؤدي إلى طرح علم تأويلي أدبي جديد، و يعود الفضل إلى زوندي في تقديم قاعدة أولى لذلك التأويل الأدبي الذي استندت إليه التطورات اللاحقة، كما بحث كثيرا في الكشف عن الخاصية الجمالية للنصوص و اهتم بتمييزها عن المظاهر اللاهوتية والقانونية، مقترحا بذلك منهجية ترتكز على التفسير الجمالي. أنظر هانز روبرت جوس«علم التأويل الأدبي حدوده و مهماته» مجلة **العرب و الفكر العالمي**، العدد الثالث، صيف 1988، ص 54 (المترجم).

4.لا يعد العلم خطابا حول الكائن. ولا تقاوم النظريات التي تزعم هذا الطرح مثل الفيزياوية المعرفية التي تقوم بربط الكائن بعالم أحوال الأشياء الدينَ إلا بتضخيم الدوغمائية حول أشكاله المنتهية الصلاحية، لكي تختزل مثل بعض التيارات الفلسفية التحليلية في فلسفة كلامية مجردة عن اللاهوت.

5. الأومفيلت : مصطلح وضعه ايكسولüexkull ويشير إلى مجموع الخصائص التي تهم البيئة المحيطة بجسم ما، الأومفيلت هو العالم الخاص بنوع بيولوجي ما (المترجم).

توحد الهيرمينوطيقا المادية بين الهيرمينوطيقا والفيلولوجيا في إطار دلالة التأويل. وإذا لم تكن الهيرمينوطيقا المادية فلسفة، فإنها تفترض مع ذلك **إبستيمولوجيا ومنهجية وأخلاقيات**. إن الابستيمولوجيا هي العلم الذي يُعنى بعلوم الثقافة. ويكمن دور المنهجية في الجمع بين النقد الفيلولوجي والمقارنة اللسانية، وتَفترض أو تفرض وعيا مقرونا بالنسبية التاريخية. أما **الأخلاقيات** [أو الأدبيات] فإنها تفرض بفعل الصبغة التموضعية والأساسية للنشاط التأويلي[6]. وبما أن الأخلاقيات تملك هذه الخاصية، فإنها لا تتخلص من مشكل المسؤولية، إذ أن لها مبدآن فوريان هما مبدأ احترام النصِ في حرفه كما في فكره، ومبدأ اليقظة في إنتاج المعنى، من أجل تخويل النص والمؤلِّف غبطة التأويل.

إذا كانت الهيرمينوطيقا- حسب ج. لادريير- هي «الحقل المعرفي الذي يبحث في تأويل العلامات عموما والرموز خصوصا» (1969، ص 108)، فإنه في إمكان دلالة التأويل أن تدعى بأنها تملأ هذا الحقل، فيما يتعلق « بالعلامات» اللغوية، شريطة أن تعكس التقاليد الهيرمينوطيقية وأن تعيد امتلاكها و تعيد تقييمها.

وفي المقابل، تم فصل الهيرمينوطيقا عن الفيلولوجيا استنادا إلى رهانات ميتافيزيقية. واستمرت المثالية الألمانية الثنوية (dualisme) التي تقوت بعد النظرية اللوثيرية، حيث كانت العلامة، على الأقل في الموروث المسيحي، تُصوَّر على شاكلة الإنسان[7]. إذا كانت الفيلولوجيا تدرس لغة النص المقدس وإذا كانت الهيرمينوطيقا تعالج معناه، فإنه لا يمكنهما إلا أن يتبعا طريقين متباينين، شريطة الفصل بين الجسد

6. التأويل متموضع لأنه يأخذ موقعا في التجربة الاجتماعية ويخضع للأهداف المسطرة من قبل هذه التجربة. وبما أن الأهداف تحدد بدورها العناصر المحكوم عليها بأنها ملاءمة، فإنه يجب التخلي عن فكرة التأويل الشمولي والنهائي، لأن التأويل نص يتغير بتغير الأسباب والشروط التي تحكم وصفه. لقد طرحَت إن لم نقل وجدَت الهيرمينوطيقا التشريعية والدينية، كل واحدة بطريقتها، حلا لهذا المشكل.

7.يعود الفصل بين الجسد والروح إلى التقليد الإغريقي وليس إلى التقليد اليهودي. و تظل موافقته للروابط التي تجمع بين العلامة والدلالة اللفظية مطردة؛ بحيث إن الحرف هو الجسد والدلالة اللفظية هي الروح، أو على الأقل هي الفكر. وقد تلقت الدعم القوي من سان بول Paul Saint ، ثم من سان أوغسطين، الذي أكد مثلا أن التفكير المستند إلى الحرف هو التفكير بالجسد (أنظر ، III، 5، 9 *De doctrina christiania*). وكان أريجين Origène يقارن بوضوح بين الحرف والفكر وبين الجسد والروح (أنظر ، 1، 2 *Traité des principes*).
وكان للتأكيد على الثنوية تأثير كبير على العلاقات بين الروح والجسد ،ولكن أيضا على العلاقات بين الدال والمدلول .مثلا ،أعاد لوثير Lutherأنثروبولوجية المجمع الديني في طليطلة (668) وهو القائل« الإنسان متكون من مادتين وهما الروح والجسد» فيSüss، ص(59-1969.60)، وتتعارض هذه الفكرة مع الأطروحة التومائية المنبثقة عن المجمع الديني في فيينا (1311-1312) والقائلة بأن «الحقيقة أن الروح العاقلة هي ،من ناحية الشكل، الجسد الإنساني » (المصدر نفسه،ص .59) لا يمكن أن يكون هذا التصور غير مرتبط بمسألة الفصل بين العلامة والمعنى عند الوضعيين.

والروح. لقد قادت آثار الثنوية الرومانسية المتأخرة مرة أخرى إلى التفريق بين مباحث القراءة الحرفية ومباحث الفكر، و مازلنا نلمس هذه الآثار.

على العكس من هذا التوجه، تهدف دلالة النصوص إلى الإسهام في توحيدها، محددة بدقة القيود اللغوية حول التأويل. وللتذكير، فإن هذه القيود متنوعة ومسلم بها و تخضع لسلمية في التقاليد الهيرمينوطيقية. كما تسعى دلالة النصوص إلى الإسهام في تحديد ثلاثة أهداف: أولها إعادة توحيد علوم اللغة والحقول المعرفية المتصلة بالنص؛ وثانيها، تجميع الهيرمينوطيقا والفيلولوجيا؛ وثالثها استرجاع البعد النقدي للنشاط الوصفي لعلوم الثقافة بصفة عامة. ويتطلب هذا البرنامج الاعتراف بالبعد النقدي للفيلولوجيا، وبالبعد النصي للسانيات وبالبعد اللغوي للهيرمينوطيقا[8]. ولتحقيق هذا البرنامج، يبدو لنا أن الطريق الأفضل سيقود إلى إعادة الاعتبار للفصل غير المبرر بين الحرف والفكر، وبين العلامة والمعنى، فضلا عن التمييز، في الاتجاه نفسه، بين المعنى الحرفي والمعنى المُشتق.

العجز الهيرمينوطيقي في علوم اللغة

اللسانيات والسيميائيات

ورثت علوم اللغة عن التقليد النحوي النزعة الموضوعية المتينة. و قد أضافت هذه العلوم دراسة التلفظ إلى دراسة الملفوظ. ولكنها سعت إلى اكتشاف الإشارات والوحدات اللغوية الصغيرة المرتبطة بالتلفظ، وهذه هي الطريقة المتبعة لتشييئها وتحويلها إلى ذرات. ومن جهة أخرى، فبما أن اللسانيات تفضل الجملة وقواعد النحو الجملي، فإنها تطرح مشاكل هيرمينوطيقية طرحا اختزاليا[9].

إن إشكالية العلامة تهيمن على إشكالية النص في النظريات السيميائية ذات

8.بخصوص ربط الدلالة بالهيرمينوطيقا، أنظر مقال بول ريكور «إشكالية ثنائية المعنى بوصفها إشكالية هرمينوطيقية و بوصفها إشكالية سيمانطيقية» ترجمة فريال جبوري غزول، مجلة ألف، عدد بعنوان **الهرمينوطيقا و التأويل**، 1993، ص153-137 (المترجم).

9.تقول أورو أنه بالنسبة لعلوم اللغة، تتجلى الأطروحة الهيرمينوطيقية في زعم ما يلي:«معرفة الظواهر مطابقة للتمثيلات التصورية التي يملكها المتكلم حول أنشطته اللغوية وتكون السبب الذي يُنتج الظواهر القابلة للملاحظة. يمكن أن نجد هذا التصور في المفهوم التقليدي للقاعدة النحوية التي يطبقها المتكلم الواعي» (أورو 1992، ص40). وتبدو صيغة هذه الأطروحة جد ضيقة وفضفاضة في آن واحد. أولا، لا تترك مكانا لمشكل التأويل. وبغض النظر عن كون النقاش حول الوعي اللغوي للمتكلم ومعرفته للقواعد عديم الفائدة، فإن هذه الصيغة تظل متناسقة مع التأويل الإجرائي للتفكير، ويمكن أن تكون صيغة السيكولسانيات الشومسكية. وفي الأخير، نسيتْ هذه الصيغة البينذاتية (intersubjectivité) والتاريخ، وهما بالضبط المجالان المفضلان في المقاربة الهيرمينوطيقية.

التوجه المنطقي. ويحدد التأويل بالنظر إلى وحدات يُفترض أنها متفاصلة (discrétisées) قبلا وهي المفاهيم و التعابير والمراجع. وحتى عندما نتخلى عن أحادية التأويل حسب المنطق الكلاسيكي، فإن مبدأها المرجعي يمكث، لأنها ببساطة مستعملة في إطار تعدد العوالم الممكنة (أنظر إيكو، 1994، الفصل الثالث).

و في المقابل، نعتقد أنه لا يمكن تأويل العلامة، بما أن عزلها يقطعها عن شروط تأويلها وعن سياقها، أي عن النص. و بعبارة أخرى، لا تعد العلامة موضوعا للتأويل ولكنها حدث مصطنع معياري، يعود إلى التقليد الأنطولوجي الذي كان دوما مهتما بالعلاقات بين المفهوم والعلامة والشيء. وبالفعل، لقد طمست العديد من الممارسات النظرية والتقنية الراسخة هذا المعطى البديهي. وعلى سبيل المثال، تعيد القواميس رسم الأنطولوجيات بصورة لا متناهية، وذلك بتثبيت الدلالات اللفظية تثبيتا معياريا.

وتجبرنا هذه النقطة على إعادة تعريف السيميوزيس: إذ يجب ربطه بالمستويين النصيين، ألا وهما المضمون والتعبير وبالانجازات السيميائية الأخرى. وبناء عليه، نعيد تعريفه بأنه علاقة بسيطة بين دال ومدلول العلامة، مثل الاستدلال في التقليد المعتمد على المقصدية، أو الافتراض الانعكاسي في البنيوية. وعلى الرغم من النظريات الاستدلالية أو الترابطية، فإن الدال لا يُعد نقطة الانطلاق، لأنه هو نفسه من الواجب تعريفه.

إن العلاقات المكونة للمعنى تتأرجح من مدلول إلى آخر، ولكنها تنطلق أيضا من المداليل في اتجاه الدوال. وهكذا، يعرّف السيميوزيس بأنه شبكة من العلاقات بين المداليل (signifiés) داخل النص، وتُعتبر الدوال كمؤوِّل قادر على بناء بعض من هذه العلاقات (أنظر أعلاه، الفصل الأول). وأخيرا، لا يمكن تثبيت السيميوزيس إلا كنتيجة للتأويل وليس كبداية. ويبدو أن تعيين الدوال يُعد من بين نقط الدخول في المسار التأويلي، ولكنه مسبوق بانتظارات وبتخمينات، يحددها التعاقد، المرتبطة بالجنس النصي المرهون بالتطبيق المستعمل. وبناء عليه، فإن السيميوزيس يعتبر أيضا نقطة عودة.

يرتبط هذا التعريف المقترح للسيميوزيس بالضرورة بمفهوم المسار التأويلي. وبعبارة أخرى، لا ينتج المعنى عن تشفير قبلي يربط دالا ومدلولا أو طبقة من المداليل (لأن اللغة ليست عبارة عن مدونة)، إذ ينتج المعنى داخل مسارات تعمل على تمييز

المداليل وتوحيدها فيما بينها، مرورا بالدوال.

ومن جهة أخرى، تختلط الدلالة اللفظية عند اللساني بتاريخ تأويلاتها. وفي ما يخص المتكلم، تختلط الدلالة اللفظية بالتقليد التأويلي الذي تتموضع فيه والذي يخلدها على طريقته. وبما أن العلامات تعد تأويلا مُشيَّئا، فإن الدلالة اللفظية لكلمة ما لا تختزل في العلاقة بين « العلامة» والمفهوم والشيء، ولا في المبدأ العتيق « يحل الشيء محل شيء آخر» والذي أراد الباحثون الاستناد إليه لتأسيس السيميائيات. (إيكو 1992)[10].

ثلاثة دوائر تشكيكية

لقد أثار العجز الهيرمينوطيقي شكوكا في اللسانيات وبالضبط في النحو. ومن المعلوم أن كل نظرية نحوية- على الأقل منذ بريسيان [11]- رهنت المحتمل على المستحيل والقواعد على الممنوعات دون إعادة فكرة دونا Donat البراقة حول نحو الجواز. إن «الاختلاف» بين ما هو نحوي وما هو غير نحوي وظيفة تكوينية معروفة (أنظر ميلينر Milner، 1989)، ويضع هذا الاختلاف دون شك النحو و ربما اللسانيات في خانة المعارف المعيارية التي تجاور فيها التيولوجيا الشريعة، بينما يتحدد موقع الدلالة النصية بين المعارف الوصفية مثل الفيلولوجيا والتاريخ.

خلق التفاضل النحوي عند تحويله إلى المستوى الدلالي تقابلا بين المقبول وغير المقبول، وقد أرق النقاش مؤخرا حول المقبولية الوعيَ اللغوي، دون تبيان الصبغة المعيارية للنحوية، وبصورة أخرى للمقبولية، ودون معارضة الفكرة القائلة بأن المتواليات النحوية، شأنها في ذلك شأن التعابير السليمة التكوين في المنطق،هي المتواليات الوحيدة التي تتسم بأن لها دلالة لفظية[12]. إن أطراف الجدال قد سعوا فقط إلى البحث عن تقليص القوة المفرطة للأنحاء التوليدية. ولم يكن النجاح حليف هذا التوجه، لأنه كان من الواجب وصف المعايير بدلا من إملائها لتحقيق هذه الأهداف، ولاسترجاع البعد الاجتماعي والتاريخي للغة، هذا البعد الذي أراد النحو الكلي أن

10. نجد في المقابل توسعا عند إيكو لهذا المفهوم الفلسفي السكولائي حول السيميوزيس :«في نسق سيميائي ما، يمكن لأي مضمون أن يصبح بدوره تعبيرا جديدا، ويمكن أن يؤوَّل أو يستبدل بتعبير آخر» (1992 ص 24). وهكذا، يعرِّف إيكو **السيميوزيس غير المحدد** أو غير المعرَّف، الذي وصفه بورس والذي أعاد التأسيس الجذري لنظرية العصر الوسيط حول الإيحاء ، ولكن السيميوزس ظل مرتبطا بنموذج العلامة.

11. يلاحظ بريسيان أن لا أحد يقول *ego facis* وترى أورو أن هذا التصور يعتبر المقابل، بالنسبة لعلوم اللغة، لنظرية بيتاغور.

12. يجعل هذا التصور، بالطبع، الدلالة تحت رحمة المنطق.

يجعله مجردا.

ولا يمكن تحديد المفاهيم الأساسية مثل النحوية والمقبولية خارج نطاق قابلية التأويل التي ترتبط أصلا بالتموضع والتي تتجاوزهما بصورة مضاعفة، لأنه من جهة، يمكن لما هو نحوي أن يكون مقبولا أو على الأقل أن يكون مقبولا بصفة طبيعية، كما يمكن لغير المقبول أن يكون قابلا للتأويل، أو على الأقل بالإمكان تأويله[13] بشكل طبيعي. ونادرا ما يؤخذ بهذا التصور، لأن مفهوم القدرة ينطبق عادة وبصورة عجيبة على التوليد أو التلفظ وليس على التحليل أو التأويل. وحتى في الدلالة المعرفية، يُنظر إلى القدرة دائما على أنها قدرة توليدية وليس على أنها قدرة تأويلية. ومع ذلك، فالقدرة التأويلية تتجاوز القدرة التوليدية، وعادة ما نفهم أكثر مما نقول.

وحسب علمي، لم تطرح أي نظرية لغوية مشكل قابلية التأويل. وهكذا تعمق اللسانيات العجز الهيرمينوطيقي للنحو الذي انبثق منه. وللشروع في ملء فراغه، يجب أن تكون البداية بفصل ماهو نحوي عن المقبول وعن القابل للتأويل؛ ولكن من أجل التسليم بعد ذلك بأن قابلية التأويل تحدد المقبولية أولا ثم النحوية[14] ثانيا. إن غير المقبول واللاحن هما في الواقع تأويلات نرفضها باسم المعيار، ولكن الممنوع من التأويل غير معترف به، ويظل فوق أحكام المقبولية والنحوية.

ساهمت الاختيارات الإيستيمولوجية وبعض المنهجيات في إبعاد اللسانيات المعاصرة من المسألة الهيرمينوطيقية. لقد تعددت إشارات التأسيس (و إواليات ليست إلا مثالا) بدلا من التساؤل عن الأسس. وواصل الباحثون التنقيب عن القواعد في الوقت الذي لا يسجل فيه إلا اطرادات و أسباب لا يمكن الولوج إليها في العالم وفي الفكر إلا بشروط. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأسباب مازالت موضوع دراسات في أماكن أخرى. وفي كل الحالات، أهملت بل و تجوهلت استقلالية الحقل السيميائي وخصوصيته. وفي المقابل، فإن على علوم الثقافة الخاصة بالحقل السيميائي أن تنتج

13. تظل هذه الفكرة قائمة طالما تشهد التجارب بالصبغة غير الإلزامية والعفوية للتأويل. ومن هذه التجارب ما يشير إلى تأويل اللا-كلمات (أو *logatomes*)، المتعددة في علم النفس منذ نوبل Noble، أو التجارب حول تأويل النصوص عن طريق لغة غير معروفة (تمت في الماضي في إطار المشروع الأوروبي المسمى Galatea).

14. تظل المتواليات النحوية غير المقبولة حدثا مصطنعا في اللسانيات، وهي جد محببة لدى مؤلفي العصور الوسطى المنتمين إلى *sophismata*، وقد بعثت من قبل شومسكي. و بالنظر إلى الإطار الوصفي الذي نتبناه، نعتقد أنه يجب على اللساني أن يقبل كل متوالية موجودة في اللغة. و هكذا سنخلص إلى نتائج معاكسة لتلك التي توصل إليها مارتان Martin (1979)، والتي تخضع الخاصية التأويلية إلى الخاصية النحوية.

المعنى وتسطره وتحوله في الزمن و تترجمه في المكان؛ أما الشرح بالنسبة لهذه العلوم، فإنه يعني طرح الشروط وليس البحث عن الأسباب.

و هكذا، قاد العجز الفيلولوجي و العجز الهيرمينوطيقي إلى نسيان الخاصية الثقافية للغات التي يزعم البعض أنها «طبيعية».

إشكالية النص وأسسه الهيرمينوطيقية

الفهم والتأويل

لقد ألحقنا في ما سبق مشكل الفهم بالتأويل، ويتجلى الشرح الذي يجسده في ترديدات(paraphrases) ذات طابع تعريفي، أي تخصيص السمات الدلالية الملائمة (حسب هذه الشروط) وتخصيص بنياتها على مستوى كل درجات النص.

يفترض الشرح تعيين شروط إنتاج النص وتأويله، بينما يفترض الفهم بالمعنى القوي للكلمة فاعلا سيكولوجيا أو فلسفيا[15]. وهذا ما يفسر هذه الأطروحات:

أ) مثل العلامات الأخرى، تعد العلامات اللغوية ركيزة يستند إليها التأويل، وليست موضوعا له، ثم إن تعيين العلامات على هذا النحو منبثق من المسارات التأويلية.

ب) لا يمكن طرح مشكل الدلالة اللفظية طرحا صحيحا إذا لم نأخذ بعين الاعتبار شروط التأويل.

ج) وفي الأخير، يستجيب التأويل المتموضع داخل الممارسة الاجتماعية لأهداف هذه الممارسة التي تحدد العناصر المحتفظ بها على أنها ملائمة. وتأسيسا على ما تقدم، فإن تأويل نص ما يتغير بتغير أسباب وشروط وصفه.

تتهيأ شروط التأويل عبر عدة درجات متتالية. في الدرجة الأولى، يحدد النص باعتباره وحدة شاملة معنى وحداته المحلية، وهذا التحليل لا يتماشى بالطبع ومبدأ

---

15. سنترك إذن مشاكل التلفظ والفهم بالمعنى القوي للفلسفة أو لعلم النفس؛ وسنطرح في إطار الهيرمينوطيقا الفلسفية ثلاثة مشاكل أساسية: مشكل الزمن المعاش والوعي الحميمي للزمن؛ مشكل الذاتية (تعد المسارات التأويلية التي تكون المعنى قيودا لغوية تُفرض على الفاعل ولا تعد مسارات حقيقية يمكنه تطبيقها)؛ وفي الأخير، وفي موازاة هذا التصور، نرفض إلحاق معنى النص بالمعنى المعاش.
بالنسبة للسيكولوجيا المعرفية، يُلحق الفهم ببناء التمثيلات التصورية. ولا نلجأ إلى التمثيلات النفسية، لأن المعنى اللغوي لا يتجلى في هذه التمثيلات. أما فك ارتباط المعنى اللغوي بالتمثيلات مثل الموضوعات، فيُمكن،على نحو مفارق، من إظهار تنوع هذه الشروط التحيينية.

التأليفية الذي يتحكم في كل الدلالات المنطقية. ويضاف إلى هذا التحديد ضبط الحالة التأويلية على النص نفسه بصفته وحدة كاملة.

الوضع الهيرمينوطيقي

للتفكير في هذه التحديدات، يمكن ، إلى جانب الأوضاع التركيبية والجدولية والمرجعية والهيرمينوطيقية، تمييز وضع آخر وهو وضع شروط إنتاج النصوص وتأويلها (أنظر راستيي 1994، الفصل الأول). و يتضمن هذا الوضع، بالإضافة إلى ظواهر تعود إلى التواصل، أي إلى ما يسمى عادة «العوامل التداولية»، ولكنه يتجاوزها لأنه يشتمل على حالات التواصل المشفرة و المؤجلة، وليس من الضروري أن يكون هذا التواصل حاصلا بين أشخاص. وبما أنه يعد شاهدا على الحالة التاريخية والثقافية للإنتاج والتأويل، فإن دراسة الوضع الهيرمينوطيقي تأخذ بعين الاعتبار الاختلافات في الحالة التاريخية والثقافية التي يمكن أن تفصل الإنتاج عن التأويل.

ويمكن الوضع الهيرمينوطيقي من التوسيط بين النص من جهة والتاريخ والمجتمع الذي يفرز النص عن طريق الممارسات من جهة أخرى، حيث يُنتج الوضع الهيرمينوطيقي ويُؤول، بينما يمكن الوضع الجدولي و التركيبي من دراسة العلاقات بين النص و بين مختلف درجات النسق الذي ينظمه (النسق الأكثر شهرة هو النسق الوظيفي للغة).

يعود الطابع النقدي لوجهة النظر الهيرمينوطيقية التي أقحمت على هذا النحو في الوصف اللغوي إلى المشكل المتمثل في تعيين الظواهر الموصوفة: إنها بالفعل ظواهر وليست موضوعات، وهذا هو حال علوم الإنسان على الدوام؛ إذ من المستحيل عزل مستوى من التعقيد إلا إذا كان ذلك من أجل تطبيق مؤقت لمنهجية ما. ويتحكم فهم درجة التعقيد العليا، أي درجة النص، في مستويات التعقيد الدنيا، وتتحكم شمولية الممارسة الاجتماعية في شمولية النص.

وينتمي مجمل هذا التصور حول الوضع الهيرمينوطيقي إلى حقل اللسانيات. إنه يعكس الهيرمينوطيقا المدمَجة التي تتخذ هنا شكل الدلالة التأويلية، ولا يعكس الهيرمينوطيقا المدمِجة التي يكون منتهاها شكل من أشكال فلسفة المعنى.

التأويل والمتن

تتظافر هذه الاقتراحات لتعمل على إعادة التأسيس التأويلي للدلالة، بل وأبعد من ذلك، على إعادة تأسيس السيميائيات انطلاقا من أطروحات تهم درجة العلامة ودرجة النص.

لا توجد علامة تكون مرجعية أو استدلالية أو اختلافية لذاتها. وتكون هذه العلاقات مُفضلة في مختلف النظريات، ولكن المسارات التأويلية الفعلية هي أشد تعقيدا ولا يُمَكن تحليلها بإيجاد علاقات قابلة للوصف بطريقة بسيطة. وعلى سبيل المثال، فإن الاستدلالات التأويلية ليست صورية، ولكنها تنتمي إلى ما يسميه راسل الاستدلال الحيواني، أي إذا قارنا بين المسارات التأويلية وبين العمليات الحسابية والمنطقية، فإن المسارات التأويلية هي الأكثر قربا من السيرورات الإدراكية المتعلقة بالتعرف على الأشكال.

إن النص هو الوحدة الأساسية، ولكن الوحدة اللغوية القصوى هي متن المرجع. ويُستدعى هذا التعبير لتوضيح مسألتين هامتين. أولاهما أن المتن يرتبط بوجهة النظر التي تحكمت في بنائه. وثانيهما أننا نشير هنا إلى كلمة مرجع بالمعنى الفيلولوجي. إن المرجع بالمعنى المنطقي ليس إلا تشييئا للمرجع الفيلولوجي، ولهذا يتحكم الوضع الهيرمينوطيقي في الوضع المرجعي، إذ لا نحيل عادة إلا على المعتقد، أي على مجموع الإواليات المعيارية المؤسسة محليا من قبل متن النصوص الشفوية أو المكتوبة التي تملك سلطة في الممارسة الجاري بها العمل. مثلا، ليس المرجع في الرواية الفرنسية التي تحمل عنوان *La cousine bette* هو فرنسا « مباشرة » في عهد لويس فليب، ولكن مرجعها في المقام الأول، بل و حصرا، هو الكوميديا الإنسانية المدعمة بروايات أوجين سو Eugène Sue التي كان بالزاك يريد مضاهاتها وتجاوزها.

وهكذا ينبثق المعنى من التعالقات الداخلية والخارجية للنص. وباختصار، ينتج المعنى حين يتم اللقاء بين السياق و التناص. و يطبق تحديد المحلي عموما من قبل الشمولي استنادا إلى طريقتين، إماعن طريق تأثير النص على أجزائه أو بتأثير المتن على النص. ويمكن بالفعل الاعتراض هنا بالتأكيد على أن النوع الأول من التأثير هو تأثير بنيوي ومحايث إلى حد ما، بينما النوع الثاني فهو تأثير عارض و«مفروض من الخارج». ولكن النص يشير إلى تناصه، سواء بإشارة عامة استنادا إلى معايير جنسه

أو بصورة خاصة عبر الأمارات والنصوص المستَشهد بها. إن العلاقة المبنية على ما هو خارجي والتي تؤسس بصورة متعارف عليها سيرورة التموضع قد جعلت الدلالةَ اللفظية تراهن على تمثيل الغيرية الأنطولوجية الكاملة، وهي أنطولوجيا عالم الأشياء، وتؤسسها على «الواقع» و هو المُعتقد الذي يقول به الوضعيون. وبخصوص الإشكالية البلاغية/ الهيرمينوطيقية، ما يعتبر خارجا عن نطاق النص مكون من نصوص أخرى، وبصورة عامة، من إنجازات سيميائية أخرى. فإذا أردنا مَوْضَعَة التأويل والمعنى الذي ينتج عنه، فإن الضرورة التدليلية والأساسية للغيرية (altérité) محفوظة بالإحالة على المتن، ولا تفرض اللجوء إلى الأنطولوجيا المشتتة بين اللغة و « الواقع» ولا إلى فعل إيماني يُخضع ظاهر المدلول إلى جوهر الأشياء.

دلالة النصوص والمسارات التأويلية

لقد رأينا أن القراءات غير الخطية تجدد المسارات التأويلية المنتسبة إلى الاستعمالات التقليدية للكتاب (أنظر الفصل الثالث). و يجب على الأنساق المساعدة على التأويل أن تتمكن من إنجاز حركات تمديد أو تقليص تهم متن المرجع أو اشتغاله. كما يَمكن التغيير المنظم لهذا المتن من اختبار الفرضيات ومن معاينة مشكلتي التأويل والتخصيص.

ويقود تبني وجهة النظر الشمولية إلى الاشتغال بطريقة تعتمد الاصطفاء (élection)[16] لتفادي الطريقة التي تعتمد التضخم والزيادة ،خصوصا إذا كان الأمر يتعلق بتحديد المتون الفرعية المنقحة [أو المخصبة]وحصرها .وفي ثنايا هذه المتون الفرعية، يقتضي العمل تجزيء الفقرات وتحديدها ،استنادا إلى القياس ،من أجل البحث عن فقرات متوازية ،أو استنادا إلى التعاكس بهدف البحث عن فقرات متضمنة للعلاقة التحويلية .كما يمكن أن يتم تعيين الأشكال النصية عبرالإجمال الكيفي ،أي أن نبحث مثلا عن تواردات إحصائية وعن تعالقات دلالية مرتبطة بالمحاور (أنظر أعلاه، الفصل السابع).

وعلى الرغم من كل هذا ،لا تعتبر المسارات الشاملة تمديدا للمسارات المحلية،

16. استعرت هذا المصطلح من بانسمان (1999 a) ويذكرنا بما يسمى في تاريخ الفن la via di le vare وتعني «نستخرج التمثال من الصخر».

لأن المسارات التي تحدد عمليات التحيين والتقدير[17] الدلاليين في درجة الكلمة تكون مُنشَّطة قبلا بفضل المسارات الشاملة الموجودة في درجة النص. أما قياس العلاقات بين الشمولي والمحلي، فإنه يبقى مشكلا مفتوحا، بحيث يختلف هذا القياس (احتماليا) حسب الأجناس والخطابات التي تتميز بتنوع الأنظمة الخاصة بالسياق وبالنصية.

وفي نهاية المطاف، يجب على الأنساق المساعدة على التأويل أن تهجر الأحكام المسبقة في شأن المساواة الكيفية والأحكام حول الاطراد، للتمكن من وصف الأشكال النصية. و بالفعل، تعمل الأهداف والقيود التطبيقية، المميِّزة في شكل خطابات وأجناس و أساليب، بصفة غير مباشرة، على وضع الأشكال النصية. وعلى النقيض من فرضية النظريات القضوية، توصف هذه الأشكال باللامساواة الكيفية، ومثال ذلك تنويع التركيز على الأشكال الدلالية بالنظر إلى كون تمظهرها سميك (compacte) (بواسطة مختلف المعجمات التركيبية) أو منتشر (عبر مختلف الاستعمالات المتعلقة بالكناية عن صفة(Périphrase)). وفي نهاية الأمر، يعيد النظام المتعلق باللامساواة الكيفية (وهو الملاءمة بالنسبة للمهمة المستعملة)، تنظيم النتوءات(saillances) النسبية المرتبطة بالأشكال الدلالية.

يقابل الإشكالية المنطقية- النحوية والبلاغية الهيرمينوطيقية تصوران للتناص. يبحث التصور الأول عن « معجم» و عن «تركيب» مشتركين لنصوص المتن: سيكون النص مكونا من تيمات أو من تيمات متكررة بالمفهوم اللا-حجاجي للكلمة،(وسيكون التركيب مكونا إما من وظائف سردية أو من«متواليات نصية». يتكرر ظهور التيمات والتيمات المتكررة من نص إلى آخر ،والشيء نفسه بالنسبة للوظائف السردية ،وهذا ما برهن مثلا على وجود دراسات حول التطريزات في الفولكلور .ومع ذلك ،فإن كل استعمال متجدد يعتبر تحولا ،وقد اتجهت السرديات في الأدب الشفوي نحو دراسة مجموع التحولات.

حين نتوجه من الشمولي إلى المحلي، وحين نعتبر الكلمات **كفقرات** (passages) نصية، يمكن استخلاص أن الطبقات المعجمية تتكون من المقترنات اللفظية (collocations) المتكررة أو الجامدة، وتنبع من تجلي متكرر لنفس التيمات (أنظر الفصل

17.« تحيين» ترجمة لمصطلح actualisation و« تقدير» ترجمة لمصطلح virtualisation (المترجم) .

السابع). وهنا أظهرت أعمال ميتنجير Mettinger (1994) حول الرواية البوليسية أن التقابلات الدلالية في الدرجة المعجمية محددة بالمعنى المشترك الخاص بالجنس الأدبي. وكمثال على ذلك، هناك التقابل بين القتل والانتحار الذي يخضع للتعديل عن طريق تصاميم تركيبية مثل التعداد.

وتبحث الإشكالية البلاغية/ الهيرمينوطيقية عن روابط فريدة للشواهد النصية، وعن استعمال متجدد وعن تحويل بين سلاسل أو بالأحرى بين مسارات نوعية لنصوص فريدة. وتميز هذه الإشكالية الروابط حسب المتون، لأن أنظمة التناص تتغير حسب الخطابات. وهكذا، لا يلعب الشاهد النصي الدور نفسه في الخطاب العلمي والفلسفي والأدبي، لأن أنظمة الإهداء والتمليك والسرقة الأدبية تختلف في هذه الكتابات على نحو كبير.

إن نظرية المسارات التناصية ترتكز على هذه الإشكالية. ويمكن تمييزها بالدرجة الأولى بالاعتماد على رائز التمركز (centration). وعندما يكون المسار مساعداً على التعميم (diffusant) فإن النص، بل ومجرد إحدى الفقرات المختارة على أساس أنها نقطة دَخْل، يُستعمل لكي تتم المطالبة تدريجيا بكل المتن ويتم بالتالي تنشيطه. بينما ينتقل المسار اللحظي (ponctuel) من نص إلى آخر، بل من فقرة إلى فقرة، أو من كلمة إلى نص و إلى كلمة من نص آخر، وقد لا تتواصل مفردة لنص ما مع مفردة في النص نفسه ما عدا عن طريق نص آخر. وحسب الدراسات الهيرمينوطيقية، فإن الباحثين يفضلون أحد أنماط المسارات. ولهذا السبب، فإن الهيرمينوطيقا التشريعية لحظية(لأنها تعقلن الأشياء) بينما الهيرمينوطيقا الدينية، وخصوصا المنتمية منها إلى التقليد الحاخامي، تنطلق من النص لتخترق المتن كله.

ويُستحسن أيضا استغلال رائز الخاصية الترابطية[18]. وتمكن بعض المسارات ذات الحلَقة المرتبطة والمتعدية من عملية الرجوع التأويلي في اتجاه النص الأصلي؛ غير أن بعضها لا يمتثل لهذه العملية، كما أن بعض المسارات لا تسلك هذا السبيل؛ أما بعضها الآخر، فيقود بدوره إلى تأويل النصوص التي استعملت كنقطة عبور إلى المسار التناصي، فعلى سبيل المثال، تمكن قصيدة بريمو ليفيPrimo Lévi المعنونة **الناجي** *(Il superstite)* من ربط الفكرة حول برانكا دوريا في النشيد الثالث والثلاثين الموجود في

18. الخاصية الترابطية (connectivité) هي مجموع الترابطات المتعلقة بكائن ما.

الجحيم لدانتي Dante بخطاب أوليس Ulysse الموجود في النشيد السادس والعشرين، مع أنه لا يحيل مباشرة على هذه الفقرات.

لم تُؤسس بعد نظرية المسارات التأويلية داخل المتن، لأن هذا الموضوع يعد من المجالات الأكثر تعقيدا في الهيرمينوطيقا المادية التي تسعى إلى ربط الممارسات التأويلية بالبنيات النصية المتنوعة التموضع عن طريق هذه الممارسات. وحسب الخطابات والأجناس، فإن أشكال المسارات المفضّلة، وحتى المقصية منها، مؤهلة بتعاقدات تأويلية تكون عموما ضمنية (على سبيل المثال، لا يُقرأ دليل الهاتف كنص مسترسل).

وباختصار، إن التأويلات النصية والتناصية مرتبطة بثلاثة عوامل هي الممارسة الوصفية، والتعاقد التأويلي الخاص بجنس النصوص أو بصنف الخطاب، والبنيات الخاصة بالنصوص. وتتغير تراتبية هذه العوامل مع تغير المهمة المنوطة بها.

الاستراتيجيات التأويلية

ينشأ الوعي التأويلي من صعوبة الفهم وتطرح هذه الصعوبة سؤالين هما: ما هو النص غير المقروء؟ وأين يقف التأويل؟

يمكن لعدم المقروئية و للتأويل المفرط أن يَكونا عبارة عن تقسيم معياري خاص بهيرمينوطيقات الوضوح. وإذا صعُبت علينا البرهنة على أننا نعطي الكثير من المعاني لنص ما، فإن درجة الصعوبة تزداد عندما ندعي أنه لا يملك بتاتا أي معنى؟ كيف يمكن الجزم بأن نصا ما هو نص غير مقروء؟ إننا محكومون بالمعنى الذي نمنحه، بطريقة صحيحة، إلى مؤلفات مكونة بكاملها من دون كلمات كما هو الحال في *Le Finnegan's Wake* لدجويس Joyce أو بعض مؤلفات گويوطا Guyotat.

لا يكون النص غير مقروء إلا بالنسبة لهيرمينوطيقات الوضوح. وهذه الهيرمينوطيقات الإيجابية التي تسعى إلى تحديد التأويل والتي تعتبر الفهم «العادي» طبيعيا وغير مشروط تتقاسم بعضا من الأطروحات المميزة. وفي هذا السياق، يكون التأويل لحظيا و تتم إثارته بواسطة «التعليمات» المحلية. ثم إن التأويل يخضع لقواعد الملاءمة (سبيربير وإيكو) التي تكفل له الاقتصاد والفعالية؛ ويتجلى كذلك في التوضيح (élucidation) الذي يستعيد، في إطار حقوقه وسيادته، المعنى الحرفي

غير المكشوف مؤقتا. وتبقى هذه الأطروحات مطابقة للتوقعات المرجعية والاستدلالية حول الدلالة اللفظية، وهي أطروحات السيميائيات المستلهمة من التقليد المنطقي-النحوي.

وفي المقابل، فإن مفهوم الوضوح في حد ذاته في حاجة إلى توضيح. وإذا ما سلمنا بالخاصية الشمولية و غير الاضطرارية للتأويل، وبالنظر إلى تغيرات أنظمته وتقنياته ودوره في طرح مشكل المعنى الحرفي المزعوم، فإنه يجب أيضا تدقيق نظام الصعوبة وربط النقد الفيلولوجي بالوصف الدلالي وإعطاء الحق للغموض و للتناقض وللغز، ليس من أجل تبديد هذه العناصر، ولكن بهدف تحديدها مع الحرص على تمييز وظائفها.

حين نربط مسألة الدلالة اللفظية المتعلقة بالعلامة بمعنى النص، فإن الدلالة التأويلية تفترض أن « المعنى» الحرفي مبني، شأنه في ذلك شأن المعاني المشتقة. ولا يختلفان إلا من حيث تعقيد المسارات التأويلية التي يتعرفان عليها أو يقيمانها. وهكذا تقود الدلالة التأويلية إلى هيرمينوطيقا الصعوبة التي تفترض أن الوضوح هو دائرة غزو وليس معطى في حد ذاته. وحين نعتبر أن المعنى غير محايث للنص، أي أنه مرتبط بممارسة التأويل، فإن الدلالة التأويلية تطرح المشكل المتعلق بهذه العوامل، ومنه على الخصوص الوضع الاجتماعي ومتن المرجع ومتن التعليقات والقواعد المسطرة والمسارات المسلم بها ومجموع المؤولين ومجموع الشاهدين على التأويل. ولا يتميز أي من هذه العوامل بصفة البداهة، لأنه بخصوص مسألة التأويل، ترتكز كل منهجية على الأدبيات الجامدة.

إن النظامين التقليديين للتأويل هما نظام الوضوح و نظام الغموض، ويقابلهما تصوران قبليان للغة، مثل حجاب شفاف أو مثل ستار سميك. و بعد ما تم تعتيم مفهوم الوضوح، فإننا نتبنى الموقف المتمثل في توضيح مفهوم الغموض. وسنرفض استعارة اللغة المشبَّهة بالحجاب، سواء كان شفافا أم غير ذلك. وإذا كانت هيرمينوطيقا الوضوح تبدو شرعية بالنسبة للنصوص الواضحة التي تكون أنماطها الجينية والمحاكاتية والهيرمينوطيقية خاضعة لمعايير واضحة، فإن هيرمينوطيقا الغموض تحيلها على حالة التأويل بدلا من إحالتها على النص، وذلك عندما ترى أن المعنى يتجلى في الجهد المبذول بهدف الوصول إليه، ويتجسد في المسار التأويلي.

يمكن التمييز بين تصورين رئيسيين للعلاقة القائمة بين الغموض والوضوح. فإما أن يُخصص الوضوح العام التحليل الهيرمينوطيقي للفقرات الغامضة، القابلة للتعيين و للعزل بهذه الصفة، ويمثل موقف لوك Locke هذا الاتجاه؛ و إما أن يكون الغموض هو القاعدة، حسب فريدريش شليغل مثلا، وبالتالي يُدرس النص في إطار الهيرمينوطيقا، ولا تعد الفقرات الواضحة بذاتها سهلة وخالية من الصعوبات. في الحالة الأولى، تكون الهيرمينوطيقا أداتية، بينما هي في الحالة الثانية تكوينية.

لغز البداهة

إن إشكالية الوضوح المركزة حول النظرة المباشرة مرتبطة بطبيعة الحال بنظرية الوحي بالمعنى العام للكلمة، إذ إنها تعتمد على العطف الإلاهي المنتشر في الكتابات المقدسة أو منذ عصر فكر الأنوار ذو التسمية الملائمة، ستكون إنتاجا لتمثيل عقلاني للوضع الطبيعي، و لن يكون الغموض إذن سوى صعوبة مؤقتة تنبثق من الحكم المسبق الذي تبدده المعرفة.

غير أن البداهة تنبثق من انسجامنا مع الحالات المعروفة ومن تلك الحالات التي نقوم فيها بعمل ما دون تفكير. ولهذا، تأتينا البداهة، باعتبارها تصور غير نقدي دون أن نعلم لماذا وكيف تم ذلك. وتحول البداهة، باعتبارها أثرا لثقتنا بالعقل، دون وضع مشكل الانخراط وبصورة أقوى مشكل الإقناع[19] . إن البداهة تحجب تكوينها،لأن كل «معطى» يعتبر نتاجا مظلما لصيرورة المعرفة. وهكذا، فإن الجانب المباشر للمعنى الحرفي ينتج عن الحكم المسبق الذي يعمل على طمس المعتقدات.

النموذج التواصلي

مع سيادة الوضعية المنطقية ونظرية التواصل، عرفت نظريات الوضوح في القرن العشرين انطلاقة ملحوظة[20]. وفي إطار الإيديولوجية المبنية على الشفافية، وبمعية الاستعارة التي عمد سوكال Sokal إلى طرحها، فإن النص يصبح رسالة بينما يصبح

19.أي أنه إذا كان أمر ما بديهيا، فهذا يفرض نفسه دون أن نطرح السؤال لماذا نعتقد أنه موجود (المترجم).

20.يعد منهج التواصل في رأينا من بين أهم المعيقات الابستيمولوجية التي تقف في وجه تطوير علوم اللغة، ويحدد اللغة بأنها شفرة والنص رسالة و المؤوِّل مُفكك الرموز. إذ لا يميز هذا المنهج بين المرسل (بكسر السين) و المؤلف والراوي. ويطرح تقابلا بين الوظيفة الشعرية [أو البوويطيقية] و الوظيفة المرجعية، ممتنعا عن وضع مشكل الميمسات ووظيفتها التكوينية بشكل واضح. كما يتميز هذا المنهج التواصلي النابع من الوضعية المنطقية بتأثره بالتفاهم السلمي (irénisme) المتفهَّم الذي استلهمه بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن هذا التوجه لا يبرهن على مصداقيته من الناحية النظرية.

القارئ متلقيا[21]... الخ. وتختفي المشاكل المتميزة لتأويل النصوص، وقد تحولت إلى ميدان التبادل الشفوي بواسطة تمديد المبادئ (maximes) الاصطلاحية، وأكثرها ورودا بالنسبة لفكرتنا هو المبدأ الذي اقترحه غرايس Grice : «كن واضحا». ويمكن تلخيص الأطروحات الرئيسية للإيديولوجية التواصلية على الشكل التالي:

– يدعى أن هناك معنى حرفي يتم التعرف عليه مباشرة في الماضي استنادا إلى الإدراك الطومائي وهو الإدراك البسيط والبديهي *(simplex apprehensio)* ثم بواسطة المبدأ اللوثيري *scripturae perspecuitas* [أي أن الكتابة المقدسة تعتبر واضحة بالنسبة لقارئها] وإلى عهد قريب بواسطة البداهة حسب دائرة فيين[22] Vienne. وعندما يصبح المعنى الحرفي غامضا، فإن على التأويل أن يعيده في إطار حقوقه، وذلك بإلغاء الفارق ليتمكن من العودة إليه[23]. على سبيل المثال، يعد التناقض عادة إشارة إلى معنى مشتق، ولهذا يعرَّف المجاز بأنه انزياح (أنظر الفصل الخامس). إذا كانت إعادة كتابة المعنى الحرفي تساهم في تأسيس التشاكل، فإن التأويل يرمم نوعا من الشفافية الأنطولوجية للغة التي أصبحت حجابا شفافا ومطردا. وبناء عليه، يختزل نظام الوضوح التأويل في التوضيح، ولكن وسائل التوضيح تعود إلى المعنى الحرفي الذي لا يعد هو الآخر ولذاته خاليا من كل لغز.

– من المفروض أن تكون الصعوبات لحظية ومحلية وأن تكون آتية إما من الشكوك الفلسفية وإما من المعارف غير الكاملة، واللجوء إلى الموسوعية كفيل بتبديدها. ويثار التأويل بسبب الصعوبة التي تحددها الاستجابة الآنية لوضع المعنى الحرفي. لقد وضع مثلا أحد النقاد المرموقين في السابق حروفا بارزة على الفقرات الغامضة لواحد من نصوص بروتون Breton، وقد كان بصدد شرحه، حيث ظل كل الشرح اللاحق محددا بهذا الاختيار الذي لا يقبل النقاش.

– النص غير متناقض، والتأويل الجيد يقلص أو يقلل من تناقضاته. إن هذا

21. أنظر راستيي (1996 a).

22. يتحكم مبدأ التكوين، المشار إليه خطأ، بقانون فريجة في كل الدلالات المنطقية ونظريات النص المشتقة منها. ويفترض هذا المبدأ أن معنى عبارة ما يتكون انطلاقا من العبارات الصغرى. ولكن، يُشتق معنى العبارات الصغرى البسيطة باللجوء إلى البداهة، بحيث إن البداهة تخلق كل دلالة منطقية.

23. على المستوى الابستيمولوجي، يحدد هذا الحكم المسبق حول الوضوح دليل سوكال Sokal حول استعمال الاستعارات في الخطاب العلمي، إذ يجب على هذه الاستعارات أن تؤدي من جديد إلى المعنى الحرفي، بمعنى التوضيح وليس التعتيم...

الافتراض التجانسي يستند إلى نظرية التمثيل التي تذهب إلى أن التأويل هو تعيين المراجع التي تكون موضوعَ خلاف في إطار الأنطولوجيا. فالتجسيد العادي للأنطولوجيا هو الموسوعية التي يعرف المؤول تصفحها في أوانه، ولكن الموسوعية ليست متناقضة، لأنها تصدر عن نصوص منزوعة السياق. وهذا ما يمكنها من الظهور في شكل لائحة الأثاث المُشكِّل لأنطولوجيا العالم.

– يفترض النموذج التواصلي أن النص متكامل، وأن النقائص التي تعتبر إيجازا تُعوض بالاستدلال. وبصورة تكاملية، سيتم الحكم على النص بأنه متجانس، أو أكثر من هذا بأنه مطرد. و يعود الاطراد إما إلى الحكم المسبق حول المؤلف[24]، وإما إلى الحكم المسبق حول التمثيل؛ إذ يعتقد منظرو فكر الأنوار أن اللاتوافق لا يؤثر على العلاقة بين المؤلّف والقارئ، ولكنه يؤثر على تعيين ما هو مُمثَّل، أي التأويل الدلالي بالمعنى المنطقي للكلمة. بإمكان الاطراد النصي استنباط نية المؤلّف مثل التطابق الذاتي للعالم الذي تشهد به الموسوعية، حيث يظهر كل شيء مبدئيا في المستوى نفسه.

– التأويل الأكثر «اقتصادية» يكون هو الأحسن. ولقد تم الانتقال في إطار هذا الموضوع من العلاقة إشارة/صوت المرتبطة بنظرية المعلومة إلى مبدأ الملاءمة حسب سبير بير و ويلسون[25].

نقاش حول مبدأ الملاءمة

في إطار الأمثلة القصيرة، سندرس تأثير هذا الأنموذج عند إيكو، وهو واحد من المؤلفين الأكثر احتراسا داخل التيار التواصلي المعاصر.

يدافع إيكو بالطبع على المعنى الحرفي. و يذهب إلى أن «المعنى الحرفي متعلق بالوحدات المعجمية، وهو المعنى الذي تسجله القواميس كمعلومة أولى، وهو المعنى

24.راجع ما يلي : « الفكرة التي تقول إن الكاتب هو الفكر المقدس ولا يقوم بشيء دون جدوى، ومن تم لا توجد وفرة ولا يوجد حشو» (شليرماخير 1987 ص 105). ربما يستبدل هنا المبدأ الذي صاغه سبيلبير و ويلسون المبدأ المعرفي للملاءمة الفكرَ المقدس بالذهن(Mind).

25.يعتبر هذا المبدأ إعادة لمبدإ الاقتصاد الذي صاغه في الماضي موبيرتويس Maupertuis في كتابه *Cosmologie* سنة 1750 ليزن العناية الإلهية والذي تم دحضه في وقت لاحق من قبل اللسانيات التاريخية والمقارنة. ولكن مبدأ الاقتصاد غير مجهول في الهيرمينوطيقا، إذ نجده مثلا عند دانهاور، وهو أول فيلسوف يصوغ مبدأ الهيرمينوطيقا العامة، (*Idea Boni Interpretis* , Strasbourg, 1630 ; *Hermeneutica sacra*, Strasbourg, 1654). ولكن، وُجد لهذا المبدأ مكان عن طريق الأرسطوطاليسية التي تطورت انطلاقا من دراسة كاليان Galien(أنظر توار Thouard) : إن الاقتصاد يتجلى في التوازن الجيد والشامل مثل الصحة البدنية ولا يعرف كمبدإ ربح فوري، مثل ما هو مطروح في الفلسفة الأنجلوساكسونية المعاصرة.

الذي ينطق به رجل الشارع لأول وهلة إذا ما سألناه عن معنى كلمة ما»(1994، ص 12؛ أنظر أيضا الفقرة المعنونة « الدفاع عن المعنى الحرفي»، ص35-33).

أعاد إيكو المبدأ القائل بأن التأويل يجب أن يثار عندما تُنتَهك المبادئ الحوارية[26]. وهكذا، «نقرر تأويل متوالية من الملفوظات كخطاب رمزي لسبب واحد وهو أنها (أي المتوالية) تنتهك القاعدة الحوارية حول ماهو هام (غرايس، 1967). و في هذا السياق، يحكي الكاتب بإسهاب حوادث لا تبدو أساسية بالنسبة للخطاب، و يستنتج بالتالي أن كلماته لها معنى ثانيا» (1994، ص 154-155). وربما تكون هذه حالة دانتي في البيت الثالث من الكوميديا الإلهية[27].

تمكن نظرية العوالم الممكنة من إنقاذ المرجع الذي أصبح ببساطة خياليا. ويمثل المرجع العالم الممكن المسطر إبان التفاعل التعاوني بين النص و«القارئ المثالي»[28]. ويصطدم بعد ذلك التأويل «بالعالم الحالي أو الواقعي»، وهو محدد بلطف على الشكل التالي: « ما نسميه العالم الحالي هو العالم الذي نحيل عليه، بطريقة صحيحة أو خاطئة بأنه العالم الموصوف في الموسوعة العالمية *Encyclopaedia Universalis* أو من قبل جريدة لوموند (1994 ص 214). فالمرجع إذن مكون من إحالات على المعتقدات كما هو ظاهر في هذه الكتابات.

وبما أن التأويل قضية تتعلق بالمعرفة، فإن الغموض لا ينبثق إلا من التحويل الصعب للكفاءات: « كل فعل قراءة تحويل صعب بين قدرة القارئ (معرفة العالم

26.حسب غرايس، تكون المساهمة متعاونة إذا ما احتُرمت أو انتُهكت مبادئ الحوار. وهذه المبادئ هي كالتالي: المبادئ الفرعية المتعلقة بالكمية ، (أ) « أعط أكبر قدر من المعلومات مما هو مطلوب» و (ب) «لا تعط معلومات أكبر مما هو مطلوب»، مبدأ الكيف (« يجب أن تكون مساهمتكم حقيقية») الذي ينقسم إلى مبدأين فرعيين (أ) «لا تسلموا بما تعتقدون أنه خطأ» و (ب) « لا تسلموا بما ليس لكم عليه دليل»؛ مبدأ العلاقة «قولوا كلاما واردا» وأخيرا، مبدأ الكيفية «كونوا واضحين» وهو مبدأ مقسم إلى أربعة مبادئ فرعية (أ) «اجتنبوا الأشياء المظلمة» (ب) «لا تكونوا غامضين» (ج)» كونوا وجيزين» و (د) « كونوا منظمين».
لا تعد المبادئ المعرفة قبلا عند غرايس عامة، لأنها غير منحدرة من دراسة مقارنة «للمحادثات» في ثقافات مختلفة- ننسى بهذا الخصوص أن الحوار نوع، أو بصورة أدق، طبقة من «الأجناس» التي لا تمتلك المعايير نفسها حسب المجتمعات. غالبا ما تتعرض لاعتراضات، وتظل هذه المبادئ فوق كل شك: إن الملفوظات التي تلاحظ هذه المبادئ تطبقها مثل الملفوظات التي لا تلاحظها. وهي بذلك تنفلت من كل مثال مضاد، ولكنها تظل مثالا جيدا للتفاهم التواصلي: نفهم عن طريق التلفظ أن على اللغة أن تقول الحقيقة وأن المعلومة قابلة للتكميم ويمكن وزنها بصورة دقيقة. إن مفهوم كمية المعلومات ليس له أي معنى خارج النظرية الإحصائية التي خلقتها والتي لا يمكن أن تصف إلا احتمالات ظهور الرموز أو سلسلة من الحروف.

27. كيف يمكننا تطبيق مبدإ حواري على الكتابي و على مؤلفين مثل دانتي أو مورينو .

28.يكتب الكاتب مصطلح Lecteur و Modèle بهذا الشكل، أي بتكبير الحرفين الأولين و نترجم المصطلح بالعربية بين مزدوجتين (المترجم) .

المشتركة مع القارئ) ونوع القدرة التي يفترضها نص ما لكي يكون مقروءا بطريقة اقتصادية» (إيكو، 1994 ص 63). ويبدو أن هذا الرأي قد أصاب الهدف بالتطرق إلى المعنى المشترك. كما يعد هذا المنحى صائبا خصوصا عندما يلجأ إيكو باستمرار إلى مفهوم المعنى المشترك (1992 ص 39 و 1994 ص 234، الرابط بين الاقتصاد ومبدأ الجهد الأقل والمعنى المشترك، من جهة واستهداف الاتفاق الجماعي). و من جهة أخرى، لا يشرح مفهوم القدرة أي شيء، حيث يتطور هذا المفهوم باستمرار والذي يعمل التأويل على خلقه وعلى السماح بوجوده. و يفترض الحديث عن المعرفة في هذا الميدان أن الفهم يتجلى في إعادة ما هو معروف، وليس في التعلم داخل ممارسة معينة. و هكذا، يُختزل الغموض في التنافر الموجود بين عدة فرضيات.

و من جهة أخرى، ما يفترضه النص لكي يقرأ بطريقة اقتصادية لا يعد ضرورة الأكثر بساطة، ولإيجاد قراءة صائبة وأكثر سهولة (*lectio facilior*) ، يجب تتبع السبيل الأكثر صعوبة، وهو السبيل الذي يهدف إلى إعادة البناء التاريخي. وفي الأخير، لا يؤجج، رغم ذلك، الاقتصاد الناتج عن مبدأ الجهد الأقل التأويلات- وحسب علمي، لم تنتج المقاربة الغرايسية أي تأويل للنص كفيل بأن يقدم الجديد. ثم إن القراءات «الاقتصادية» لا تبدو منتِجة، وخصوصا عندما نطبقها على بعض الكتاب أمثال دانتي.

نقد التفاهم السلمي

تطالب النظريات التفاهمية[29] بنظام الوضوح. و نذكر من بين هاته النظريات نظرية المذهب التعبدي المضاد للأرثودوكسية اللوثيرية وفكر الأنوار في الماضي. وفي الوقت الحاضر، هناك علم التحكم المعلوماتي و نظريات التواصل[30]. لقد أدخلت الكانطية الجديدة المتبناة من قبل غرايس مفهوم الاقتصاد في التفاهم السلمي، وهو كمي خالص على الرغم من أنه لا يتمتع بأي قياس. فحتى مؤيدو مبدأ الاقتصاد لا يلاحظونه، لأنهم يبذلون مجهودات كبيرة للرجوع إلى المعنى الحرفي، مؤكدين على تقديم هذه المجهودات بأنها أثر للسهولة الطبيعية.

29. نظريات تعتمد التفاهم السلمي و تعمل على إخفاء أو إهمال التناقضات (المترجم).

30. ينحدر التفاهم السلمي الحديث فيما يخص التأويل من الفكرة الكانطية- الموعودة بالنجاح الجامعي، على الأقل في جامعات علم الأديان - القائلة بإمكان تضمين الدين داخل حدود العقل البسيط.
ويستحسن بالفعل التمييز بين التفاهم السلمي الإدراكي أو «المعرفي» والتفاهم السلمي السياسي: نلاحظ فقط أنهما متوازيان عند كتاب جد مختلفين مثل ليبنتز أو كانط، وإلى عهد قريب راسل أو فيينير Viener.

لقد كانت الهيرمينوطيقات الخاضعة للإصلاح الديني قبل الرومانسية مطابقة للفرضية التقليدية للوضوح. وستصاغ أولى الانتقادات النظرية للتفاهم السلمي (irénisme) الهيرمينوطيقي من قبل ف. شليغل و شليرماخير[31]. و برزت أفكارهما، المنحدرة من الفلسفة ومن الفيلولوجيا، بصورة غير منظمة، في ثلاث اتجاهات:

- ضد المُعتقَدات، وهي منبع الحكم المسبق والوضوح اللائق الذي ينتج عنها، والصورة المستعملة بكثرة هي المفارقة؛ وهكذا، فإن لمصطلح Witz عند شليغل وظيفة ميتافيزيقية.

- ضد الحكم المسبق القائل بأن الوضوح الشامل يغطي الظلمات المحلية. لا يمنح شليرماخير أي امتياز للفقرات التي يدعي البعض أنها واضحة، وبالتالي لا يركز على النقط الغامضة.

- أقام شليغل تقابلا بين الأنطولوجيا المتناقضة والمطروحة كإشكالية، والأنطولوجيات المنحدرة من التقليد البارمنيدي[32] الذي يؤسس ضمنيا اطراد النصوص. وللتذكير، فإن الأنطولوجيا الأولى منبثقة من التقليد الهيراقليطي الذي أدخل التيمة السجالية إلى الهيرمينوطيقا.

لم يكن المعنى محايثا للنص، ولكن للممارسات التأويلية التي ينبغي أن يُربط بها. و لهذا السبب، لا يعد المعنى حرفيا، إذ أن القراءة هي التي تكون حرفية، وتكون في بعض الأحيان في محلها، عندما تطبق بالنسبة للأجناس والممارسات الحرفية للقراءات. إن ادعاء الوضوح يعني تبني استراتيجية القراءة الحرفية لإذابة الغموض. ولكن، يمكن الاعتراض على هذا التحليل بالقول بأن ما هو غامض يُعتبر صعبا، وتظل الصعوبة ملتصقة بكل عملية تأويل. و بناء عليه، يفترض أن يجسد الغموض رفض مفهوم التأويل مثل رفض المجهود النقدي لقياس جهلنا.

يأخذ كل تأويل مساراً معيناً؛ ولهذا، فإنه للمرور من كلمة مؤولة إلى جارتها التي لم تُؤول بعد، يجب تعميم، انطلاقا من تخمين، السيمات المحصلة قبلا و/

31.حسب شليرما خير ،ينبثق التفاهم الهيرمينوطيقي من المبدإ التسامحي ،وعند ما نحيل على ف .شليغل، يمكن تلخيصه في فرضيتين: «فرضية الجماعة ((communauté: كل ما هو جيد، كبير وجميل غير محتمل، لأنه خارق للعادة و أقل ما يقال عنه أنه مشكوك فيه. و إوالية العادة: كما هو جار عندنا ومن حولنا، فقد كان هذا الوضع أصلا على هذا المنوال، لأن كل هذا طبيعي جدا »(25 ، § Lycée).

32. بارمينيد(Parménide) : فيلسوف عاش قبل سقراط و يذكر ليرس في كتابه حول الفلاسفة أن بارمنيد عاصر هيراقليط ، ويعتبر المؤسس لفلسفة الأنطولوجيا (المترجم).

أوتحويل الطريق بواسطة مؤولين مرتبطين بمعتقداتهم (ومن بين مكوناتها التيمات المتكررة التي تعتبر مسلمات معيارية) أو بنصوص أخرى معروفة في المتن. إن النص يبدو مقروءا بسهولة وواضحا حينما تصبح الأصناف الثلاثة للمؤولين[33] (النابعة من فقرات سابقة للنص ومن التيمات المتكررة ومن فقرات التناص) كلها في المتناول ولا تعتبر متناقضة.

يَرتبط التوقع أساسا بالمعتقدات، فالنص المطابق للمعتقدات يبدو أكثر «وضوحا» من النص المنفصل عنها. وهذا المعطى يفسر ما مفاده أن الآراء المشتركة الأكثر معيارية، تلك التي تهم المباحث العلمية، تجعل النصوص الصادرة عنها أكثر وضوحا، ولكن فقط بالنسبة للخبراء. وعلى سبيل المثال، ففي الدرجة المعجمية، لا نأسف مبدئيا على المعنى المشترك ولا على الالتباس.

استنادا إلى القاعدة العامة، لا تتناقض النصوص الواضحة مع التوقعات أي مع الأحكام المسبقة والسائدة في المجتمع[34]. وهكذا، فهيرمينوطيقا الوضوح ليست إلا هيرمينوطيقا مطابقة للمُعتقدات، ومطابقة للتجمعات الواثقة من التوابث الفكرية (الأكاديمية أو الدينية... الخ)، كما أنها تستفيد من كل الإغراءات الدوغمائية المتعلقة بالبداهة[35] .

إن النصوص الواضحة ترى عموما في الصعوبات مجموعة من النقائص. وستُرفض النصوص التي تفرض أو تتطلب مسارات تأويلية معقدة وغير مرتبطة بنصوص أخرى ومفرعة ولا متناهية والمقدمة على شكل حلقة، وستُنعت باللامقروءة أو بالخاضعة للمعايير المجتمعية. وكنتيجة لذلك، نتشبث تلقائيا بشرح مؤلف رامبو (*Les Illuminations*) بغروب الشمس.

لنذَكر إلى أي مدى تكون هذه الاستراتيجيات اختزالية عندما نأخذ مثال الملخص في شكله الأقصى، والذي يجعل من السرد امتدادا لجملة تسمى **ماكروقضية** (macroproposition) (حسب النموذج الذي اقترحه فانديك وكينتش). وفي موازاة هذا

33.لا يتم تحديد و تمييز المؤولين في نص ما إلا باعتبارهم فترات في المسار.

34. أنظر النظرية السيكولوجية المتعلقة بالتوتر الحاصل بين المعارف المتعارضة (dissonance cognitive) ومن خلاله أثبت فيستانجير Fistinger بالتجربة على أننا نرفض أو نهمل الأطروحات التي لا تتلاءم مع المعتقدات.

35. يوضح راستيي (في حديث شخصي) أنه إذا اعتقدت مجموعة ما أن كل شيء واضح، فإنها تتمسك في الواقع بالعقيدة التي تناسبها (المترجم).

الاتجاه، أثبت جينيت أن « الأوديسيا و رواية البحث عن الزمن الضائع لا يعملان إلا على عبارات مبالغ فيها مثل دخل أوليس أيطاكيا أو صار مارسيل كاتبا» (1972 ص 75)[36]. تقود هذه الإستراتيجية حتما إلى التنثير (prosaisation) بالعودة إلى المعتقدات. وقد لخص ريفاتير قصيدة المجوهرات،(Les bijoux) وهي لبودلير ،قائلا:«إنها تتخذ أوضاعا مغرية لإثارة شهوتي» أنظر ،1979 ص،60-45 محولا أغنية حول زينة السولاميت (la sulamite) وnuditas criminalis[37]) إلى استيهام جامعي ولطيف التأثير.

تحول هيرمينوطيقات الوضوح الألغاز إلى مشاكل و المشاكل إلى حلول نثرية. ولكن حذف الصعوبة لا يعني حلها، و إذا لم نؤمن بأي موقع للغموض، فسنخاطر بخلق ظلامية مكتومة.

أنظمة الغموض

يقترح دوني توار أنه من الأفيد التمييز بين النظام الهيرمينوطيقي للغموض وبين الاستعمالات البلاغية لهذا الغموض. ويظل الغموض الهيرمينوطيقي، الثابت والمنتشر في كل مكان، صعب التحديد. و لكن في الممارسة التي تهدف إلى الإقناع، يظل الغموض البلاغي لحظيا ومحليا، ويهدف إلى خلق الانفعال والتخويف بل وإلى خلق الصدمة. ويكون مع ذلك مطابقا للنظام العام للوضوح، لأنه يخلق المعنى بانزياحه- مما مكنه من أن يُقحم في الإشكالية المنطقية-النحوية التي تقلص آثاره بواسطة العودة إلى المعنى الحرفي، دون الاعتراف بالأسباب.

يمكن فعلا الاعتراض بأن الغموض يسقط، في نقطة أساسية، على كل النص. ولكن يظل الغموض البلاغي مشروطا، بينما يضع الغموض الهيرمينوطيقي شروطا على كل الفعل التأويلي الذي يجب إذن ربطه بما يسميه شليغل اللافهم الايجابي (la non compréhension positive).

نفهم من خلال المعطيات وتحت اسم الغموض كل أصناف المعوقات التي يمكن أن تتجمع في ثلاث فئات رئيسية:

أ) غموض البعيد: الحالة السوسيو- تاريخية لتكوين النص وحالة تأويله جد بعيدة إما في الزمان والمكان، أو في الزمان من جهة أو في المكان من جهة أخرى، لكي

36.الأوديسيا ملحمة لهوميروس والبحث عن الزمن الضائع رواية لمارسيل بروست (المترجم).

37. مقارنة مع العري البريء (*nuditas naturalis*) ومع العري الفقير *nuditas temporalis* يتزين هذا العري بالحلي ،كما نلاحظ عند كراناه Granah وصولا إلى ماني Manet وإلى فان دونجين.van Dongen.

تسمح بإعادة تكوين المؤولين الخارجين عن النص.

ب) **غموض الضمني**: إعادة بناء داخلي للمسار التأويلي ضروري ولكنه يظل محتملا.

ج) **غموض الخفي**: شيء أساسي لم يذكر(على سبيل المثال عند فولكنير Faulkner)، ولا يمكنه أن يقال هكذا، استعمل دانتي في الجنة التعريض (prétéritions) للتعبير عن الأشياء التي تتجاوز اللغة والإنسان).

سنفصل هذه النقطة الأخيرة. إن كل المسائل الغامضة ليست لها القيمة نفسها، لأن **استراتيجيات الغموض** متنوعة، ومن الأفيد كشف هذه العوامل:

أ) **وظائف الغموض**: خلق نخبة، عندما لا يُفهم قول ما إلا من قبل أولئك الذين أرسل إليهم، الرفع من مكانة القارئ بالتصوف، وكشف ما لا يمكن قوله تحت نظام الوضوح، لأن ذلك يكون مبهرا، أو لأنه لا يمكن إلا أن يُتنبأ به.

ب) **البنيات النصية** المميزة للنصوص الغامضة، تلك التي تخلق مسارات متقطعة، أو على العكس، تلك التي لا تُشبَع لأنها متعددة المعاني وغير قابلة للتقرير(indécidables) لأنها مُبهمة... الخ.

د) **الأنماط** الثلاثة: الجينية والمحاكاتية والهيرمينوطيقية التي ينبثق منها هذا النوع من البنيات.

إن المحاكاة الخاصة بالغموض مجزأة، لأنها تهدم المعتقدات، أي «العالم» دون السعي إلى بناء عالم آخر. ولهذا، فهي لا تملك سمعة مرجعية، ولا تقاس بمقياس المحتمل، ولا بمقياس الحقيقة الحدثية بصورة أقل. وعلى العموم، تحتفظ المحاكاة بعلاقة ربط مع الوحي المخصص للنخبة التي تبذل الجهد، وذلك بتخطي الصعوبات التأويلية، وبالظهور إزاءها بمظهر الفئة المناسبة. على المستوى الهيرمينوطيقي، يستخلص الموقف التلقيني للقارئ، ومن هنا إثارة دراما القراءة التي يمكن أن تصبح بحثا أو تصوفا. وتترجم المحاكاة غالبا تأثير الأنطولوجيا الخاصة التي ترتبط بها المقروئية لأنها تخلق العالم مثل ما تخلق النص، بل وتنطلق منه. وهكذا، لقراءة هيراقليط أو فريدريش شليغل، اللذين يضعان أمامنا أنطولوجيات التناقض، بل وحتى الفوضى، تصبح الصعوبة أمرا مبدئيا .

إن نظام الغموض هو نظام المسافة، سواء بالنسبة للنص أو بالنسبة لذاتنا حين

نمارس النقد. وفي هذه الحالة، لا يعد الغموض خطأ في التواصل، ولكنه تواصل في صيغة أخرى. إنه خطأ في الإرسال الذي يمكن أن يكون أيضا إرثا نابعا من اللغز؛ إذ يتعلق الأمر، على سبيل المثال، بالفقرات الثلاث التي يخبرنا فيها الإنجيل أن المسيح قد أقدم على شرح حِكَمه. ولكن لكي لا يخاطر بإثارة غضب أساتذة الهيرمينوطيقا، لم يفسر لغزا إلا بلغز آخر.

المنبعان التقليديان للوضوح هما القانون (Loi) الطبيعي والعفو (Grâce)، في حدود الاعتقاد على الأقل بأن الرب يمارس التطابق *(accommodatio)* البلاغي. ولكن بمجرد ما تجف هذه المنابع، ينمو الغموض. وهكذا، ستقود فلسفة الشك غير المقيدة بالنزعة الموضوعية التي تتراجع إزاء الشكلين الرئيسين للتعالي، وهما العالم والرب، إلى نظام تأويلي للصعوبة.

تُطرح في وقتنا الحاضر صيغتان للحضور في مقابل هذين المصدرين للوضوح وهما الصيغة الذاتانية(subjectiviste)وهي صيغة الظاهراتية؛ وصيغة النزعة الموضوعية وهي صيغة الوضعية المنطقية والمعرفية الأرثودوكسية. فالحضور يؤسس هيرمينوطيقا الوضوح، عندما يكتفي التأويل بإزاحة ما يحجبها. فعلا، يشهد الحضور بمحايثة المعنى في الكائن. أما بخصوص اللغة الشفوية، فالحضور يتخذ شكلين: في صيغة النزعة الموضوعية، يتخذ شكل بداهة أوضاع الأشياء في زمن المحادثة الحالي، وفي الصيغة الذاتانية، يتخذ شكل الاختبار غير المنطوق حين يكون اللقاء مضطربا.

وفي المقابل، يلاحظ أن صيغة الغياب هي صيغة الأثر التي تطرح دوما عدة مشاكل، وصيغة المسافة التاريخية التي تعكسها الفيلولوجيا. كما يضع النص المكتوب و المفتقد للحضور على مستوى البناء مسافةً ترفض هذه الصيغة الإلزامية والانعكاسية للتأويل الذي نسميه الوضوح[38].

يهدف إذن النمط الانكشافي والترميزي للتأويل إلى تجاوز الغياب لإعادة الحضور[39]؛ وهنا يكمن مثلا الغموض في الصورة التي أصبحت إيقونة عندما تقود

38. وهذا يعني أنه ينبغي تأويل النص المكتوب، أما الشفوي فيعطي الانطباع أنه واضح. ثم إن التأويل بالمفهوم الرومانسي عند شليرماخير يسعى إلى مقاومة سوء الفهم عملا بالقول المأثور الشهير:«يوجد التأويل حيثما يكون سوء الفهم» (المترجم).

39. يقول سالوست الفيلسوف Saluste le Philosophe: « تقلد الأساطير الآلهة وبالنظر إلى القابل للنطق و غير القابل للنطق، المرئي وغير المرئي، البديهي و الخفي» « الأنواع الخمسة للأساطير، والأمثلة المتعلقة بكل واحد» و « العالم نفسه عبارة عن أسطورة، بما أن الأجساد و الأشياء كامنة فيه وظاهرة للعيان، والأرواح والعقول مخفية فيه» (« الأساطير، و كونها مؤلهة ولماذا»، أنظر:
.(Salluste le Philosophe , *Revue de philologie*, XIV, p. 49-56)

إلى نموذجها.

إذا ابتعدنا عن ميتافيزيقا النور التي فرضت نفسها بقوة في التقليد الغربي، فإن الوضوح و الغموض يفسحان معا المجال للصعوبة. و يلف اللغز نظامي الغموض والوضوح أيضا لمن لا يشارك في التصور التمثيلي للغة. وبما أننا ورثنا الإشكالية النقدية من الفيلولوجيا ومن العلوم التاريخية، فسنحتفظ بالنظام الأوحد للصعوبة. ويمكن تصوره بتبني طريقتين: الطريقة الجدالية أو الطريقة السجالية. في الصيغة السجالية، ذات التقليد الهيدغاري، يجب تعنيف النص، ومن هنا جاء المذهب التناقضي لبول دومان Man de Paul وللتفكيكيين الأمريكيين. وفي الصيغة الجدالية (iréstique) ، يتطلب التأويل جهدا، ونجاحه غير مضمون، ولا يحقق هدفه إلى درجة أن بعض البنيات النصية لا تقبل الإشباع. و كما أشار إلى ذلك ف. شليغل، ليس في وسع المؤلف الكلاسيكي أبدا أن يكون مفهوما بالكامل.

أمثلة: وضوح هيراقليط

يعتبر هيراقليط[40] نموذجا للغموض. على الرغم من أقوال هايدغر الذي كان يرتكز بحماس على طبعة مشكوك فيها،لا يمكن أن نجعل من مؤلفه فرضية للأنطولوجيا أو للموقف المضاد لها ، دون السقوط في الانتقاص الفيلولوجي.

بمجرد ما نخرج من العادة الأنطولوجية للوضوح المرتبط بالمُعتقدات، نكتشف جيدا اللغة، وفي المرتبة الأولى، لغة الفلسفة[41]. وإذا كان الأسلوب المنمَّق في دواوين القنصليات قد هيمن فعلا على الفلسفة المتعالية منذ كانط ، فإن هذا الأمر لا يؤدي إلى القول إن الفلسفة تقابل الشعر لكونها نثر. فأعمال هايدغر وميرلو بونتي- وضمنها عمل هذا الأخير *(La prose du monde)* الذي استرجع لكلمة «نثر» معناها المشترك- مطروحة للتذكير بهذه الفكرة.

وفي مجال التعبير كما في مجال المضمون، يمكن مقابلة فكر الاطراد عند بارمنيد بتبعية هيراقليط. وأغلب الظن أن هذا التقابل مطابق للصيغتين المنفصلتين للانطباع المرجعي وهما الواقعية الأمبريقية والفلسفة المناهضة للأشكال الكلاسيكية (antinomisme) (أنظر المؤلف، 1992 a). الصيغة الأولى تفاهمية وتفترض تبني الوظيفة

40. فيلسوف عاش قبل سقراط (نهاية القرن السادس ق.م) و معروف بالغموض و المفارقة، ألف كتابا واحدا وعنوانه *Peri physeôs* و لم يصلنا منه إلا بعض المقاطع الغامضة (المترجم).

41.أنظر راستيي(2001 a).

التمثيلية للغة. أما الثانية، فإنها سجالية وتخلق أكوانا مصطنعة و متناقضة. وبناء عليه، يمكن ربط هاتين الصيغتين للمحاكاة بأنظمة الوضوح والغموض التأويليتين.

ولكن، يعرف الخطاب الفلسفي في التقليد الغربي نوعين كبيرين وهما الخطاب الحجاجي والخطاب اللاهوتي اللذان يبدوان متقابلين على هذا النحو: يتميز الخطاب الأول بالوضوح والإرسالية، في حين يتميزالثاني بالغموض والباطنية. إن الخطابين يدعيان بالفعل الحقيقة، ولكن كيف يمكن للحقيقة أن تكون غامضة أو مظلمة؟ كتب هيراقليط حول وسيط الوحي في ديلف Delphes هذه الجملة الشهيرة *outé legei, outé kryptei, alla semainei* [لا يكشف و لا يخفي ولكنه يعني] .ينفلت إذن المعنى من مسألة التقابل بين البديهي و الخفي، وبين الواضح والغامض.

إن الفضيحة الأكثر عمقا في النص الهيرقليطي لا تعود إلى غموضه الأسطوري، بقدر ما تعود إلى وضوحه الذي أكده كثير من الكتاب القدامى، وخصوصا ديوجين ليرس[42]، أو على وجه التدقيق، إن سبب الفضيحة هو الخلط أو التناوب بين الوضوح والغموض: لا الأول ولا الثاني يعتبران في حد ذاتهما مبهران مثل خلطهما، ومن هنا النجاح المستحق لبعض الأجناس مثل الحكاية الدينية. تصرح هذه الأجناس بوضوح تام أنه يجب البحث عن شيء أكثر من الوضوح. لا ينسب النص إذن إلى القارئ أي وضع يمكنه الوثوق به. ويبدو النص مقبوضا إلى عملية تأويلية مثيرة للشفقة، ومقيداً بالبحث عن الوضوح في الفقرات الغامضة، ولكن أيضا عن الغموض في الفقرات الواضحة، دون أن يعتمد على ما هو أمامه. بما أن القارئ يكون في وضعية المنبهر، فإنه يكون خاضعا للراوي: لم يعد للتهويل الضمني المرتبط بالتلفظ الممثل علاقة بالتهويل التفاهمي المرتبط بالعطاء والتلقي، بل وبالتهويل السجالي المقترن بالخيبة. هل هناك، في نظرية هيراقليط، إرادة تلقينية من قبل راهب من أرتميس ؟ ربما يكون خوف القارئ نابعا من الأشكال الدلالية المتميزة مثل المجاز التعاوضي المزدوج (double hypallage) وغير القابل للتقرير، و من أشكال أخرى غامضة (أنظر مورافييف Mouraviev، 1996، راسيتي، 2001 c).

وفي استطاعتنا فعلا تعريف أثر الحقيقة الشعرية بالنظر إلى المماثلة بين مستوى المضمون ومستوى التعبير؛ مثلا في إمكان تناظرين عكسيين في المستوى الأصواتي

42.ديوجين ليرس : (Diogène Laerce) شاعر و معلق يوناني من القرن الثالث، معروف بمؤلفه *Vies, doctrines et sentences des philosophes* و فيه يرتب الفلاسفة حسب المدارس التي ينتمون إليها(المترجم).

والدلالي أن يتجاوبا. «فالفكر» الموسوم بالمعنى مرتبط إذن دائما « بالجسد» الدال، ومن هنا يأتي دور الشعر في كل وحي[43]. ولكن هيراقليط يطرح تقابلا بين الحقيقة كمماثلة وبين الخلط الانكشافي في التناقضات المبنينة بين المضمون وشكل التعبير .لنعتبر الأثر الخاص لهذه العلاقات السجالية في بعض المقاطع .تغادر المحاكاة النوعية حضور الغناء الشعري من أجل المسافة المخصصة للمكتوب .بينما يكتب بارمنيد الشعر المستند إلى الأبيات ،ولكن هذا الشعر يظهر لنا بأنه نثر عندما ننتهي من مقدمة الخطاب[الاستهلال]في حين يكتب هيراقليط نثرا يمكن أن نسميه في وقتنا الحاضر شعرا .ولم يكن في إمكانه الكتابة بالأبيات الشعرية ـ لأنه كان من المتوقع أن يكون نصه شفويا –لم يتخيل إذن في ذلك الزمان وجود شعر دون غناء و دون موسيقى .ولكن دينامكية تعدد المعاني ترتكز على المكتوب :مثلا ،التنبير المزاوج لكلمةbios في المقطع B34 (حول اسم القوس، سلاح الموت ويدل أيضا على الحياة) يجعل من المستحيل إظهار الحركات (vocalisation) إظهارا أحاديا. فضلا عن هذا، تعتبر العديد من التقنيات الشعرية التي يستعملها هيراقليط مستحيلة أو غير مدركة بدون استمرار المكتوب؛ وكمثال على هذه التقنيات، هناك الألفاظ التي تُقرأ من اليمين ومن اليسار[44] والجناس التصحيفي[45] و أساليب أخرى اكتشفت من قبل مورافييف Mouraviev.

وفي الأخير، أقام هيراقليط الرقابة على هيزيودHésiode [46] (مقطع 57) ورأى أن هوميروس و أرشيلوك Archiloque كانا يستحقان الصولجان (مق42). ووبخ الشعراء المنشدين في الملتقيات (مق 104) ؛ وكان يحترس من الآذان أكثر من العيون (مق 101a)، ويعتقد أن اللوغوس شيء متعلق بالروح (مق 115)، وكل هذا يؤدي إلى نفس السبيل: رفض صوت الشعر المُغنَّى. و من المعلوم أن هيراقليط، و هذا وضع نادر جداً، لم يمتهن التدريس، ولكنه ببساطة وضع كتابه في معبد أرتميس[47]. إذا كان قد بحث عن شعر خال مما هو شفوي، وبالتالي عن الكتابة بالنثر، فلا شك أنه كان أول كاتب،

43. يظل على هذا مقروناً بالحقيقة الشعرية، بينما تتأسس الحقيقة الفلسفية كلها، على الأقل كما يُقال، على مستوى المضمون: إنها ترتكز على المصداقية الحجاجية.

44. Palindromes : يسمي البلاغيون العرب القدامى هذا النوع من الألفاظ «ما لا يستحيل بالانعكاس» كقولك «ساكب كاس» أو «كبر رجاء أجر ربك»، أي أن هذه الكلمات تقرأ من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين في الوقت نفسه (المترجم).

45. الجناس التصحيفي (anagrammes) : كلمات يبدل في حروفها لتكوين كلمة جديدة (المترجم).

46. هيزيود (Hesiode): شاعر من القرن السابع أو الثامن ق.م. و له كتاب تعليمي بعنوان Les travaux et les jours (المترجم).

47. أرتميس Artémis :إلهة القمر و القنص عند الإغريق (المترجم).

بالمعنى المعاصر و أول من سطر مكتوبا دون تواصل ودون إرسال شفوي. ونجد على الأقل في المقاطع التي مازالت لدينا تمييزا بين الواضح والغامض الذي كان سابقا لهيرمينوطيقا الديانات السماوية الكبرى.

اقتراحات

إن التقابل بين الواضح والغامض يقابله نموذجان دلاليان، وهما نموذج الدلالة اللفظية ونموذج المعنى. ويركز النموذج الأول على الكلمة، بينما يركزالثاني على النص. إن رهاناتهما ليست بنفس الاتساع، وقد لاحظ سبينوزا في هذا المضمار أننا متشبثون بتغيير معنى نص ما أو بتحريفه بدلا من المعنى اللغوي لكلمة ما[48].

إن تاريخهما متباين، وفي إمكاننا طرح تقابل بشأنهما بين التأويل النحوي والتأويل الرمزي، بين الفيلولوجيا و الهيرمينوطيقا وبين القراءة الحرفية والقراءة الفكرية...الخ. وفي وقتنا الحاضر، وفي إطار الوضعية المنطقية ذاتها، أصبح التقابل بين المعنى اللغوي والمعنى النصي هو التقابل بين المعنى الحرفي والمعنى المشتق الذي يحكم التفرقة بين الدلالة وبين تداوليات التواصل.

ويختلف موقع المؤوِّل حسب الإشكالية، وهذا ما اقترحه إيكو حين قال: «المؤوِّل- بصفته ممثل نشيط للتأويل- هو دون شك مفترض أثناء صيرورة التواصل (أقول وردة لشخص ما، فيفهم أنني أقصد» وردة حمراء»). و لكن هذا المؤوِّل ليس ضروريا في نسق المعنى اللفظي، أي في نسق التعليمات الذي يعمل على تطابق «وردة حمراء»(باعتباره تأويلاً صائباً) مع لفظة (rose) (1994، ص 239). و مهما يكن من أمر التقابل بين التواصل و بين المعنى اللفظي، فإن التصور الشفري للمعنى اللفظي يجعل المؤوِّل غير ضروري.

وعلى العكس من ذلك، فإنه لا مناص من أخذه بعين الاعتبار،لأنه عامل يقوم بممارسة مؤطِّرة تحدد، مع المسارات التأويلية، إنتاج النص. ويجب الاعتراف بأن المعنى لا يوجد داخل الموضوع (النص) ولا داخل الفاعل (المؤوِّل)، ولكن «في» تمازجهما، داخل الممارسة الاجتماعية. بالنسبة للمؤوِّل وللمتلفِّظ، يُفرض قيدان على المستوى الحضوري وهما التموضع والسياق ،وقيدان على مستوى الغياب وهما الجنس و التناص .ولهذه القيود حمولة سيميائية عامة تمتد إلى كل الموضوعات الثقافية.

Traité Théologico-politique , chap. VII.48

يتطابق التقابل في درجة الميكروسيميائيات ذاتها بين المعنى اللفظي وبين المعنى النصي مع صنفين من السمات :السمات الملازمة المتحققة تحت نظام الوضوح ،لأنها موروثة بطريقة عفوية بسبب غياب النمط في التوارد ،عندما لا يمانع السياق من ذلك؛ وتلعب السمات الملازمة دورا مركزيا بالنسبة لنظريات الوضوح لأنها «تعبر بوضوح عن الفكرة»، بحيث تتطابق والنمط المعجمي كما هو مثبت في المعتقدات المنتشرة بين الناس. وعلى النقيض من ذلك ،يتطلب تحقيق السمات المجالية *(sèmes afférents)* دورة بواسطة مؤولين من داخل السياق أو من خارجه (على مستوى التموضع أو التناص)إن هذا النوع من السمات أساسي لنظريات الغموض[49]. فضلا عن هذا، يلاحظ أن طول المسارات التأويلية وتعقيدها غير قابل للتحديد القبلي.

ومع ذلك، لا يجب على الدلالة التأويلية مقابلة هذه الضروب من التحقيق، إذ في الواقع، يجسد التمييز بين السمات الملازمة وبين السمات المجالية في الدرجة الميكرو دلالية الفرق بين السهولة (الوضوح) والصعوبة (الغموض)، استنادا إلى مفاهيم مثل تعقيد المسار؛ و لا نجد ضمنها فرقا من حيث طبيعة هذه المفاهيم، ولكن من حيث درجتها[50].

يكمن حل التقابل بين الوضوح والغموض في الدلالة ، بين الإحالة والإيحاء في تصنيف المسارات التأويلية. وتفضل القراءات التي تسعى إلى التأويل الأولي والحرفي السمات الملازمة، أما القراءات التي تؤول بصورة مفرطة، فإنها تُكثر من السمات المجالية في القراءات المرمّزَة و المنحرفة والمرغوب فيها.

وإذا طرحنا الآن مشكل التأويل في الدرجة الأكثر شمولية وليس في الدرجة الأكثر محلية، فإننا سنقابل استراتيجيات التوضيح والتلغيز وستظهر إذن الصعوبات

49.نظريات الغموض هي مثلا نظريات النصوص الغامضة (النصوص الدينية و الشعرية) التي لا تؤمن بأولوية المعنى الحرفي (المترجم).

50. إن لها متعالقات سيكولسانية على المستوى التصوري. فحتى الموجات المرتبطة بالعين، رغم كونها معروفة بخاصيتها الآلية واللاواعية، فإنها مرتبطة بالنظام التأويلي. بالنسبة لتفحص الكلمة، تحت نظام الوضوح، يلاحظ أن نقطة التفحص المسماة Fovéa، وزاويتها تساوي %2، متموضعة بعد مركز الكلمة، ويمكننا استنتاج الفحص المتأخر للتوقع؛ وفي المقابل، تحت نظام الغموض، تتموضع نقطة التفحص في مركز الكلمة، بل وفي البداية (أنظر لافين طومب Laving Tomp 1996). أما بخصوص الخصائص الكمية للتثبيت، فتثبيتاتها القصيرة والقليلة تقابل التثبيتات الطويلة والكثيرة. و يرتبط السلوك المحرك للعين بأنواع المسارات التأويلية المحلية، المرتبطة بالأنظمة الهيرمينوطيقية للوضوح والغموض. ويمكن القول بأن تصور الدال مرتبط بنمط معالجة المدلول، و بالتالي فإنه مرتبط بالأنماط المحاكاتية و الهيرمينوطيقية للنص.

التأويلية كتطبيقات لهذه الاستراتيجيات[51] التي تختلف حسب الأجناس والخطابات. فمثلا، تصنف الأحجية-اللغز (devinette) أو الرواية البوليسية تحت نظام التوضيح، وهكذا نبحث عن حل وحيد ومضمون، نعرف وجوده ولكننا نجهل فحواه. وعلى العكس من ذلك، ينتج المثال الديني عن التلغيز، إذ نعلم أنه ينبغي أن نواظب على البحث، ولكن لا يوجد حل وحيد ومضمون. وبناء عليه، يختلف نظام التوضيح حسب اختلاف المهمة الموكلة إليه، أي مهمة التفسير أو التوضيح، فك الغموض أوالإحاطة به.

إن استراتيجيات التوضيح، سواء كانت تكوينية أو تأويلية، تقود كل النص إلى المثالية الاصطلاحية التي تجعل حدا للمعنى المشترك وللالتباس، وتحول «معناه» إلى معاني لفظية تؤول على أنها إحالية، في عالم ما أو في عالم آخر. ويفترض الوضوح المنبثق منه لا-تناقض العالم الممثَّل. فإلى هذا الهدف الأسمى تتجه النصوص العلمية، أو على الأقل النصوص التي تعكس مبادئ الوضعية الحديثة.

وتستطيع الهيرمينوطيقا الفيلولوجية صياغة فرضية مفادها أن دلالة النصوص المستندة إلى الفقرات المفترضة الغموض ليست أقل قيمة من دلالة النصوص المستندة إلى الفقرات المزعوم أنها واضحة. وعلى الخصوص، تفرض الصعوبة الإكثار من المسارات التأويلية، وبالتالي الإكثار من المحاولات، وتنمية المعنى حسب الترابطات المؤسسة عن طريق القراءة. نفهم جيدا إذن الاستراتيجيات التربوية للغموض ومدى صعوبة النصوص الدينية. ونعلم أنه لا يجب فهمها حرفياً في المواقع التي تكون واضحة. أما في الأماكن التي تكون غامضة، فإنها تكشف للقارئ عن حدودها، بل وحدود كل قراءة، وذلك بنوع من التخويف الكهنوتي. ثم إن كل وحي يظل محجوبا، لأن الغموض لا يعيقه بل يكوِّنه.

غير أنه يمكن لهذه النصوص التي تبدو في المتناول والتي تدعي الوضوح، مثل النصوص الكلاسيكية الفرنسية، أن تُصنف أيضا ضمن النصوص الصعبة، استنادا إلى تعقيدها البنيوي. و يستجيب النظام العام و الوحيد للصعوبة الذي حددناه سابقا للاعتراف بالتعقيد، حيث إن المقابلة بين الواضح والغامض يجب أن تتجاوز اللجوء إلى دراسة درجات التعقيد. و الحقيقة أن النصوص، سواء كانت واضحة أو غامضة،

51. بما أن لغات الفن تعتبر إدماجا فنيا (mise en abyme) للتناص، فإن كل كلمة تحيل، بصورة سجالية، إلى تقليد أعلى.

قابلة لأن تعاد قراءتها بلا نهاية، لأن في كل فترة تاريخية، مثل كل لحظة من الحياة، يمكن أن نجد لها، استنادا إلى إعادة تشكل سياقها ، معنى جديدا لا يتناقض وبنيتها. وعلاوة على ذلك، فإن التأويل لا يلغي الصعوبة، بل إنه يحددها دون إلغائها، وكل أمر تم توضيحه لا يصبح مع ذلك واضحا، لأن وعي التعقيد لا يلتبس مع السهولة.

طالما أن الأمر لا يتعلق بوصْفات جاهزة، فإن مشكل المنهجية لا يعتبر بالطبع محايدا اتجاه التصورات المسبقة للغة ولا اتجاه الأخلاقيات التي تصاحب الممارسات التأويلية، على الرغم من أنها مرفوضة. سنصوغ في ما يلي ثلاث توصيات :

أ) على المستوى اللغوي، يميز التأويل عملياته الخاصة ويمدد إذن نطاق النقد الفيلولوجي إلى الهيرمينوطيقا نفسها.

ب) احتراما للمنهجية الفيلولوجية، يرفض التأويل البداهة مثلما يرفض العنف والأشكال الجدالية أو السجالية للوعي السليم.

ج) يطرح التأويل مشكل علاقته مع الممارسة الاجتماعية التي يتموقع داخلها، لأنه لا يُفهم إلا بالنظر إلى الممارسة التي أوجدته (بل وحتى داخل هذه الممارسة).

إذا كان لا يحق لنا التمييز بين الصالح والطالح، في غياب عقيدة مَّا، فلنقترح بعض الروائز لتحديد القراءة « المفيدة». وسنبدأ بالروائز السلبية. وفي هذا الإطار، لا تقرأ القراءة «غير المفيدة» إلا الفقرات المختزلة في نقط النص، دون الاكتراث بالسياق وبالنصية أو بالتناص. إنها تتصور الشمولي بصفته امتدادا للمحلي، وتستعمل شفرات تحول كلا أو بعضا من النص، حسب منهج فك الرموز[52] أو ما يسمى التأويل التركيبي بالمفهوم الصوري للكلمة. ولا تميز هذه القراءة النص بالمقارنة مع النصوص الأخرى. وتنطلق من تصورات مسبقة لإعطاء أمثلة تهم نظرية حول اللغة أو الفن وأطروحة حول المؤلِّف أو الكتابة، بل وحتى حول القارئ أو القراءة.

وعلى العكس من ذلك، تخضع القراءة « المفيدة» لأربعة أصناف من القيود.

– **القيود النقدية**: منهجيتها صريحة. وتستجيب للمتطلبات الفيلولوجية المرتبطة ليس فقط باللغة و إنما أيضا بالتاريخ. وتتلاءم هذه المنهجية ومواثيق الأجناس النصية.

52.عمليا، لا تسمح مناهج تأويل النص التي تتمركز حول العلامة بمعالجة النصية: تشترك القراءات الرمزية المختلفة التي تخلق استعارات على المستوى الغيابي و تحبذ استعمال «المفاتيح» السيكولوجية، أو الاستعمالات الجناسية، في كونها تختزل النص في علامة، أو بعض العلامات، ولا يُعد النص إلا انتشارا لها. و هذه القراءات لا تعطى الأهمية للتنوع الداخلي والخارجي للنصوص.

- **القيود الهيرمينوطيقية**: تقوم المنهجية بالملاحظة وتبني داخل النص شيئا ما يزال غير ملحوظ، ولا يمكنها إهماله فيما بعد، حيث إن هذه المنهجية تُغني المسارات التأويلية، بل و تقترح تأويلا يظل مثاليا. وفي الأخير، توفر موضعا لما لم تلاحظه.
- **القيود التاريخية**: ترفض المنهجية أو تتضمن قراءات أخرى[53]. إنها تدخل في قلب النص الذي يكون في قطيعة مع التاريخ، ولكنها تؤسس في داخله خطا تأويليا. وتقود أيضا إلى تغيير تأويل نصوص أخرى.
- **القيود الأخلاقية**: تُلزم المنهجية المؤلِّف الذي يجب عليه تحمل الأخلاقيات. إنها لا تدّعي أنها المنهجية الوحيدة الممكنة، كما أنها لا تدّعي أنها الأحسن والأكثر اقتصادية أو الأكثر كمالية. وتُحول أخيرا الاحتياج البسيط للفهم إلى الرغبة في التأويل[54].

ويظل المشكل الأخلاقي هو المشكل الأكثر حساسية، لأنه في إمكان التأويل أن يدّعي الصلاحية بصفة شرعية، بل و في إمكانه أن يدّعي الحقيقة، كما يمكنه أن يتموضع على أساس أنه الأفضل، في وقت ما، ويطالب بالاعتراف به على هذا النحو. وعلى الخصوص، يمكن إذن لتأويل النصوص التاريخية أن يرفض إدعاءات المراجعة التعديلية (révisionnisme)، لأن الصيغة النقدية للمنهجية التاريخية تسمح تحديدا بتجنب فَقْد الثقة التي يهدد بها المزورون.

دون ختم هذه الأفكار الاستكشافية، في استطاعتنا الآن التمييز بين ثلاثة أشكال من اللامقروئية. الأولى، ولن نعود إليها، قد خلقها الحكم المسبق التسامحي للوضوح. أما الثانية، فإنها نابعة من الحد المتعالي، الذي يجب إعادة رسمه بالعودة إلى القراءة الشليغيلية المتبعة من قبل كانط. و تشتق قضية حدود التأويل تاريخيا خارج السلطة العقائدية للكنيسة من منهج النقد الفلسفي عند كانط. «في كتابه **نقد العقل الخالص** ، لم يفترض كانط فقط استحالة الفهم، بل حكم على هذه الاستحالة بصفة منهجية[55]». إذا لم يرسخها، فلأنه، من جهة، لم يضع مشكل اللغة في هيئة تيمة، ولأنه ببساطة كان يفترض وضوحها ويعتبرها كلاسيكيا أداة للمعرفة. أما بالنسبة

53. « تتجلى القراءة بطريقة فنية في أننا نقرأ مع الآخرين، بل ونبحث على تفعيل قراءة الآخرين» (أنظر. F. Schlegel, *Fragments sur la poésie et la littérature*, II, p.699).

54. الاحتياج يمكن إشباعه، الرغبة لا يمكن إلا أن تأجج، و تنبع الرغبة في التأويل من الرغبة في المشاركة وذلك بالتعليق على النص إثر تأسيسه و إرساله.

55. F.Schelegel, *Kritische Aufgabe*,XVIII,p.63 ;trad.*In* Thouard,1996,p.61

لشليغل، فإن اللافهم راجع دون شك إلى الطبيعة الشعرية للغة. وقد افترضها قبله فيكو Vico و هيردير Herder وهامان Hamann. و في موازاة ذلك، جعل شليغل من الشك حول إمكانية الفهم شرطا للهيرمينوطيقا. وللتذكير، فقد طور هومبولت هذه التيمة في نظريته حول الفهم.

إن الشكل الثالث للامقروء، وهو ذو طبيعة فيلولوجية، قد يعيد في إطار علوم اللغة التيمة النقدية التي نقلها كانط من فيلولوجيا فكر الأنوار إلى الفلسفة المتعالية. في الواقع، تميز الهيرمينوطيقا الفيلولوجية وتفضل الصيغة التموضعية للتأويل الذي تتأسف عليه الفلسفة حين تكلمت عن تناهي (finitude) تاريخية المؤوِّل و ذاتيته ، وهو التناهي الذي يطرح هذا الأخير مشكلته دون إختزاله.

بما أن المؤلِّف ليس في وسعه أن يكون مفهوما بالكامل، فإنه قد يصبح كلاسيكيا وتستمر قراءته في أماكن وحقب و حضارات مختلفة. غير أنه في التصور الفيلولوجي، يستمر جزء من اللامقروئية بالضرورة في التصور الفيلولوجي، وهذه المحدودية غير المنتهية تجنبنا التوقف عن القراءة يوما ما بادعاء الفهم المطلق.

ينبع المعنى الحالي لنص ما من حل الرموز المتجدد ومن التصادم الذي يقابل تأويلاته المرسلة مع التأويلات التي نقترحها في وقتنا الحاضر. إن الفقرات التي تبدو لنا واضحة كانت غامضة قديما أو بالأحرى واجهت صعوبات تم تجاوزها. ولكن هناك الفقرات التي لا نقول بخصوصها شيئا، لأنها كانت تبدو بديهية للجميع، وأصبحت غير مقروءة مع مرور الزمن.

وإذا كان التأويل مقدرا مثل الفرض، لأنه يتمسك بمقروئية النص، فهل هذا يعني أن كل قراءة تُنَمي النص؟ نعم، في الإطار الذي تنمي من تلقاء نفسها متن النصوص التي تستمد منها معناها.

للسير إلى الأمام، يتعين التفكير في أن الوضوح يفسح المجال للوعي و الغموض يؤدي إلى العتمة، حيث إن هذا التفكير يجعل من التأويل ضوءا مشرقا و لكنه مهدد، هذا الضوء الذي يُظهر في الفضاء نفسه صفحة الكتاب ووجه القارئ.

الابتعاد عن الكائن

لقد رأينا كيف كان دور المبادئ التواصلية عند غرايس -وهي المبادئ المستوحاة

من الكانطية المختزلة -يتمثل في تنظيم كل فعل تواصلي[56]. وتنفي الدلالة التأويلية من جهتها كل ادعاء يصبو إلى التحديد المتعالي لحالة التواصل و لحالة التأويل. وسواء كانت مبنية على أساس ميتافيزيقي أو فيزيائي، وسواء وضعت الكائن في هذا العالم أو في عالم آخر، فإن للتحديدات المتعالية وظيفة اختزالية.[57]

إن اللغات والنصوص لا تعد تكوينات ثقافية، سواء كانت ملَكَة للجنس البشري أو عطاء إلهياً. كما أن النصوص نابعة من الممارسات الاختلافية، وهي متنوعة تنوعا لا متناهيا. ثم إن كل تأويل و كل وضع تأويلي ينتمي كليا إلى التاريخ. فمثلا لا يمكننا فهم التأويلات التوراتية دون ربطها بالأهداف المؤسسة و النابعة منها، لأن التقنيات التأويلية تفقد معناها اللفظي حينما تُفصل عن أهدافها.[58] وتختزل هذه التأويلات في وصفات، في حين أن كل نوع نصي يستدعي صنفا من التأويل؛ إذا لم توجد تأويلات كاملة، فمن المحتمل أن يُنظر إلى بعضها بأنها مقبولة.[59]

إذا أردنا الدخول في نقاش ذي طابع أنطولوجي ،يجب التسليم بأن اللغة تنتمي كلية إلى الكائن، اللهم إلا إذا جعلنا من النصوص المقدسة نموذجا لكل النصوص .إن تموضع النص و الممارسة التي ينتمي إليها ظواهر تاريخية .وفي الميدان الديني ،تزعم بعض الأشكال التيولوجية تقعيد الشرح ،ولكن يجب أن لا نقف طويلا عند هذه المسألة. لقد كان هناك صراع بين الإرهاب الهايدغاري و الإرهاب الوضعي بخصوص اللغة ،وباسم تصورين متقابلين للكائن وللمعرفة .و لكن مشكل تأويل النصوص لم ينل حقه من الإضاءة ،لأن الذاتية النسبية لما هو سيميائي ظلت مرفوضة.

يتقابل شكلان من الواقعية التجريبية و المتعالية منذ آلاف السنين ،ولكنهما يشتركان في الرأي المسبق القائل بأن المعنى تمثيل ،وأن اللغة أداة التمثيل(أنظر

56. رغم أن الكونية تعد الشكل الأسمى للمركزية الاثنولوجية، فإن خاصية المبادئ التواصلية أقل مبالغة من زعمها المعياري.

57.بافتراضه أن حالة التأويل يمكن أن توصف بطريقة متعالية، التقى غاداميرGadamer مع دافيد لويس David Lewis (1972) حول الفكرة التالية : يمكن للحكم المسبق أن يجمع بين الهيرمينوطيقا الفلسفية والوضعية المنطقية.

58. مثلا، تتمثل الخاصية الاختزالية لأعمال كومبانيو Compagnon (*La seconde main*, Paris, Le Seuil, 1978) و تودوروف في المقاربة الوضعية للتأويل و الملخصة في تقنياتها.

59.ليس لمفهوم التأويل الكامل المقترح من قبل شليرماخير من ملاءمة إلا في التيولوجيا ومن أجل التفسير المثالي. بعضهم كان يريد حصر الهيرمينوطيقا في المعبد (أنظر ديكامب 1983)؛ و لكن هنا يكمن الخلط بين التفسير و التيولوجيا. إن تأويل النصوص المقدسة لا يعد حقلا معرفيا مقدسا، و بعبارة أخرى، ينتمي التفسير إلى دلالة النصوص.

راستيي1992b). و في كل الأحوال، إن اللغة غير مالكة للمعنى الذي يصبح إزاءها ذاتا خارجية، ذلك أنها لا تلتقي به إلا في العلاقة مع «شيء آخر»، مادي أو مثالي، وليس له اتجاهها إلا وظيفة تبسيطية [60].

و في المقابل، لا يعد المعنى تمثيلا كما أن اللغة لا تعتبر أداة .إن المعنى جزء من العالم الذي نعيش فيه ،بل هو العالم نفسه .و على العموم ،كل أنطولوجيا تعتبر ميتافيزيقا و المادية ليست استثناء حينما تحكم بصورة معيارية على ماهية الأشياء. سواء كان الكائن مجرد اعتقاد أم لا فإن الأمر لا يتعلق بمجال المعنى، ولهذا السبب لا يمكن للغة أن تقول شيئاً في شأنه.

إن المشكل الأنطولوجي الوحيد الذي تصادفه الهيرمينوطيقا المادية على الأقل هو مشكل أنطولوجيا ما هو سيميائي .وهذا المشكل ليس باليسير ويمكن رسم اتجاهين لمعالجته : أ -إما أن تجعل الأنطولوجيا الاختلافية من السيميائي«طبقة للكائن» ، تكون متميزة، و يجب توضيح علاقتها مع الطبقات الأخرى؛ ب ـ و إما أن تقود القطيعة مع الأنطولوجيا إلى فرضية مفادها أن المعنى يؤسس المعتقدات ويظهرها، ولا يمكن بالتالي تصوره إلا في خضم الممارسات الاجتماعية المولدة و المؤوِّلة للعلامات. ونفضل السير في الاتجاه الثاني الذي ينبثق من التقليد البلاغي.

بما أن الفهم المتعالي يظل مستحيلا، فإنه في الإمكان التوحيد بين الهيرمينوطيقا وبين الفيلولوجيا التي يتوسع مجالها ليعالج الشروط المحيطة بالنص ،وذلك في فترتين تاريخيتين وهما فترة إنتاجه و تأويله :بينما تعتني الهيرمينوطيقا بتأثيرهما على النص وبآثار النص على هاتين اللحظتين التاريخيتين. وتسعى الدلالة التأويلية إلى إنجاح هذا التوحيد شريطة أن تتوفق في تاريخيتها.

وعلى الرغم من محاولات مقابلة الفيلولوجيا والهيرمينوطيقا على أنهما حقلان معرفيان، يهتم«الأول» باللغة «و الثاني» بالفكر، «فإنهما متكاملان، إذ إن الفيلولوجيا تهدف التقعيد والاقناع وحتى المنع والتقنين -ولكن بطريقة نقدية و ليس بنهج السبل الدوغمائية .إن الفيلولوجيا تحدد فضاء التأويل وتفرض عدة قيود على مسار المؤوِّل،

60. يوضح الموقف المثالي عند إيكو حدود التقليد السيميائي. بعد ما أشار في الماضي إلى«قاعدة البناء السيميائي» التي «لا يمكن أن تقصى من خطاب السيميائيات دون أن تطفو نقائص محرجة في النظرية بأكملها» (أنظر، 1975، ص 35-33)، سمى في النهاية «هذا الشيء الذي يقودنا إلى إنتاج العلامات» و الذي «نقرر أن نسميه الكائن[Essere] » و الذي يعتبر «الأفق الذي يتحرك فيه فكرنا بصورة طبيعية» (1977، ص 8-4، وصفحات أخرى)، القاعدة الصلبة للكائن الذي يضمن حدود التأويل (ص 35).

دون تضييقه، كما تستجيب لمبدأ الواقعية ،بينما تظل الهيرمينوطيقا عموما منجذبة إلى مبدأ الرغبة، بل وإلى اللذة. غير أنهما يلتقيان عندما تقود فضيلة التأويل إلى تحسين لغة النص.

الفصل الخامس

البَلاَغَةُ والتأوِيل: المجَازَات مثَالاً

«و يمكننا مقارنة سماء كوكب الزهرة بالبلاغة لسببين: أولا لوضوح مظهره الذي يجذب النظر أكثر من أي نجم آخر، وثانيا لظهوره مرة في الصباح ومرة في المساء».

دانتي، *Convivio*، I، XIII، 13.

تعتبر الإشكالية البلاغية الهيرمينوطيقية، المنحدرة من السفسطائية، ومن الهيرمينوطيقات التشريعية والأدبية والدينية، اللغةَ فضاءً للحياة الاجتماعية وللأعمال الإنسانية، ذلك أنها فضاء لقضايا الدولة، فيما يخص القانون والسياسة، ولكنها أيضا فضاء للتاريخ الثقافي وللتقاليد والابتكار المحدد بالإبداع وبتأويل النصوص الكبرى. وإذا نظرنا إلى أبعد من آثار الموضة، فإن «عودة» الدرس البلاغي وتطور النظريات اللسانية المهتمة بالتأويل تشهد بالتطور العام الذي يصب في صالح التصور البلاغي/ الهيرومينوطيقي الذي أعيد تأسيسه.

لا تعد عودة البلاغة بمثابة بعث لها بصفتها حقلا معرفيا. إذ كانت الإمبراطورية البلاغية مجزءة، وكانت شروط وضع الكلام العمومي قد تعرضت للتشويش في اتجاه واحد.[61] من جهة أخرى، تراكم نسيانها، وأعلن عن نهايتها لكي يتم اقتسام الغنيمة. وهـذه بعض الأمثلة: اكتشف لايكوف ودجونسون ببراعة فائقة قبل عشرين عاما

61. مثلا في الولايات المتحدة الأمريكية، معدل مدة المحادثات السياسية في 1999 هو خمس عشرة ثانية. بالفعل، لا تنفلت الوصلات من القيد البلاغي، إذ تعمد إلى تكثيف الفضائل أو المساوئ ؛ ولكن خليات الصور كانت تعمل جاهدة عل أن تكون الحركة هي المنتصرة أمام الاكتشاف و أمام الترتيب، بحيث إن طريقة الإلقاء عند الخطباء -المتواصلين مع الجمهور أهم من المحتوى الذي يمكن استبداله.

الاستعارات الاضطرارية، بينما أعاد ديكرو، اكتشاف التيمات المتكررة، ومؤخرا اكتشف منظرو *blending*، فوكونييي و تورنر، بعض أشكال العدوى. لقد قدم آدم بحثا جديدا متمثلا في نظرية المتواليات التي أعادت نظرية الصور غير المجازية، مثل الوصف. وفي الأخير، بالتنظير للتفاعل، نعيد حاليا اكتشاف مشاكل تهم التطابق[62]. غير أنه، في كل مرة، ترتكز هذه الاكتشافات القيمة إلى نظريات جزئية لا تسمح بالتطور المعرفي بهدف إعادة التجميع الضروري لعلوم اللغة. نتمنى أن تصبح هذه العلوم أكثر وعيا لتاريخها، وأكثر نقدا لحدودها، وأن تشارك أكثر في التفكير حول الوضع الهيرمينوطيقي للموضوعات اللغوية.

اختفاء البلاغة واللسانيات الضيقة

في الماضي، تحالف النحو في إطار الثلاثي تارة مع المنطق وتارة أخرى مع البلاغة[63]. أما اللسانيات، التي تعتبر وريثة الثلاثي، فقد كانت مترددة بين توجهها نحو المعرفة أو نحو التواصل.

إن التحالف مع الحقول المعرفية يقرب اللسانيات من السيكولوجيا المدعمة بالمنطق (لأنه لا يمكن معالجة المعرفة دون طرح مشكل الحقيقة)؛ وفي نموذج التواصل، أعادت اللسانيات الروابط مع البلاغة، وطرحت من جديد مشاكل الاحتمال والخيال. ومن تم استحضرت البلاغة المواضيع اللغوية من خلال موضوعها وهو الخطاب (بمعنى التوسع النصي) وكذلك من خلال هدفها، أي الإقناع الموسع في التواصل.

في فرنسا، يعتبر الاهتمام المتزايد بالبلاغة أمارة مشجعة لتطورات تصب في اتجاه دلالة النص[64]. في الواقع، بدأت الذهنية التقليدية في اللسانيات الفرنسية في فك

---

62. كان للأنطولوجيا صدى في البلاغة: ألا تعتبر أحوال الأشياء المرتبطة بالوضعية اللغوية(*Sachverhalten* عند فيتغانشتاين) تحولا لأحوال السبب التي تم حصرها في البلاغة منذ هيرماغوراسHermagoras، والذي قدم هيرموشين في كتابه *peri staseon* توليفا له؟. إن الأمر غير مثير؛ إذ نعلم منذ فالا أن الملكية الفكرية، وهي قضية الخطباء القدامى، أصبحت المسألة المقترنة بالمناطقة وهم الذين ثبتوا الأطر النظرية لفلسفة اللغة في القرون الوسطى.

63.في التقليد العربي، تنقسم البلاغة إلى بديع وإلى بيان وإلى معان (أنظر البلاغيين العرب القدماء من أمثال عبد القاهر الجرجاني).

64.كان المصير الذي آلت إليه البلاغة في فرنسا مختلفا. فمن المعلوم أن ممثلين مرموقين لفلسفة الأنوار قد اتجهوا بطيبة خاطر إلى وضع المعادلة الكبرى البلاغة =اللاتنية= اليسوعيون. وكان اهتمام المنظرين للإيديولوجيات والنحاة-الفلاسفة الذين لهم الفضل في تدشين المؤسسات الجامعية الأولى للجمهورية والإمبراطورية يصب في تقليص البلاغة وجعلها كملحق للنحو؛ وأتى بعد ذلك فكتور كوزاه Victor Cousin لحذفها من =المقررات.«الحرب على البلاغة و السلم اتجاه التركيب» (*Contemplations*, I, VII). قولة هوجو هاته تلخص جيدا الرأي السائد في زمانه.

قبضتها بعض الشيء.[65] لم يحدد التيار الرئيسي في التقليد البلاغي قط مجالاته بالنسبة للعمليات المجردة في الفكر الإنساني. وفي هذا السياق، يتقيد هذا التقليد بالمؤثرات وليس بالأسباب الكامنة افتراضيا وراء الأشكال الخطابية. وفي الأخير، يقترن تجديد البلاغة بالأهمية المتزايدة التي يوليها اللسانيون للنص.

من إيجابيات التداوليات أنها وجهت اهتمامها إلى أبعد من الجملة. وفي هذا الإطار، فهي تعد وريثة البلاغة[66] . في الغالب، تقوم التداوليات مقام دلالة النص (مثلا مجموعة من الكتاب يستعملون مفاهيم من قبيل التداوليات-الدلالة (أو التداوليات النصية). إبان السبعينات، تطورت التداوليات حينما قامت في مواجهة اللسانيات

65. ظلت هذه الفكرة قوية، لأنها تستند إلى التقليد النحوي الفرنسي الذي يعود في مجمله إلى بوزي و إلى النحاة-الفلاسفة. وكانت القواعد اللغوية تعتبر بمثابة الوسائل التي يعبر بها على الفكر و تربط بعمليات متعلقة بالذهن. لقد قامت مختلف المدارس اللسانية ذات التقليد الفرنسي بتجديد هذه الإشكالية دون المساس بمبدئها. في القرن العشرين، تأرجحت الاتجاهات الفكرية التي مثلها فكتور هنري و فردنان برينو و غوسطاف غيوم ما بين المنطق و السيكولوجيا، بما أنها بطبيعة الحال تحتاج لنظرية تهتم بالعمليات الذهنية. في وقتنا الحاضر، تتابع هذه الاتجاهات المسار نفسه في إطار الذهنية «المعرفية»، و هو اتجاه جذاب، خصوصا إذا علمنا أن اللسانيات وقبلها النحو كانا دائما معرفيين.

66. بعد انهيار الثلاثي (النحو-المنطق-البلاغة)، فإن التداوليات هي التي عوضته. لقد أعدنا توضيح كيف أن التجزيء الثلاثي عند موريس Moriss (التركيب-الدلالة-التداوليات) قد أعاد صياغة الثلاثي السالف الذكر على طريقته (أنظر المؤلف، 1990). و يُذكر هذا الاستبدال الكاشف بأن المشاكل التي تناقش حاليا في التداوليات كانت مطروحة في البلاغة. لنأخذ مثال أفعال اللغة (actes du langage). صنف بروطاغوراس في ما قبل الجمل إلى استفهام و جواب و أوامر و متمنيات. أما الرواقيون الذين يعتقدون أن البلاغة لم تكن إلا جزءا من المنطق، فقد كانوا يميزون، بين اللغات(lecta) الكاملة، وبين الأوامر و الممنوعات والشكوك...الخ.((أنظر سكطوس إمبريكوس، *Aduersus Mathematicos* 8، 71-73 ديوجين ليرس، *Vies des philosophes*, V,65-68). لا يعد الأمر هنا تقسيما مرتبطا بالتركيب، لأن الملفوظ نفسه يمكن أن يحقق العديد من هذه الأفعال، إذا سلمنا بنظرية بلوطارك Plu-tarque القائل: «إنهم يزعمون أن الذين يصوغون كلاماً يفيد المنع فإنهم يقولون شيئا، مانعين في نفس الوقت شيئا آخر، ويأمرون بشيء ثالث» (*Sur les contradictions des Stoïciens* 1037d). باختصار، مثل ما اكتشف كولومبوس أمريكا أو فيلمور Fillmore الحالات الإعرابية، فإن أوستين Austin هو آخر من اكتشف «أفعال اللغة » . مع أنه لم يتوصل إلى دراسة كل تعقيداتها: ذلك أن وصفه لأفعال الإنجاز ظل على المستوى التقني دون مستوى الرسائل المقدسة التي قدمتها المدرسة السكولائية. بطبيعة الحال، ليست التداوليات بديلا بسيطا للبلاغة القديمة. إذ تعيد التداوليات إشكاليتها وتُسقطها في مجالين رئيسيين هما أ) نظرية أفعال الكلام التي تعالج الظواهر التي كانت مصنفة ضمن الصور غير المجازية، ب) نظرية الحجاج التي تعالج الفصاحة، المنسلخة عن أجناسها (ولهذا نلاحظ بعض الادعاءات الكونية ، بل والمؤسساتية؛ أنظر مثلاً أسكومبر Ascombre الذي قال: «على الحجاج أن يظهر في المستوى الأعمق للوصف الدلالي»، 1985، ص 343).

الضيقة، ولكن لم يكن بوسعها تقديم معارضة معقولة للثلاثية الموريسية التي كانت تحدد موقعها إلى جانب التركيب الصوري ودلالة شروط الحقيقة. وعليه، فقد احترمت ببساطة إذن التقسيم المطروح والمتداول: تحدد دلالة شروط الحقيقة المعنى الحرفي، وتعالج التداوليات المعنى المشتق وبالخصوص المجازات (انظر مثلا كومبسون Kempson، 1977، الفصل الخامس). غير أن مفهوم المعنى الحرفي مازال أكثر غموضا من المعنى المشتق، والارتكاز على هذا المفهوم سيقود مرة أخرى إلى تحديد المجازات على أنها انزياح بالنسبة للحقيقة المزيفة التي قد يعكسها المعنى الحرفي بصورة مثالية[67]. من جهة أخرى، احتفظت التداوليات، كفرع للسيميائيات الموَسَّعة أي كفلسفة اللغة، ببرنامج جامعي، ولم تهتم بخصوصية اللغات ولا بخصوصية الأشكال النصية. وفي الأخير، كانت فلسفة اللغة التي ألهمت التداوليات تتصور دائما الأشكال البلاغية كعقبات في وجه الشفافية المثالية الموجودة في اللغة.

إذا كانت البلاغة تقنية سيميائية منظَّرة أو«فنا»، فإن اعتبارها كمبحث وصفي إجراء قد يمنحها رؤية جد مدرسية. و يبدو، من جهة أخرى، أنه من المستحيل بعثها كحقل معرفي تطبيقي، لأن الخطاب العمومي قد تخلى عن مكانه لصالح القنوات الإذاعية. كما أنها لا يمكن أن تدعي العِلم، إذ لن نعطيها حقها عندما نهمل التنافر الذي يميز هذا الإرث دون التماثل القادم من عصور مختلفة والمطروح من قبل نظريات وممارسات مختفية. غير أنه من الضروري دراستها، ليس من أجل ذاتها، ولكن للاحتفاظ بنواتها العقلانية، ولمعالجة الظواهر التي كانت تدخل في نطاقها.

خلال آلاف السنين من تاريخها، كانت في بعض الفترات مداهِنة، وتعرضت في غالب الأحيان للإهانة. إذ كان الخطيب يتخذ صورة الحكيم الذي يسمو بالفضيلة (حسب إيزوقراط وشيشرون مثلا)، كما كان يتخذ وضع السفسطائي الذي يُعتبر عدو الحقيقة (بالنسبة لأفلاطون). انتصرت الاتهامات، و شهدت هذه النزعة الأخلاقية بالوضع الملتبس الذي يمنحه التقليد الثنوي الغربي للتكنولوجيات السيميائية. وينبغي على هذه التكنولوجيات، باعتبارها تقنية، أن تكون نافعة. أما بالنسبة لما

67. ما عدا الاستعانة مجددا بالفلسفة المتعالية (أنظر ك.أُ. أبيل Appel)، تظل التداوليات رهينة إشكالية الوضعية المنطقية، التي تتحكم في تعريفها عند كل من موريس و كارناب، كما أنها منساقة إلى تقليص الأشكال البلاغية، وذلك بوضعها تحت الحكم الأخير للأحكام الخاصة بالحقيقة. أما فيما يخص المعنى المشتق، فإنه غير موصوف في نطاق الدلالة الموحدة، ولكنه مرتبط بنظريات تأملية تهتم بالقصد، و من هنا مثلا ضعف «البلاغة المعرفية» التي اقترحها سبيربر Sperber سنة 1975.

هو سيميائي، وبما أن الثنوية (dualisme) لا تستطيع تصور الازدواجية بين المحسوس والمُدرَك، فإنه يجب عليها أن تكون في خدمة الحقيقة، حقيقة الأفكار وحقيقة الوقائع، وذلك لكي تستحق الكرامة الأنطولوجية.

لقد تم تعريف البلاغة بأنها فن الخطابة، وتقنية الفصاحة، وهي الفصاحة الثلاثية المتمثلة في فصاحة المنبر، وفصاحة المحكمة، وفصاحة المحاماة – و علينا أن ننسى هنا الفصاحة الأكاديمية[68]. لقد فكت النزعة المناهضة للبلاغة عند الحداثيين، بدءا بفلاسفة فكر الأنوار ووصولا إلى اللسانيين المعاصرين، ارتباطها بالفصاحة، وداخل الحركة نفسها، تم إخضاعها للنحو وللتعليم المدرسي. من بين الأقسام الخمسة للبلاغة، لم يُحتفَظ إلا بفن التعبير [أو البيان]. وفي إطار فن التعبير، احتفظوا بالصور؛ وفي إطار الصور، لم يدرسوا إلا الجزء الصغير وهو المجازات. إن هذا العمل التقليصي المتسلسل يطابق ثلاثة أصناف من الاختزال: اختزال الممارسات الاجتماعية (وفيها نجد الفصاحة) في الخطاب؛ اختزال الخطاب في بعض من أشكاله؛ والمرور من أشكال الخطاب إلى الكلمة، لأن المجازات تحدد إذن كمُتغَيِّرات لمعنى الكلمة. وأخيرا، استنادا إلى اختزال رابع، فقدت البلاغة التي فُصلت عن الفصاحة بعدَها الشفوي، وأصبحت مُلحقَة بالنحو الذي، كما يعبر عنه اسمه، كان دائما مجالا مرتبطا بالمكتوب.

لعب كتاب ديمارسي*(Le traité des tropes ou des differents sens)* وهو أول مؤلَّف فرنسي خُصص للمجازات، دورا كبيرا في هذه السيرورة الاختزالية. لقد أخضع الكاتب البلاغة إلى النحو، وربما كان هذا هو سبب نجاحه إبان الثورة. ونافس بعد ذلك ملخصه كتاب فونتانيي صور الخطاب في المدارس ،إلى أن اختفت البلاغة من المقررات. لم تكن هذه المؤلفات مطروحة في مواجهة البلاغة المختزَلة، مثل ما أكد جيرار جينيت ،بل إنها ساهمت في عملية التقليص أو الاختزال[69]. بالفعل، ازدادت وتيرة الاختزال إلى حد الكاريكاتير بعد هؤلاء الكتاب، واختُزلت البلاغة في ثنائي غريب وهو الاستعارة/الكناية، المحتفى به من قبل جاكبسون (1963).[70] وجرى تطبيعُه

68 . للتذكير، فكلمة بلاغة في التقليد الغربي لا تنحصر في صور الأسلوب (استعارة، كناية) بل تشمل مجال الاقناع(وهو المجال الذي وُجدت من أجله منذ أرسطو) ومجال الإبداع الذي يهتم بالتخييل (المترجم).

69. يجب التذكير بأن ديمارسي كان في فرنسا المؤلف الأول الذي عالج الصور بمعزل عن المواضيع الأدبية. قرن من الزمن (1830-1730) يفصله عن فونتانيي. وبالعودة إلى الوراء، بدأ الباحث الأول الذي يعد سلطة في مجاله حركة أكملها الباحث الثاني في إطار تصنع مكلف.

70.تقلصت قوائم هذه الصور باستمرار، فمن 350 مجازاً عند هنري بيشام *The Garden of Eloquence*, 1577 Henri Pzacham إلى عشرة عند لوزبيرغ Lausberg وصولا إلى أربعة في فرنسا .

على أنه من بين «الكليات المعرفية»، وهي تخطيطات الخيال الخالص التي تنظم التجربة والهوية الشخصية (أنظر دجونسون، 1992، ص: 350-357). لقد أعادت جماعة مو (Groupe Mu) للبلاغة حقها في الكتاب المعنون **البلاغة العامة**، ولكنها اقتصرت على المجازات. و كان من اللازم الانتظار بعض الوقت قبل أن تتمكن الأبحاث في عصرنا الحالي من قياس مدى جهلنا. أضف إلى ذلك أنه في فرنسا، كان تاريخ الأفكار اللسانية يركز على الصرف-التركيب وعلى فلسفة اللغة، وهذا ما جعله لا يعطي الأهمية القصوى للبلاغة.[71]

إن الاختزال الأخير للبلاغة واقتصارها على دراسة الصور ثم المجازات، وإبعادها عما هو مجتمعي جعلها قابلة للدراسة من قبل لسانيات اللسان (وليس لسانيات الاستعمال). وبحرمان البلاغة من البعد الخطابي والنصي، استطاعت لسانيات اللسان معالجة هذه المواضيع في الإطار الحميمي الذي تمثله الجملة. و هكذا، عندما صار متسما بقواعد النحو، أصبح مشكل المجازات ببساطة مسألة تخص الدلالة المعجمية التي سنعالجها كما هي، بهدف استرجاع بعدها النصي. إن هذا المصير الذي انتهت إليه البلاغة ليستدعي تفكيرا حول إقحامها في النحو، والتفكير فيما هو مقبول عندها ومعروف لديها، وهي المجازات. منذ كتاب دسبوتير Despautère (1527) وعنوانه *la syntaxis*، أدمجت المجازات في النحو. وفي مقابل هذا الإدماج، تم تبليغ [من البلاغة] النحو واللسانيات.

غير أنه لابد من وضع المقدمات المنهجية. والملاحظ أن المجازات تُستعمل عادة في القاموسية لتنظيم المعاني التي تم تجميعها. ونستعمل عموما تعابير من قبل «استعارة»، و«كناية»، و«مجاز مرسل». ويعود هذا الاستعمال، حسب علمي، إلى عصر فكر الأنوار، وقد نشر روبير مارتان نفسه تقديما نظريا حول هذه المسألة (1983). غير أن إعادة المفاهيم البلاغية، مثل إعادة المفاهيم المنطقية، تُعوِّض النقص النظري في اللسانيات، ولكن لا تستطيع إلغاءها. على العكس من ذلك، كانت اللسانيات الحقل المعرفي الكفيل بوصف عمل المجازات، التي لم تحدد مع ذلك بطريقة نسقية[72]،

71.يظل الاتجاه المنافي للبلاغة عند جاكوب حاضرا. وفي الفضاء الفرانكوفوني، أتى التجديد في مجال البلاغة من بلجيكا، خصوصا مع بيرلمان Perelman و مدرسة بروكسيل حول الحجاج، وكذلك مدرسة لييج التي اهتمت كثيرا بالمجازات. أما الباحثون السويسريون، فقد ساهموا هم أيضا من خلال أعمال موريي Morier حول الصور و غرايس Grice حول الحجاج.

72. يجب أن نميز هنا بين استعمالين يردان في اللسانيات بخصوص المفاهيم البلاغية مثل مفهوم المنجز

من أجل تسميتها وتقبُّلها.

المجازات والدلالة اللفظية

منذ كانتليان، قُدمت الصور على أنها طرق الكلام التي تبتعد عن الطريقة «العادية والطبيعية». وهكذا، يطرح التفكير حول المجازات مسألة الدلالة اللفظية الطبيعية والعادية، التي سيستمر الحداثيون في مناقشتها إلى يومنا هذا.

من الكلمة الأصلية إلى المعنى الأصلي أو الحرفي، وإلى الأفكار الرئيسية

يسلك تقسيم الدلالة اللفظية المعجمية، وهي ضرورية لتمييز المجازي عن غير المجازي، ثلاثة طرق: مقابلة الكلمات (من الكلمة الأصلية إلى الكلمة المجازية)؛ مقابلة استعمالات الكلمة ذاتها (من المعنى الأصلي أو المعنى الحرفي إلى المعنى المجازي)؛ وأخيرا، أجزاء دلالة الكلمة (من الأفكار الرئيسية إلى الأفكار الثانوية، مثل الإحالة والإيحاء).

الكلمة الأصلية: «عندما ندل على شيء، فإننا نستعمل كلمة غير مخصصة لذلك المعنى، إنما ألصقها الاستعمال بفاعل آخر، وهذه الطريقة في الشرح تعتبر مجازية؛ وهذه الكلمات التي ننقل بواسطتها الشيءَ الذي تعنيه في الأصل إلى شيء آخر يدل دلالة غير مباشرة، وهي ما يسمى المجازات» (لامي Lamy، 1699، ص: 90). هذه هي المجازات المعرفة بأنها انزياح بالنسبة للكلمة الأصلية التي عرفها ديمارسي كما يلي: «هي الكلمة الأكثر شيوعا والأكثر عمومية» (1757 [1980]، ص: 79)؛ وأعطى المؤلف مثال كلمة gemma التي تعني في اللاتينية «البُرعُم»، وتعني من حيث الاستعارة «الحجر الكريم».

منذ كراتيل، حلم الفلاسفة والنحاة بـالإفصاح (orthonymie) وهي التخصيص الاسمي الصحيح والمباشر. وكان الرواقيون يعتقدون أن الاسم ينشأ مباشرة من الفكر ليشير إلى شيء معين، ويشبهون هذا النزول بسقوط خنجر يُغرَز في الأرض بشكل مستقيم (orthon) (أنظر لالو، 1989، ص: 141). مؤخرا، عرف بوتيي الكلمة الفصيحة

(opérateur). في الدلالة التاريخية، تُستعمل المفاهيم للمرور من حالة لغوية إلى أخرى؛ وفي المعجمية النظرية ذات التوجه السانكروني، تستعمل للربط بين مختلف المعاني المقترنة بنفس الكلمة. إذا كان جاكبسون قد استعمل مفاهيم بلاغية، فذلك لأنه، على ما يبدو، لم يجد نظرية دلالية مقنعة، ولكن لم يفطن إلى أن البلاغة لم يكن بإمكانها لعب هذا الدور. و يرجع الفضل لجماعة مو (1970) و لوغيرن (Le Guern 1971) في إعادة تعريف المجازات استنادا إلى الدلالة، بدلا من استعمالها بلطف في الدلالة.

كما يلي: «الكلمة الصحيحة» (1992، ص: 42)، و«التسمية المفضَّلة واللحظية» (1992، ص: 123).[73]

المعنى الأصلي: يقول سانكتيوس: «المجاز هو زخرفة الخطاب، في الكلمات المنعزلة، وبواسطتها تتحول الدلالة الأصلية للكلمة إلى دلالة أخرى» ([1582] 1984 ص: 102)؛ وأضاف الأب كولونيا le père Colonia (1717، ص: 102) ما يلي: «يُحَول المجاز الدلالة الأصلية لكلمة أو لتعبير ما». وأوضح ديمارسي أن «المجازات هي الصور التي تمنح بواسطتها لكلمة ما دلالة لا تعد بالضبط الدلالة الأصلية لهذه الكلمة» (1988، ص: 69).[74] باختصار، يستند تعريف المجاز هنا إلى مفهوم الدلالة الأصلية أو الأولية: «المعنى الأصلي للكلمة هو المعنى الأول، نأخذ بالمعنى الأول للكلمة، حينما تدل على الشيء الذي من أجله وضعت أولا» (ديمارسي، 1988، ص: 73). كلمة أولا لا تؤخذ (أو لا تؤخذ فقط) بالمعنى الأثالي، ولكن بالمعنى السببي: أي المعنى المادي في النظرية التجريبية التي تهم أصل الأفكار وهي النظرية التي تبناها النحاة الفلاسفة المرتبطون بفلسفة فكر الأنوار.[75] وبما أن التاريخ قد ارتد عن الأصل، فإن المعاني المجازية ستنزاح عن الطبيعة، وهذا هو أحد أسباب النزعة المضادة للبلاغة عند فلاسفة فكر الأنوار[76]. ونجد هنا تناقضا حركيا بين تطور المعارف وانزياح الطبيعة: حاولت الثورة الفرنسية معالجته بإقرار الفضيلة الأصلية تحت السمات التي تقدس العقل.

---

73. قدم بوتيي المثال التالي: « في البيت، أضع في رجلي المشاية (أو الخف). (ن.م.)» وعرف الكلمة الفصيحة بأنها أخذ مسافة (أي انزياح)، بالنظر إلى الإفصاح و الاستعارة والكناية و مختلف أنواع الكناية النصانية (1992، ص123- 125).

74. يطرح هذا التعريف الشهير مشكلتين. المشكل الأول متعلق ببعد الوحدة المتأثرة، التي يمكن أن تكون سفلى («حوادث «الكلمة) أو أعلى من الكلمة (التعبير بالمعنى الحديث للمكون، بل وللجملة وللنص بمجمله، في حالة المجازات مثل التمثيل (allégorie). في الواقع، تناولت الأفكار و النقاشات الكلمة، وهي إشارة إلى أننا ما زلنا في التصور «الفلسفي» للغة وهو التصور الذي يعتبرها لائحة من الكلمات، وإشارة كذلك إلى الكلمات كوسيلة للتعبير عن الأفكار والإشارة إلى الأشياء. الصعوبة الثانية، التي أكدها أيضا ف. دواي (1988، ص244) صادرة عن كون الكلمة في المختصر لا تملك حقيقة إلا الدلالة اللفظية. ومن هنا أتت الصيغة المحرجة التي اقترحها ديكرو في مختصره: «المجازات هي صور نمنح بموجبها لكلمة ما دلالة لفظية ليست بالتدقيق دلالتها»(1988 ص 396). و لم يستطع نحاة وفلاسفة الأنوار حل هذا المشكل، لأنهم لم يكونوا يتوفرون على التفرقة الحديثة بين النمط و التوارد.

75. و يأتي بعد ذلك المعنى المجرد، بما أن التجريد لا يتأسس إلا مع تطور المعرفة. هذه الأطروحة الكلاسيكية المدحضة منذ مدة طويلة من قبل ميي Meillet قد أخذت شكل الدلالة المعرفية (سويتسير Sweetser وتروغوت Traugott). إن تاريخ اللغة يتبع تاريخ المعرفة الإنسانية، وهو الأداة المفضلة لها. وللمعنى الأثالي إذن جزء مرتبط بالأصل. هذه المعتقدات منتشرة بكثرة و تدحض الممارسة القاموسية: مثلا في القاموس اللاتيني عند غافيو Gaffiot و إلى حدود القاموس الفرنسي *Trésor de la langue française* ، نلاحظ أن المعنى المادي مقدم دائما على المعنى المجرد، كما لو أنه وُجد قبله.

76. مثلا في مقال في الموسوعة ، ترجم بوزي« hypallage » بـقلب (subversion) .

في الوقت الحاضر، لن يكون ممكنا الأخذ بهذا التعريف للمعنى الأصلي لأننا نتوفر حاليا على التمييز بين اللغة التاريخية واللغة الوظيفية.[77] وهكذا، لا يدخل المعنى الأول، سواء كان أثاليا (تاريخيا) أو أصليا (سببيا)، في إطار تعريف السيميم، لأن السيميم يُحدَّد داخل شبكة المتقابلات في الإطار السانكروني.

المعنى الحرفي: كان على النحاة-الفلاسفة في عصر الأنوار أن يُخضِعوا المعنى الحرفي (المرهون بالكتابة) للنزعة اللائكية، وذلك بتحويله إلى المعنى الأصلي (المتعلق بالوضع الطبيعي)، أو بجعله تابعا له. لقد عرف ديمارسي المعنى الحرفي الصارم بأنه «المعنى الأصلي للكلمة» (1988، ص: 205).[78]. وفي الماضي، عندما كان الترميز البوليني وسلطة الكنيسة الدوغمائية مهيمنين، خضع التمييز بين المعنى الحرفي والمعنى الروحي للنزعة اللائكية في اتجاه القطب الآخر، وأصبح المعنى الروحي ببساطة مجازا صوريا (مثل ما هو مطروح في مختصر ديكرو ص: 42-43)، بل ثقافيا عند فونطانيي.

وكنتيجة لذلك وخارج القراءة الحرفية للكتابات المقدسة، اختلط المعنى الحرفي بالمعنى الأصلي، إذ لم تكن الحقيقة موجودة في الوحي، ولكن في التمثيل الذي تؤمِّنه الكلمة.

بالنسبة للتداوليين المعاصرين، مازال المعنى الحرفي يقابل المعنى المشتق. ذلك أنهم راكموا معارف كثيرة حول المعنى الحرفي، وهو أمر ضروري لتعريف المعنى المشتق. أما المعنى المجازي، فلا يعد إلا نمطا من المعنى المشتق، طالما أن التداوليات تعالج الصور مستعملة مفهوم القصد المشتق (intention dérivée).[79]

الأفكار الرئيسية والأفكار الثانوية: ميز منطق بول روايال جزأين في معنى

---

77. من هنا استخلص كوزوريو من التمييز السوسيري بين السانكرونية والدياكرونية ما يلي: إن نسق اللغة الذي يعتبر موضوعا للسانيات هو نسق اللغة الوظيفية التي توظف فعليا في حالة لغوية معينة (بمعنى الحالة المبنية).

78. يشترك المعنى الحرفي مع المعنى الأصلي في الأسبقية، ليس لأن المعنى الحرفي كان هو الأول في الظهور، ولكن لأنه هو الأول الذي يتبادر إلى الذهن: «المعنى الحرفي هو المعنى الذي يفيد أن الكلمات توجد أولا في ذهن أولائك الذين يسمعون اللغة، إنه المعنى الذي يخطر ببالنا بصورة طبيعية» (1988، ص 204). و كلمة «بصورة طبيعية» تحيل على الطبيعة.

79. حول المعنى الحرفي عند التداوليين، أنظر مثلا استعمال مفهوم «مدلول حرفي» و«دلالة لفظية حرفية» عند ديكرو (1972 في مواضع متفرقة) أو مفهوم «معنى حرفي» و«قيمة بديهية» عند كيربا، 1966، ص-68 66-؛ للنقاش ، أنظر سورل Searle، 1978.
في دلالة شروط الحقيقة، يؤسس المعنى الحرفي كل النظرية، بحيث لا تكون القضية تقريرية إلا لأن مفرداتها مؤولة على أن لها معنى حرفيا. والأكثر من هذا، يرتكز قانون فريجة، الذي يسمح بحساب معنى التعابير المعقدة، أيضا إلى هذا المفهوم الغامض. لقد منحه زابولشي Szabolcsi هذه الصيغة: «يحدد المعنى الحرفي لعبارة ما فقط بواسطة المعاني الحرفية للعبارات الفرعية ، كما يحدد بنمط تأليفها»(1981، ص 41).

العبارات البلاغية: «تدل العبارات البلاغية، فضلا عن الشيء الرئيسي، على الحركة وعلى عاطفة الشخص الذي يتعلم، وتطبع المعنى الأول أو الثاني في الذهن، بينما لا يطبع التعبير البسيط إلا الحقيقة العارية (أرنو ونيكول Arnauld et Nicole، 1970[1673]، ص: 131). لقد تبنى هؤلاء الكتاب الأفكار نفسها وأقاموا تراتبية بين النموذجين العامين في الدلالة اللفظية: النموذج التمثيلي المرتبط بالتقليد الأرسطي والمتعلق إلى يومنا هذا بالحقيقة العارية، والنموذج القصدي، المرتبط بالتقليد الأوغسطيني، والذي يقول بالحركة وبالعاطفة.[80] وهكذا، تم نقل مشكل العلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي إلى حقل التعبير المجازي.

في دراسته لأصل المعنى المجازي، أعاد ديمارسي التمييز الذي أقامه فلاسفة فكر الأنوار، ولكنه استعمل، بعد لامي، الصيغة التي طرحها لوك فيما يخص مفهوم الفكرة الثانوية. و افترض أن الفكرة الأساسية والفكرة الثانوية لهما أسماء متميزة: «الاسم الأصلي المرتبط بالفكرة الثانوية يكون غالبا حاضرا في المخيلة أكثر من الاسم المرتبط بالفكرة الرئيسية، وغالبا ما تكون الأفكار الثانوية التي تشير إلى الأشياء مع ذكر الملابسات المحيطة بها، وبهذا تتفوق على الأسماء الأصلية، أضف إلى ذلك أنها تصف الأشياء بكثير من القوة و المتعة» (1988، ص: 75). ويقتضي تأويل المجاز المرور من الفكرة الثانوية إلى الفكرة الرئيسية، بالاستناد إلى التجميع. باختصار، يتمثل تأويل المعنى المجازي ببساطة في الرجوع إلى المعنى الأصلي، وحتى إلى الكلمة الأصلية. وهكذا، يمكن النسق النثري فقهاء النحو من تقليص الفارق ومن إبطال الصورة.[81]

الانزياح والخطاب العادي

من المحتمل أن نظرية المجازات والصياغة النحوية للغة الإغريقية كانت لها أجزاء

---

80. حول هاتين الإشكاليتين، أنظر المؤلِّف 1991، الفصل الثالث. إن التراتبية بين القلب الذي تنتمي إليه الفكرة الثانوية و العقل الذي تنتسب إليه الفكرة الرئيسية قد قلبت في مواضع أخرى، لأننا نعلم أن فلاسفة بول روايال والفصحاء وديكارت كانوا يفضلون العواطف، على حساب الحجج والصور (أنظر دواي، 1992، ص 469). إن أصل التمييز الذي طرحه اليسوعيون يكمن ربما في المنطق و في الأنحاء الكونية و القصدية ذات التقليد الأوغسطيني، وهي التيارات الفكرية التي تطورت في القرن الثالث عشر. الكثير منها يرجع إلى الاوغسطينيين و الفرانسسكان، وأشهرهم أكام Occam : إذ يمكن أن تعاد دراسة التمييز بين الإحالة والإيحاء الذي طرحه في منطقه من هذا المنظور.

81. أنظر التعليق الضعيف الذي قدمه ديمارسي حول هذا البيت الشعري لمدام ديزوليير Mme Deshoulière، **«ينتظر الحب في غياب باكيسBacchusو سيريس Cérès»** أي أننا لا نفكر في ممارسة الحب عندما نفتقر لوسائل العيش» (1988، ص 319). استمر هذا الإحياء للمعنى الأصلي مدة طويلة. وشرح السكولائيون المؤيدون =لدوني لوطراس تأويل المجازات *(exégèsis)* بالأثالة (*hexes hodégèsis* ، الترتيب). وفي هذا السياق، اعتبر هذا التأويل بمثابة شرح، أي رجوع إلى التعبير الجاري به العمل (*kuria léxis*، أنظر لالو، 1989، ص 76-77).

مترابطة. وعلى الخصوص، كان على النحاة المنتمين إلى مدرسة الإسكندرية مواجهة المهمة الخطيرة التي مفادها تحديد معيار اللغة الإغريقية المكتوبة، وذلك لتأسيس النصوص الكبرى، وبالدرجة الأولى وضع المتن الهوميري. وكانوا يربطون مظاهر الانزياح بالنسبة لهذا المعيار بتغيرات تاريخية أو لهجية ،أو بالاستعمالات المجازية.

بالنسبة لدوني لوطراس ،وهو الوجه الحافظ لتقاليدنا النحوية ،يهم الجانب الثاني من النحو تفسير المجازات الشعرية، ولكن رأينا أنه كان يعرِّف الجملة بأنها وحدة نثرية (أنظر الفصل الأول، ص2)، ولم يحدد قط بصورة إيجابية مفهوم النثر الغامض أو *Semo pedestris* . وفي مقابل انتصار الخطاب العادي هناك إلغاء الخطاب الاستثنائي. لقد كان إخضاع البلاغة لسيطرة النحو سبيلا لربطها بالمنطق، وبعد ذلك تم الحكم عليها بواسطة الروائز الايجابية والميتافيزيقية فيما يخص الحقيقة. وأصبح الخطاب العادي، وهو حاليا «اللغة العادية»، يتمتع بالشفافية الإحالية ومكن من وضع التمثيل الطبيعي والمباشر. أضف إلى ذلك أن الانزياح يُحدَّد بالنظر إلى هذا الوضع المثالي.

وفي هذا السياق، لاحظ دواي أن نظرية المجازات المحددة بأنها انزياح، «خاصية النحاة الفلاسفة، وهي النظرية التي تخضِع البلاغة لسيطرة النحو» (1992، ص: 206). وتبدو هذه الهيمنة مفروضة، في حين نرى أن للغة حالة طبيعية وعادية، نوكل للنحو مهمة وصفها.[82] في الواقع، تظل الحالة الطبيعية مجرد حادث مصطنع وخالص، ينتج عن خاصية النحو المعيارية.

لقد ورث الكتاب المعاصرون مفهوم الانزياح. وقد أقام جون كوهن على أساسه نظرية اللغة الشعرية التي يتمثل جوهرها في «خرق معايير اللغة». وكانت أداتها هي الخطاب العلمي الذي يقول الحقيقة. واستعملها ريفاتير في وقت ما لتعريف الأسلوب. وسَمَّت جماعة مو المعيار درجة الصفر التي نتعرف بواسطتها وبسرعة على التحول الذي يطرأ على الخطاب العادي. [83]وعرفت الجماعة بعد ذلك البلاغة بأنها «مجموعة

82.حين طور ديمارسي تعريف سكاليجر Scaliger الذي يرى أن الصورة البلاغية «ليست إلا ترتيبا خاصا لكلمة أو لمجموعة من الكلمات»، أكد في مقاله « صور» المنشور في الموسوعة (L'Encyclopédie) أن هذا الترتيب «مرتبط بالوضع البدائي و الأساسي للكلمات وللجمل. ثم إن مختلف الانزياحات التي نقوم بها ومختلف التحريفات التي نضعها تُكوِّن مختلف الصور المرتبطة بالكلمات و بالأفكار» (1988، ص 316). ونلاحظ أن الصورة البلاغية تحرف الطبيعة وذلك بالانفصال عنها.

83.«كل ما يعد جزءا من الشفرة اللغوية يُكوِّن معيارا، أي درجة الصفر: الإملاء، النحو، معنى الكلمات . ونضيف شفرة «المنطق» المحدد بحقيقة الخطاب» (1970، ص 38). و نؤكد على الرابط بين المعيار النحوي (بالمعنى العام) وشفرة المنطق.

من الانزياحات» (1970، ص: 45).

بالفعل، ضاعف اللسانيون المعاصرون التعريفات بخصوص الانزياح، مستندين دون احتمال تقني، إلى نظرية التواصل (مثل جاكبسون 1963، أو جماعة مو، 1970، ص: 38-42). إذا كانت «درجة الصفر» قد عوضت الطبيعة، فإن الصورة تظل مستحوذة على اللغة المحايدة، المجردة من الزخرفة، أي اللغة المثالية، الصافية والنابعة من فلسفة «اللغة العادية». واحتفظ مفهوم الانزياح بنفس الوظيفة التعريفية ووظيفة الحكم على الصور، استعمل جان بيتار Jean Peytard بخصوص الصور الشعرية كلمة قلب (subversion) التي لم يلاحظها بوزي، ولكن هذه المرة في إطار المعنى المدحي الشائع في الستينات من القرن الماضي.

إننا نرفض تعريف الصور المجازية استنادا إلى مفهوم الانزياح، لأننا نعتبر اللغة العادية كإبداع للتقليد النحوي، المؤسس على التصور الإحالي للغة التي بإمكانها قول الحقيقة.[84] ما عدا أمثلة النحو، مثل **سقراط موجود أو القطة تحت الطاولة**، لم يستطع أحد عرض نص مكتوب بلغة محايدة، ونقصد النص الإحالي الخالص. وعليه، فكل نص ينتمي إلى جنس، ويدخل بالتالي في نطاق خطاب (تشريعي، بيداغوجي...الخ) يعكس بواسطة المعايير التفاعل في الممارسة الاجتماعية التي يتموضع فيها. فحتى خرق المعايير النحوية، كما يقررها اللسانيون، مرتبط بمعايير الجنس والخطاب.

تكَوَّن النحو واللسانيات إثر نسيان هذا الفضاء المكون من المعايير، وأهملا الفكرة القائلة إن القواعد اللغوية المؤسسة على هذا النسيان تملك هي أيضا صفة المعايير البلاغية. وإذا وافقنا على أن اللغات تكونات ثقافية، فإن القواعد اللغوية والاطرادات البلاغية لا تختلف إلا بدرجاتها في التقعيد، وليس بالطبيعة. غير أن الاستعمال، حسب ديمارسي، يظل «طاغية اللغات» (1988، ص: 304). ولكن هذا الطغيان الذي من الواجب علينا وصفه وليس الحكم عليه يثبت المواضعات «المرجعية» حسب الخطابات والأجناس، وبالتالي يثبت «المعنى الأصلي» للكلمات، والانتظارات المتوقعة في السياق الاستعمالي.

الأنطولوجيا و الصور

في كتابه الميتافيزيقا، أقام أرسطو الوحدة الموضوعية لدلالة الكلمات على أساس

84. ليس فقط لأنه لا يستطيع قول الحقيقة، ولكن هذه الحقيقة تنتمي إلى المواضعات الخاصة بجنس النص وبالممارسة الاجتماعية التي ينتج و يؤول فيها.

الجوهر (*Ousia*) أو ماهية (*to ti esti*) ما تشير إليه: «تعني الدلالة اللفظية بالنسبة لي ما يلي: إذا دلت كلمة رجل على شيء ما وإذا كان كائن ما رجلا، فإن الشيء يصبح جوهر الرجل» (Gamma، 4، 1006a، 32). وهكذا، استخلص أوبينك Aubenque ما يلي: «استمرار الجوهر مفترض مثل الأساس الذي تبنى عليه وحدة المعنى: فالكلمات لها معنى لأن الأشياء لها جوهر» (1962، ص: 128). ولهذا السبب، كانت تقاليدنا النحوية، بدءا بتصنيف أقسام الكلام، مؤسسة على الروائز الأنطولوجية التي تظهر في التمييز بين الكلمات الممتلئة والفارغة، الكلمات المقولاتية والمقولية-التركيبية...الخ.[85]

إن توخّي الإفصاح الذي مفاده أن كل كلمة تشير إلى شيئها يؤرق تقليدنا، وفي بعض الأحيان، يبرر وجود المجازات بـ«الفقر في الكلمات الأصلية»: وهذا مثلا هو رأي شيشرون (De *Oratare*، III، 55)، وفوسيوسVossius(*Instutiones oratoriae*، IV،6،14، و رولان Rollin، وديكرو Ducros (1817 [1988، ص: 304]).[86] لقد أصبحت الكلمات المجازية كلمات أصلية مخصصة للتعويض. وكنتيجة لذلك، أصبحت المجازات في خدمة الاعتقاد العتيق الذي يرى أن اللغة لائحة [من الكلمات].

عندما توضع الكلمات الأصلية، يجب التأكد من أحاديتها. وفي تقاليدنا، هناك حلم كبير حول أحادية [المعنى] ، ويلخص مبدأ سانكتيوس هذا الحلم للمعاصرين: «Unius Vocis Unica est significatio» [للكلمة معنى واحد، وفقط معنى واحد]. ولكنه اصطدم بكثرة الاستعمالات، وفي صفحة مشهورة حول الاستعارة الاضطرارية (Catachrèse)، رأى ديمارسي في هذا التعريف ابتعادا عن الأصل، بل عن الطبيعة، كما رأى فيه منبعا للشذوذ.[87]وسيكون للمبادئ المشتركة في الإفصاح وفي الأحادية أثر

85.(وهنا نجد أثرا كبيرا للتصور الواقعي في الدلالة اللفظية (أنظر المؤلف، 1990،b، a 1992).
ظل تصنيف أقسام الكلم على ما عليه منذ العرض التقعيدي الذي قدمه دوني لوطراس إلى يومنا هذا (من شومسكي الى لانغاكير). وما زالت تظهر الروائز التي تؤسسه في المصطلحات (مثلا اسم ذات: ذات ousia). إن الأفضلية الممنوحة للاسم هي التي أظهرته منذ خمسة و عشرين قرنا على رأس كل قوائم أقسام الكلم. بطبيعة الحال، لم يؤسس تصنيف أقسام الكلم بالنظر إلى الرائز الأنطولوجي لوحده، لأنه تضاعف و استكمل منذ أرسطو بواسطة روائز مورفولوجية خالصة، تعمل، بطريقة ما، على تطبيعها. ولكن هذا الرائز ظل مهيمنا. على سبيل المثال، عرف لانغاكير(1991) الأسماء بعلاقتها مع الأشياء (ساعيا بذلك إلى إعادة تعريف الموضوعية على أساس الفضاء). و يذكرنا شاطورو Chateareau بما يلي:» يُعبِّر عن الكائنات بالمقولة التي يشار إليها تقليديا بالاسم أو اسم الذات (1992، ص 21).

86.لقد أخذ ديمارسي هذه الفكرة دون رفضها: « لا أظن أن هناك العدد الكافي من الكلمات التي بإمكانها تعويض الكلمات الناقصة» (1988، ص77). وتوجد تيمة اللاتوازن بين عدد الأسماء وعدد الأشياء أصلا في مؤلف أرسطو المعنون *Les réfutations sophistiques* (165. a11,I)

87.« لم تستطع الكلمات الاحتفاظ مطولا بالبساطة التي تقيدها باستعمال واحد؛ وهذا ما سبب في العديد من الشذوذ الظاهر في النحو وفي نظام الكلمات. إذ لا يمكن التحقق منها إلا بالنظر إلى أصلها الأول، وكذا بالنظر إلى الانزياح الذي أظهرته الكلمة إزاء دلالتها الأولى و إزاء استعمالها الأول» (1988، ص 96).

كبير على تعريف واستعمال المجازات.

تلعب المجازات دور تنظيم مختلف دلالات الكلمات، بحيث سيُحكم على بعضها أنها مشتقة من الدلالة الأولية،[88] عن طريق الاستعارة والكناية أو المجاز المرسل، وهكذا سيتم إنقاذ الأحادية الدلالية التي فسدت من جراء تعدد الدلالات.[89] أما في الدلالة المعرفية، فإن الدلالات النموذجية تلعب حاليا الدور نفسه (أنظر راستيي، 1991، الفصل السابع).

عندما تقدم الكلمة معنى مجازيا، فإن تقسيمها إلى «فكرة أساسية» و«أفكار ثانوية» قد مكن من الاحتفاظ بالإفصاح وبالأحادية، بما أن الفكرة الأساسية مسئولة عن المعنى الإحالي. و هذا ما مكن من دون شك من قولها كما هي. وعندما تعرف مجموعة مو درجة الصفر بالأحادية، فإنها تستمر في تبني الحل الذي طرحه بول روايال، والمتمثل في تعويض الفكرة الأساسية بالسمات الجوهرية: «ستكون إذن درجة الصفر بمثابة خطاب قد أعيد إلى سماته الجوهرية [...] أي إلى سمات يمكن حذفها دون حذف الدلالة من الخطاب. وفي كل خطاباتنا، تظهر بالفعل السمات الجوهرية، ولكنها تظهر مُغلَّفة بمعلومة غير هامة، لا تتميز بالحشو، ولكنها جانبية» (1970، ص: 37). سنكون حريصين مع ذلك على مماثلة التمييز بين الفكرة الرئيسية والفكرة الثانوية، بين السمات الجوهرية والجانبية، مع المقابلة الأرسطية بين الجوهر والعرض. إذا كانت الفكرة الأساسية، أو الجزء الأصلي للمعنى المجازي، أو السمات الجوهرية بالفعل متلازمات ذهنية و/أو دلالية مرتبطة بالجوهر، فإن الأفكار الثانوية أو السمات الجانبية لا تعد حوادث للشيء المشار إليه، ولكنها تعكس موقف المتكلم، طبقا لوجهة النظر الأوغسطينية التي تبناها الجنسانيون.

الذات هي الكائن في جوهره *(ousia)*. والفكرة الأساسية أو المعنى الأصلي يعكس وضعيته. وينحدر الإفصاح من الخاصية الخفية للشيء، على أن الأحادية تؤمن تمثيله

88. لا نأخذ بعين الاعتبار السبق التاريخي للدلالية الأولية.

89. أكثر من هذا، إن الدلالات اللفظية تتحكم في الجهاز الذي يسمى عادة تعريف الكلمة. إن التقليد النحوي الذي تحكم في قواعدنا القاموسية قد عرف المنهجية الدالية كما يلي : تعمل المنهجية على مقابلة كل دال بكل المعاني التي من الممكن أن يمررها. غير أنه، حسب القاعدة العامة، لهذه المعاني المختلفة تاريخ مختلف و لا تنتمي إلى الممارسات الاجتماعية نفسها ولا إلى الأجناس نفسها، كما لا تنتمي إلى الخطابات نفسها ولا تصادف في النصوص ذاتها. إن الاشتراك المعنوي إذن حادث مصطنع بالأساس ويعود خلقه إلى مبدإ الإفصاح وإلى الأحادية. ولتقليصه، يُبحث غالبا في داخل مختلف معاني كلمة ما. وهكذا حاول كاتز وفودور رصد المعاني المتداخلة لكلمة bachelor، التي تعني طالب، وأعزب، وفقمة، وفارس،...

الصحيح بواسطة الكلمة.[90] وتكملة لما سبق، تؤكد أو تنفي أطروحة دلالة الكلمة المماثلة لنفسها -ماعدا في حالة حجبها بقناع صورة- استمرار الجوهر. لكونها نتاجا للفلسفة الجوهرية، تؤمن الكلمات الأصلية واللغة العادية دورا أونطوجينيا (ontogonique)، ذلك أنها تؤكد على أن العالم هو مجموعة من الأشياء بما أنها تمثله[91].

ومن هذا المنطلق، فالمجازات لها مهمة الحجب، ووضع القناع، والتزيين، والتنكر. وينظر إليها من زاوية طريقتها في قول الكائن. لقد كانت قوة تصور اللغة الواقعي في وضعية مستقرة، بحيث كانت دائما تحدد استنادا إلى طريقتها في تمثيل الواقع - وليس استنادا إلى وظيفتها داخل الأشكال النصية. وفي مقابل مختلف أنواع الواقعية، ستطرح مختلف المواقف الأخلاقية إزاء المجازات.

أدانت الأفلاطونية المحاكاة بالوسائل المتاحة وهي الوسائل المتمثلة في المجازات، ملاحظة بذلك استحالة تبني الواقعية المتعالية. لقد أعطى سقراط المثال حين قارن جمال الشِّعر بطراوة الشباب الزائلة، وهي الطراوة السطحية التي تشير إليها الترجمة في اللغة العادية: «إذا فصلنا مؤلفات الشعراء عن الجمال الشعري وإذا قرأناها لذاتها، هل تعلم ما هي الصورة التي ستبقى [...] ؟. يمكن مقارنتها بهذه الوجوه التي لم تعد تثير الانتباه، لأن ليس لها من جمال إلا طراوتها، عندما غادرتها زهرة الشباب (*République*, X, 602b)[92]. لقد تم إبعاد الشعراء؛ أما بالنسبة للسفسطائيين، وهم الأوائل الذين نظّروا للصور، فإن أفلاطون لم يجد كلمات أكثر قساوة من الأقنعة والحيل والتنكر، مشيرا إلى الدناءة التي تعنيها هذه الكلمات (أنظر مثلا *Gorgias*، 463d-465d). لم تكن للشعراء علاقة بالكائن، واتهموا بـ«تزوير أشياء الروح»، وبالبحث عن التلميح، عوض التوضيح: مثل المطبخ أو المرحاض، فالبلاغة مظهر خادع، تريد الوصول إلى الممتع و تُهمل المفيد. وفي هذا السياق، دشن التشدد الأفلاطوني التيار المضاد للبلاغة والذي سيستأنف تحت أشكال جديدة مع تيار القراءة الحَرفية في الإصلاح الديني ومع طبيعة

90. وهكذا، فالخطاب العادي متطابق في درجة الصفر و مماثل لنفسه، وبالتالي فهو قابل للتصنيف في إطار المورفولوجيا و التركيب. وأطروحة التوحد في اللغة تفترض وحدة العالم الذي تمثله وربما تؤسسه.

91. إذا مددنا مفهوم الجوهر الاسمي المقترح من قبل لوك، فإن الجواهر (أو الذوات) لا توجد إلا لكونها تحمل اسما. إن الخاصية الحشوية للواقعية الدلالية تظهر من خلال التحليل التالي: سيكون معنى الكلمة هو الإشارة لشيء ما، ويكون توضيعه ناتج عن الاعتقاد الراسخ في الفضيلة الممثلة للكلمة.

92. استخلصت الثنوية الأفلاطونية الحجة من النسقية التي وضعتها داخل اللغة: يبدو بديهيا بالنسبة لسقراط كما بالنسبة لمحاوره أننا نستطيع، بل ومن الواجب، اختزال قصيدة في مضمونها التصوري، الذي يتم الحكم عليه من خلال حقيقته، كما أننا نستطيع، بل و من الواجب، عزل التعبير في القصيدة واعتباره تنكرا، حتى ولو كان طبيعيا مثل ما هو مقدم هنا (والملاحظ أن زهور الشباب و زهور البلاغة يعتبران أيضا غير دائمين).

فلسفة فكر الأنوار.

ولكن هذا الموقف ظل منعزلا عند القدماء. إذ دون التخلي عن المبدأ الأخلاقي القائل بأن اللغة تقول [أومن الواجب عليها أن تقول] الحقيقة، فقد وضع أتباع أرسطو (وليس أرسطو) وكبار البلاغيين الرومان (شيشرون وكانتيليان) المجازات في خدمة المحتمل. بإمكان البلاغة أن تقنع، ولكن ينبغي لها أن تنفصل عن الإغراءات الخاطئة. ولا يتعلق الأمر بخداع قضية الحقيقة – حتى ولو كانت حقيقة المواضعة التي تمكن من القول المستقيم- ولكن بجعلها في متناول الجميع، وذلك بتوكيدها عبر التزيين المقبول. و عوض التنكر للواقع، تشارك الصور في توضيحه، كما تشارك في فضح الإثارة *(enargeia)* التي تكشفه. كما لو أنه، بهدف نزع سلاح النقاد، كان على البلاغة أن تستعيد سمعتها بإظهار الحقيقة، وقد كانت الصور موضوعة في خدمة الواقعية المعتدلة.

مع الرمزية المسيحية، أوكلت للمجازات مهمة لم تعهدها، لأن الكتابات الدينية كانت عرضة للقراءة المجازية. ولم يكن فقط العهد القديم(l'Ancien testament) رمزا للعهد الجديد، ولكن الأحداث المحكية في الأناجيل هي نفسها موضوع القراءة المجازية.[93] لقد تطورت الصورة حيث انتقلت وظيفتها من زخرفة الخطاب، لتصبح نمطا هيرمينوطيقيا، وبالخصوص مكنت من التوجه نحوها، دون السعي إلى إبعاد الحقيقة. وهكذا، أصبح المعنى الأخلاقي المرتبط بالكتابة يسمى المعنى المجازاتي (tropologique). وأصبح التنكر المُدان من قبل الأفلاطونية حجابا محتشما أو درعا ملتصقا بالكاهن[94]. ولم

93. قال سان بول بخصوص أطفال إسرائيل : «*Omnla in figuran contingebant illis*» [كل ما يحصل لهم يكون بالمجاز] (I, Co, 10 ; Cf. Origène , *Traité des principes*, I, 5-8) ، حول المعطيات المرتبطة بتاريخ مفهوم المعنى المجازي، وهو مسألة ما زالت حاضرة، أنظر المؤلف، 1987، الفصل الثالث). إن القراءة التمثيلية ليست خاصية مسيحية لأنها تسيطر على الحقبة المتأخرة من العصر القديم . لقد مثّل الرواقيون هومير لتخليقه. وفي القرون الأولى من حقبتنا، انتشر هذا النمط الهيرمينوطيقي عند المسيحيين كما عند غير المسيحيين: بورفير Porphyre (تعليق على الأوديسا)، ماتيانوس كابيلا *(Les noces de Mercure et de Philologie)*، مكروب Macro-be *(Saturnales)* ، سيرفيوس Servius (تعليق على Eléneide) . وسيمارس هذا النمط الهيرمينوطيقي إلى حدود عصر النهضة، مثلا في *Ovide moralisé* لبيركوريوس Berchorius (بيير بيرسيور Pierre Bersiure، عالم دين و صديق بيتراك)، وقد استوجب تدخل المجمع الديني (Trente) لوضع حد للتخليق التمثيلي بخصوص المؤلفات غير المسيحية.

94.أنظر إزيدور دو سيفي Isidore de séville الذي قال: « تغلف الاستعارة والتعابير المجازية الأخرى كل ما من شأنه أن يفهم لاحقا ، من قبل الكاهن، على أنه مجاز *(amictis)* ، وذلك للتأثير على معنى القارئ ولكي لا يفقد قيمته، و هو عار و تحت اليد» (نص من اقتباس دواي، 1988، ص 244). قد يكون هذا المقطع مقدمة للتفكير في صورة العري. في العصر الإغريقي القديم ، الخطاب العاري هو الخطاب الحقيقي، المقدم دون التواء. يلمح هوراس مثلا إلى العري الحقيقي *(nuda veritas)* Carmina، I، 24، 7). هذا العري الفاضل

تعد الصور مصطنعات تجميلية، ولكن زهورا (*Flores rhetorici*) بالنسبة لألبيريك دي مون كاسان Albéric du mont Cassin) أو أحجارا كريمة وجواهر بالنسبة لألان دوليل (Alain de Lille) .باختصار، خدمة لسلطة الكنيسة الدوغمائية، مكنت الصور من اكتشاف -أو إنتاج- الواقع المتعالي، وذلك بالاقتراب من الأسرار المقدَّسة؛ وأصبحت بالتالي عبارة عن أدوات في خدمة الواقعية المتعالية.

في كل الحالات، كان الموقف اتجاه الصور مرتبطا بالعلاقة بالكائن. وبالنسبة لمؤيدي الواقعية التجريبية، اللغة هي وسيلة لتمثيل العالم، وكانت المجازات تعوق هذا التمثيل. أما بالنسبة لمؤيدي الواقعية المتعالية، فإن اللغة تعمل على كشف القليل من العالم الآخر، والمجازات تشارك في هذا المشروع الذي يروم إلى الكشف، بل إلى التجديد. وحسب الحركة التحويلية الأولى التي تعرِّف المجاز، بالنظر إلى الكائن، كما

مرتبط بأصل الإنسانية .(cf. Petrone, *Satiricon*, 88 : « Priscis temporibus cum adhuc nuda vertus placeret »). في تيولوجيا العصور الوسطى، يحيل العري إلى الحالة الأصلية أي الخالية من الذنوب: *nuditas naturalis* (للتفاصيل حول هذه المسألة، أنظر بانوفسكي ، 1967، ص229 -225).

كان البعض يتصور أن الحقيقة مغطاة بحجاب رقيق ولكنه محتشم(Philostrate، *Imagines* ، I، 27) . ولا نستغرب إذا لاحظنا أن اللغة الحقيقية تكون في بعض الأحيان محجبة. نظريا، إنها أمارة على نفي الخطاب التيولوجي..؛ وهكذا صرح دوني لوطراس بما يلي : «من المستحيل أن يكون النور الإلهي يسطع من أجلنا إلا بالصورة التي يكون فيها ملفوفا تحت تنوع الحجب المقدسة» (*La hiérarchie céleste*, I, XXX). يتخذ الحجاب وضع المقارن (comparant)، أي استعارات الأشياء المجسمة، حسب طوماس داكان ، *Somme théologique*, I a , qu.I, resp. 3))؛ وهذا يفسد رأي دوني لوطراس، بما أنه كان يعالج كل أنواع الاستعارة، وليس فقط الاستعارة المتعلقة بالأشياء المجسمة»).

بالإمكان توضيح الدور الغامض الذي تلعبه الصور كتزيين إذا سلمنا بأن كل تعبير لغوي حجاب وعليه تلمع الصور مثل الأحجار الكريمة الزاهية أو الباهظة الثمن. في واقع الأمر، يشبهها شيشرون و فوسيوس ورولان بثوب يسمح للرجل أولا بالتستر(وذلك بتعويض النقص في الأسماء) ثم بعد ذلك بالتزين، مما يجعله يلحق النافع بالممتع.

لقد احتفظ نحاة الأنوار بالصورة التأسيسية للحجاب، محاولين سلخه عن التزيين، ثم حذفه بعدئذ، ليس من أجل تأمل بالطبع وجه الإله، ولكن بهدف التأمل في العمليات الحقيقية للفكر، وقد كان الفكر في وضع لم يعد يتسم بالتقديس. مادحا ديستوت دو طراس Destutt de Trace، كتب ديمارسي ما يلي: « أراه كأول النحاة؛ على الأقل لا أعرف أحدا يميز ببراعة، وتحت حجاب التعبير، العملية الحقيقية للفكر(1817 , t. II, p.8). أعاد بورس صورة التعبير المشبَّه بالحجاب، معتبرا أن «هذا الثوب لا يمكن الانسلاخ عنه كليا، ولكن يمكن إبداله بثوب أكثر شفافية» (1956، I ، ص 171). وفيما يخص المحسنات السهلة (*ornatus facilis*)، صرح جاكبسون قائلا: « المحسنات اللغوية جد قليلة في الأشكال الأدبية المنتمية إلى هذا الجنس، ولا تبدو اللغة إلا كثوب شفاف» (1963، ص 243). أما بارط في تحليله للمحكي، فقد رأى أنه «يجب نزع القشرة الأسلوبية» (1984، ص 151).

و يتميز ما سمي بالانعطاف اللغوي أو*linguistic turn* المميز للفلسفة التحليلية بـ«الاعتراف بأنه يستحيل جذريا إدراك الفكر العاري، دون ثوب لغوي» (نيف Nef ، 1992، ص 151). وأوضح فريجة بطريقته الخاصة أن التمييز بين«الجسد» و «الحجاب» ينتمي إلى المنطق، والى أبعد من ذلك، أي إلى الأنطولوجيا، إذ يقول: «يجب أن نفصل من محتوى جملة ما الجزء الذي يمكننا فقط الحكم عليه أنه صادق أو كاذب. أسمي هذا الجزء الفكر المعبر عنه بالجملة. [...] . وهذا الجزء هو الذي يخص المنطق. وأسمي كل ما يزين محتوى الجملة تلوين *[farbung]* الفكر. (*Posthumous Writings*, University of Chicago Press, p. 198). إن الألوان و المساحيق مرتبطة بالخيال، وهذا ما يشهد به التعبير الفرنسي sous couleur de (تحت لون كذا) والتعبير الايطالي sotto colore .

هو ممثل في المعنى الأصلي، أو على العكس من ذلك حين يقتاد إليه، وحسب وصفه كمحايث أو متعال على الطبيعة الممثلة في المعنى الطبيعي، فإن المجاز يكون عبارة عن كذب أو كشف.

في العصر الكلاسيكي، أمكننا مقابلة منظري الصور المجازية الكبار بمناصري المعارف الإيجابية، مثل دلامبير. وقد تأثر جل هؤلاء المنظرين بالإصلاح المضاد (-Contre Réforme)، وكان أغلبهم ينتمي إلى اليسوعيين (Gracian).[95] دون دعم الإيمان، لم تكن الصور المجازية سوى زخرفات وحشو إزاء العقل.[96] يحترم الاتجاه النثري لدى النحاة-الفلاسفة من دون شك الاستراتيجية العامة التي تسعى للتركيز على المعاني الحرفية، التي تساند نقد الديانة.[97]

إبان القرن التاسع عشر، ألهم الانتصار المزدوج للوضعية وللمثالية التنظيرية (الأولى تؤيد الواقعية التجريبية، والثانية تساند الواقعية المتعالية) إقصاء البلاغة. وتعرضت دراسة النصوص للتجزيء، بحيث تُرك بعدها السيميائي على ما هو عليه، بما أن «حرف» النصوص قد أُسند إلى الفيلولوجيا ذات التوجه الوضعي، بينما أسند «محتواها» إلى الهيرمينوطيقات التنظيرية.

في وقتنا الحاضر، تفترض الوضعية المنطقية، التي ظلت جد مؤثرة في الأوساط اللسانية عبر الفلسفة التحليلية، أن المعنى الأصلي (المرتبط بشروط الحقيقة) منفصل عن المعنى التداولي أو البلاغي. وتفترض أيضا أن يُدرَسا منفصلين وأن المعنى الأول هو الذي ينتمي إلى اللسانيات.[98] وفي المقابل، رأت الهيرمينوطيقا الظاهراتية، بفضل ريكور على الخصوص، في الصور، وعلى الخصوص الاستعارة، «إعلاء للمعنى» (1975).

95.ديمارسي غير مقصى من هذه الفلسفة الوضعية: « لا يهم الشاب الذي، بمجرد ما يبدأ في الحكم على الأشياء، لا يقبل إلا ما هو حقيقي، أي ما هو كائن» (ديمارسي، 1797، t. V ، ص 192، مقتبس من دواي، 1988، ص 279). يظهر التطور الذي عرفته الوضعية في الدور المتصاعد للبداهة. و يقول بيرلمان Perlman في هذا الصدد : «يرجع تدهور البلاغة، في نهاية القرن السادس عشر، إلى صعود الفكر البورجوازي، الذي عمم دور البداهة، سواء كانت بداهة الشخصية في البروتستانتية وبداهة العقلانية عند الديكارتيين، أو بداهة المحسوس في التجريبية» (1977، ص 21). و ما ذا لو لم تكن البداهة إلا الإثارة؟ لقد رأت الوضعية في الوهم الواقعي أن الوقائع يمكن أن تفرض نظامها على الخطاب، أو على الأقل، يمكن أن تُحكم عليه بمقياسها الخاص.

96. يعالج المقال المخصص للبلاغة في الموسوعة (L'Encyclopédie) طبقة البلاغة دون الإحالة على الكُتاب، ويعرفها على أنها « المبحث الذي تدرس فيه مبادئ فن الخطابة للشباب. تمارَس البلاغة قبل الفلسفة، وفصاحة القول قبل التمكن من التفكير» (XIV ، 1765، ص 250).

97. أنظر قولة فولتير : « تُنجِب اليمامة من زوجة الحَطاب».

98.المعنى الأول المرتبط بشروط الحقيقة يخص الجمل و المعنى التداولي يخص الملفوظات. إن اللسانيات لا تدرس إلا الجمل (حسب سبيربير، 1975، ص 388).

ومن هايدرغر إلى زوندي، تأملت التيارات الهيرمينوطيقية المتناقضة في أعمال هؤلاء الشعراء، هولدرلين ومالارمي وسيلان Celan.

تتضمن هذه النقاشات تباينات ليس فقط حول موضوع المعرفة، ولكن حول القدرات المؤدية إلى المعرفة: *dianoia* أو *noèsis* . يتوجه المعنى الحرفي واللغة العادية إلى العقل؛ أما المعنى المجازي واللغة الاستثنائية، فيخاطبان الفكر أو الروح المتسمة بالعاطفة. ويعطى منطق بول روايال أحسن شهادة على هذا النزاع: بالنسبة لنيكول ، الاستعارة هي الجرح «الذي يوسم ضعف الطبيعة التي تصطدم بالحقيقة البسيطة» (عن بيلوغران Pelegrin، 1983، ص: 74) وأضاف أن الفلاسفة افترضوا أن التعبير البسيط يوسم «الحقيقة الخالصة» (1970، ص: 131). والسؤال الذي طرح هو كالتالي: لماذا لا يكفي العقل لمعرفة الله ؟ ولماذا استعمل آباء الكنيسة الكثير من الصور ؟ «لم تكن الحقائق الإلهية مقترحة فقط من أجل أن تكون معروفة، ولكن أكثر من هذا، لكي تكون محبوبة ومقدسة من قبل الناس. ولهذا، فالأسلوب النبيل والعالي والمجازي الذي استعمله آباء الكنيسة كان الأصلح بالمقارنة مع الأسلوب البسيط والخالي من الصور[...] بما أن الأسلوب لا يعلمنا فقط الحقائق، ولكنه يمثل لنا أيضا الإحساس بالحب، والخضوع الذي أشار إليه الآباء» (1970. 133-132).

نرى أن الأسلوب المجرد من الصورة يخاطب العقل، بينما الأسلوب المطعم بالصور يخاطب القلب. وقد تخلى فلاسفة فكر الأنوار بتواضع عن العقل، باعتبارهم من المؤيدين المتحمسين للأوغسطينية ؛ وسلموا بأن الأسلوب البسيط في هذه المواد أقل نفعا وأقل متعة، بحيث إن «لذة الروح تتمثل في الإحساس بالحركات أكثر منه في تعلم المعرفة» (1970، ص: 133).[99]

وفي الأخير، تستخدم مختلف المواقف إزاء الصور التصورات المختلفة للزمنية،

99.ستتطور نظرية الأفكار الثانوية التي عُرضت في الفصل الرابع عشر من *la Logique* في طبعة 1683 في فصل إضافي خصص للمشكل الأساسي المتعلق ب «تحول جوهرالأشياء» (transsubstantiation). وفي مقابل رأي =الوزراء المؤيدين للإصلاح و الذين يطرحون أن في جملة «هذا جسمي» (ceci est mon corps)، تفيد كلمة «هذا» الخبز، وهناك رأي فلاسفة الأنوار الذين يرون أنه بواسطة التحول الذي أقامه المسيح، فكلمة hoc «لها تحديدان في بداية القضية وفي نهايتها» (ص 139). لأن hoc لا تفيد إلا الفكرة الرئيسية للشيء الحاضر ولا تتغير إلا بالأفكار المضافة (والتي لا ينعتها فلاسفة الأنوار بالثانوية، ولكنها تعد كذلك من الناحية التقنية). لا يهم كون الصورة البلاغية مضمرة أو «أن الخبز المرتبط بسر القربان المقدس قد استمر في شكله الطبيعي، شريطة أن يوقظ في حواسنا صورة الخبز الذي بواسطته ندرك بأي طريقة يكون فيها جسد المسيح غداء لأرواحنا» (ص82). في هذا الجناس الدلالي (antanaclase) المتسم بالتدين، تبقى الأفكار الثانوية التي تلعب دورا هاما مميزة عن الفكرة المراد إثباتها.

أو بالضبط تصورات التاريخ المرتبط بالقديسين. وباعتباره حركة تحويل، يجمع المجاز كما يفرّق بين لحظتين زمنيتين أو بين عُمرَين للعالم. و حسب التصور الذي يفضل اللحظة الزمنية الأولى على الثانية، أو الثانية على الأولى، يتنكر المجاز أو ينكشف، ويبعدنا عن الحقيقة أو يقربنا منها.

بالنسبة للقدامى، انتهى العصر الذهبي[100]. وكان لمناصري الأخلاق الذين تكاثرت أعدادهم في العصر الحديدي الذي نعيش فيه الحظ في النظر إلى المجازات على أنها تنكر للأصل الممثل في المعنى الأصلي. ولكن التشاؤم الهلليني كان قد خضع للمسيحية المتأثرة باليهودية: عندما فتحت المسيحية باب العفو، فإنها قد قلبت اتجاه الزمن. وفي هذا السياق، أصبح بإمكان المجازات أن تعلن الخلاص.[101] ويبدو أن الموقف من المجازات يتأرجح حسب تصورات الخلاص: في العصر الكلاسيكي، تخلى مؤيدو الإصلاح [الديني] عن المجازات وعن الترميز[102]، بينما وضعها التيار المضاد للإصلاح في برامج المدارس. وهكذا، خصص لها كبار المنظرين، مثل غراسيان Gracian في إسبانيا، أو تيزورو في إيطاليا ،أول الرسائل .أما في فرنسا ،فقد تبنى اليسوعيون والجنسينيون بخصوصها مواقف متناقضة .وسار نحاة فكر الأنوار على منوال بول روايال؛ وبهذا الصدد وُصِفَ ديمارسي باليسوعي الملحِد. وعندما التحقت المادية الطبيعية بالتشاؤم الأوغسطيني، فإن الفارق المتزايد إزاء الطبيعة قد ظهر إذن كنسخة لائكية للخطيئة الأصلية التي لا يمكن مسحها. وبعدئذ، أصبح التوكيد على المعنى الأصلي عبارة عن عودة إلى القانون الطبيعي الذي رممه بسرعة التأويل الحرفي.

وفي المقابل، اختزلت المثالية الرومانسية المجازات في الاستعارة، واختزلت الاستعارة بدورها في الصورة التي أصبحت رمزا، لأن الرومانسية ترى في الصورة الوسيلة التي تتيح هيمنة الفكر عند نوفاليس[103]. وتقترض الصوفية المعاصرة في

100. نعتقد أن البلاغة القديمة كانت شفوية بما أنها تقدم في الساحة العمومية أو في قاعات المحاكم، وكما يقول آ. أ. ريتشاردز:«فمن الواضح أن البلاغة القديمة ثمرة الجدل و المناظرة؛ وقد تطورت على أساس أنها بسط لمبادئ الدفاع و الإقناع فهي إذن نظرية المماحكات اللفظية الكلامية»، أنظر فلسفة البلاغة، ترجمة سعيد الغانمي و ناصر حلاوي، أفريقيا الشرق، 2002، ص 32 (المترجم).

101. سمح المعنى التمثيلي من المرور من العهد القديم إلى العهد الجديد، وبالتالي من سلطة القانون إلى سلطة العفو الديني؛ وقد وعد المعنى التأويلي بالمرور إلى العصر التاريخي الثالث، وهو عصر انتصار الكنيسة و الحياة السماوية للأبرار السعداء.

102.نستعمل مصطلح التمثيل والحكاية الرمزية مقابلا لـ allégorie.

103.نوفاليس (فردريك البارون فون هاردنبرك، 1802-1772): شاعر ألماني عاصر شليغل وفيخته، واهتم

الشعر، عند ريفيردي أو بروتون، كثيرا من مقوماتها من «الواقع الأعلى لهذه الصور» (بروتون، 1988، ص 52).

تبدو الدلالة المعجمية بعيدة عن النقاشات التي يتقابل فيها بصورة غامضة العِلم والإيمان، وفيها يتخذ الخصم وضعية النزعة العلمية والخرافة. ولكن رهاناتهم قد سمحت بتشكيل الدلالة المعجمية نفسها، وبمعالجتها بطبيعة الحال لمشكل المجازات.

الدلالة المعجمية والمجازات

بما أن اللغة نفسها ليست لها القدرة على قول الحقيقة أو الكذب، فإن الدلالة اللغوية لا تستطيع التأكيد على استقلاليتها إلا بتخليها من جهة عن الواقعية التي تحدد الدلالة اللفظية بأنها إحالة على عالم أمبيريقي أو متعال، هذا غير مهم؛ ومن جهة أخرى، تؤكد استقلاليتها بتخليها عن المقولات الفرعية (الحقيقة والكذب) التي كانت مستعملة في المنطق، ولكنها مقولات ميتافيزيقية من الناحية التكوينية، لأنها تفترض علاقة تأسيس بين الكلمات والأشياء.[104] عندما خرجت الكلمة من العزلة التي فرضتها عليها المقابلة وجها لوجه مع المرجع الاستيهامي، لم يعد لها التفوق ولا حتى الاستقلالية.

لتقليص تنوع المعاني السياقية الذي تضطلع بها الكلمة ذاتها، اقتُرحت أربعة حلول رئيسية:

1) اشتقاق المعاني، كما رأينا سالفا، انطلاقا من المعنى الأصلي.[105]

2) تحديد الدلالة في اللغة التي تساعدنا على اشتقاق المعاني السياقية، وخصوصا المعاني المجازية. ونجد هذا الحل عند ديمارسي. وللإشارة، فإن بوزي هو الذي صاغ العرض النسقي. ويظل حاليا الحل الأكثر قبولا.

3) افتراض مدلول مشترك بين جميع الاستعمالات، ويطلق غيوم Guillaume على هذا المدلول اسم مدلول القوة (signifié de puissance) ويفترض هذا الحل حدسا تأصيليا

كثيرا بالتصوف وبالتفسير الرمزي للطبيعة (المترجم).

104. كونت هذه العلاقة – الاشكالية في ما يخص اللغة التقليد الميتافيزيقي الغربي. إن الحقيقة القصدية نفسها ترتكز إلى الحقيقة المفهوماتية.

105. يفترض هذا الحل استحضار الطبيعة، حتى ولو كانت مواضعة أولية. لقد قلبت فلسفة التطور عند فلاسفة الأنوار المدرسة الأفلاطونية، وأخذت الطبيعة مكان سماء الأفكار. و اتخذت الثورة السياسية وضع المهذب الذي يقوم بتأسيس القانون الطبيعي؛ وهذا شبيه بالتحول الذي طرأ فيما بعد على مذهب هيغل إثر ظهور الماركسية، وذلك بوضعه على قاعدة ثابتة.

للمفهوم.[106]

4) افتراض أن أحد معاني الكلمة نموذجي (prototypique) وأن المعاني الأخرى تنظم حوله حسب درجات النمطية. وهذا الحل مستلهم من نظرية روتش.[107] ويقترب المعنى النموذجي من المعنى الأصلي، وذلك في إطار نظرية روتش التي تفترض أن المعنى مؤسس في الطبيعة.

لن نساير أيا من هذه الاتجاهات، لأننا نتبنى الإطار المسمياتي (onomasiologique) الذي يعرف المداليل داخل الطبقات الدلالية، في اللغة كما في السياق، ولا نتبنى الإطار الدالي (sémasiologique). من جهة أخرى، لا نرغب في تقليص الشتات الدلالي، ولكن نهدف إلى وصفه، باعتباره حالة شاذة تتمتع بأهمية متساوية أو أكبر من المقاصد العادية، على الأقل من أجل التصور التخصيصي في الدلالة.[108]

سنرتكز على المقابلة التي طرحها بوزي بين **المعنى** و**الدلالة اللفظية** في مقاله حول المعنى في الموسوعة (1765، XV، ص 16)، لأنها أصبحت تمييزا عموميا في الدلالة الفرنسية (مارتان، ديكرو وشارودو...الخ). لقد أعاد بوزي الروائز التي اقترحها ديمارسي وطرح تراتبية بينها، إذ ميز بين المضمون في السياق وسماه **المعنى**، ومضمون الكلمة المعزولة عن السياق. وفي هذا الإطار الأخير، فصل بين الدلالة اللفظية،[109] وهي

106. يمكن أن تلحق ببيرغسونية غيوم. إن مدلول القوة لا يجب أن يخلط بالنواة الدلالية، التي تتضمن السمات الدلالية المشتركة مع مختلف مقاصد الكلمة ذاتها (أنظر بوتيي، 1974).

107. اقترح لانغاكير حلا مختلفا للمشكل الخاطئ الذي واجه كاتز و فودور، حينما لاحظ مثلا الدرجات النمطية (typicalité) الموجودة بين مختلف معاني كلمة ring ، من فضاء الملاكمة إلى دائرة الأنف (1986، ص 3). ألا يكون المعنى النمطي صيغة ضبابية للمعنى الأصلي؟ يقترب هذا الحل من الحل السابق، ويمكن تعريف المعنى النمطي بأنه المدلول«بالقوة» الذي أصبح محايثا. وخلاصة القول، استلهم بعض المعجميين المتأثرين بغيوم آراءهم من روتش (بيكوش Picoche و كلبيبر). للنقاش، أنظر المؤلف، 1991، الفصل السابع.

108. وهي الدلالة التي تفترض وجهة نظر تشريعية ومعيارية وعامة في اللسانيات، التي تعتبر وريثة التقليد المعياري للنحو.

109. مثل مجمل المصطلحات و المفاهيم المتعلقة بالدلالة التقليدية، تنحدر كلمة دلالة لفظية *(signicatio)* من السكولائية (غيوم دو شيروود Guillaume de Sherwood). « كل كلمة، يقول بوزي ، لها أولا دلالة لفظية أولية و أساسية، وأصلها هو القرار الثابت في الاستعمال» (1778، ص 740). تنقسم الدلالة اللفظية الأولية إلى =دلالة لفظية موضوعية («الفكرة الأساسية التي تعد الموضوع الفردي لدلالة الكلمة»(نفسه)) ودلالة صورية (معادلة لنمط الدلالة السكولائية). إن الدلالة اللفظية الموضوعية هي «نفسها موضع مختلف التأويلات» (نفسه)، ولكن نؤكد أنها «ليست إلا أشكالا مختلفة للدلالة الأولية و الأساسية» (ص 741). تجعل هذه الإشكالية من الدلالة اللفظية المعنى الأصلي، الأولي و الأساسي، أما المعاني المجازية، فإنها تلحق بالمقاصد المرتبطة بها. في وقتنا الحاضر، مازال هذا التمييز قائما في الأذهان. وهكذا، أكد شارودو ما يلي: « يجب اعتبار كل علامة تملك معنى قارا كمعنى«قويا»، ولا تعتبر كمعنى ممتلئ ، قبل الاستعمال في مختلف المقامات التي تمنحه خاصيته المعنوية» (1992، ص15). يسمى المعنى القار أيضا معنى اللغة ، ويسمى المعنى المخصص معنى الخطاب. نرى أن اللساني يجسد في اللغة رغباته الميالة إلى الثبات. ونلاحظ وجود المعنى الثابت أو القار في

أساسية، المعاني المتداولة (acceptions) التي تحددها. وتختلف الأوضاع الأنطولوجية للمعنى عن المعاني المتداولة وعن الدلالة اللفظية: ينتمي المفهوم الأول إلى الموضوع الأمبريقي للدلالة، أما الآخران فإنهما يعتبران إعادة بناء النحوي (بالفعل، تظل الكلمة المعزولة عن السياق مادة من صنع اللسانيين).[110]

ومن جهة أخرى، فإن وجود الكلمة في اللغة افتراض غير مؤكد، ونشك على الأقل أنها تتوفر على دلالة لفظية محددة على الرغم من أن المشروع القديم حول تقعيد المعجم قد بذل جهودا من أجل محو هذا الشك. الواقع أن المورفيمات وقواعد التركيب الداخلي للكلمة تدخل في نطاق نسق اللغة الوظيفي، ولكن إذا كانت هذه القواعد تمكن من تقرير ما إذا كانت الكلمة تنتمي إلى اللغة، فإنه لا توجد قاعدة تمكن من توقع دلالة لفظية مرتبطة بتأليف نحوي بخصوص المورفيمات المكونة لكلمة ممكنة أو موجودة. مثلا، كلمة archère الفرنسية لا تعني «رامية السهام»؛ ولكن يمكن أن تصبح كذلك في المستقبل في جامعة رياضية ذات ميولات نسوانية. وهذا يعني أن الدلالة اللفظية لكلمة ما مرتبطة بالمعايير، التي يمكن أن تغير أو تخلق أو تحذف بعض المعاني المتداولة، حسب الممارسات الاجتماعية وتطورها. وبناء عليه، فالكلمة لا تملك دلالة لفظية خالصة، ولكن لها معنى متداولا أو عدة معاني متداولة. وتظل الدلالة اللفظية الأصلية، الرئيسية أو النموذجية، أداة مصطنعة من قبل اللساني: إذ بطريقتها المتمثلة في ترتيب المعاني المتداولة (وتنظيم مداخل القاموس)، مكنت الدلالة اللفظية اللساني من إنقاذ الأنطولوجيا بصورة غير مباشرة، على قدر ما يرهن تماثل المرجع المزعوم وحدة معنى الكلمة، المجَمَّد في الدلالة اللفظية.

وعلى الرغم من الحكم المسبق المسمياتي الذي يجعل من اللغة مجرد قائمة [من الكلمات]، فمن المفيد تمييز ثلاث درجات إلحاقية في المعجم: معجم المورفيمات ومعجم المفردات (تجميع ساكن من المورفيمات؛ والعديد من هذه التجميعات يُكوِّن كلمات)؛ ومعجم التركيبات النوعية (phraséologies). المعجم الأول هو الوحيد الذي ينتمي إلى اللغة، أما أنواع المعجم الأخرى، فإنها مرتبطة بالمعايير. وتحدد هذه المعايير بالخطاب وبالجنس النصي الذي ينتمي إليه كل نص، كما يمكن لها أن تتغير مع تطور

لسانيات غيوم الذي تحدث عن المدلول بالقوة (signifié de puissance).

110. تؤكد الصعوبات التي صادفتها التوليفة الآلية للكلام أن الكلمة لا تدرك بتاتا كوحدة منعزلة[عن سياقها.]

الممارسة الاجتماعية التي تتموضع داخلها، وتتطور إذن في زمنية مختلفة عن اللغة، المكونة من المعايير الجامدة.

إذا كانت الدلالة اللفظية حادثا مصطنعا، فإن المجازات لا يمكن تعريفها من هذه الزاوية. هل يجب إذن تعريفها بالمقارنة مع القصد ومع المعنى ؟ سنسلم مؤقتا بأن المعاني المتداولة معنمات ـ أنماط (des sémies types) وبأن المعنى عبارة عن تواردات. سنميز إذن بين المعنم–النمط والمعنم–التوارد،[111] ونصوغ مؤقتا تعريفا يحتفظ بمفهوم المجاز[112]: يوجد المجاز عندما يحقق المعنم–التوارد، بواسطة التقادم السياقي على الأقل، سمة مجالية (في حالة نشر السمات) و/أو عندما يتعرض لحذف سمة ملازمة واحدة على الأقل (في حالة إعاقة نشر السمات)، ولا نتبنى الفرضية التي تقول بأن المعنم–التوارد يرث بالغياب كل السمات الدلالية المرتبطة بالمعنم–النمط. يظل هذا التعريف المختزل في الإطار الضيق للدلالة المعجمية (الميكرودلالة) ولا يأخذ بعين الاعتبار مثلا تجلي السمات الدلالية الإعرابية، المنتمية إلى الميزودلالة، كما لا يأخذ بعين الاعتبار المجال المخصص للماكرودلالة. هناك ثلاثة قضايا تظل محط نقاش:

1- لنسلم بأن خاصية المعنمات–النمط مرتبطة بمعايير الخطاب قيد الدرس؛ إذا قمنا بهذا التقليص، فإنه بإمكاننا تسميتها بـ«دلالات لفظية». وتحدد هذه المعنمات في إطار السانكرونيا، ولكن العلاقة بين مختلف الدلالات اللفظية المتعلقة بالوحدة المعجمية تنتمي إلى الدلالة التاريخية. غير أنه، بما أن الأنماط تعتبر أبنية تتم إعادتها انطلاقا من التواردات، فإن الدلالات اللفظية الأصلية تتكون من المعاني السياقية، وبالخصوص المعاني البلاغية. وهكذا، فالمعنى المجازي ليس هو المعنى المشتق من

---

111. المَعْنَم (la sémie) هو مدلول الوحدة المعجمية. ويتكون المعنم من سيميم أو عدة سيميمات. ويحدد ما يسمى المدلول المعجمي.

112. يتضمن المعنم–النمط نوعين من السمات الدلالية: السمات الملازمة (عامة أو مخصصة) و السمات المجالية. ترصد السمات الملازمة الاختلافات داخل طبقات السيميمات: مثلا، يتعارض «المشرط» مع «المبضع» من حيث السمة / من أجل الأحياء/ ، و«المتحف» مع «النصب التذكاري» بالنظر إلى السمَة / وجود الجسد/ . نميز بين السمات النوعية التي تؤشر على السيميم المنتمي لمختلف الطبقات الدلالية، و السمات المخصصة التي تفصل بين السيميمات في سياق الوحدات المعجمية المنتمية لنفس الطبقة: مثلا، «–poir» و» –pomm» في سياق « poire» و « pomme « (وليس في سياق « poireau» و « pommeau»). أما السمات المجالية، فإنها ترصد العلاقات التطبيقية لطبقة أدنى من السيميمات (طاكسيم) أو من المعانم (الطاكسيمية) في طبقة أخرى. مثلا، عناصر الطاكسيم // «رجل»، «امرأة» // هي للأسف هدف لعلاقة تطبيقية مصدرها عناصر الطاكسيم // «قوة»، «ضعف» // . ويعالج هذا النوع من التطبيق ظاهرة الإيحاء و ظواهر النمطية. وترتبط هذه العلاقة التطبيقية بالمعايير الاجتماعية المغايرة لنسق اللغة، ومن هنا جاءت من دون شك الخاصية « الهامشية» التي توصف بها غالبا السمات المجالية.

الدلالة اللفظية الأصلية، ولكن الدلالة اللفظية الأصلية هي التي تبنى معياريا بتجريد المعاني السياقية، ومن ضمنها المعاني المجازية. وبناء عليه، فالدلالة اللفظية الأصلية هي نفسها مشتقة...

2- ينبغي تعميم وضع المجازات، والسير بها إلى أبعد من الاستعارة الاضطرارية: إن المجازات معممة على جميع الأجناس؛ وأغلبها غير معين ولا يملك اسما.مثلا، عندما نقرأ في قائمة مطعم ما كلمة الجبنة (fromage) أو الجبنة البيضاء، فأول توارد لـ«جبنة» يعتبر مجازيا، لأن سمة /مُخمَّر/ التي لا تنتمي إلى النمط تتحقق بتحيين السمات المجالية (dissimilation) في السياق.

3- وأخيرا، يجب وضع تصنيف للمسارات التأويلية التي تفرض أو تعرقل التحققات، حسب القيود أو الرخص السياقية، أو تغير كذلك الوضوح النسبي للسمات داخل المعنمات-التواردات (أنظر المؤلِّف، 2001b).

عبر القرون، ناقش منظرو البلاغة عدد المجازات، باذلين جهدا في تقليصها إلى أصغر عدد من الطبقات، وهي اثنان عند شيشرون، وأربعة عند سانكتيوس، متبوعا بفوسيوس وكولونيا، وثلاثة عند بوزي واثنان عند جاكبسون.[113] ولكن هذه المشاريع الجيدة اقتصرت في مجملها على التصنيف.

إننا نسعى لوصف عمليات بناء المعنى؛ ويقود هذا المشروع في الدلالة المعجمية إلى ربط المجازات ببنية المعجم وبحركة السياق الذي يضعها ويغيرها باستمرار. بالفعل، بالنسبة للدلالة التأويلية، يُطرح المشكل على هذا الشكل: كيف السبيل إلى وصف المسارات التأويلية التي تكوِّن المجاز؟ وما هي القواعد والقيود التي تحدد هذه المسارات؟ إن السياق هو الذي يحدث المجاز، وليس انزياحه بالنسبة للمعنى الأصلي. سنوضح إذن الطرق الابتدائية الخاصة بهذه المسارات، وسنوضح عملياتها الابتدائية وشروطها.

113. يبدو أنه اكتشف مرة أخرى من تلقاء نفسه (1963، الفصل الثالث)، بعد مرور ألفيتين، التميز الشيشروني بين التحويل (*translatio*) و النقل (*mutatio*)، الذي يطابق عنده التمييز بين الاستعارة و الكناية (أنظر دواي، 1988، ص 287): في فقرة من كتابه *l'Orator*، اقترح سيسرون تقسيما ثنائيا لتزيين الخطاب، حيث فصل بين التحويل و النقل، يقول : «مثل النجوم، يتزين الخطاب بالكلمات المنقولة أو المستبدلة. ويقصد«بمنقولة» الكلمات التي، من حيث التشابه، تؤخذ للتزيين أو للضرورة، على أنها أشياء أخرى. و مصطلح «مستبدلة» يعني بالنسبة لي الكلمات التي تستعمل مكان الكلمة الأصلية مع الاحتفاظ بالدلالة اللفظية المتضمنة في شيء آخر يأتي عن طريق الاستنتاج» (الفقرة 27).

ترتبط السبل الابتدائية للسياق المجالي ببنية الطبقات المعجمية.[114] ويعمل السياق المجالي النوعي على الربط بين طبقتين مختلفتين على الأقل؛ ويعمل السياق المجالي المخصِّص على الربط بين العناصر المنتمية إلى الطبقة نفسها.

أ) يعتبر الربط بين المعانم التي تنتمي إلى المجالات أو الأبعاد الدلالية المختلفة رابطا مجازيا (انظر المؤلف، 1987، الفصل الثامن)، ويعمل على نشر السمات النوعية السياقية في المعنم المقارن. كما يتم نشر السمات التقييمية المنتسبة إلى المجال أو البعد؛ وبناء عليه، نلاحظ آثار الارتقاء التقييمي أو الانحداري الذي أثاره البعض سابقا في النقاش الدائر حول شرعية الاستعارات. وفي الأخير، تبرز السمات المخصصة المقترنة بالمعنم المقارن بواسطة التمثل(assimilation)، بل وتنتشر انطلاقا من المعنم المقارِن. عندما قورن مثلا البارون هنري مونتيس مونتيجانوس Henri Montés de Montéjanos على التوالي باليَغْور والأسد والنمر في رواية *La cousine Bette*، فإن السمات النوعية التي تحدده هي/الحيوانية/ و/السنورية/؛ أما السمة المخصصة/جنوب-أمريكي/ فقد برزت بالتماثل مع «اليغور» (jaguar)؛ وأُسندت إلى الشخصية نفسها سمتان مخصصتان وهما /شجاع/ (بالنظر إلى «الأسد») و/غيور/ بالنظر إلى «النمر». وتطرح الترابطات الرمزية بين المجالات المشاكل الهيرمينوطيقية التي سندرسها لاحقا.

114.الطبقة الدنيا هي الطاكسيم. وفيها يتم تحديد السمات المخصصة للسيميم، وكذلك سمته الأقل عمومية (مكرو-عام): مثلا، / آثار الموتى / بالنسبة لكلمة «متحف» و «نصب تذكاري». تعكس الطاكسيمات حالات مختارة: مثلا، تنتمي «الحافلة» إلى الطاكسيم نفسه الذي ينتمي إليه «المترو» (مترو الأنفاق)، بخلاف «الحافلة بين المدن» (التي تنتمي إلى طاكسيم « القطار»). في الواقع، تتغير غالبا الطاكسيمات المشفرة لغويا في الخطاب. مثلا، فوق طاولة مقهى، عندما نقرأ بيرة 6 فرنكات، مشروبات 4 ف. ، فإن السمة / غير كحولي / سمة مجالية متضمنة في «مشروبات»، بينما تعرف القواميس البيرة على أنها مشروب. الحقل هو سلمية منظمة تتضمن الطاكسيمات ؛ مثلا، يحتوي الحقل / وسيلة نقل / على طاكسيمات من قبيل // «حافلة»، «مترو»، « RER» // و // «حافلة بين المدن»، «قطار»//. في الخطاب، يمكن للسيميمات المنتمية لمستويات تراتبية مختلفة داخل الحقل أن تكون متجاورة (مثلا « خمر أو لابادوا؟» ، « البوجولي أو الماء؟»).

الطبقة ذات الطابع العمومي هي المجال الذي يحتوي على مجموعة من الحقول، مثل مجال// النقل // الذي يتضمن وسائل النقل و مجال طرق التواصل،... الخ. كل مجال مرتبط بممارسة اجتماعية معينة، و المؤشرات القاموسية مثل .chim التي تدل على الكيمياء (chimie) أو .mar التي تشير إلى البحرية (marine) هي في الواقع مؤشرات للمجال. في الدول المتقدمة، تتميز اللغات المكتوبة بإمكانية تعداد المئات من الميادين. وهناك راتزان يمكنان من تمييزهما: أ- في نفس المجال، لا يوجد، حسب القاعدة العامة، اشتراك معجمي، لأن الاشتراك ينتج عن تعدد المجالات. ب- بين العناصر المكونة لنفس المجال، لا تؤسس الروابط المجازية ؛ وفي المقابل، تتكون الاستعارة عموما بين الميادين المختلفة، وتستقي أثرها من اختلاف التقييم بين المجالات.

وفي الأخير، تقسم الأبعاد الكون الدلالي إلى أربعة عناصر متقابلة، مثل / متحرك/ مقابل / غير متحرك/ ، أو/ إنساني / مقابل / حيواني/ . وتتعرض غالبا الأبعاد للصياغة النحوية و المعجمية (أنظر في الفرنسية التقابل بين« ça » و «on» ، بين «bouche» و« gueule »). ونشير إلى أن الأبعاد تتفرع إلى عدة مجالات.

ب) داخل نفس المجال، يؤسس الربط بين المعنم والمعانم التي تشير إلى الطاكسيم لعلاقات تراتبية. إذا نظرنا إلى العلاقات المعجمية من التسفل إلى الاستعلاء، فإن العلاقة تسمى«مستعلية» (hypéronymique)؛ وفي الاتجاه المعاكس، تسمى علاقة تسفل. أما المعانم التي ليست لها قيمة، فإنها تعد من السمات القابلة للاستعمال كسمات نوعية، مثلا «شارع» في الطاكسيم الذي يشير إلى طرق التواصل الحضري[115]. ويقال إذن بأن سماتها المخصصة مُقدَّرة.

ج) في الطاكسيم نفسه، تمكن الخروقات الكيفية بين المعانم من تكوين مسارات تنطلق من المعانم ذات قيمة معينة(parangons) في اتجاه المعانم الأقل قيمة، أو العكس (أنظر المؤلف، 1991، الفصل السابع، و1999c). وإذا لم تكن بالطبع ترابطات استعارية بين المجالات داخل الطاكسيم نفسه، فإننا نلاحظ وجود ترابطات بين الأبعاد. مثلا لفهم الجملة التالية: «هذه الفرشة سكين»، نحيِّن السماتِ المجالية بين الأكوان، أي بين الأبعاد الجهية («فرشة»/كون1/مقابل «سكين»/كون2/، وأُلحق هذا بالسمات المجالية / الإرسال/ و/الاستعمال/).

د) لندرس أخيرا العلاقة بين السمات الدلالية داخل المعنم. يمكن ربط معجمة أحد هذه الصفات الدلالية، استنادا إلى السياق المجالي، بسمات من المعنم نفسه. مثلا، تتضمن كلمة «عازف كمان» السمة/كمان/، ولكن «كمان» التي تمعجم هذه السمة يمكن أن تتلقى السمات/إنساني/ و/ إرغاتي/ (عوض/أداتي/). وكنتيجة لذلك، فإن السياق المجالي قد انتشر ليتحول من الأداتي إلى الإرغاتي. و هذا النوع من السياق يعالج المظاهر التي تصنف عامة تحت اسم كناية. و يمكن تمثيلها، في الرسوم الدلالية التي تكون فيها الروابط عبارة عن أنماط،[116] مثل الاستدلالات التي تربط عُقْدة الرسم بعقدة أخرى.

لقد وصفنا هنا المسارات الابتدائية الأربعة في إطار السانكرونيا، ولكن لها مع ذلك متلازمات في الإطار الدياكروني. مثلا، أصبحت السمة/إنساني/، وهي سمة مجالية ملتصقة بكلمة «ouailles» (نعاج) في الفرنسية القديمة، سمة ملازمة في

---

115. نعيد صياغة التقابل بين حاد و ممتد المقترحة من قبل هيلمسليف بالاستعانة بمصطلحات تشير إلى الكمية وهو مصطلح الكثافة الدلالية، أو الكثافة الكيفية المرتبطة بالتقييم. أما الكلمات القليلة الكثافة أو القليلة القيمة، فإنها تستعمل ككلمات عامة (أنظر المؤلف ، c 1999).

116. حسب اقتراحات سووا Sowa، أنظر المثال المقدم أعلاه في الفصل الثاني ، الفقرة الثالثة، الرسم المتعلق بتيمة الملل.

الفرنسية الحديثة. كما نلاحظ أنه يتم التوسع في المعنى انطلاقا من المنهج، بينما يتجه التقليص في المعنى نحوه.[117]

إن المسارات الابتدائية ترتكز على العمليات الأساسية، مثل تحيين السمات المجالية والتمثل التي تلعب، من دون شك ، دورا كبيرا في الإدراك الدلالي.[118]

قبل معالجتها فيما سيأتي، نشير إلى نتيجتين أو أثرين منحدرين من تصورنا حول المعنى. إن «الكلمة»، وبالتحديد الوحدة المعجمية أو المفردة[119] (lexie) ليس لها مبدئيا دلالة لفظية واحدة أو أصلية، ولكنها تملك معاني متداولة (بالمعنى الذي قدمه بوزي) ويكون قاسمها المشترك سمة أو عدة سمات. ويشهد الاشتراك المعنوي (polysémie) بوجود العلاقات التاريخية بين المقاصد، والعلاقات الأكثر قدما من الناحية التصديقية لا تتمتع بأي امتياز خاص. الواقع أن القاموسية تطرح معاني متداولة تنتمي لمختلف الخطابات ولمختلف الأزمنة. ولكن، ما عدا في الجناس الدلالي(antanaclase) و المطابقة المعنوية (syllepse)، لا يعد الاشتراك المعنوي موضوعا من اختصاص المعجمية النظرية السانكرونية.

وفي الأخير، إن المعاني المتداولة المؤولة كأنماط تعتبر أبنية معادة، ولا تُحقَّق سمة من سماتها الدلالية في كل التواردات.[120] ونتيجة لذلك، لا يتمتع أي جزء من المحتوى المعجمي بهوية ذاتية على النحو الذي يمكنه أن يدافع عن الأنطولوجيا الذاتانية. في المنظور الأنطولوجي، وبما أن الأنطولوجيا قد اعتمدت كثيرا على النظريات العتيقة حول المعجم، والتي تخلصت من إرثها إزاء النظريات الحديثة، لا يعد «المرجع» سوى تجميع انتقالي للحوادث، التي تتغير بالسياق إلى ما لا نهاية. إن الأنطولوجيا الكلاسيكية التي لم تمنح الحوادث إلا قيمة غير جوهرية لا تعترف بهذه الأشياء العرضية سوى بإخضاعها للجوهر الذي تمثله الدلالة اللفظية وتُكوِّنه حسب رأينا.

117. أنظر المؤلف، 1991، الفصل الثامن؛ c1999.

118.حول العمليات التأويلية مثل التماثل و تحيين السمات المجالية، أنظر معالجة العبارات التكرارية و المتناقضات في راستيي، 1987، الفصل الثامن، وأنظر كذلك دراسة فرانسوا دواي (1993) حول الجناس الدلالي و التدقيق المصطلحي (paradiastole).

119. ونسميها أيضا مفردة كما فعلنا في الفصول السابقة (المترجم).

120. لا ينطبق هذا التحليل فقط على المعانم، ولكنه يشمل أيضا السيميمات، سواء كانت تنتمي إلى الوحدات النحوية (grammèmes) أو إلى الليكسيمات. مثلا، الماضي المركب يمكن أن يأخذ سمة/ المستقبل/ كما هو الشأن في الجملة : « غدا، على تنهيدة الطيبوبة المزينة بالنجوم، / كسر الربيع الينابيع المقفلة» (فاليري). لم يبق من دلالة الماضي المركب هنا إلا سمة واحدة وهي / تام/ perfectif .

تختلف السمات الملازمة والسمات المجالية من خلال المسارات التأويلية التي تحينها، وليس من خلال الوضع الأنطولوجي للمراجع المزعومة. وبصورة أقوى، تتميز المجازات فقط عن المعنى «الحرفي» أو عن المعاني «الحرفية» بدرجة التعقيد في المسارات التأويلية التي تسهل المرور من التوارد إلى النمط.

ومن بين الشروط التي تهم المسارات التأويلية، نميز الشروط الهيرمينوطيقية، التي تنتمي إلى الخطاب وإلى الجنس وإلى السياق التواصلي، سواء كان السياق مباشرا أو غير مباشر؛ كما نميز أيضا المؤولين الذين تضبطهم الشروط السالفة الذكر على هذا النحو. إن الشروط الهيرمينوطيقية تظل مهيمنة. مثلا، عندما نقرأ كلمات مثل محاضرات ذائبة (les conférences fondantes) ، يمكننا التخلي عن صورة المعارض المثيرة، بل وعن الحلقات الدراسية الشهوانية: إذا كانت هذه الكلمات قد كتبت بالطباشير على لوحة فوق رفوف الفاكهاني، فإن هذا يكفي لتحديد معناها المتداول، واستنتاج أن كلمة ذائبة لا تنتمي إلى المجاز.[121] أما إذا أخبرتكم بتقديم قصة غريبة، فإنكم ستكونون مهيئين لكل أنواع المطابقة المعنوية.

المؤولون من جهتهم غير ملتبسين مع التعليمات، ولا نعترف بهم كأمارات إلا في وقت لاحق. وهذه التحديدات التي تُعرِّف المحلي انطلاقا من الشمولي تطرح المسألة الهيرمينوطيقية.

الدلالة التأويلية والمجازات

إضافة إلى كون البلاغة قد خضعت للنحو، فإن مجموعة من المؤلفين يرون أن تعيين المجازات أمر بديهي، وأن الكناية أو الطباق (antithèse) تحدَّد كما يحدد الضمير أو حرف الجر[122]. وكما هو متعارف عليه، فالذرية والوضعية متوازيان هنا.

قبل مساءلة تأويلها، يجب إعادة طرح البعد النصي للصور المجازية. وبما أن توسيم البلاغة بالنحو يحتوي في مجمله على صور بلاغية في فضاء الجملة وعلى صور غير بلاغية في فضاء الفقرة، وعندما يستشهد النحاة بالنصوص ويعلقون عليها، فإنهم لا يشتغلون مثل البلاغيين. وفي هذا الإطار، تسمح مقارنة رسائل

---

121. على الأقل فهو مجاز مصنف. هذه المحاضرات ليست ذائبة من تلقاء نفسها، ولكن في فم المشتري السعيد، و بالامكان تقريب كلمة ذائبة من صورة المشاركة.

122. مثلا، «الصور الميكروبنيوية» [المجازات] هي «الصور المتميزة بالحضور الفعلي و المادي» (موليني Molinié، 1992، ص 153).

غراسيان وديمارسي بإقامة توازن اصطناعي ولكنه تأسيسي، من حيث العدد وجودة النصوص المدروسة وكذا من حيث وضع الدرجة النصية. وبناء عليه، أزاح ديمارسي وجل البلاغيين اللاحقين البعدَ النصي الذي تتمظهر فيه المجازات والمشكلَ الحساس المتعلق بتأليف الصور؛ غير أن غراسيان درسها تحت اسم «الحدة» (acuité) المركبة.[123] و في مقابل الفصل في الموضوع، هناك تقسيم في النظرية بين دراسة المجازات ودراسة النص في مجمله.

بإمكان الدلالة التأويلية أن تعيد البعد النصي للمجازات، كما يمكنها إعادة النظر في«الدلالة اللفظية» وكذا في «صور المعنى»، وبعبارة أخرى في اللحظات الفريدة التي تطبع المسارات التأويلية. وسنصادف بالتالي سلسلة من القضايا ذات الأهمية المتصاعدة.

أ) كيف نقوم بتعيين الصور دون مؤوِّل مشفر ومعترف به كما هو ؟ لنأخذ مثال الاستعارة. فبخصوص الاستعارة الحاضرة، فإن مختلف المجالات أو الأبعاد تُكون المؤوِّل. وإذا كان التشاكل العام مهيمنا في السياق، فإن السيميم المشار إليه في هذا التشاكل سيكون مقارَنا والآخر يلعب دور المقارِن. مثلا، في المقطع الشعري **شمس (لها) عنق مقطوع** *(soleil cou coupé)* (أبولينير، *Zone*)، يلاحظ أن كلمة «شمس» في وضعية المقارَنة لأنها تمثل تشاكلا، في السياق الذي يُظهر الفعل «نام» والاسم «صباح»،...الخ. وفي غياب تشاكل نوعي ومهيمن، فإن المركب المتناقض لن يكون سوى صنف من الطباق المركب المقلوب(oxymore)[124]. وللتوضيح، فإن التشاكل المهيمن، وحتى ولو كان مقارَنا، ليس هو المعنى الحرفي، لأنه لا يعد معطى، ولكنه مبني، ويمكنه التغير حسب لحظات النص. إن التشاكل المقارِن يختلف عموما عن التشاكل المهيمِن، ولكن هذا الاختلاف لا يُعتبر انزياحا، كما لاَ يعتبر انحرافا[125]. إن أية وحدة دلالية مقارَنة في موضع ما في النص يمكن أن تصبح مقارِنة مع وحدة أخرى: مثلا، في *Magnitudo*

123.لقد خصص لهذا المصطلح الفصل الثاني في رسالته، التي يطرح فيها مشكل تحديد المحلي بواسطة الشمولي: « سواء في التأليف المادي أو في التأليف الخداع ، الكل هو الجزء الأكثر نبلا، وحتى إذا كانت دقته ترتكز على دقة الأجزاء، فإنه قد أضاف الخاصية التي تعتبر أساسية، وهي وحدتها المنسجمة» (1983، ص 182).

124. نجعل من انقطاع التشاكل الرائز الذي يمكن من التعرف على الاستعارة (أنظرجماعة مو، 1977). ولكن بقي أن نوضح الشيء الذي يمكن من التعرف عليها، وفي أي سياق يدرك هذا المغاير وفي أية شروط تعد غير مسموح بها.

125.لم يفهم كليبير هذه النقطة عندما تبنى أطروحة الانزياح، التي كنا دائما نحاربها (1994، ص 38).

parvi، يعكس البيت الشعري التالي:

Ange au regard de femme (ملاك بنظرة امرأة).

الاتجاه الاستعاري المتمثل في الصورة الجاهزة (chiché):

Femme au regard d'ange

(امرأة بنظرة ملاك) (هوجو، التأملات).

إن التنافر أو ببساطة انقطاع التشاكل بين مركبين لا يقود إلى ما مفاده أن الأول منحرف والثاني غير منحرف، إذ عندما يفرض انقطاع التشاكل أو يفترض تجلي السمات المجالية في التشاكلات النوعية، يمكنها أن تدخل في إطار علاقات هيمنة و/ أو تراتبية. ويطابق بصورة غير سليمة ما يسمى المعنى الحرفي التشاكلَ النوعي المهيمن عندما يكون هذا الأخير ذي قيمة دنيا بالنظر إلى التشاكل المهيمن عليه.[126]

أما بخصوص الاستعارة «الغائبة»، فإنها تفرض ترابطا رمزيا يستدعي التعيين بتخمينات مطابقة للخطاب ولنوع المؤلف ولجنس النص، وتكون هذه التخمينات مطابقة أيضا للتدريج اللهجي المتعلق بالتشاكلات. مثلا، في أول مقطع من قصيدة «Fête la paix»، كتب هولدرلين ما يلي:

«في تناسق جميل، وترتيب فاخر، / نُظمت الجنبات هنا وهناك في شكل رفوف فوق/ الموائد المسطحة» (ترجمة بولاك Bollack وآخرون)[127]. إبان النقاش الذي احتدم حول ما إذا كان وصف هذه القاعة المخصصة للوليمة استعارة للعالم الإلهي، حسم زوندي في المسألة، مستنداً إلى قصائد أخرى. ذلك أنه وضح الشروط التي تمكننا من قراءة «جبال» في توارد «الموائد» *[Tische]* (أنظر 1982، ص 16-19). في الواقع، انطلاقا من تاريخ معين، لا وجود لهذا النوع من الاستعارة في شعر هولدرلين، لأن العالم الإنساني والعالم الإلهي غير منفصلين. باختصار، تختزل الاستعارة الغائبة في الترابط الرمزي الذي يجب تعيينه بالتخمينات المطابقة للخطاب ولنوع المؤلف ولجنس النص والمطابقة أيضا للتدريج اللهجي المتعلق بالتشاكلات. وهكذا، وكما لاحظ أوغسطين، ترتبط الاستعارة الغائبة بالإيمان.

---

126. الهيمنة رائز كيفي ذو امتداد وكثافة دلالية؛ والسلمية رائز كيفي متعلق بالتقييم. وتتمثل سيرورة ارتقاء المعنى التقليدي (ريكور)، وهي خاصية الترميز الديني و الفني، في المرور من التشاكل المهيمن الذي يملك رتبة أدنى إلى التشاكل المهيمن الذي يتمتع برتبة عليا. وهكذا، كما يقول روني شار، «توجد الآلهة في الاستعارة».

127.الأبيات المستشهد بها هي الأبيات من 5 إلى 8. وترجمة جان بولاك مقدمة في زوندي، 1991، ص 190.

وأخيرا، كيف يتم التعرف على العلاقات الاستعارية الممتدة على مسافة طويلة[128]؟ في **هيروديباس** لفلوبير، لم تتطابق افتراضاتنا حول الترابطات الاستعارية بين حارة ماكيروس Machœrous ورأس القديس جان (علما أن الأوصاف منفصلة من جراء امتداد النص) إلا مع القراءة اللاحقة التي اعتمدت على المسودات (أنظره 1992 a). إن الفعل الهيرمينوطيقي المتمثل في اختيار مقاطع متوازية يجب أن يخضع للإشكالية. وهكذا، كان علينا التقريب بين هذا الوصف في معبد القدس: «كانت الشمس تسطع على أسوار من رخام أبيض» و بين هذا المقطع: «تبدو قطرات في جبهته وكأنها بخار على رخام أبيض» في وصف رقصة سالومي في نهاية الحكاية الخرافية.[129]

ولما كان الشمولي يحدد المحلي في كل نص، فحتى الصور التي تعتبر عادة بسيطة، مثل المقابلة، نجدها مرتبطة بطبيعة الحال بالطبقات الدلالية التي يمكن أن تكون لهجية، أو أن تكون ببساطة ضمنية. ويعتبر إعادة بناء هذه الطبقات ضروريا لتعيين الصورة. مثلا: في المركب الإسمي «تصوفية زاحفة» (rampante mysticité) الذي يصف عند غراك Gracq سكوت المدن الفلامارية، يفترض إظهار المقابلة الاستعانة بالمعنى المشترك المتعلق بالارتقاء.

ومن جهة أخرى، يضع الجنس الأدبي العقدة التأويلية، بحيث إن أنظمة التعيين وبناء المجازات تتغير بتغير الأجناس. مثلا، في الأجناس الغرائبية، لا نجد استعارات، أو على الأقل، يكون فيها النظام الاستعاري «مخففا». بالفعل، في العوالم المبتكرة، الكل يصبح حَرفيا إذا صح القول. وكمثال على ذلك، في الحكاية الخرافية أحذية الأماكن السبعة، لا توجد أية مبالغة، وبالإمكان تجاوز (حرفيا) هذه المسافة المحترمة وغير المستعملة.

ب) عندما تشارك الصور في البناء التأويلي للأشكال الدلالية مثل الجزيئات الدلالية، فإنه ينظر إليها من زاوية الخلفيات الدلالية، التي تتميز تشاكلاتها بأنها

128. رأي راستيي ورأي ريتشاردز متطابقان في ما يخص الاستعارة، ذلك أنهما أكدا أن الافتراض القائل بأن الاستعارة شيء خاص و استثنائي في الاستعمال اللغوي هو الأسوأ بين مجموعة من الافتراضات. إن الاستعارة بالنسبة لهما ليست انحرافا عن النمط الاعتيادي للاستعمال، وإنما هي مبدأ حاضر في نشاط اللغة الحر. للمزيد من التفاصيل، أنظر آ.أ. ريتشاردز، فلسفة البلاغة، مرجع مذكور (المترجم).

129. يوجد مؤول في المسوداة، وبالضبط في الورقة 403: تنتظر هيرودياد، الموضوعة على الأيدي في نهاية الرقص ، الجزاء، «بعض العرق على هذه الأزمنة مثل الندى فوق الرخام الأبيض». ويلاحظ استعمال الكثافة الصوتية (paronomase) temple/tempes (أنظر المؤلف، 1997 a).

الأحسن وصفا. ولا يمكن فصلها عن هذه الخلفيات حتى ولو كان بالإمكان إعادة تعريف الانزياح، برأي جماعة مو، على أنه انقطاع تشاكلي. وحينما نسلم بالخاصية الإدراكية في المعالجة الدلالية، فإننا نسلم بوجود الوظيفة التكوينية للسياق، المقدم على أنه عُمْق. إذ تنقل العلاقة الغامضة بين الحرفي والمجازي إلى العلاقة التي توحد بين الأشكال والخلفيات المكونة من جراء الاطرادات المنظمة للسمات النوعية. وهكذا، فالصور وسائل لبناء هذه الأشكال ولربطها بالخلفيات. إذا كان أبي واربورغ Aby Warburg الذي عالج التقنيات الفنية قد أدرك الإله «في أدق الجزئيات»، فإن جان بيير ريشار قد سعى لملاحظة ما «بين الجزئيات»، ويجب «رؤيته» في كل مكان، أي تصور وحدة الأشكال والخلفيات الدلالية.

لنأخذ مثلا هذه الكلمة الجامعة عند شار(1983، ص 383) : **يضيء وينطلق- سكين سريع، ونجوم متأنية**. لنفصل المسار التأويلي: أ) التضاد بين «سريع» و«متأنية» يقابل المكونين الأخيرين. ب) تقود السمة / لحظي/ المشتركة بين «سريع» و«ينطلق» عبر القياس إلى تحيين السمة / استمراري/ ليس فقط في كلمة «متأنية» ولكن أيضا في كلمة «يضيء». في الإيقاع الدلالي الممثل بالحروف اللاتينية AB، BB، AA ، تُكون الشبكات التشاكلية المخصصة A (/ سماوي /،/استمراري /و B (/أرضي/، /لحظي/) «خلفيتين» دلاليتين مبنيتين على أساس التضاد. وتُجزَّأ الجزيئات الدلالية (/التأني/، / شيء ناتج/) و (/سرعة/ ،/أداتي /) من الخلفية مثل الأشكال. ويؤمِّن الترابط التيمي الاستعاري بالسمة /إشراق/ ؛ كما يؤمِّن الترابط الجدلي، من خلال الاعتقاد العتيق الذي كان يرى أن النجوم كانت ثقوبا في سكاكين الفضاء السماوي (أنظر القافية étoiles/ toiles عند بودلير، في قصيدته *Obsession*). المهم أن تحيين السمة/ استمراري/ في كلمة «يضيء» لا تكفي لتكوين مجاز، حتى و إن أخذنا بالتعريف المحافظ الذي قدمناه سالفا. وتحتوي كلمة «يضيء» على السمة / استمراري/ تارة وعلى السمة /لحظي/ تارة أخرى، وكلاهما مصنف في القاموس، دون اختلاف من حيث القصد. إن العلاقة التناقضية بين «يضيء» و«ينطلق» غير المتوقعة خارج السياق تمكن من تحيين السمة / استمراري/ في«يضيء»، وهذا دليل على أن تحيين السمات الملازمة تُكون منتهى المسار المجازي. غير أنه في هذا المثال، لا نتوصل إلى التوحد لأن حرف العطف «و» الذي يجمع بين يضيء و ينطلق يعتبر المؤوِّل لنوع من المجاز التعاوضي الذي يُستعان به

على ضوء السكين وعلى حركة النجوم طبقا للمعنى المشترك في الأدب. كما يشير إلى قِصر الكلمة الجامعة (aphorisme) وديمومة الشعر.

ج) وأخيرا، لم يطرح هذا المشكل منذ لونجان[130]، حسب علمي، وقد كانت الصور مجمعة ومتحدة في شكل كتل. لقد كانت بعض الصور خاصة ببعض الخطابات و ببعض الأجناس. إن المجاز التعاوضي في تقليدنا لا يصادف إلا في الخطاب الأدبي، وعموما في الشعر الغنائي. ولكن هذه الحالة غير منعزلة.

تنتمي كل صورة إلى نوع من الانطباع المرجعي الذي نسميه **وحدة استتيقية**. مثلا، عند دراستنا لأشكال الواقعية المتعالية في الأدب، لاحظنا الاتحاد المتردد للطباق المركب المقلوب[131] ، وللمبالغة وللمجاز التعاوضي وللطباق. وتضاف إليها مثلا في **الوحدة الحرة** المطابقة المعنوية (syllepse) وحذف النسق (zeugma) والكثافة الصوتية [132] عند بروطون. القاسم المشترك بين كل هذه الصور هو أنها تواجه، بالربط أو بالفصل، الوحدات الدلالية المتناقضة. وعندما تنقطع التشاكلات النوعية، تساهم الصور في هدم الانطباع بالمرجع الأمبريقي و تحفز انطباع الإحالة على المتعالي (أنظر المؤلف، 1992 b) التي يبحث عنها شعرنا الغنائي التقليدي، على الأقل إلى حدود السريالية (أنظر المؤلف، 1992 b، 1998 b).

اتجاهات

إذا كان من الضروري تبليغ [من البلاغة] اللسانيات، فإن الاستيراد البسيط للمفاهيم وللمقولات المنحدرة من البلاغة لا يكفي. وعوض تقليص البلاغة إلى ما يسمح به الصرف-التركيب واستعمال المجازات كمقولات وصفية غير محللة بطريقة مغايرة لما عهدته، فإن الأمر يتعلق بتطوير الدلالة المعجمية السياقية وذلك بربطها بدلالة النصوص. وفي هذا التصور المورفو-دلالي، تعتبر المجازات لحظات هامة في المسارات التأويلية؛ و اللحظات التي حظيت بالكثير من النقاش مطابقة للنقط النقدية.

للمجازات أربعة وظائف عامة، مطابقة لدورها في تغيير الخلفيات الدلالية

---

130. *Traité du sublime*، XX،1 : « يحرك تجمع الصور في اتجاه النقطة نفسها طبعا، و بقوة، الأحاسيس، عندما تقترض صورتان أو ثلاث صور متلاحمة فيما بينها القوة والإقناع والجمال.

131. مقابلات هذه المصطلحات على الترتيب : antithèse, hypallage, adynation, oxymore .

132. وهذه بعض الأمثلة:
Syllepse sur pieds dans ma femme aux pieds d'initiales
Hypallage dans Ma femme au sexe de miroir/ Ma femme aux yeux pleins de larmes ؛ للنقاش أنظر المؤلف، 1998 b .

والأشكال الدلالية أو العلاقات بين الخلفيات و الأشكال: أ) انقطاع الخلفيات الدلالية (انقطاع التشاكل) والربط مع الخلفيات الدلالية (تعدد التشاكل النوعي). ب) انقطاع أو تغيير الأشكال الدلالية: إذا وصفناها على أنها جزيئات دلالية، فإن التحولات تنطبق بزيادة أو بحذف السمات الدلالية. ج) تغيير انعكاسي للأشكال الدلالية بانقطاع التشاكل المخصص (مقابلات) أو القلب الدلالي(المجاز التعاوضي مثلا). د) تغيير العلاقات بين الخلفيات و الأشكال، بحيث إن كل نقل لشكل ما ليحل محل الخلفية يغير هذا الشكل، و من هنا مثلا الاستبدال الدلالي الذي تحدثه الاستعارات.

هذه الوظائف أو بالأحرى هذه الآثار غير مخصصة و يمكن للصورة الواحدة أن تولد صورا أخرى. وفي الأخير، لا تعتبر المسارات بين الخلفيات أو بين الأشكال ممرات من خلفية إلى أخرى، أو من شكل إلى آخر. في فرضية الإدراك الدلالي، تصبح المسارات مماثلة لإدراك الأشكال الملتبسة؛ وهكذا، تظهر الاستعارة خلفيتين دلاليتين في آن واحد (مما يؤدي إلى الأثر القياسي الذي تتميز به)؛ ويظهر المجاز التعاوضي شكلين و جزأين من الأشكال، في إطار غموض يذكر الأوهام الكلاسيكية المتعلقة بالبطة-الأرنب أو بالعجوز-العبقرية.

باختصار، لا يمكن فهم المجازات إلا بربطها بالشروط الجينية وبأثرها المحاكاتي وبوظائفها الهيرمينوطيقية. وحينما نترك الأنطولوجيا لنتبنى البراكسيولوجيا، فإن الأشكال الدلالية لا تُشيِّء في الدلالات اللفظية وتصبح لحظات مستقرة في إطار السيرورات المنتِجة والمساعدة على التأويل. وتكون المجازات، بصفتها تقاطيع نقدية لهذه الأشكال و لهذه العلاقات النمطية بينها، لائحة من المخصص التلفظي الذي يؤسس الأشكال و يطورها ويجزؤها. إن المجازات، وهي أبعد من أن تقلص إلى تزيين يخفي جسما أنطولوجيا مطروحا أصلا عبر الدلالة اللفظية، تعتبر وسيلة لإنتاج الدلالات وتأويلها. وبناء عليه، فالمجازات لا تضاف إلى الدلالة اللفظية، وإنما تُكَونها وتنظمها في درجة الجملة، وتنقلها في درجة النص وتحولها في نهاية المطاف إلى معنى.

إن المجازات تختلف حسب الثقافات و اللغات و التقاليد[133]، و بعضها يفترض

133. مثلا في التقليد الهيليني ثم المسيحي الذي لم ينفصل عن الأنطولوجيا الثنوية، تعود امتيازات الاستعارة المفرطة إلى كونها تستعمل للربط بين مجالَيْن سياديين للكائن. بينما، في التقليد الياباني، الخاضع لهيمنة البودية، والذي يمثل الفكر غير الثنوي و الذي يعتبر الأنطولوجيا سلبية، يلاحظ أن الاستعارة قليلة، ونفس

لغات مكتوبة. أما جردها، فإنه غير مكتمل. أضف إلى ذلك أن مشروع جماعة مو الذي كان يسعى إلى إعادة التأسيس النسقي للمجازاتية استنادا إلى الروائز اللغوية يستحق المتابعة. إن المجازاتية المؤسسة سيميائيا ستكون لها منحى انثروبوجيا. والأساطير لا تختزل في بنيات سردية قابلة للوصف كسلسلات حوادث: ذلك أن الأساطير منظمة بالتنقلات والميتامورفيزمات (أنظر الفصل الأول) التي تضع قيودا على ما سماه ريكور الذكاء السردي. ومن درجة الكلمة إلى درجة النص، تعالج الأساطير نفسها التحولات الموضوعاتية والجدلية و الحوارية.

إن انفتاح المجاز على السيميائيات لأمر يفرض نفسه، لأن المجاز، أو على الأقل المجاز الأكثر عمومية، ينتمي بالفعل إلى المعجم وإلى النظريات التي تهتم بالمباحث الرئيسية حول جماليات الفنون المرئية (معمار، رسم، نحت، سينما)، بل وحتى الموسيقية، وبالخصوص الموسيقى الباروكية، التي كانت تعد «بلاغة الآلهة». وهكذا، تحدث البعض عن التفنن المجازاتي عند بالاديو Palladio؛ وبعض الكتاب قارنوا ورقة السونات بالواجهة في المعمار الباروكي...الخ. إن هذه التشبيهات الخطرة لا يجب أن تثير الضحك. فكل وحدة استتيقية- المقابل الفني للإيبستمي-تحتوي في الواقع على جرد عام من العلاقات و الانتقالات التي ينظمها اتحاد المجازات المفضلة في كل عصر.

=الشيء بالنسبة لتشخيص الأشياء أو قوى الطبيعة. و تحجب الاستعارة، وعلى الخصوص في هايكو، أمام اللعب بالكلمات، الذي ليس له أية خاصية كهنوتية (أنظر، كوايوCoyaud، 1996، ص 299).

الفصل السادس

الأسْلُوبية ولسَانِيَات الأسَاليب

يتعين البحث عن قلب اللغة في الأسلوبية أكثر من البحث عنه في النحو.

Ernest Cassirer, *La philosophie des formes symboliques*, I, p. 72

أوجد مصطلح أسلوب حقلا معرفيا أكاديميا، نظرا لكونه يستعمل في كل ناحية دون أن يتعرض لشبهة، لكن وضعه يظل محل نقاش.

كان هيلمسليف يقول إن مؤلف كاتب ما يعتبر أكبر وحدة لغوية موجودة. وكان جل اللسانيين مرتبطا تقليديا بالكلمة وبالجملة، فلم يعر اهتماما لهذا القول،لأن اللسانيات الضيقة التي تبحث عن وصف القواعد- هذا إذا لم تكن تبحث عن سَنها- لم تتمكن من وصف ما هو خاص، وبالدرجة الأولى خاصية النص والمؤلَّف.

وربما تسمح العودة إلى مفهوم الأسلوب[134] بتعميق ابستيمولوجي في اللسانيات: أو لا تكون، مثل العلوم الاجتماعية الأخرى، مبحثا وصفيا، قادرا على التفكير في الخصوصي[135]؟ ألا يمكنها طرح مشكل خصوصية النصوص و وصف،

134. مفهوم الأسلوب: من الصعب تحديد كلمة «أسلوب» فهي تستعمل في ميادين عديدة مثل اللسانيات، و الأدب، و الموسيقي، و المسرح ، و السياسة... الخ. و مصطلح «أسلوبية» هو أيضا متعدد المعاني ، فهناك أسلوبية الانزياح، و أسلوبية المعايير الاجتماعية، و الأسلوبية السياقية، والأسلوبية الوظيفية و غيرها. للمزيد من التفاصيل أنظر:
Spitzer, L., *Etudes de style*, Paris, Gallimard ; Guiraud, P., *La stylistique*, 1979, Que sais-je ?(المترجم).

135. المقولة الأرسطية التي تقول بأن لا علم إلا ما يعتبر عموميا قد أولت من زاوية الكونية، استنادا إلى النجاح الذي عرفته علوم الطبيعة. وترتكز هذه المقولة على أنطولوجيا الأصناف، بحيث يصف العلم الأشكال النموذجية والمحايثة للمادة. ونشك في أنها تنسجم مع علوم الثقافة التي تصف الاطرادات المتموضعة فوق القوانين الكونية والمنساقة إلى التسليم بالفائدة العلمية للموضوعات الفريدة.

على مستوى التحليل الذي تتبناه ـ ما يميز مؤلفات بلزاك عن مؤلفات سليست دو شابريان Céleste de Chabrillan مثلا؟ إذا سلمنا بالأهمية الاستكشافية لهذه المسألة، فإنه سيصبح من غير الضروري الإفصاح بأن الأسلوب مفهوم قبل- نظري[136]، حين نتيه في النزعة العلموية المضخمة. في الواقع، من حسنات هذا المفهوم أنه طرح، على المستوى التوليفي، مشكلين، ومن الواجب على اللسانيات أن تتصدى لهما. وهذان المشكلان هما مشكل المعايير اللهجية ومشكل خاصيات النص الجمالية.

الأسلوب، من النوع إلى العبقرية

يظهر التمييز العتيق للأساليب الثلاثة، العالي والمتوسط والبسيط في إطار البلاغة[137]، ويربطها شسيرون في مقدمة كتابه *l'orateur* الذي عرف نجاحا خارقا، بثلاث مدارس رئيسة للفصاحة. وهذه المدارس هي المدرسة الآسيوية و الرودوسية واللاتينية. وبعد مضي أربعة قرون، ربط ديوميد صراحة هذا التقسيم الثلاثي بسلمية الأجناس. وفي الحقبة نفسها، قام دونا، حين علَّق على فرجيل، بربطها بما يمكن أن نسميه الموضوعاتية المتباينة التي تقول: كل أسلوب يقابله حقبة في العالم و حالة اجتماعية و نوع من المشهد الطبيعي... الخ[138]. و سيُؤمِّن هذا التصديق الثلاثي على أصناف الفصاحة و على الأجناس وعلى التيمات لآلاف السنين ثباتَ نظرية الأساليب المرتبطة بالعصر القديم المتأخر .

كنا نعتقد في السابق أن سلمية الأساليب الثلاثة «متماثلة بوضوح مع السلمية الاجتماعية» (1972، ص85)؛ في مواجهة خطر تبديد هذا الوضوح، حان الوقت لتوضيح هذا الكلام. تشهد سلمية الأساليب، بطريقتها الخاصة، على سلمية الوظائف في الإيديولوجية الهند- أوروبية. و يتطابق الأسلوب الأعلى مع الوظيفة الثانية، التي نسميها، للتبسيط، الوظيفة الحربية، وهو الأسلوب المستعمل في الملحمة. أما الأسلوب المتوسط و البسيط، فإنهما يطابقان مظهرين من الوظيفة الثالثة (الوظيفة الإنتاجية)

136. وضح نيكولا روفي Nicolas Ruwet التصور الكارثي في تاريخ الأفكار المرتبطة بالمدرسة الشومسكية، التي تطرح نظريات تعجز عن معالجة الظواهر الأسلوبية.

137. نعلم أن النظريات الجمالية المستقلة لم تظهر إلا في أواسط القرن الثامن عشر، أما الشعرية، فلم تكن لها وضعية الحقل المعرفي، ولم تكن أبدا ملحقة بالثلاثي(Trivium) لمدة طويلة.

138. نميز على سبيل المثال المتواليات الآتية: *miles, equus, gladius , castrum / laurus, agricola, bos, aratrum, ager, pomus/ pastor, ovis, baculus, pascua, fagus.*

ويعد الأدب الدعوي من بين مجالاته المفضلة. تظهر الوظيفة الأولى، وهي وظيفة كهنوتية، في النقاشات حول الأسلوب السامي عند لونجان Longin على الخصوص. وفي الجماليات الأفلاطونية الجديدة التي ميزت عصر النهضة، وسيتنافس الشعر الغنائي والتراجيدي الذي كان دوما مرتبطا بالمقدس، مع الملحمة حول التعالي[139]. يتضمن النوع الأكثر علوا الوظيفتين الأوليين[140]. أما النوعان الكبيران المتبقيان فهما الشعر الغنائي - لم يعد هناك جنس أدبي آخر مماثل - والرواية التي تعد وريثة الملحمة. وللإشارة، فالرواية فن مطبوع بخصائص بورجوازية؛ وهذان النوعان يشيران إلى هذين المظهرين من التعالي.

كون سلمية الأساليب تطابق السلمية الهند-أوروبية للطبقات الاجتماعية أمر يظهر هنا وهناك حتى في عصر النهضة[141]. وهكذا أقام فابري تماثلا بين الأساليب الثلاثة و الأوضاع الثلاثة: ينطبق الأسلوب الأول على الكبار، متضمنا البابا والملوك، و ينطبق الأسلوب الثاني على البورجوازيين، والثالث على طبقة الفلاحين والخدم (1521، أنظر لوكوانت،1991، 1، أ ص169). باختصار، كان لمفهوم الأسلوب إلى حدود عصر النهضة تعريف نوعي[142]، إذ إنه استُعْمِل لتقسيم وبالخصوص لإقامة

---

139. كان الشعراء يمثلون الوساطة بين البشر والآلهة. أنظر لوكوانت Lecointe، 1991، t.I، ص 164: « بالنسبة لبوكاس Boccace مثلا، يكمن أصل الشعر في الحاجة إلى العبادة، مثل الأماكن المقدسة والقائمين عليها، فالشعر مرتبط بفعل اجتناب المدنس». مخترعو هذه الأماكن«كانوا يعتقدون أن العبادة تحول كل شيء آخر إلى نبل و أرادوا أن تستعمل الأقوال القابلة للنطق بها أمام الآلهة [...] بعيدا عن كل أسلوب نابع من التعبير الشعبي أو العمومي. بالإضافة إلى هذا، لكي يظهروا أن الأقوال تملك قسطا وافرا من النجاعة، أرادوا أن تكون مكونة طبقا لإيقاعات محددة، تجعل الإنسان يحس بشيء من الدفء وتبعده عن الحزن والعذاب. وبالفعل، لم يكن التعبد الواجب القيام به يقام بصيغة مبتذلة أو مستعملة، ولكن في شكل مؤسس وجديد وناتج عن بحث *(exquisita)*».

140. كانت النقاشات المعقدة حول ما إذا كان من اللائق تمييز الأسلوب السامي عن الأسلوب المتعالي تروم دون شك إلى تحديد الأساليب المرتبطة بالوظيفتين الأولين، الأسلوب السامي والمتعالي المتقابلان إذن مثل تقابل البلاطي والمقدس.

141. كتب جان دو كارلاند Jean de Garlande في *Poetria* ما يلي:
« Item sunt tres secundum tres status hominum : pastorali et agricolis ».
[هناك ثلاثة أنواع من الأساليب مطابقة لثلاثة أوضاع للأشخاص، ينسجم الأسلوب الوضيع مع الحياة الرعوية، المتوسط مع الفلاحين والقوي مع الأشخاص الذين يهيمنون على الرعاة والفلاحين]
in Tatarkiewicz, *History of Aesthetics*, t. II : *Medieval Aesthetics*, Mouton, La Haye, 1970, p.123).
نعلم منذ أعمال دبي Duby خصوصا *Les trois ordres et l'imaginaire du féodalisme* أن هذه الأنظمة منبثقة عن الإيديولوجية الثلاثية الوظيفة التي طرحها دوميزيل Dumézil.

142. تسمى عادة الأساليب *genera dicendi* . عند المرور من سلمية أنواع الخطاب إلى السلمية الاجتماعية، لا توجد إلا خطوة واحدة، ثم إن تطور البورجوازية مطابق لذوبان الأساليب الثلاثة. وكمثال رمزي، قال فورتيير Furetière في بداية مؤلفه *Roman bourgeois*، معيدا بصورة تهكمية*L'Enéide* :« أغني قصص الحب =ومغامرات العديد من البرجوازيين الباريسيين، من كلا الجنسين». وهكذا، استبدل فورتيير الأسلحة بالمغامرات الغرامية، كما استبدل الرجال بالنساء والأبطال بالبورجوازيين.

سلّمية أنواع الخطابات و النصوص.

و لكن، مع الفردية المتطورة عند الفنانين، و مع ظهور أولى النظريات الحديثة حول العبقرية، أصبح مفهوم الأسلوب متمثلا في تلخيص خصوصيات كاتب ما، كما لو أن العبقري يخلق نوعه الخاص، بإعلاء الأنواع التقليدية. ويصل هذا التطور ذروته مع الجمالية الرومانسية التي مازلنا نرتبط بها.

تكشف ترددات كُتاب القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر هذا التطور. ولحذف الغموض، اقترح لاموط لو فايير La Mothe le Vayer إطلاق اسم خصائص على الأساليب بالمفهوم النوعي[143]. ومن المعلوم أنه لن يكون له تابعون، واقترح دومارسي الاحتفاظ بتصورين:« إلى جانب كل الطرق المختلفة للتعبير عن الأفكار، أي الطرق التي تتطابق بالضرورة مع المواضيع التي نتحدث عنها، و لأجل هذا تسمى الأسلوب المناسب. وهناك أيضا الأسلوب الشخصي، أي الطريقة الخاصة التي يعبر بها كل شخص عن أفكاره» (*Traité des tropes*, II,2). لم يحتفظ دالامبير وهو أحد الرواد الأوائل في هذا المجال، إلا بالتصور المميِّز: «يطلق مفهوم أسلوب على المميزات الأكثر خصوصية، والأكثر صعوبة و الأكثر ندرة، وهي مميزات توسم عبقرية أو براعة من يكتب أو يتكلم» (*Oeuvres*, t. III,p. 198). أما ريفارول، المعروف برجعيته التلقائية، فتمسك بالتصور النوعي.

وبصدد التكوين الحديث لمفهوم الأسلوب، ظهرت الإرهاصات الأولى في القراءة الفردية التي قام بها هامان لكتاب *Traité de styles* مؤلَّف بوفون (أنظر توارThouard ، 1995). وقد مر من الكوني المرتبط بالإنسانية عند بوفون إلى النزعة

ومن هنا جاء تصريح أويرباخ Auerbach: «كانت حكاية المسيح، التي بدت كخليط من الواقع اليومي والتراجيدي المتعالي، هي الحكاية التي كسرت القاعدة الكلاسيكية» (1968، ص550). ويجب دون شك إدخال تعديلات على هذا القول: مند نسخة الإنجيل المترجم إلى اللاتينية من طرف سان جروم Saint Jérôme وصولا إلى *L'Authorized Version*، لم تنقطع ترجمات الكتابات المقدسة من تقليص التشتتات وانقطاع النبر في الشعر الإبراهيمي، وذلك لوضع الأسلوب المتعالي الذي يتلاءم والمقدس. و أغلب الظن أن الرواية هي التي حطمت النسق الكلاسيكي للأساليب، وليس الإنجيل.

143. نجد هنا ترجمة للمصطلحات الإغريقية: « يجب التمييز بين الأساليب والخصوصيات، وهذه الأخيرة تكون جد محدودة وغالبا ما تكون متشابهة عند مجموعة من الكتاب، في حين أن الأساليب لا نهاية لها؛ إن الأساليب مثل الوجوه، تختلف من كاتب لآخر، والوجوه لا تفتقد لعنصر خصوصي يميزها» *(Considérations sur l'éloquence française de ce temps, 1638)*. لقد كان التناقض بين تصورين للأسلوب يمثل المحور الأساسي في *La Rhétorique ou l'art de parler* لبيرنار لامي(1675). بعدما أقر بالتنوع اللامتناهي للأساليب، الصادر عن تنوع المواضيع وتنوع الكتاب، حاول برنار لامي مع ذلك وضع تصنيف حسب أنواع الفصاحة (أسيوية ورودوسية وأثينية)؛ وحسب القرون، وكذلك حسب التقسيم الثلاثي الكلاسيكي (متعال ومتوسط وبسيط)، وأخيرا حسب ما يمكننا تسميته بأصناف الخطابات (خطاب المؤرخين، خطاب الشعراء،... الخ).

الوحدوية المرتبطة بالفرد، و أحال على الصيغة البوفونية «الأسلوب هو الرجل» التي اعتبرها تأكيدا على أن إنتاج الخطاب وتكوين النزعة الفردية متوازيان. إذا كان كتاب أدلونغ Adelung وعنوانه *über den Deutschenü* (1785) قد حاول ربط الأسلوب باللغة بدلا من ربطه بالشخص، فإن شليرماخير هو الذي تابع الصبغة الانفرادية التي كانت ملموسة في تعليقات هامان. والموقف الذي دافع عنه في *über den Stil* (1790-1791) قاده إلى التمييز، في كتابه *Herméneutique générale* (1819)، بين مقاربتين متكاملتين لكل نص. وتهدف المقاربة المسماة المقاربة النحوية إلى إعادة الشفرة، وتحاول المقاربة النفسية أو التقنية أن تقيس الفارق الذي كرسه مستعمل النحو للتعبير عن شيء لا ينتمي إلى الميدان المشترك. إذا كان النحو يؤسس العمومي بالنسبة للمجموعة اللغوية، فإن «التأويل التقني يحاول أن يوضح كيف يقلب المتكلم الخاص، حسب ميولاته، هذه الشفرة المشتركة وهكذا يسجل تميزه، تاركا أثرا في الشفرة، وهذا ما يسميه شليرماخير الأسلوب»[144]. لقد وسع هذا الأخير إذن الأسلوب إلى خارج الأشكال الأدبية وجعل بشكل ما من الإبداع اكتشافا للذات، ومن الأسلوب أثرا، كما جعل منه سبب الفردية . ومن جهة أخرى، لم يعد ينظر إلى الأسلوب على أنه معيار، ولكن أصبح يعتبر استعمالا جديدا للمعيار المشترك[145].

ظهر مفهوم الأسلوبية وكلمة أسلوب في ألمانيا في نهاية القرن الثامن عشر، في فترة قريبة من ظهور كلمة لسانيات ، والمقابل الفرنسي لهذه الكلمة لم يظهر إلا في سنة 1872. وحسب معرفتي، فنوفاليس هو أول من استعمل هذا المصطلح في سنة 1800. إذا كانت هذه الأسلوبية الألمانية الأولى تبدو«وريثة جزئية للبلاغة»، الشيء الذي يؤكده دواي (1922، ص 485)، فإنه قد أصبحت بسرعة عبارة عن إعلاء للمتعالي، إذ في مقابل البلاغة المُمَدرسة، تتميز الأسلوبية الرومانسية بتطورها النظري.

في فرنسا، وكما في *L'Encyclopédie méthodique* (1786)، كانت البلاغة منقسمة إلى نحو وأسلوب[146] وكان مارمونتيل Marmontel يعالج كل ما له صلة بالأدب[147]

144. ويسمان Wissmann، 1997، ص79.

145. نجد هنا إحراجا عاديا لنظريات الانزياح، فالألمانية ليست فقط هي الألمانية المشتركة، هي أيضا خطاب محايد، أي خطاب رجال الأعمال. و بعبارة أخرى، يربط المعنى الحرفي باللغة أو بالكلام العادي. ولكن الكلام العادي لا يمكن عدّه إسقاطا بسيطا للغة.

146. يستعمل دواي Douay كلمة «dépecée» (مجزأ، مقطع) 1994، ص 11.

147. كلمة أدب Littérature مكتوبة بتكبير الحرف الأول (المترجم).

في خمسة أقسام: الأسلوب و العروض و الشعر و البلاغة و الأدب. إن الأسلوب ملخص في 92 صورة، وهي أساسا صور التفكير. وسيعلن هذا المنحى عن تقسيم تدريس الأدب إلى نحو و أسلوبية من جهة، والنقد الذي لن يكون أكثر من قراءة عاطفية للمؤلفات الكبرى[148]، من جهة أخرى. ومازالت المباريات [امتحانات التبريز في فرنسا] تعكس هذا التقسيم إلى يومنا هذا.

سيهيمن التطور الفردي للأسلوب بصفة نهائية مع الجماليات الرومانسية، وهذا ما يلاحظ مثلا في التعلق بالأسلوب لدى فلوبير الذي يمكن وصفه بعلاقة التصوف. وسنذكّر ببعض الحقب التي ميزت تاريخه. من تقديس الكلام ويمثله لافاك الفيدي، يلاحظ عند بعض السابقين لسقراط، مثل ديمقريط، تأليه اللوغوس. و مقابل وظيفة الشاعر، وهي لا محالة ذات أصل كهنوتي، هناك حماس شغل بال أفلاطون خصوصا في كتاب إيون. لقد احتُفظ بهذا المصطلح في التقليد البلاغي وعند الكتاب الأقل تصوفا من أرسطو (أنظر 1455a، *la poétique*) و شيشرون (أنظر: le *De Oratore*, II, 46 (Pro Archia, 8, 18-19 أو كانتليان (أنظر II, 4, 4 et 6-7، *l'Institution oratore*، وخصوصا تيمة الفكر *spiritus*)[149].

في عصر النهضة، ارتبط مفهوم العبقرية العتيق ، أو كما يسمى باللاتينية *ingenium*، وهو نوع من الميل الطبيعي للفرد، بالإلهام الشعري، و غالبا ما تحدد العبقرية بالتأثيرات الفلكية: فقد سماها بوكاس (خصوصا في XIV، *Genealogia deorum*)، الحماسة وسماها بعد ذلك فيسان «الغضب الأفلاطوني» *(Furor platonicus)*. وكان هذا اللقاء عاملا مهما في إنشاء مفهوم العبقرية الأدبي، وذلك ما وضحه ببراعة جان لوكوانت. ويعتبر دانتي النموذج المثالي للشخصية النخبوية، وسيهيمن مصطلح العبقرية الأدبي على الثقافة الغربية إلى حدود جويس . وفي هذا السياق كان العبقري الأدبي متعاليا على النسق التراتبي لأنواع الخطاب، حتى عندما يتحرك بشكل طبيعي في إطار الأسلوب الأعلى. ويظل هذا التصور مرتبطا ارتباطا تنوعيا بالدين، إذ إن دانتي وبيتراك يستمدان إلهامهما من القديس فرانسوا داسيز، وبوكاس يعتبر موسى

148. أنظر مارمونتيل، *Eléments de littérature* ، 1787 و لاهارب La Harpe ، *Cours de littérature ancienne et moderne*، 1799.

149. كانت هذه التيمة جد مشتركة إلى درجة أن هوراس Horace تهكم على العبقرية (أنظر *Ars poetica* , 275 sq. et *Sermones*, I, 4, 39 sq.) وقد جعل منها أوفيد Ovide دليلا لإغراء الجميلات (*Est deus in nobis, et sunt commercia coeli*, cf. *Ars amandi*, v.552).

وداوود من بين الذين اخترعوا الشعر. أما رونسار Ronsard، فقد أعطى لنفسه تلقائيا دور الوسيط بين الإله و الأمير.

ولكن، وعبر مسار لابد من وصفه بالتفصيل، وحين يضعف الإلهام، يصبح العبقري، شيئا فشيئا، مدينا للأسلوب، وللتذكير فالأسلوب، نوع من الأناقة الشخصية المنتشرة في مؤلفاته، بل منتشرة في كل مؤلفاته. و أصبح العمل الأدبي، المطروح، كعمل تصوفي . ويعد فلوبير واحدا من أكبر المتصوفين- عند المعاصرين، من مالارميه إلى بلانشو ، حاملا لمهمة تأويلية. وفي هذا السياق، يصبح الأسلوب الوسيلة التي تطمح إلى واقع أكثر سمُوّاً، بل أداة لثيولوجيا سلبية كفيلة بتنحية هذا العالم الدنيوي- بدرجة الصفر وبالكتابة البيضاء[150]. لقد كان للكتابة البيضاء خدام متدينون مثل أي علم روحاني؛ حتى و إن كانوا معرضين لإغراء العالم الدنيوي، مثل بارط، فإنهم يُعتبرون نساك النص.

وظلت المشاريع الأدبية الكبرى متعلقة بصورة العبقري الذي تَكوَّن في عصر النهضة. إذا كانت السريالية المذهب الوحيد الذي احتفظ بالتيمة القديمة للإلهام[151] في الكتابة الآلية التي تخرج للوجود تحت تأثير اللاوعي، فإن كل المشاريع الأدبية قد جعلت من الأسلوب مطلقا شخصيا.

وهكذا انتقل تاريخ الأسلوب من زهد الطبقات الاجتماعية، كما تعكسها سلمية الأجناس، إلى الزهد الفردي، الخالق العبقري. الاثنان معا غير منسجمين، وقد أكد لويس دومون Louis Dumont بأن الطريق الوحيد في الهند للإفلات من نظام الطبقات هو التنسك. يدخل التنسك إذن في نظام آخر للمقدس. وأغلب الظن أن الموهبة الأدبية، كما كان يعيشها بيتراك و إلى يومنا هذا، ليست دون رابط مع هذا الانفصال. باختصار، وعلى مدى تطوره التاريخي، كان مفهوم الأسلوب يحاذي غالبا الصوفية، و أمّنت الاعتقادات الخرافية التي تحيط به استمراره.

---

150. إشارة إلى كتاب رولان بارط: **درجة الصفر في الكتابة** (المترجم).

151. يعيد عنوان كتاب بروتون و سوبو Breton et Soupault، (*Les champs magnétiques*) الذي اشتهر بكونه بياناً حول الكتابة الآلية، الصورة الأفلاطونية للمغناطيس، «تلهم ربة الفن الشعراء الذين يعبرون عن حماسهم في اتجاه محترفي القصائد الملحمية القديمة ثم في اتجاه الجمهور. وتشبه بذلك عمل المغناطيس الذي يرسل فضيلته من قطعة حديدية إلى أخرى» (Ion، V). وقد طرح هذا الموضوع المتناول باستمرار في عصر النهضة عند بوليسيان، في *les Silves* (أنظر (*Ambra*، v. 14-1؛ v. 193-196، *Nutricia*).

اللسانيات وصعوبة تعريف الأسلوب

عموما، ترك الانهيار الأكاديمي للبلاغة في نهاية القرن التاسع عشر مفهوم الأسلوب فارغا. وسيعمل النحو الذي كان حقلا معرفيا مجاورا للأسلوبية في الثلاثي *(trivium)*، والذي تطور ليصبح لسانيات، على إدخالها والاحتفاظ بها إشكالية و مجالا هامشيا في حقل علوم اللغة، دون امتلاكها. لم تلق اليوم الصعوبات التي تم إبرازها حلا شاملاً. و المفارقة أنه عندما أسس بالي Bally سنة 1905 الأسلوبية كمبحث أكاديمي، وضع قطيعة مزدوجة في كتابه *Précis de stylistique* مع الفردية من جهة ومع الجماليات من جهة أخرى. وكان يهدف إلى « الفصل نهائيا بين الأسلوب و الأسلوبية»، ليكتفي بدراسة الاستعمال الشفوي المشهود له بأنه عفوي بالنسبة لنا. إن هذه القطيعة المزدوجة منبثقة من الإدعاءات العلمية لهذه الأسلوبية، ولا تدخل ضمن اللسانيات الوصفية. و إذا لم يعد لبالي أي تأثير في وقتنا الحالي، فإن وجهات نظره تستحق الانتباه، لأنها تشير إلى الصعوبات التي يعاني منها الأسلوبيون المعاصرون الذين يشتغلون في إطار علوم اللغة.

هل يمكن بناء لسانيات الكلام، بالمفهوم السوسيري للكلمة؟ إن التقابل بين اللغة والكلام يستدعي بوجه الاحتمال عند سوسير تركيبا يجمع السوسيولوجيا المكثفة عند دوركهايم والسوسيولوجيا الفردانية التي تبناها طَارْدْ. عندما تساءل بالي عما إذا كانت الأسلوبية ستجد موضوعها «في لغة خاصة» أو «في نسق تعبيري لشخص منفرد» (1951 ص 17)، فهو قد أقر فعلا بالنسق الفردي. و لكن بين نسق اللغة وهذا النسق الخاص، لا تتنبأ نظريته بأي شيء، و لا يمكن تحديد الربط بين هذين النسقين[152]. تهمل النظريات اللغوية الأخرى المعاصرة بنفس الشكل فضاء المعايير[153]. إن هذا النقص الهائل يعوق التفكير في الأجناس والخطابات، ويعطل إذن تكوين فيدرالية المباحث التي تعالج اللغة (أنظر، الفصل الثامن).

وحسب بالي، ما يفصل قطعا الأسلوب عن الأسلوبية، هو أن الأديب « يستعمل اللغة عن قصد ووعي[...] و بالخصوص[...] يستعمل اللغة بنيَة جمالية » (1951، ص

152. و مع ذلك، فقد أثبتت وثائق سوسير التي عثر عليها مؤخرا أنه كان يبحث في كتابه «دروس» عن كيفية ربط لسانيات اللغة بلسانيات الكلام (2001)؛ ويبدو أن طبعة بالي وسيشهاي Bally et Sechehay قد أهملت عمدا هذه النقطة في التفكير السوسيري.

153. في اللسانيات البنيوية الأوربية، كوزوريو هو اللساني الوحيد الذي وضع هذا المشكل في شكله الواسع (1969) في فرنسا. وفي مجال الدراسات الأدبية الفرنسية، يرجع الفضل لفليب هامون Philippe Hamon في توسيع هذا المشكل.

19). لم يتبع اللغويون و النقاد بالي في منهجه الرافض للجماليات، والسواد الأعظم من الأسلوبيين المعاصرين يتخذ الخاصية الأدبية موضوعا له. ولكن موقفه يؤكد مع ذلك عدم القدرة الدائمة للسانيات على الأخذ بعين الاعتبار العوامل الجمالية في استعمال اللغات، ليس فقط من أجل ما يخص الفنون اللغوية والجماليات المنظرة، ولكن أيضا من أجل ما يمكن أن نسميه الجماليات الأساسية.

الكون الإنساني غير متكون من معارف من جهة ومن انفعالات، من جهة أخرى. يعيد هذا التمييز القار، دون أسس، والمضمن في العلوم المعرفية الحالية، طرحَ مسألة الفصل العتيق بين القلب والعقل[154]. الثنائية الميتافيزيقية التقليدية هي الثنائية الوحيدة التي استطاعت أن تفرق بين الأحكام والانفعالات، وفي علوم الأعصاب حذف الاكتشاف المتطور للدماغ الهرموني صورة دماغ أعصابي موصول بأسلاك ومرتبط بالمعلوميات، وهذا يعد استيهاما خالصا للعقلانية الدوغمائية. لا تعد حيادية المعلوميات إلا اصطناعا حداثيا، مطابقا للحكم المسبق القائل إن اللغة أداة بسيطة تعتمد الكتابة الرمزية المستعملة بخصوص التفكير العقلاني.

لنعترف مع كل هذا بأن الكون الإنساني مكون من أحكام اجتماعية وفردية، وتعتبر مسألة الحكم أو التقييم موضوعا للجماليات الأساسية. وتنتمي هذه الجماليات إلى اللسانيات عندما يكون موضوعها المادة اللغوية ذاتها . في الدرجة الصرفية تتضمن كل اللغات مورفيمات تقديرية، مدحية أو قدحية (أنظر مثلا اللاحقة-acci- في الإيطالية). في الدرجة العليا، يلاحظ أن معجم اللغات مليء بالأحكام، وعتبات المقبولية تنظم الطبقات المعجمية الأولية (لاحظ مثلاً المتقابلات مثل كبير/ صغير أو بارد/ قارص). و تعكس الوحدات ذات التركيب النوعي وهي المستعملة بكثرة في أي نص، المعتقدَ الاجتماعي وتنشره. في درجة الجملة، يمكن اعتبار أي إسناد تقييما. أما في درجة النص، في الأخير، فقد أكد التحليل السردي، في عدة مناسبات، أهمية الموجهات المسماة ثيمية. وتحدد الجماليات الأساسية إجمالا الجوهر السيميائي الذي تبنى على أساسه فنون اللغة، ويظل بطبيعة الحال فوق الجماليات الفلسفية[155]، هذا

154. يمتلك هذا التمييز أسسا ميتافيزيقية صلبة، خاصة في التقليد الأوغسطيني. وهكذا، ميز الأوغسطيني المزور، ألشير دوكليرفو Alcher de Clairvaux، بوضوح بين الروح العارفة والروح المتمنية. وتحتفظ الأبحاث المعرفية الحالية بهذا التصور،على الأقل في منهجها المهمل للروح المتمنية.

155. نلاحظ كل ما يميز طرحنا (وهو هنا كثير التلميح) عن الجماليات المتعالية التي دشنها كتاب *la critique de la faculté de juger* ، ذلك أننا لا نطرح لا مشكل الذوق ولا مشكل الجمال. وسنقتصر على الشروط اللغوية

فضلا عن أنه لا يتوفر على قاسم مشترك مع أية «وظيفة» جمالية، شعرية أو أسلوبية.

أكد بالي على وجود حدود نوعية أخرى للأسلوبية في هذا التعريف المتداول: «تدرس الأسلوبية ظواهر التعبير اللغوي، المنظم في مستوى المضمون المحسوس، أي تعبير ظواهر الإحساس بواسطة اللغة ودراسة حركة ظواهر اللغة وأثرها على الإحساس» (1951، ص16). ويشتق التوقع الوظيفي من التصور الأداتي للغة، التي تعتبر أداة للتعبير ؛ وخلاصة القول، « تعبر اللغة عن مضمون فكرنا، أي أفكارنا وأحاسيسنا» (1951، ص1)، هاتان الوظيفتان، المنطقية والعاطفية، تتفاعلان و تتنافسان، وينبغي على التحليل الأسلوبي أن يفصل بين أثرهما: « تحديد المضمون المنطقي لتعبير ما هو الذي يمكن من إظهار القيمة العاطفية لهذا التعبير»(1951، ص16).

لنذكر، دون إعادة جرد لتاريخ الوظيفية المعاصرة، بأن الوظيفة العاطفية تطابق هنا الوظيفة الانفعالية عند مارتي ثم بوهلر (1934، I، 2)، وقد صيغت من جديد من قبل جاكبسون في منهجه الوظيفي الشهير (1963،ص214) تحت إسم الوظيفة الانفعالية أو التعبيرية. ومن المعلوم أن جاكبسون قد اقترح، من بين عدة اقتراحات، الوظيفة الشعرية التي تتميز «بالتأكيد على الرسالة المستهدفة لذاتها» (1963، ص218)، وقد استند في ذلك على توليفة أثارت الحماس[156]. و لكن، هل تدرس الأسلوبية إذاً الوظيفة التعبيرية وهل تدرس الشعرية الوظيفة الشعرية ؟ اقترح ريفاتير في كتاب هام حول الأسلوبية هذا الحل التوافقي: « يفهم الأسلوب على أنه تأكيد *[emphasis]* (تعبيري وعاطفي أو جمالي) يضاف إلى المعلومة المرسلة عبر البنية اللغوية، دون المساس بالمعنى. وبعبارة أخرى، فاللغة تعبر عن ما يبرزه الأسلوب» (1971 ص-3130). تمسك ريفاتير بالتمييز

لكل جمالية غير مرتبطة بأي تفكير حول الفن. ولكن نجد أنفسنا أمام مشكل لم تستطع الكانطية طرحه، بما أنه لا يمنح للغة إلا وظيفة ثانوية وهي تمثيل الظاهراتي المتنوع، بالنسبة لمعنى النصوص وللتجليات السيميائية الأخرى. و يرتبط هذا التقديم للمعنى كمعطى بما سميناه الإدراك الدلالي . إن هدف الدلالة التأويلية هو بالضبط بناء هذه المعطيات للارتقاء بها إلى درجة الوقائع .

وتنتمي الجماليات الأساسية إلى السيميائيات. ويمكنها أن تسلك طريقين متكاملين، وذلك بربط الأبحاث حول الجهاز الإدراكي بالدراسات حول التثمينات الثقافية: فيما يخص الألوان مثلا، فكل مجتمع يضع بطريقته الخاصة الكليات الإدراكية في شكل علامات. تتموضع الجماليات الأساسية في موقع أساسي ورابط بين الأبحاث المعرفية والأبحاث الاجتماعية، بما أن دراسة الإدراك الدلالي تمكن من التفكير في القيود العصبية-النفسية والثقافية والتي تؤثر على بناء المعنى.

156. يرجع تعدد الوظائف عند جاكبسون إلى إستراتيجية توليفية: كل وظيفية يقابلها حقل معرفي و/ أو ملكة مفترضة للفكر الإنساني. و من جهة أخرى، يذكرنا تعريفه للوظيفة الشعرية بالوظيفة الغائية الذاتية والمتعلقة بالأسطورة عند شيلين.

بين الوظيفة التعبيرية والوظيفة المعلوماتية التي تبدو وكأنها المقابل لوظيفة التعبير عن الأفكار أو الوظيفة المنطقية عند بالي، أو مقابل وظيفة التمثيل عند بوهلر والوظيفة الإحالية، المعرفية أو المرجعية عند جاكبسون. ولكن هناك شك يخيم على هذه الطروحات: هل أكد جاكبسون على الوظيفة الشعرية المرتبطة بالوظيفة «التعبيرية، العاطفية أو الجمالية»، أم أنه اختزل الوظيفة التعبيرية في وظيفة «الإبراز» التي تجعل من الأسلوب أداة لتبيان الوظيفة الشعرية بالمفهوم الجاكبسوني؟[157] يقول ريفاتير ببساطة إن «الوظيفة الشعرية تقابل بالطبع المظهر اللغوي الموصوف بواسطة الأسلوبية» (1971، ص147)، وأردف أنه من اللائق تسميتها بالوظيفة الأسلوبية أو الشكلية (ص148). وهكذا، فالأسلوبية تعالج الوظيفة الشعرية، بينما الأسلوب ينتمي إلى الوظيفة التعبيرية: هناك خلط في هذه الأمور.

يقود التصور الوظيفي للغة عموماً إلى مثل هذه التناقضات. كتب ريفاتير، مصححاً تعريفاً أولاً للأسلوب كانزياح: « الأسلوب هو الإبراز الذي يفرض بعض العناصر من المتواليات الفعلية في اتجاه القارئ، على النحو الذي يمكن هذا الأخير من حذفها دون تشويه للنص ولا يمكنه أن يكشفها دون أن يجدها ذات معنى وخصوصية (وهذا ما يعقلن هذه المواد بتعيين شكل من الفن وبإبراز الشخصية والقصد... الخ» (1971، ص31). دون مقابلة الأسلوب بالوظيفة المرجعية، يستمر ريفاتير في تعريفه بأنه إبراز وذلك بربطه بالقارئ، أي بالقطب الوظيفي الشاغل للوظيفة الافهامية عند جاكبسون. إن الوظيفة التعبيرية يتم تحقيقها إذاً بواسطة القارئ، الذي يساق إلى التعرف على ما يسميه بالي «القصد الجمالي للكاتب» (أنظر المفاهيم التي يستعملها ريفاتير : «شكل فني» ، «شخصية»، «قصد»).

وهكذا، يمكننا، دون ربح ملحوظ، القيام ببانوراما حول الأقطاب الثلاثة التقليدية والمعترف بها في التواصل اللغوي وهي المرسِل-المؤلِّف والمرجع والمتلقي-القارئ.[158]

157. أدخل ريفاتير مجددا في الأسلوب البعد الجمالي الذي أبعده بالي، وهذا ما يقرب أكثر الوظيفة الشعرية إلى الوظيفة التعبيرية. وقد خالف نظرية بالي حين قال: « نقصد بالأسلوب الأدبي كل مكتوب فردي له قصد أدبي» (1971، ص 29).

158. كان ينظر إلى الأدب على أنه نموذج للتواصل اللغوي المستلهم من نظرية المعلومات، في الوقت التي ظهرت فيه أبحاث جاكبسون وريفاتير . فمثلا، يرى ريفاتير أن الأسلوبية «تدرس الحصيلة اللغوية عندما نقوم =بإرسال شحنة قوية من المعلومات» (1971، ص 145). غير أن نظرية المعلومات لا تطبق على اللغات، بما أنها تهم المتلقين الإلكترومغناطيسيين ذوي القدرة المتغيرة، ومفهوم التواصل اللغوي لا يصلح بشكل كبير للأدب، ذلك أنه لا يمكن أن يعرف هوميروس الإشكالي بأنه المشفر للأوديسا التي من الواجب علينا حل شفرتها، لكي نفهم ماذا كان يريد أن يقول، ونعيد بذلك « قصده الجمالي» (تيريان Thérien 1990، ص 20).

وحينما نلغي المرجع، يظل الأسلوب في الرسالة، وفيها ينعكس المؤلف في عين القارئ، ولكنه يظل مع ذلك غامضاً. وتقود المقاربة الوظيفية، سواء كانت متبناة على هذا الشكل أم لا، إلى ثلاثة طرق مغلقة:

أ) تعرف المقاربة الوظيفية الأسلوب بالنسبة للواقع الخارج عن اللغة (الوقع النفسي)، استنادا إلى التصور الأداتي للغة.

ب) تقسم النص إلى وحدات أسلوبية (أنظر بعض العناصر) ووحدات غير أسلوبية، و يؤدي هذا التوجه حتماً إلى تجزيء نظري لم ينجح إلا بالاستعانة بوجهة النظر التوليفية.

ج) لا يمكن للمقاربة الوظيفية التفكيرَ في تداخل الوظائف، سوى بالاعتماد على مفهوم التحكم الزمني أو التحكم القار، لأنها تعكس تصورات مختلفة حول اللغة. و لا يمكن لهذه التصورات أن تجد توليفة معينة إلا في علم النفس الذي يهتم بالقدرات.

إن صعوبة تعريف وإقحام الأسلوبية في اللسانيات تعود في المقام الأول إلى جهل الجماليات الأساسية وإلى الابتعاد التصاعدي للنظريات الصورية المعاصرة التي تعنى بالدراسات الأدبية، كما تعود، في المقام الثاني، إلى هيمنة المقاربة الوظيفية.

سنتابع الأخذ بالتصور الأدنوي للأسلوبية، بصورة احتياطية. ونعتبر الأسلوبية مجالا للالتقاء بين العلوم اللغوية والدراسات الأدبية والجماليات. هذا التوليف الذي يميزها والذي جعلها تستقبل المعارف الأخرى قد تطبع بالتراجع النظري الذي قاد الدراسات الأدبية إلى إعطاء الأهمية القصوى للمؤلِّف والمؤلَّف، للتناص وللخاصية الأدبية[159]. ولكن هذه الأسس الجوهرية الهائلة قد تم توضيعها في الدرجة النحوية الضيقة جداً بواسطة مختلف «السمات» والوحدات الأسلوبية والاستعارات، الخ. الشيء الذي أدى إلى تشتت قاهر بين الطموحات النظرية الشمولية والقدرات الوصفية التي غالباً ما لا تعير اهتماما للنصية. إذا كانت الأسلوبية، وهي حقل معرفي أكاديمي ضروري وقليل الكفاية، يشغل موقعاً أكاديمياً مهماً بهدف إعادة توحيد علوم اللغة، فإنها تظل أقل فائدة من موضوعها الذي يعتبر إشكالية.

وبما أن الأدب فن لغوي، فإن الأسلوبية تنتمي إلى النقد من حيث هي فن وتنتمي إلى اللسانيات من حيث هي لغة، ولكن لا النقد الأدبي ولا علوم اللغة يدعيان احتكار

159. يكتب الكاتب المصطلحات على الشكل التالي: Auteur، Œuvre، Intertexte، Littérarité (المترجم).

دراستها. إذا لم يكن بإمكان النقد الأدبي الاقتصار على مبدأ اللذة والرحلات، فلا يمكن لعلوم اللغة تفضيل الخطاب الأدبي، ولا معالجة المشاكل الجمالية. ومع ذلك تظل الأسلوبية المكان المفضل لتلاقيها، أي المكان الذي يصبح فيه التاريخ الأدبي عبارة عن تاريخ الأشكال والأجناس الإبداعية والمشاكل الجمالية، وذلك بالارتكاز على التحليل اللغوي للنصوص.

كان التناقض المشهور بين الناقد والنحوي خصباً، طالما كان يستدعي صرامة وضبط أولئك الذين يخاطرون بتحمل الدورين بصورة متزامنة. ولكن إذا أصبحت الأسلوبية مبحثاً مستقلاً، فستخاطر بتخليها عن الطموح الجمالي و الطموح العلمي، وذلك بتقديم تناقضهما على أنه غير مطروح من جراء وجوده المعلن مسبقاً.

تفاعل المكونات اللغوية ومشكل اللهجة الفردية

من أجل تحديد دلالي للنصوص، اقترحنا التمييز بين أربع مكونات (موضوعاتية، جدلية، حوارية وتكتيكية، أنظر الفصل الأول)، ويمكننا تمييز مكونات أخرى على مستوى التعبير (أنظر الفصل الثامن). تنتمي عدة مكونات إلى التفاعل بين الصوت والمعنى، واللسانيات البنيوية لا يفوتها أن توضح ذلك خصوصاً في دراسة النصوص الشعرية.

يتسم كل مكون للمضمون وللتعبير بدرجات من النسقية[160]:

أ) النسق الأكثر صرامة هو النسق الوظيفي في اللغة، التي تفرض، على ما نعتقد، قواعد لكل استعمال، دون إصدار أحكام مسبقة حول تجانس هذا النظام الذي يمكن تسميته **لهجة**؛

ب) تأتي بعد ذلك المعايير الاجتماعية المعبر عنها في كل نص. ويمكن تسمية أصناف الخطاب المؤسسة بواسطة هذه المعايير **لهجة جماعية** (sociolecte). يقابل هذه اللهجة نوع من الممارسة الاجتماعية (مثلاً ممارسة قانونية وسياسية ودينية). إن كل ميدان له معجمه الخاص والمنظم في شكل ميادين دلالية وتتشكل في عدة أجناس نصية (مثلاً المرافعة و القضية العمومية وبلاغة المنبر)؛

ج) وأخيرا، كل استعمال للغة موسوم حتماً بـالأدوات الخصوصية للمرسِل

160. أنظر المؤلف 1987، ص 40-41؛ 1989، ص 49.

المزعوم[161]: دون إدعاء أن هذه الأدوات تكون نسقاً، يمكن وضع مصطلح **لهجة فردية** للإشارة إلى مجموع الاطرادات الشخصية أو « المعايير الفردية» التي تشهد بهذه الأدوات. وإذا كان عموم الدارسين يطلقون اسم أساليب على التشكيلات اللهجية، فإن الأساليب الأدبية لا تحسب إلا كقسط من الأساليب اللغوية. وتعد هذه الأخيرة من بين الأساليب الأكثر نسقية، ولكن لا شيء يمكن من تجنب التكونات اللهجية، سوى في حالة الأحكام المسبقة حول الجماليات التي تكون عادة مشروعة[162].

بطبيعة الحال، تبقى الدرجات الثلاث للنسقية التي ميزناها نسبية، و يمكن للمنهجية التي تتبع المقارنة ، في متن ما، أن تميز ما يصدر عن كل واحدة. لنفترض أن نصاً يربط بلغة ما عن طريق اللهجة، ويربط باللهجة الجماعية عن طريق الجنس والخطاب، وباللهجة الفردية عبر الأسلوب:

المحيط	استعمال غير محدد	ممارسة اجتماعية	استعمال محدد
مواقع لغوية	لغة	خطاب	كلام
درجات النسقية	نسق وظيفي	معايير مجتمعية	معايير فردية
أنساق	«لهجة»	لهجة جماعية	لهجة فردية
أشكال	نصية	أجناس	أساليب
حقول معرفية	لسانيات ضيقة	شعرية-لسانيات الخطاب	أسلوبية- لسانيات الأساليب

الإشارة إلى الحقول المعرفية يستدعي بعض التوضيحات:

أ) في الواقع ، لا تدرس اللسانيات الضيقة إلا النسق الوظيفي للغة، وهذا ما يحجب عنها التفكير في النصية، لأن البنيات النصية لا تنتمي إلى هذا النسق.

ب) تدرس الشعرية، التي لم تتكون كحقل معرفي، الأجناس الأدبية[163]، دون

161. هذا جد واضح بالنسبة للتعبير الشفوي- لاحظ التعبير التالي: لايمكن فتح الأقفال التي يتحكم فيها الصوت البشري - و كذلك الأمر بالنسبة للكتابة باليد، ولا يمكننا أن نزيح الفرضية التي تتبنى الطرح نفسه بالنسبة للمحتوى.

162. لم تدرس التكونات اللهجية بما فيه الكفاية، لأن اللسانيات الاختلافية، المتماثلة مع علم النفس الاختلافي، لم تكن محط اهتمام اللسانيات [بالجمع]التي كانت تمثل الطليعة الأكاديمية.

163. أنظر الفصل الثامن أسفله. كإشارة إلى هذا الوضع غير الواضح، تستعمل الكلمة للدلالة على الدراسة اللغوية للشعر (عند جاكبسون مثلا). أنظر التوليف الجيد الذي قدمه كومب Combe 1993.

معالجة الأجناس الأخرى .

ج) تعرف الأسلوبية حدوداً مشابهة لما سلف، بما أنها تقتصر على الأساليب الأدبية، ذلك أنها ستكون مفيدة إذا ارتكزت على نظرية عامة للهجات الفردية، سواء كانت أدبية أم لا. ويمكن لتطوير لسانيات الأساليب أن يساهم في السير في هذا الاتجاه.

يتعين على اللسانيات غير الضيقة أن تقحم أو توحِّد ـ المسألة مازالت مفتوحة ـ أوصاف كل درجة من النسقية. تنوع أوضاعها يجعل هذا المشروع صعب التحقيق، ولكن اللقاءات الفاصلة بين الأسلوبية والشعرية مليئة بالدروس والعبر. مثلا، يهتم الأسلوبيون بطريقة صحيحة بالخاصية الأدبية ، التي تتجاوز بالطبع الإنجازات الفردية؛ أما المشتغلون بالشعرية، فيدرسون بمهارة مؤلفات نوعية. وللتذكير، نجد في هذه التجمعات باحثين مرموقين يهتمون باللسانيات. باختصار، لا يمكن لأحد من هذه الدرجات الثلاث للنسقية أن يكون موضوعاً لحقل معرفي مستقل، فهي بالضبط درجات، ذات طبائع مختلفة، والتمييزات الأكاديمية هي الوحيدة التي تعمل على مقابلتها. لا يكمن التمييز بين لسانيات النص من جهة والشعرية والأسلوبية من جهة أخرى في موضوعاتها الأمبريقية[164]، ولكن دون شك في شساعة أهدافها: الأسلوبية والشعرية يهدفان إلى تحديد الخاصية الأدبية ، ويقتصران على النص الأدبي وعلى مجاورة النص الأدبي، ويشكلان تمازجاً غير مستقر (لحسن الحظ) بين علوم اللغة وفلسفة الجماليات. ومن الناحية الشرعية أو من الناحية الواقعية، لا يمكن أن يكون موضوع اللسانيات هو الخاصية الأدبية، التي تعتبر مثالية رومانسية تنتمي إلى سميائيات ثقافتنا.

ستقود هذه التوضيحات إلى مجازفة تكمن في إعادة التعريف: بما أن الدرجات الثلاث للنسقية تنظم كلاً من مكونات المحتوى ومكونات التعبير، بالطريقة نفسها التي تحدد الأجناس الأدبية بأنها تفاعل لهجي-جماعي بين المكونات، فإنه بإمكاننا تعريف الأسلوب بأنه تفاعل لهجي-فردي بين المكونات.

تكون رتبة هذا التفاعل أقل بالنسبة للأجناس، لأنها تهم متوناً قليلة الاتساع.

164. حتى ولو كان موضوع لسانيات النصوص أكثر اتساعا.

ولكن في المقابل، تكون تعليماتها أكثر نسقية وجد قوية[165]. مثلاً، تعد بعض القوافي من خصائص بعض المؤلفين، وتساهم في تمييز أسلوبهم، سواء تعلق الأمر بالصيغة النادرة *(hapax)* مثل *ptyx/Styx* أو *l 'y taire* *militaire / hormis* عند مالارمي أو*/aéroplane* *Apollonios de Tyane* عند أبولينير، بل وحتى القوافي السهلة مثل *astres/ pilastres* عند فكتور هوجو.

إذا كانت اللغة والأجناس الأدبية والأسلوب تعرف اختلافات في الدرجة وليس في الجنس، فإنها تختلف أساساً من حيث قوة تعليماتها بواسطة نوع الخط الزمني الذي تتحرك داخله: عموماً، السُّلم الزمني للهجة الفردية هو الألفية، وسلم اللهجة الجماعية هو القرن وسلم الأسلوب العشرية.

نحو لسانيات الأسلوب

سنصوغ هذه الاستنتاجات المؤقتة لنؤكد على الأسس المتينة لإعادة التعريف اللغوي لمفهوم الأسلوب. و يبدو التقابل بين اللغة و الكلام مرتكزاً على عدة أسس عندما نرجعه إلى التقابل بين النسق و الحدث، ولكنه يظل غير لائق بالنسبة للمواد الثلاث. في الواقع، يعتبر نسق اللغة، الذي يفرض بالفعل قيوداً على المستوى الصواتي والصرفي-التركيبي أقل تقييداً مما يعتقد اللسانيون، ويمكن لقواعده ألا تكون سوى معايير متأصلة. ومن جهة أخرى، فإن الكلام بالمفهوم السوسيري لا يعد أثراً لحرية خالصة، و كان سوسير يفكر في مشروع لسانيات الكلام[166]. ولتطوير لسانيات النص، يجب رفض التناقض الذي يطرح مقابلة بين النسق اللغوي، المعتبر على أنه كوني، المماثل والمتجلي في كل إنتاج لغوي، والكلام المُعرَّف بأنه فردي خالص ، بينما يعتبر مجرد إنتاج خصوصي.

يجب استبدال العلاقة التشكيكية بين المتناقضين، الكوني والفردي، بعلاقة بين متضادين كفيلين بأن يتعايشا. بما أن عمومية المعايير الشمولية لا تناقض بطبيعة الحال خصوصية المعايير المحلية، فإن فضاء المعايير يصير فضاء لسانيات موحَّدة، تكون قواعدها غير متصلة بقواعد اللغات الصورية، لأن تطبيقها خاضع دائماً لحزمة من

165. لا تعد سلمية درجات النسقية أمرا ثانويا؛ وهكذا، يمكن للأسلوب أن يخرق قواعد الأجناس والخطاب وحتى اللغة.

166. المقولة الشهيرة الموجودة في كتاب **اللسانيات العامة** و التي مفادها أن اللغة« تدرس لذاتها» والتي انتقد سوسير كثيرا بشأنها ليست له، و إنما هي لفرانز بروب (1816).

الشروط التي لا يمكن صوغها في شكل مسلمات ولا في شكل فرضيات. ومن جهة أخرى، بما أن التبادلات اللغوية تعتبر مكاناً لإحداث نسق اجتماعي، فإن المتغيرات الفردية ليست شذوذا خالصا. وهكذا، فالتمييز الأكاديمي بين اللغة والأسلوب لا يجذبنا؛ وكما هو رائج في كل علوم الثقافة، فإن مفاهيم اللسانيات لا تعد -ومن الأرجح أن لا تكون - لا معيارية ولا إيدوغرافية خالصة.[167]

ولما كانت الأسلوبية والشعرية مباحث وصفية، فإنهما تنتميان حقاً إلى اللسانيات العامة. إنهما تحبذان الخصوصية وعمومية الأشكال النصية بواسطة المنهج المقارن، ونتائجهما رهينة إذن بالمتون. كما تنتجان معارف، وذلك بالانزياح عن التصور الدوغمائي للغة وعن تصوف الفرد الخالق.

عند تبني المواثيق المفاهيمية والاصطلاحية المشتركة، يجب أيضا وصف، بطريقة موحدة، مختلف الأشكال الدلالية المعترف بها في الحقول المعرفية التي تعنى بالنص، سواء تعلق الأمر بالوحدات الأسلوبية حسب هيلمسليف أو التيمات في النقد الموضوعاتي، و التطريزات في الأبحاث الفولكلورية (أنظر أسفله، الفصل الثامن)، والميتيمات (mythèmes) في الأنثروبولوجيا البنيوية وحتى الوحدات الإيديولوجية عند بارط. وهكذا، يمكن وصف الدرجات الرئيسية الثلاث للوصف اللغوي، أي الكلمة والجملة والنص، بإقحام وحدات بنيوية مماثلة ومنتمية إلى مستويات مختلفة التعقيد. ويمكن هذا التحليل من توظيف منهجية المقارنة الداخلية عبر تماثلات وتحولات داخل النص، كما يؤدي إلى تبني منهجية المقارنة الخارجية بهدف التعرف على العلاقات القائمة بين النصوص.

يساهم هذا التوحد في طرح نظرية الأشكال الرمزية التي تنتمي بحق إلى السيميائيات العامة للثقافات. وفي خضم تقاليدنا، نعمل على ربط المورفولوجيات الدلالية والتعبيرية الخاصة بالأجناس والأساليب بالنظريات الجمالية، سواء كانت صريحة أم غير صريحة، والمطابقة لهذه المورفولوجيات والتي تمثل بالنسبة للنظريات أسبابا وآثاراً على حد سواء. سنسمي وحدات **إستتيقية** هذه «الرؤى للعالم» المثارة

167. أنظر كاسيرير Cassirer، 1991، ص 144، الذي قال « كل علم خاص بالثقافة يصوغ بعض المفاهيم المتعلقة بالشكل وبالأسلوب الذي يستعمله لخلق نسق ذي مظهر عمومي و لترتيب وتمييز الظواهر التي يعالجها. ولا تعد هذه الظواهر «تشريعية» و لا «إيديوغرافية» خالصة. إنها ليست تشريعية خالصة لأن الأمر لا يتعلق بخلق قوانين عامة من خلالها ينتج الظواهرَ الخاصة عن طريق الاستنباط. و لكن هذه المفاهيم الصورية لا تختزل في المفاهيم التاريخية».

والمقيدة بمختلف أصناف المورفولوجيات. وترتبط هذه الاستيقيات بأربعة ميادين كبرى من التخصيص ذات الوتيرة التصاعدية:

- تُشفِّر عناصر الأشكال الدلالية مثل المجازات لحظات من المسارات التأويلية، في إطار مواثيق الجنس والخطاب.

- أصناف الانطباعات المرجعية مرتبطة بالموضوعاتية وكذلك بالمسارات التأويلية التي تبنيها. إن تشفير الانطباعات المرجعية متعلق بالثقافات، و فيها تقوم بعدة أدوار متعلقة بنَسب الآلهة وبنشأة الكون.

- يَموضع النغم (ton)، وهو تشاكل تقييمي، النصوصَ في أبعاد أخلاقية و عاطفية؛ ونشير بالمناسبة أنه ما زالت تنقصنا لسانيات الأنغام وبالخصوص لسانيات الدراسات التباينية حسب الثقافات.

- تحدد الأنغام والانطباعات المرجعية أشكالاً بَعدية من الظاهرية (phénoménalité)، بحيث إنها تُلزم المعيش الخاص بالتجربة الثقافية، بل وحتى الشكل الثقافي للتجربة المعيشة. وانطلاقا من هذا المعنى، شكل بروست رؤيتنا للعالم، وهي الرؤية التي لاحظها هو أيضاً بالنسبة لفلوبير.

لتقدير الوضعية الإبستيمولوجية لهذا المشروع، سنعود إلى المشاريع الكبرى للأنثروبولوجيا التي كانت وراء التكوين التخصصي المتعلق بالدراسة الممنهجة للآداب و باللسانيات التاريخية و المقارنة.

عندما كان لدراسة اللغات تاريخ طويل و تقاليد ألفية، لم تصغ اللسانيات المقارنة مشروعها العلمي إلا في نهاية القرن الثامن عشر. و كان المشروع مرتبطا بالأنثروبولوجيا العامة، التي سعى هومبولت إلى توجيهها نحو وصف الفروق بين اللغات، في الوقت الذي كانت فيه الأنحاء الفلسفية المعاصرة (التي ظلت وريثة الأرسطية السكولائية منذ پول روايال إلى طراسي) تفترض كونية العمليات التحتية للفكر. لقد سعى هومبولت إلى إظهار تنوع الاستعمالات الفريدة التي تجسدها(أنظر، توار،a 2000، ص 170 وأنظر أعلاه، الخاتمة) دون الاقتصار فقط على دراسة الفرق بين اللغات. وفي موازاة ذلك، و لتوحيد النقد و الفلسفة و الشعر، صاغ فريدريك شليغل مشروع الموسوعة التي ستجمع بين هَم التجميع و احترام فردية المؤلفات (أنظر frag.116 ،*Athenaeum*). وعلى الرغم من كونه أجهض، فإن هذا المشروع يحتوي على «نظرية الثقافة»، بل وحتى على

منهجية العلوم الإنسانية، كما أشار إلى ذلك دايلتي. و أحدث هذا المشروع أعمالا حول تاريخ الأدب و خصوصا تاريخ الشعر، و سيكون لهذه الأعمال أثر حاسم على كل الرومانسية الأوروبية[168].

وهكذا، فالدراسات التاريخية و المقارنة للآداب و اللسانيات التاريخية و المقارنة منبثقتان من المشاريع الكبرى للأنثروبولوجيا الثقافية الموجهة نحو وصف التنوعات. و قد انغمسا في الدراسة العامة والمقارنة للغات الرومانية، التي عرفت كيف توحد الدراسات اللغوية و الأدبية[169]. و لهذا يمكن الحكم بأن مشكل الأسلوب و المعايير المحلية ينتمي كليا إلى اللسانيات التاريخية و المقارنة؛ ثم إن المشاريع التي تنحدر منها هذه اللسانيات، سواء عند فريدريك شليغل أو هومبولت، منسجمة مع هذه النقطة. إن وصف اللغات لا يعد في الواقع إلا مرحلة لتمييز الخطابات و الأجناس و النصوص الفريدة. ويعد وصف الأساليب و خصوصا الأساليب الأدبية منتهى البرنامج التمييزي الذي سمح بالمرور من الأنحاء الكلية إلى اللسانيات العامة. وهكذا، تستمد كل لغة «خاصيتها» من الاستعمالات التي تشكلها دون انقطاع.

نحن هنا في مفترق طرق اللسانيات التي تعنى بالنظرية الأدبية، و السؤال المطروح هو: ما هي الشروط التي تجعل من نص ما مؤلَّفا؟ يتعلق هذا الأمر بـ«خاصيته» التي تجعله فريدا و غير قابل للاستبدال، وتسمح له بفتح التقليد التأويلي الذي يمكن أن يرفعه إلى منزلة الفن الكلاسيكي. إذا ألحقنا هذه الخاصية بالأسلوب، فإن الإطار الذي يحول الظاهرة إلى واقع شخصي يمكن أن يلحقها بالمؤلِّف و يفسرها بحياته النفسية، في حين أن الإطار الذي يحولها إلى واقع موضوعي يلحقها بالأشكال النصية المتميزة. إننا نفضل الاختيار الثاني، لأنه يجب علينا شرح المؤلفات بلغة المؤلفات؛ قد يبدو المؤلِّف، وهو إعادة بناء مطواع للبيوغرافيات، مفهوما ولكن هذا الفهم المتطابق مع الغير لا يشرح شيئا عن مؤلَّفه، و فيه يكون اختفاؤه عن الأعين ليس بأقل من تعبيره. و تبقى دائما المسألة الأكثر سهولة هي الاعتقاد بأننا نفهم الكُتاب أكثر مما نعرف المؤلفات.

168. أنظر دروس فيينا حول تاريخ الأدب المنشورة سنة 1815 و المترجمة إلى الفرنسية من قبل و. دوكي W.Duckett سنة 1829 تحت عنوان *Histoire de la littérature ancienne et moderne*؛ و أنظر أيضا دروس أخيه أوغوست فيلهم شليغل Auguste Wilhelm Schlegel حول الفن و الأدب و الفن الدرامي، وقد ترجمتها إلى الفرنسية السيدة نيكير دو سوسير Mme Nicker de Saussure، ابتداء من سنة 1814.

169. أنظر الأسماء الكبيرة في حقل الأسلوبية، ليو سبتزر ، إرنست أوبرباخ Ernest Auberbach و أنطونيو باغليارو Antonio Pagliaro (و هو المؤسس لمجلة *La critique sémantique*) وداماسو ألونسو Dámaso Alonso.

إذا وافقنا على الرأي القائل إن الأسلوب يوجد في داخل المؤلفات و ليس في المؤلفين، فإن الأسلوب ليس سوى تجريد للمؤلِّف. ونسمي أسلوب اطراداته الخاصة، أي أن المؤلف يُلزم أسلوبه و ليس العكس. وهناك صعوبة إضافية في داخل مؤلف فريد، وهي أن الخصوصيات الأسلوبية ليست عل الشكل نفسه، ذلك أنه في بعض الفقرات، يتجنب المؤلِّف التقليد؛ و في موضع آخر، يركز على مايلمح إلى توجُّهه.

أما بالنسبة «لأسلوب المؤلِّف»، فإنه يطرح مشكل الاطرادات في داخل مؤلفات نفس المؤلف. و يلاحظ تأسيس **خطوط** أسلوبية في المؤلفات، و الخاصيات التي تطبع المؤلفات الأولى، و التي تتطور في المؤلفات اللاحقة. وبالاعتماد على المقارنة، نلاحظ أن كل جنس أدبي لا يوصف كنمط أو طبقة، وإنما **كخط**(lignée) نوعي يصبو إلى إعادة الكتابات (أنظر الفصل الثامن). و لكن الفنانين يتوفرون على العديد من الأساليب، لأنهم يستعملون عدة أنواع تعبيرية؛ و لهذا، ينحدر فرانسيسكو دي دجورجيو مارتيني Francesco di Giorgio Martini من ليبي Lippi في ما يخص فن الرسم وينحدر من دي دوناطيللو de Donatello بشأن النحت، رغم أن جمالياتهم جد مختلفة[170].

لتجنب التراجع ذي الطابع النفساني ولطرح مشكل الجمالية بصورة مضبوطة، سنميز بين التعيين و التخصيص، أو بصيغة أخرى سنميز بين السمات «الموريلية» والسمات «السبيتزرية».[171] في نهاية القرن التاسع عشر، أحدث موريللي وهو طبيب إيطالي، ثورة في أوصاف اللوحات و ذلك بالكشف عن السمات و خاصة السمات العضوية، مثل دائرة العين التي لم يكن يوليها المزورون و لا المختصون أي اهتمام. أما بالنسبة لسبيتزر، فقد أعاب عليه النقاد تمييز المؤلفات استنادا إلى الخصائص الشكلية التي يختارها بصورة اعتباطية. و مع ذلك، كانت تمكنه من دخول دائرة التأويل المبني على الكشف.

وهكذا، يمكن مقابلة التعيين بواسطة الخصائص الموريللية والتخصيص بواسطة الخصائص السبيتزرية: تتكرر الخصائص الأولى المنقسمة، بصورة مطردة، من مؤلف إلى آخر و لا تتمظهر عن طريق ترابط دلالي خاص؛ أما الثانية، فإنها في المقابل فريدة وتتوفر على درجة عالية من الترابط، كما أنها تتعرض لانتقالات في كل درجات

170. كان مشكل الجماليات في فن النحت يطرح كالتالي: ما العمل بعد دوناطللو ؟ و في الرسم: ماذا يمكن عمله بعد فليبو ليبي Filippo Lippi ؟

171. «موريلية» نسبة الى موريللي Morelli و «سبيتزرية» نسبة الى سبيتزر Spitzer(المترجم).

التعقيد في المؤلَّف. مثلا، يشير الاستعمال الفريد للمجاز التعاوضي [172] عند بورخس إلى أنطولوجيا سلبية تتحكم في البنية الميتافيزيقية للمؤلَّف بأكمله (أنظر راستيي 2001c) .

يقود هذا التمييز إلى التفرقة بين السمات المُصطنعة و ظواهر الأسلوب بصفة خصوصية. بالفعل، يمكن لمؤلف أن يستخدم الأسلوب من أجل سماته الموريلية الخاصة به ، عندما يسخر مثلا من نفسه، أو بشكل أعمق عندما يؤسس أسلوبه لكي لا يترك شيئا للصدف العادية؛ و يعد هذا التوجه أحد أسباب الغرابة عند فلوبير. وفي نهاية الأمر، يمكن للأسلوبية، وهي تخصص نقدي، أن تسلم بفكرة أن الأسلبة هي أيضا نشاط نقدي، إذ أن المؤلف، وهو ناقد نفسه، يتجاوز الانتقادات اللاحقة في المواقع الخاصة بها.

ولكن هناك تناقض سيحطم إعادة تجربة أسلوب المؤلف، إذ يمكن لأعماله أن لا تتوحد إلا بالسمات الموريلية، و يختزل القواسم المشتركة إذن في السمات المُصطنعة: «أسلوب المؤلِّف» يكون الجزء السطحي في المؤلَّف. بالفعل، يمكن لأساليب مؤلفات الكاتب نفسه أن تكون لها الخصائص المشتركة نفسها التي تظل عموما ثانوية و مرتبطة بالسمات الموريلية؛ ولكن الأهم هو أن هذه الأساليب تختلف حسب الأجناس التي يستعملها الكاتب و حسب مختلف المشاريع الجمالية التي يلتزم بها.

وفي المقابل، يتم التعرف على «أسلوب مؤلَّف» ما عن طريق السمات المولدة للبنية التعبيرية، إذ تُنقل هذه الأشكال الخاصة في مستوى التعبير كما في مستوى المضمون و في درجة الجملة كما في درجة النص بأكمله.

باختصار، يمكن التعيين الموريلي من ربط المؤلَّف بكاتبه ومن عزله في متن المرجع و لكن لا يسمح بوصف الحركية الخاصة لمساراته الجينية و المحاكاتية و الهرمينوطيقية؛ أما التخصيص المرتبط «بسبيتزر»، فإنه يمكن من خلق تفرد داخلي و يقود إلى تعيين القيود التي يفرضها شكله الفني على المسارات. يفترض النخصيص و يمكن في آن

172. المجاز التعاوضي (hypallage) : صورة بلاغية تعمل على إسناد كلمة إلى مركب وتكون هذه الكلمة مناسبة لكلمة أخرى في الجملة. وبواسطتها يسعى الكتاب إلى قلب النسق أو المعتقد، وكمثال على ذلك، نورد الجملة التالية التي قدمها راستيي : «سرق لي ضابط سويسري ساعتي الروسية». نعلم أن الساعة سويسرية و أن الضابط روسي، وقد جعل بورخيس من هذا المجاز صورة محورية في جل أعماله، للمزيد من التفاصيل حول الموضوع، أنظر

Rastier, F., (2001), L'hypallage, in *Variaciones Borges*, n° 11, p.3-33 ou www.revue-texto.net (المترجم).

واحد من التأويل الذي يجوب متن المرجع الذي يتفرد به المؤلِّف، لأن المسارات التأويلية تتطلب في الغالب مؤولين ينتمون إلى نصوص أخرى.

من أين تأتي السمات الموريلية؟ تظل هذه الممارسات التطبيقية المُصطنعة منسجمة طبيعيا مع معايير اللغة والخطاب و الجنس الأدبي. و تستغل هذه الأخيرة إمكانيات هذه الممارسات باللجوء إلى اختيارات مطردة داخل معيار مسموح به. يكون هذا الاختيار للمادة اللغوية و الخطابية والجينية مرحلة أولى وبسيطة لخلق الأسلوب الذي يُؤصِّل لبعض من الخصائص النسقية.

السمات التعيينية الأكثر فعالية هي السمات الموريلية ذات «المستوى الأدنى» مثل تردد الحروف الذي يمكن، حسب العديد من الأعمال في حقل اللسانيات الكمية، من تعيين الكُتاب وكذاك المؤلفات. فحتى هذه السمات ذات المستوى الأدنى يمكن أن تكون موضوعا لتأسيس أسلوبي و أن تغير وضعها: مثلا، اللعب الدرامي عند بيريك الذي استعمل تردد الحروف في *La disparition* بالدرجة الأولى. ويسمو التردد غير الطبيعي للحرف، وهو تردد في درجة الصِّفر، إلى درجة السمة السبيتزرية المتخذة كمبدأ تنظيمي.

بالفعل، لا تعد «السمات» السبيتزرية سمات بالمعنى الذري للكلمة، ولكنها أشكال تنظيمية صالحة للانتقال إلى مختلف المستويات المعقدة، و عبرها تؤسس تضامنا سلميا. وتصير بالتالي مبادئ تنظيمية للنصية. فعلى سبيل المثال، ينتمي المجاز التعاوضي عند بورخيس إلى السمات السبيتزرية، بحيث تنتقل المقايضة غير القابلة للتقرير إلى السمات التي تميز هذا المجاز إلى مستوى المتواليات (المستوى التكتيكي) عبر أشكال ذات تناظر عكسي، كما تنتقل إلى المستوى السردي (المستوى الجدلي) بحكايات يغير فيها الفاعلون خصائصهم و تنتقل كذلك إلى المستوى التلفظي (المستوى الحواري) بواسطة اللاتمييز بين القارئ و الراوي... الخ.

وتظل السمات السبيتزرية مرتبطة بالنصوص الأدبية، بينما توجد السمات الموريلية في الخطابات الأخرى.

يتطابق هذان الضربان من الوصف الأسلوبي مع أهداف اللسانيات غير الضيقة. و في المقابل، إذا تجاوزت هذه اللسانيات الهدف الطموح المتمثل في التميز، فإننا سنحدد للتخصيص هدفا أخيرا مفاده السير نحو التفرد. و إذا كنا دائما نعيد إرجاع

المؤلَّف إلى مؤلفه بالشكل الذي نتصوره، فإننا سنخضعه إلى اللذات الفاقدة الطعم والمتعلقة بالتوافقات الجامعية.

تقدم الأساليب العتيقة الثلاث الأكثر تمددا و اتساعا تصورا مسبقا لما نسميه الاستتيقا. وتساهم الأساليب الفردية بالمفهوم العصري في تطوير الاستتيقا المُكوَّنة، عندما يتم تفعيلها في خضم الأساليب . يحاول كل فنان طموح خلق استتيقا فريدة، في إطار الاتجاه العام الذي قاد منذ عصر النهضة إلى إعادة الاعتبار إلى الفردية في جميع المستويات (الاقتصادية والتشريعية والأخلاقية على الخصوص).

إن طرح نظرية للاستتيقا يبرر حدس غوته، وقد أعاد طرحها كاسيرير الذي يفترض أن الأسلوب يستند إلى الأسس العميقة للمعرفة، بما أنه بإمكاننا اكتشافه تحت أشكال ممكن فهمها؛ ستوضح هذه النظرية الخاصية الجمالية لما نسميه المعرفة.

إذا كانت الأسلوبية تابعة للبلاغة، فإن الأسلوب كان دائما خاضعا للرقابة استنادا إلى الأسباب نفسها التي تتحكم في الاستعمالات المجازية. لقد عرف سينيك Sénèque الأسلوب بأنه انزياح و اعوجاج (Lettres 14). ثم إن المعيار النحوي و المعيارية الأخلاقية كانتا غالبا مرتبطتين بصورة جزئية.

نقيم خطأ مقابلة بين اللغة المحايدة، غير الموسومة، الحرفية التي تكون على صلة باللسانيات، و اللغة الموسومة، الفريدة و المجازية التي تنتسب إلى الأدب[173]. إلى جانب كوننا لا نستطيع إبراز اللغة المحايدة التي تعد صناعة خالصة للمتخيل النحوي، نعلم جيدا أن اللغة الأدبية ليست مسألة تطريز أو مجاز.

وعلى عكس التقابل المطروح بين القراءة الحرفية والقراءة المجازية، فإن التقابل بين الصور النمطية (stéréotypes) والشاذة يمكن تأسيسه انطلاقا من متن وبإمكانه تلقي الأساس الفيلولوجي الكفيل بخلق توافق بين المباحث الأدبية و اللغوية، إذ أننا سنتأكد من هذه الأفكار عندما نتطرق إلى الموضوعاتية والشعرية.

173. بالفعل، أعطت الرومانسية المتأخرة التي مازلنا نعيشها قيمة للانحياز وللتفرد، وقد بني الأدب المعاصر على أساس النقد بل وعلى نفي كل طرح لغوي-جماعي (sociolecte) (فلوبير ومالارميه، السورياليون، بلانشو ، بارط، كل هؤلاء يشهدون بذلك، كل حسب منهجه)؛ و أمَّن الأدب هذه الوظيفة النقدية بهدم الصور الجاهزة أو بتحويل مجراها.

الفصل السابع

الموضُوعَاتية والمعنَى المشتَرك

«تتصف الأسطورة واللغة بالنُّبل النابع من كونهما محكومان بأن لا يستعملا إلا العناصر المقدمة أمامهما ويمنحانها معنى، كما يقومان بجمعهما وبتوليد مستمر لمعنى جديد».

فيردينان دي سوسير، 1986، ص 307.

الوضع الحالي

كانت منهجية اللسانيات التاريخية والمقارنة مصدر الثورات الإبستيمولوجية في العلوم الإنسانية، وخصوصا في الدراسات حول الفولكلور مع بيديي وبروب، في العلوم الدينية مع دوميزيل وفي الانثربولوجيا مع ليفي-ستروس. أما خارج بعض معاقل الدراسات الرومانية والأدب المقارن، فإن الدراسات الأدبية لم تهتم بما فيه الكفاية بهذه الحركة العامة؛ في فرنسا، على الأقل، اكتفت هذه الدراسات بتحيين خطاب الآداب الجميلة.

إن الباحث الذي يطمح إلى الدراسة التفصيلية للوحدات النصية سيصطدم بعدة عقبات، ذلك أن تقديس المؤلفات الكبيرة (التي تصور بطريقة رومانسية على أنها شموليات فريدة) تنقص من قيمة كل معالجة تسلسلية للمتون الأدبية. إن البحث في الأسبابِ الخارجية يجعل من المؤلفات الوجهَ الذي يعكس المجتمع أو التعبير المرتبط بمؤلَف ما. وهكذا، تمسح النظريات الواقعية المابعد-ماركسية، التي كانت دوما حية، المؤلفات لتتركها وراء التاريخ الاجتماعي الذي تمثله؛ أما بالنسبة للمظاهر النفسية لما هو عميق، فإنها تختزل التأويل في التشفير الرمزي. وفي أسوء الحالات، تضع هذه المظاهر بعض الأشخاص مثل كوسطاف ومارسيل على أريكة الاعتراف.

يحتل مفهوم التيمة مكانا متميزا في الحقل الثقافي الفرنسي. وقد استُقبل النقد

الموضوعاتي المنحدر من أعمال باشلار بحماس من قبل السلطات الأكاديمية إلى درجة أن مقررات المباريات تقحمه باستمرار، كما أن مواضيع البحث و الأطارح المستوحاة منها تعد بالمئات كل سنة. إذ انتشر مفهوم التيمة إلى حد أن مصنفات النصوص الموجهة للتلاميذ، سواء الكلاسيكيات الصغيرة أو مختصرات الكتب، أصبحت الآن منظمة حسب التيمات.

يظل مفهوم التيمة المستعمل بكثرة مفهوما حدسيا على العموم[174]. على الأقل ليس للتعريفات العادية علاقة دقيقة بعلوم اللغة. فمثلا، يعرف جان بيير ريشار، المعروف بالدقة في دراساته الموضوعاتية، التيمة كالتالي: «مبدأ مادي يتوخى التنظيم، قالب أو شيء ثابت وحوله ربما يتكون عالم ما» (1961، ص 24)، وهذه الصياغة تحيل على الظاهراتية الوجودية.

تبدو لنا التيمة كمصطلح فلسفي ناقص، فهو يشير إما إلى قسم متعال أو إلى قالب، بل ويشير حتى إلى نموذج مثالي بالمفهوم الجانجي(Jungien). بيد أن هدفنا يتمثل في توضيح تكوين وتطور التيمات في نطاق الدلالة التاريخية والمقارنة، وهي جزء من سيميائيات الثقافات- و ليست جزءا من الأنثروبولوجيا الفلسفية[175]؛ و ينطبق هذا المصطلح على العلاقة بين الفاعل والعالم، ويريد أن يجعل منه سببا للغته، في الوقت الذي تتوسط هذه العلاقة بالتعبير. في كلتا الحالتين، يتم تجنب الاستقلالية النسبية للخاصية السيميائية وخصوصا في هذا الإطار الذي يحكم العالم أو الفاعل الفلسفي إشكالية التيمة.

تعريف التيمة بأنها «مفهوم» أو التعبير عن «تلوين عاطفي» يجعلها خارج علوم اللغة، في حين أن على دلالة النصوص أن تعالج التيمات.

تعكس القواميس والفهارس الموضوعاتية الحالة المتوسطة للتصورات المعاصرة حول

174. قام تروسو Trousseau (1981، ص 12 و مايليها) بجرد هذه التعريفات على سبيل المثال: «نقطة التقاء بين العقل الخالق والمادة الأدبية أو ببساطة المادة الإنسانية» (ك.بيشوا وأ-م. روسو . CL .Pichois et A-M Rousseau)؛ «حدث أو حالة خطيرة» (وبير J. -P Weber)؛ «شبكة منظمة من الأفكار الاستحواذية» (بارط Barthes). وأضاف كولو Collot (1988، ص 80) هذا التعريف المنسوب إلى دوبروفسكي Doubrouvsky: «التيمة (...) ليست إلا التلوين العاطفي لكل تجربة إنسانية» و يضيف موضحا أنها تعبر عن علاقة بين فاعل والعالم المحسوس» (ص 8).

175. يشهد التعريف الموجود في القاموس الفرنسي *Trésor de la langue française* بثقل هذا الصنف من الأنثروبولوجيا في ما يخص الموضوعاتية: «وحدة محتوى (خطاب أو نص أو مؤلف أدبي) مطابق لثبوت الرمزي أو التخيل» ولكن يمكن للتيمة أن تكون خاصة بنص أو بمجموعة نصوص، ولكن كيف يتم الاستناد إلى هذه الثوابت الفائقة والقابلة للنقاش ؟

التيمة. مثلما أكد ف.سورديل (1995) F.Surdel ، إذا كانت تيمة الرحمة مثلا غائبة، فلأن الأحاسيس أو بالأحرى العواطف النبيلة مقصاة من حقل الموضوعاتية المعاصرة، المتأثرة بالخصوص بباشلار وميرلو بونتي والتي كانت تقوم بوصف الصفات المحسوسة بدلا من الصفات الأخلاقية. حسب علمنا، لا يوجد بعد أي قاموس ، مبني على أساس متن ومخصص للتيمات. إن جل القواميس تقتصر على تكديس القوائم دون الاستعانة بمبادئ التعريف المشترك، كما أن الترتيبات الحسنة لهذه القوائم تخفي خاصية المزج والخلط.

ينبغي للحدس الضروري أن يخضع لمراقبة المنهجية. وتعتبر التيمات المزعومة مثل **العدوانية** مقولات وصفية وعامة يمكنها أن تتطابق والفرضيات الأنثروبولوجية، ولكنها لا تتطابق و التيمات الموجودة في متن أدبي كلاسيكي. وبناء عليه، يجب وضع المقولات الوصفية المفارقة للتاريخ في إطار الإشكالية، بحيث إذا كانت العدوانية قديمة قدم قابيل، فإن مفهوم العدوانية يعتبر عالي الحداثة. إن إعادة الاعتبار للنصوص القديمة و منحها معنى يعد أيضا تقييما للزمن الذي يفصلنا عنها.

خلافا لليكسيمات، فالتيمات لا تعتبر علامات، ولكنها مرتبطة بمعايير مخالفة للغة. إذا كان الليكسيم والتيمة يختلفان من حيث المستوى ومن حيث درجة التحليل، مع العلم أن المفهوم الأول يعد علامة ومنسوب إلى المورفولوجيا والميكرودلالة، والمفهوم الثاني يعد وحدة محتوى ومنسوب إلى درجة الميزودلالة[176]، فإنه من الواضح أن كل لكسيم لا يعتبر تيمة. يتضمن التحليل الموضوعاتي الذي يندرج في إطار الدرجة المعجمية تيمات موازية لعدد كلمات اللغة، باستثناء طبعا عملية تقليص هذه القائمة، وهو العمل الذي تقوم به القواميس الموضوعاتية، بطريقة معيارية وغير نقدية. قد يعترض البعض قائلا بأن التيمات لها عادة تسمية بواسطة الليكسيمات؛ ولكن هذا الليكسيم يعد ببساطة مَعجَمَة مُفضَّلة للتيمة، و يمكن أن نجد تيمات بدون معجمة مفضلة (مثل التيمة التي وصفناها في رواية *L'Assommoir*[177]، أنظر راستيي، 1989، II، 2).

مثل كل الوحدات الدلالية، التيمة بناء وليس معطى؛ ولهذا ترتبط الموضوعاتية

176. في دلالة النصوص ، و هو الإطار النظري الذي يقترحه راستيي، الماكرودلالة هي درجة عليا من التحليل الدلالي و تهتم بالنص. الميزودلالة هي درجة تحليل المكونات و الحقب، أما الميكرودلالة فهي الدرجة السفلى التي تعنى بالوحدات الصغرى مثل المورفيم و المفردة و المكوِّنات المسكوكة (المترجم).

177. رواية الكاتب الفرنسي إميل زولا (المترجم).

بالشروط الهيرمينوطيقية، ذلك أن تأويل المعطيات النصية يجد مكانه في الدائرة المنهجية المرتبطة بالدائرة الهيرمينوطيقية. ويظل اختيار المتن وكل اقتطاع من متن وكل مصنف للمعطيات أمرا متعلقا بعملية الاختيار، ومن الأفيد أن يكون هذا الأخير صريحا. وبعبارة أخرى، للوصول إلى هذه الأهداف، يتعين على الموضوعاتية أن تقود التحليل المعجمي، ثم تؤول نتائجه. و إذا غابت هذه العملية، فإن النتائج لاتُستغل بالنسبة للدلالة النصية. إن التحليل المعجمي، وبمعية الإحصائيات، لا يقترح من تلقاء نفسه إشارات تستغل في التحليل الموضوعاتي. وتفرض برمجيات التساؤل[178] بعض المناهج ولكنها لا تقترح شيئا؛ إنها تصلح لإثبات أو نفي الفرضيات، وكل شيء مرتبط إذن باستراتيجية التأويل.

إنه لمن الضروري تجديد دلالة التيمات والتيمات المتكررة (Topoï)، لأن النظريات التي يمكنها الاستفادة منها لا تحدد الأهداف نفسها وتعالج متونا متنوعة. وتظل هذه النظريات، على كل حال، مصدرا مهما للتفكير.

تجيب **الدراسات الفولكلورية** على التساؤل المتعلق بتوضيح الكم الهائل من المتغيرات الشفوية المصنفة. وفي هذا السياق، فإن هذا المشروع هو الذي ألهم لفي-ستروس حين اقترح تعريفا للأسطورة كسلسلة من التحولات. إذا مرت بعض المواد المتعلقة بالحكايات الخرافية إلى الروايات، فإن هذه المواد يعاد تشكيلها. وإذا ما لاحظنا عند آرن وطومسون مثلا وجود بعض التطريزات الروائية، فلا شيء يسمح بالقول إنها تؤَمن الوظائف نفسها في الخرافات وفي الروايات. ولكن الوظائف وخصوصا الوظائف الجمالية في الأدب تبدو معرِّفة للوحدات النصية.

في الأخير، تكونت الإشكالية الفولكلورية منذ أكثر من قرن، الشيء الذي لا ينقص من قيمتها؛ ولكن، منذ بيديي، أضافت الدلالة أمورا جديدة.

تعد **السرديات** أيضا مصدرا لمجموعة من الدروس. لم يدَّع مؤلِّف بروب حول **مورفولوجيا الحكاية**، وهو نتاج للدراسات الفولكلورية، شيئا آخر غير وصف الخرافة العجيبة الروسية. ثم إن التحليل البنيوي للمحكي، في إطار التقليد الغريماسي، يستقي مصدره من بروب، ولكنه يعكس الرغبة في الوصول إلى الكونية. إلا أن بْرُوبّ اختار حكاية قاتل التنين (رقم 300 في تصنيف آرن وطمسون) كنموذج وكمثال للحكايات

178. برمجيات التساؤل هي البرمجيات المختصة في البحث عن التواردات في النصوص الرقمية(المترجم).

الأخرى في متنه، لأنها تبدو له نموذجية وكاملة[179]. وتقتصر هذه النموذجية، مثل جرد الوظائف وعاملي السرد، على هذا المتن وتظل محددة بسياقها التاريخي والثقافي، وهذا ما أوضحه لاحقا بروب في كتابه *Les racines historiques du conte merveilleux* إن رفع هذه البنية السردية، مع احتمال تبسيطها، لتصبح نموذجا لكل سيرورة سردية ثم لكل نصية[180]، يعني ركوب بعض المخاطر. من المحتمل أن الحكايات الشعبية الروسية تعكس، بطريقتها الخاصة، الإيديولوجية الثلاثية الوظائف والمشتركة بين الشعوب ذات الأصل الهند-أوروبي. ويعد تثليث الاختبارات مثالا، وهذا شبيه بالمطابقة مع تراتبية الطبقات الاجتماعية، إذ ينتمي البطل إلى الطبقة المنتِجة إبان الاختبار المؤهِّل، ويدخل في الطبقة المحارِبة إبان الاختبار الرئيسي، ويقتحم الطبقة الكهنوتية عند الاختبار التمجيدي. كون هذا النموذج ملائم لمتون نابعة من تقاليد أخرى سامية أو أمريكية-هندية أمر مشكوك فيه. وباختصار، ورغم الإسهام الهام للسرديات الغريماسية، فإن هناك بعض التحفظات التي تبدو لنا ضرورية. لقد استعملت هذه السرديات دائما المقولات نفسها، ووجدتها في كل المجالات لأنها تتسم بالكونية وبالطابع اللا-تاريخي بطريقة متعمدة. لم تعترف السرديات الغريماسية بأيِ اختلاف أساسي بين الكتابي والشفوي في المحكي الأسطوري، ولا بين لغة وأخرى، بما أن البنيات السطحية معروفة بكونها سطحية[181]؛ ويتسع هذا الأمر ليشمل أنساق العلامات غير اللغوية. وفي الأخير، لم تهدف السرديات الغريماسية إلى دراسة النصية[182].

إن التقليد الأخير منبثق من **البلاغة**. وتستلهم دراسة المعاني المشتركة (La topique) منهجها من السرديات أكثر من البلاغة، لأنها تعالج التيمات عوض الاستدلال. غير أنه،

---

179. جعل آرن وطومسون حكاية قاتل التنين على رأس المتن الذي يجمع الحكايات العجيبة، وربما استنادا إلى نفس الأسباب.

180. نعلم، حسب غريماس وكورطيس (1979، ص 153) أن «البنيات السيميائية - السردية [المنبثقة من تحليل بروب.] تمثل الإطار *ab quo* [sic] والمستوى الأكثر تجريدا في المسار التوليدي»، الذي يتحكم في كل نص، بل وفي كل تمظهر سيميائي.

181. استنادا إلى الفكرة القائلة بأن ما هو أعمق في الإنسان هو جِلده، فأزعم أن ما هو أعمق في النص هو سطحه.

182. على الأقل، أهملت السرديات الغريماسية ثلاثة أصناف كبرى من بين التصنيفات: أ- تعتبر الأجناس عند غريماس وكورطيس تكوينات «إيديولوجية»، وعلى هذا الأساس فهي غير واردة (أنظر قاموسهما، 1979، art. genre)؛ استنادا إلى هذا التعريف، فإن البنيات السردية، وإن كانت مفضلة، تكفي لتعريف الجنس. ب-حسب أنواع الميمسات، فأنواع أشكال الدلالية تتغير مثل نمطها في التطور. ج- يمكن لأنواع الاستتيقات أن تُربط بالأساليب (بمفهوم البلاغة القديمة)، وبالأنغام وبالمقامات (أنظر أعلاه الفصل السادس).

عند كورتيوس وغراسي، الانتماء إلى التقليد هو الأهم في استعمال مفهوم الطوبوس. وبإمكان تصور كورتيوس أن يؤدي مع ذلك إلى نزع صبغة الفردية عن المؤلف. وفي موازاة ذلك، سيؤدي نفس التصور إلى إهمال النصية، إذ إن النص تضمين [شعري أو نثري] وهذا التعريف غير خاطئ، ولكنه محدود على كل حال[183].

من أجل تصور موحَّد للبنيات التيمية وللمعاني المشتركة

في موازاة ثنائية تصورات اللغة، التصور المنطقي-النحوي والبلاغي الهيرمينوطيقي، هناك تصوران للطوبوس وللوحدات النصية الأخرى. و الملاحظ أن هذين التصورين يتقابلان نظريا ويتكاملان واقعيا. التصور الأول يجعل من الطوبوس عنصرا منتميا إلى مجموع مفردات النص، ومثل الجملة،التي تعد تسلسلا للكلمات، فإن النص سيكون تسلسلا من التيمات المتكررة[184]. وإذا كان من الضروري الاستناد إلى المعنى المشترك لتدبير كلمات المقارنة بين النصوص، فإنه ينبغي على التيمة المتكررة أن تسَهل عملية التمييز بين التحولات. باختصار، لا تعد التيمات المتكررة الخارجة عن إطارها سوى أصناف قد تم استرجاعها بطريق معيارية؛ ولكن إذا ما اعتبرت من ناحية تغيراتها السياقية، فإنها تساعد على فهم أفضل للنصية وللتناص.

البنيات الجدولية: إذا ما وجدت نماذج موضوعاتية ودلالية مشتركة، فإن منهجية إعادة استرجاعها تختلف عن النماذج المعجمية، لأنها لا تتمتع بالوضع نفسه. ويطرح مشكل التنظيم الجدولي المرتبط بالتيمات العادية و بالتيمات المتكررة بصورة مختلفة عما هو مألوف في النماذج المعجمية، كما تطرح في درجة تعقيدية عليا. لا تنتمي طبقات التيمات إلى المعجمية النظرية، وبصورة أقل إلى القاموسية[185] ولكنها تنتمي إلى الموضوعاتية أو المعنى المشترك، هذا إذا ما تم التوافق على تسمية دراسة الأشكال الدلالية المسكوكة في الدرجة الوسيطة بين الحقبة أو الفقرة[186]بهذا الشكل.

183. لم تكن الخلفيات السياسية غائبة في تصور كورتيوس، الذي كان يحاول التأكيد على الاستمرارية الأوربية، ولكن في إطار التقليد اليوناني-الروماني الذي تَوَّجَهه خياليا الرايخ الثالث، عوض التقليد اليهودي-المسيحي. كان يود الاستناد إلى الكونية الآرية عند يونغ Jung لأجل «ذكاء أكثر وضوحا لتاريخ الروح الأوربية».

184. تشبه اللسانيات النصية السيميائيات السردية للوظائف، إذ تعتبر أن النص متوالية من القضايا المنظمة تراتبيا.

185.مع أن «قواميس التيمات» تسدي بعض الخدمات، في البيداغوجيا على الخصوص.

186. يمكن التمييز بين ثلاث تعريفات للطوبوس. والتعريف الأكثر قدما، منذ بلاغة أرسطو، هو التالي: الطوبوس شكل استدلالي مسكوك؛ وقد أعيد بشكل أقل تمددا، من قبل بعض الباحثين في التداوليات.

في الدلالة المعجمية، العلاقة البنيوية الأكثر بساطة هي التضاد (antonymie). وتُبين الدراسات حول التوارد المعجمي مثلا أن أسماء العاطفة في الرواية تكون مرتبطة في مجمل الأحوال بنقيضها[187]. إذا كان التضاد متواردا في الدرجة المعجمية، فإنه من غير المؤكد أن يكون قابلا للتعميم في الدرجة التيمية أو في درجة المعنى المشترك. وهكذا، فبعض معجمات التيمات تُربط في إطار علاقة تضادية، أما البعض الآخر، فلا يربط بمثل هذه العلاقة. بيد أن السميمات التضادية لا تختلف عادة سوى بسمة واحدة، أما التضاد بين التيمات فيتمظهر من خلال سلسلات من التقابلات على مستوى السمات. مثلا، يتضمن الطوبوس المعقد للوردة التي توجد على حافة الهاوية (وهي تيمة متكررة في العصر الرومانسي) تيمتان: الوردة والهاوية اللتان يمكن معجمتهما بكلمات مثل: وردة، بنات، هاوية، هوة، تيه، عمق،... الخ. وتتقابلان بواسطة المقولات السمية/ بارز/ ضد/ أجوف/ ،/ ضعيف/ ضد/ قوي/ ،/ جذاب/ ضد/ مقزز/ ، / حي/ ضد / ميت/ ، / ملون/ ضد/ مظلم/ ،(أنظر راستيي،1989، ص63).

تتشكل التيمات و التيمات المتكررة في إطار أصناف من التجمعات. ويمكن لجزيئة دلالية مثل جزيئة السيف أن تتحول إلى جزء من تجمع يربط علاقة بين جزيئتين مثل الريشة والسيف؛ الأسلحة والحب؛ الأم والعاهرة[188]. التجمعات الثلاثية جد مطردة في التقليد الهند-أوروبي، بسبب ما سماه دوميزيل الإيديولوجية الثلاثية الوظيفة؛ التجمعات الخمسية موجودة كثيرا في الصين، وهذا ما وضحه بالخصوص جرني Gernet؛ أما التجمعات السباعية، فقد كانت شائعة في العصر القديم في الشرق الأوسط، المتأثر بعبادة النجوم عند أهل بابل. وخلاصة القول إن هذه التجمعات تقابل الطاكسيمات في الدرجة المعجمية، ولكن بنياتها تعكس معايير تنتمي إلى نظام آخر. ومن جهة أخرى، يلاحظ أن الثنائيات المتناقضة، مثل الأسلحة والحب، متقابلة ومرتبطة بالمجالات وبالأبعاد المحورية.

لكي نقيم حدا فاصلا بين التيمة والطوبوس، سنعرف **التيمة** بأنها ترد على الأقل

التعريف الثاني، الذي استعملناه في (1987) يفترض بأن الطوبوس عبارة عن إوالية معيارية ذات بعد اجتماعي (مثل الأولاد متبجحون) وتمكن هذه الإوالية من وضع السياق. ويشير التعريف الثالث إلى بنية تيمية مسكوكة، وهي مألوفة في تاريخ الأدب: وهكذا نجد الطوبوس المسمى *Locus amoenus*.

187. أنظر المكونات المتناقضة التي أظهرها بوريون Burion (1995)، مثل مرعوب من الفرح، مفزوع من الحب، رغبة مذعورة. .

188. مقارنة بما سبق، يظل هذا المعنى المشترك المعقد حاضرا بقوة، مع الأسف.

مرة واحدة في النص نفسه؛ أما **الطوبوس** فيظهر على الأقل مرة واحدة عند مؤلِّفين مختلفين. كما ينبغي على الموضوعاتية أن تفرق بين التيمات المتكررة و «التيمات الشخصية»[189]، وينبغي لها أن تحدد بدقة المعالجات الشخصية للتيمات المتكررة، هذه المعالجة تكون مخصصة، بل ومنقحة بسياقاتها. وتدرس الموضوعاتية التغييرات التي تطرأ على التيمات المتكررة ، في إطار إعادة تناوله.

إن التيمات المتكررة تنتمي إلى اللهجات الاجتماعية، ولهذا فهي مرتبطة بدراسة الأجناس والخطابات (أنظر الفصل الثامن). أما التيمات فإنها ترتبط باللهجات الشخصية، ومن هنا فهي متعلقة بدراسة الأساليب (أنظر الفصل السادس). سنطرح من جهة أخرى تمييزا يُوصف بالتعقيد.

دراسة التطريزات: في إطار التقليد الذي يعود إلى الدراسات الفولكلورية في القرن التاسع عشر، التيمة والتطريز مرتبطان عادة[190]. المفهوم الليبرالي للتطريز يتطلب توضيحات، إذ على الرغم من الاقتراحات النظرية التي قدمها الشكلانيون الروس، فلائحة التطريزات غير مميزة بالمقارنة مع لائحة التيمات[191]. وحسب البيبليوغرافيات، نجد أيضا **اليهودي التائه، والنسوية في** *L'Enéide* **والمسمرية والتبغ.** اقترح تروسون هذا التمييز: التطريز هو «لوحة خلفية، مفهوم عريض، ويشير إما لموقف ما – مثلا التمرد – أو حالة قاعدية، غير شخصية، والفاعلون المنتمون إليها لا يتمتعون بعد بالتفرد». أما التيمة، فهي «التعبير الخاص للتطريز وتفرده [...]. سيقال إن التطريز المعبر عن الجاذبية يتجسد ويتفرد في شخصية دون جوان (1981، ص 21-22) هذا التعريف يخلط بين علاقات الصنف/ المثال من جهة والوظيفة / العامل من جهة أخرى، وهذه العلاقات تمتزج بالعلاقة بين الجاذبية ودون جوان؛ بالإضافة إلى ذلك، لا تعتبر هذه العلاقات منفصلة عن العلاقات عمق / شكل، إذ إن التطريز مقارن بلوحة خلفية، مثل ما

189. شخصي تعني هنا لهجة شخصية، مقترنة بمعايير فردية. ويعتقد بعض الكتاب مثل تروسو Troussou أن التيمات الشخصية ليست في واقع الأمر تيمات، ويفضل أن يخصص مصطلح تيمات لما يسمى Topoï. ويعد هذا المنحى أثرا لأهداف الأدب المقارن الذي يفضل المعنى المشترك.

190. يستعمل بيديي Bédier كلمة **عنصر**، ومصطلح **تطريز** (motif) مقتبس من فيسيلوفسكي، Vessélovski، وقد استعمله شكلوفسكي Chklovski واعتبر أن «التطريز يعني عندي الوحدة السردية الأكثر بساطة، والتي تظهر في شكل صورة، تلبي مختلف متطلبات الفكر البدائي ومتطلبات الملاحظة اليومية، (حسب سيكر Segre، 1988، ص 10). لقد قاد هذا التعريف طومشفسكي Tomachevski و بروب إلى اعتبار التطريزات وظائف سردية.

191. بخصوص علم تشكل الحكاية عند كل من فلاديمير بروب و كلود لفي ستروس، أنظر «مساجلة بصدد علم تشكل الحكاية»، ترجمة محمد معتصم، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1988(المترجم).

نلاحظه عند صووير Sauer.

يمكن إعادة تعريف التطريزات بأنها بنيات نصية معقدة ومرتبطة بالدرجة العليا، أي الدرجة الماكرودلالية، التي تتضمن عناصر تيماتية، وتتضمن أيضا عناصر جدلية، عبر تغيير الفاصل الزمني وعبر تغيير المستوى الحواري، وعبر تغيير الصيغة. على سبيل المثال، تطريز **الميت المعترِف**، الموجود في Motif-index of Folk littérature لطومسون Thompson، يُعتبر بنية تيماتية وجدلية معقدة، تطرح وظائف **الموت والإحسان والاعتراف بالجميل** كما تطرح فاعلين ممثلين بالبشر. وخلاصة القول، إن التطريز هو مكون سردي مسكوك، متمظهر جزئيا بالتيمات المتكررة، بينما التيمة وحدة تنتمي إلى الدرجة السفلى، وهي ليست بالضرورة حاضرة في شكل صورة نمطية، وتوجد في جميع أصناف النصوص. باختصار، التيمة هي بالنسبة للمكون السردي ما يقابل الطوبوس بالنسبة للتطريز، وهذا ما يظهر في الخطاطة التالية:

	الوحدات التيماتية	الوحدات الجدلية
في خطاب أو جنس ما	طوبوس	تطريز
في نص ما.	تيمة	وظيفة، مكون سردي

الموضوعاتية: النظرية والمنهج

للتدقيق في تعريف التيمة

بالنظر إلى تفضيلنا للعلامة أو للنص، وداخل العلامة، إذا فضلنا الدال أو المدلول، فإن التيمة تُعرَّف بطرق مختلفة. وتعرف الطريقة القاموسية، المرتبطة بلسانيات العلامة، التيمة بأنها الكلمة التي يجب شرحها (vedette-mot)، وهذه الكلمة هي عموما إسم تلتصق به مختلف المترادفات أو الكلمات المعادلة له جزئيا، بحيث إن قاموس التيمات سيكون إذن قاموسا فرعيا بالنظر إلى القاموس العادي.

المسلك الدلالي، في المقابل، مرتبط بلسانيات النص ولا يمنح التفوق إلى الكلمة الواجب شرحها والمتعرف عليها عن طريق الدال[192]. و يحدد هذا المسلك التيمة في إطار شبكات من التواردات والتحولات.

192. أعطينا أمثلة لتيمات دون معجمة وهي التيمات المفضلة عند زولا (1989، I، الفصل الثاني) وعند إلوار Eluard (1991، الفصل الثامن).

التعريف الدلالي

إذا أطلقنا اسم تيمة على بنية ثابتة من السمات الدلالية المتواردة داخل نص ما، والقابلة لمختلف المَعجمات، فإنه من الواجب تحديد هذا التعريف، وذلك بوصف هذه السمات وهذا المتن وهذه المَعجمات؛ ثم بعد ذلك نقوم بطرح الأسئلة حول العلاقة المتداخلة بين التيمات فيما بينها وحول تكوين النماذج التيماتية (أو الموضوعاتية).

بما أن مفهوم مقولة دلالية يظل جد فضفاض[193]، فإننا نميز بين السمات النوعية والسمات المخصصة (أنظر بوتيي Pottier، 1974): بعضها يؤشر للسيميمات داخل الطبقات (الطاكسيم والمجالات والأبعاد)، والبعض الآخر يقابلها بعناصر من طبقتها التعريفية. ويفترض توارد السمة النوعية تشاكلا نوعيا. وفي بعض الأحيان، في التصور العام، تستعمل كلمة تيمة للإشارة إلى «الفاعل» في نص ما، أي تشاكله النوعي المهيمن، وهو عادة مجال دلالي[194]. مثلا، يمكننا تقديم تحليل ضعيف مفاده أن *La Princesse de Clèves* رواية حب. لقد تَحدثنا في هذا الشأن عن التيمة النوعية، وهذا يعتبر نوعا ما مفرطا، لأن التشاكل لا يعد بنية[195].

وفي المقابل، تُعرف التيمة **المخصَّصة** بأنها جزيئة دلالية، أي تجمُّع منظم من السمات **المخصصة**. ويتم تمثيل الجزيئة برسم دلالي، تكون عُقده موسومة بالسمات، وتكون الترابطات موسومة بالأوليات الدلالية (الحالات[196] والعلاقات البنيوية). وسنعطي مثالا تم تطويره بشأن تيمة الملل.

نتردد كثيرا حين نريد العودة إلى الملل بعد أطروحة صانيوه Sagnes (1969) ومؤلفات بوشي Bouchez (1973) وديفلين مارتان d'Evetine Martin (1993، ص-202-146). ولكن المعطيات التي قد جمعت وأسست تساعدنا على تقديم مختصر للأمثلة. الإحساس (الشعور أو العاطفة) بنية عاملية وفيها يكون العامل البشري متأثرا

193. قدم تودوروف التعريف التالي للتيمة: «مقولة دلالية يمكن أن تكون حاضرة على طول النص أو حتى في مجموع الأدب (تيمة الموت مثلا)»، (أنظر ديكرو و تودوروف، 1972، ص 283).

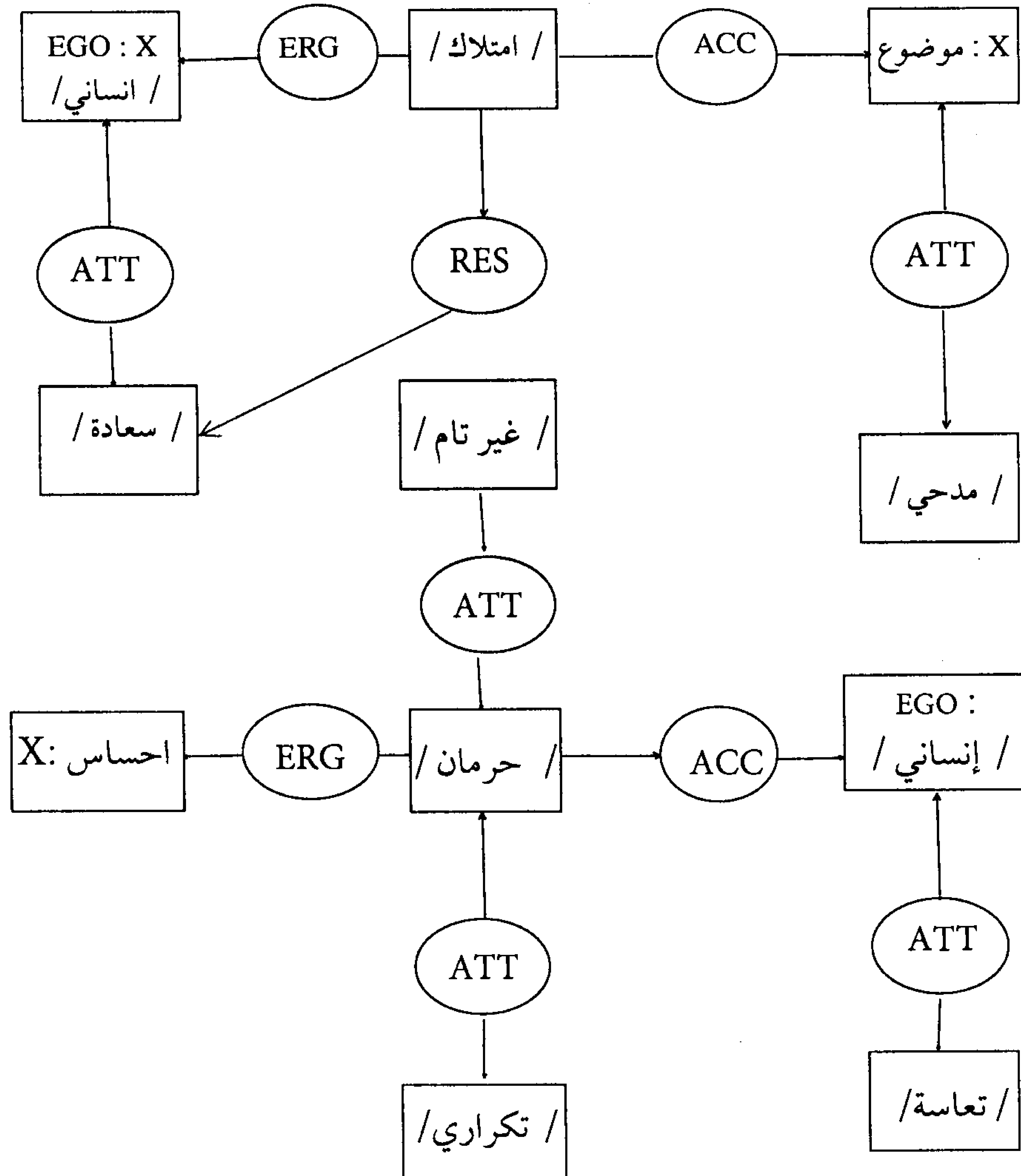
194. أنظر أعلاه الفصل الأول، الفقرة الثالثة. بطبيعة الحال، لا نتبنى الإشكالية الواقعية العادية في فلسفة اللغة وفي اللسانيات الوظيفية الممثلة في مدرسة براغ. وحسب هذه المدارس، فالتيمة هي المرجع أو «ركيزة» الملفوظ.

195. حول تصنيف التيمات النوعية، أنظر المؤلف (1989)، I، الفصل الرابع.

196. الحالة هنا بالمعنى النحوي، Case بالإنجليزية (المترجم).

بمجموعة من التقييمات. ويمكن لهذه البنية أن تمثل بواسطة رسم دلالي[197] يصف جزيئته الدلالية (أنظر الشكل 1). لنُعرِّف أولا مضمون الرسم وذلك بتوضيح، بصورة اختلافية، الوسم (étiquette)المرتبط بالعُقد والوسم المتعلق بالترابطات. هنا، يقسم الرسم [أو البيان] إلى مقطعين: الأول سالب (ممثل بالحرف N) ويصف امتلاك شيء ذي قيمة، والآخر مؤكد (وممثل بالحرف A) ويصف فعل الإحساس وأثره على الفاعل.

الشكل رقم 1



197. وضعنا تحت هذا الاسم مفهوم الرسومات التصورية المحددة من قبل صووا Sowa (1984) الذي اقترحه من أجل الوصف اللغوي؛ وحول مزايا وحدود هذا النوع من التمثيل، أنظر المؤلف (1989)، I، الفصل الخامس.

ملاحظة: الرسم N سالب. ERG اختصار لكلمة ergatif (إركاتي)، ACC اختصار لكلمة accusatif(منصوب)، ATT: attributif أي إسنادي، RES: résultatif أي نتاجي. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرسوم أنماط، لأن بعضا من عقدها، الموسومة بالحروف اللاتينية الكبيرة، ليست متجلية في سياق معين (وهذا ما يوضحه الرمز س).

لنفصل مكونات الجزيئة الدلالية الممثلة أعلاه، وذلك بإعطاء أمثلة من التعابير النمطية.

العامل Ego لا يُخصص بأية طريقة سوى بالسمة / إنساني /، أما السمات الأخرى فهي منتشرة بواسطة السياق: Ego إرغاتي في N، و منصوب في A. المنفِّذ (Agent) يُعرَّف إذن بالسمة / إحساس / ؛ في حين أن المحددات الأخرى للملل توصف بالعلاقات بين المنفذ وبقية الرسم.

العامل المنصوب في N محدد عبر تقييم إيجابي / مدحى /، بينما السيرورة تكون سالبة. ونجد بالتالي في السياقات السمة / حرمان / المعبَّر عنها بتعابير سلبية: **لا توجد وسيلة للفهم، ليس هناك ما يمكن عمله، في حالة لا يستطيع المرء فعل أي شيء، لم يصطدم بأي شيء صلب، دون أن تنتابه رغبة**؛ وهناك السوابق *in* و *im* في الكلمتين الفرنسيتين *inaction* و *impossibilité* ؛ كما أن هناك تعابير أخرى لا تعد سلبية إلا بالنظر إلى الاستنباط مثل **فارغ، أيدي متمايلة ،الضاحية**.

في A، توصف السيرورة (procès) بسمتين: (أ) / غير تام / :بلا نهاية، **بلادة تأملية، انتظار المحتضر، إحباط لا حدود له** ؛ ولكن هناك الاستعمال المتكرر للزمن الفعلي غير التام، وخصوصا ماضي الديمومة(l' imparfait)؛ أو أيضا **عنكبوت، الأحد**؛ (ب) / تكراري / : **يجزأ، يلتهم، يعجن، يقطم، جذام، عادات تعاد دون توقف، تتوالى الأيام، اطراد ممل، يصطدم [...] بنفس الملل**. في هذه التعابير، تكون السمتان عادة محققتان في المعجم[198]؛ مثلا، **تاه**. ونتيجة السيرورة هي سمة / التعاسة / الملتصقة بالايكو Ego، والتي تمعجم عن طريق تعابير من قبيل **فارغ، بلادة، خفت يقظته، فترت همته**.

يمكن وضع هذه القدرة الوصفية لهذا التمثيل على المحك، وذلك بالاستعانة بأمثلة توضح كيف يمتلك الكُتاب التيمة. عندما أحال برفير Prévert إلى أولائك الذين

198. لهاتين السمتين الجهيتين أهمية كبرى في تمثيل المعيش، من حيث إن أشكال المعيش تطابق أصنافا من التزمين(temporalisation)، (أنظر المؤلف (1999b)).

يقهرون الملل يوم الأحد بعد الظهر لأنهم يرون يوم الاثنين قادما *Paroles*,1946, p19-21 فهو قد فسر الأمر بالارتكاز إلى تشاكل مجتمعي وهو الأحد .وبسبب التهديد الذي يمثله يوم الاثنين ،وهو طوبوس الشعبوية المنتشرة في ذلك الزمان[199]، جعل بريفير من العمل ما يفسد حتى اللاحركة. ونورد كذلك مثال بارط الذي كتب ما يلي: «الملل غير بعيد عن المتعة: إنه المتعة التي يُنظَر إليها من زاوية اللذة» (1973، ص 43)،إنه يحقق باللذة موضوعَ الرغبة المنفصلة عن الإيكو (الرسم N). وتمثيل هذه التفرقة يكون مجازيا، أي عبر صورة النهر الذي يعيد رسم السمات/ غير تام/ و / التكراري/ و من الناحية الكلاسيكية، اللذة مرتبطة بالملل[200] وتكون في المكان نفسه في الرسم N. ارتكزت المراجعة المقدمة من قبل لاكان Lacan لهذه القيمة بوضع المتعة في المكان الذي كان شعراء نهاية القرن يضعون زرقة السماء (Azur).

يمكن للتيمة المعرفة بأنها جزيئة دلالية أن تتحقق بتعابير مختلفة، عن طريق وحدات تشمل المورفيم والمكون. ونسميها، للتبسيط، **معجمات**، مميزين بين المعجمات التركيبية التي تتجلى فيها سمتان على الأقل، والمعجمات التحليلية التي لا تظهر فيها إلا سمة واحدة. بالفعل، يمكن للتيمة أن تتجلى تجليا متداعيا، مثلا في فقرة ما تُمعجَم فيها السمات الواحدة تلوى الأخرى. أما بالنسبة للمعجمة التركيبية، فإنها لا تتمتع بأية سلطة تفوُّق نظرية مقارنة مع المعجمات الأخرى: لا تعد المعجمة التركيبية «الكلمة الصائبة»وكل التعابير الأخرى لا تكون إلا استنساخا ناقصا[201]. وحسب الخطابات والأجناس، تتنوع معايير معجمة التيمات، ذلك أن الشعر الغنائي يتوفر على المعجمات التحليلية، بينما تعتمد الخطابات التقنية على المعجمات التركيبية.

على الرغم من أن معجماتها الأكثر تركيبا تنتمي إلى طبقة محددة بإحكام، فإن التيمات تكون مستقلة عن الطبقة الدلالية، أو بالتحديد يمكن أن تتمظهر في شكل

---

199. يقال أيضا في المُحترفات ça va comme un lundi ، بمعنى «سيكون الأمر على ما يرام إذا لم يكن أمامنا أسبوع من العمل».

200. قدم مارتان، E.Martin(نفس المرجع، ص108) في نصوص سالفة تعابير من قبيل
l'air d'ennui dans les étreintes ardentes ,l'ennui de cet accouplement
(جو الملل في خضم العناق الحار، ملل التزاوج).

201. تكون للتيمة مَعجَمة مفضَّلة (مثلا، طموح) أو معجمات متعددة (شفقة، رحمة، عطف). وقد يتعلق الأمر بمفردة (حب أبوي) أو بتيمة ليس لها اسم متداول (الإحساس بالملل، حب الفن). تتمظهر الشبه مرادفات المكونة للمعجمات المفضلة على أنها لا تظهر في السياقات نفسها؛ مثلا، **spleen** كلمة قليلة التمظهر في سياق الملل، ليس لأنها بعيدة عنه، ولكن ربما لأنها قريبة منه.

تشاكلات نوعية. مثلا، إذا سمينا «ملل» الجزيئة الدلالية التي تحتوي على السمات / حرمان / (وبالخصوص: / لا حركة/)، / غير تام/ ، / تكراري/ (في كثير من الأحيان، تكون هذه السمات ممزوجة مع سمة / رتابة /)، فإننا سنجد أن هذه القيمة يمكن أن تتجلى في كلمة **عنكبوت**، أو **يوم الأحد** أو رتيب. لا نتحدث هنا عن الاستعارة، لأن التيمة المحددة هي مبدئيا مستقلة عن كل تشاكل نوعي؛ بمعنى آخر، لا توجد كلمة مخصصة لهذا الغرض، ولو أن كلمة ملل تظل تسمية ملائمة. على سبيل المثال، بينما تظهر هذه الكلمة أربع مرات في رواية **مدام بوفاري**، فمكونات هذه التيمة تظهر باستمرار، خصوصا إذا تعلق الأمر بشارل. وهكذا، في هذه الجملة الشهيرة: «حديث [/ التكرر/][202] كان شارل [/ غير تام /]، مسطحا [/ غير تام /]، [/ رتابة/] مثل رصيف الشارع [/ رتابة/]، وأفكار كل العالم [/ مكرر/ ، / رتابة/] تمر في هذا الحديث [/ غير تام/ ، / مكرر/] في معاطفهم العادية [/ مكرر/ ، رتابة]، دون [/ حرمان/] تهييج عاطفي [/ سعادة/]، أو ضحك [/ سعادة/] أو تهييج حلم [/ غبطة/]») .(I ،VII)[203]. كلمة ملل غائبة، ولكن السمات الواصفة لتيمة الملل تتكرر بصورة مكثفة .إن اللاتطابق بين تكرار التيمة ومعجماتها يعد دليلا على المبدأ الذي أكده هيلمسليف ومفاده أنه لا يوجد تطابق بين مستوى التعبير ومستوى المضمون، بالرغم من طموحات لسانيات العلامة.

تعتبر الجزئيات الدلالية أشكالا دلالية بسيطة، بينما تعد التشاكلات العامة خلفيات دلالية وعن طريقها تدرس الجزئيات في إطار التصور (أنظر أعلاه، الفصل الأول، المقطع الرابع). في بعض الخطابات، تكون العلاقة بين الأشكال والعمق أحادية، ولكن في الخطاب الأدبي، تتمظهر بعض الأشكال المشابهة فوق خلفيات مختلفة، وبينهما علاقات قائمة على التراتبية والهيمنة. عندما يتم استخلاص تواردات الجزيئة نفسها من تشاكلين مختلفين، يمكن القول إنهما يدخلان في علاقة مجازية. ولكن توجه هذه العلاقة مرتبط بالهيمنة بين التشاكلات وبالمسار التوليدي المؤسَّس. وبعبارة أخرى، لا

202.السمة / تكراري/ متجلية في السياق بواسطة منعطف معقد، ويمكن تلخيصها كما يلي: يفترض استعمال المفرد وأداة التعريف حديثا واحدا، أو، مثل ما هو مطروح هنا ، يفترض نوعية الكلام نفسه الذي يتكرر في كل يوم.

203.الموقع التلفظي المؤسس للوصف هو إذن لبطلة الرواية إيما. ومن المعلوم أن فلوبير من مبدعي الأسلوب غير المباشر الحر، و بالضبط في روايته مدام بوفاري. و من المحتمل أن تحتفظ هذه الطريقة في تمثيل التلفظ بالتباس يمكن أن يحيل على عدم تحمل الفاعلين لرغباتهم (أنظر الرسم N) وللواقع (أنظر الرسم A).

يعتبر الارتعاش استعارة للخوف؛ وهاتان الكلمتان تمعجمان التيمة نفسها بالنظر إلى تشاكلين عامين ، التشاكل الأول جسدي والثاني معنوي. وهكذا، فالتقابل بين البعد / الجسدي/ و / المعنوي/ يعد إذن ثانويا بالنسبة للتحليل الموضوعاتي.

يبقى طبعا أن نحدد تأثير العمق على الأشكال، والتغييرات التي يمكن أن تضيفها السمة العامة إلى جزئية ما. و من أجل الوصول إلى هذا المبتغى، تظل نظرية الطبقات الدلالية ضرورية، ولكنها لا تكفي لتكوين الموضوع، لأنها لا تهم إلا الخلفيات الدلالية.

وتوضح العلاقة المعقدة بين الشكل والعمق ارتباط التصور الدلالي بالسياق (أنظر المؤلف، 1991، الفصل الثامن). إن هذه العلاقة غير ساكنة، ولا ينبغي تصورها على أنها شكل هندسي في تصميم ما، إذ إن الأشكال نفسها تملك بالفعل أنماطا للانتشار المختلف، ويمكن أن تتحول إلى خلفية. وبناء عليه، فإن التيمة تكون خفية أو جلية، حسب شكل المكونات التي تكون مشتتة أو مجتمعة، والتي تتمظهر عن طريق المعجمات التحليلية والتركيبية.

درجة التحليل الموضوعاتي: مفهوم الوحدة النصية غامض بعض الشيء، لأن تحليل النص يمكن أن يتوقف عند درجة الكلمة، وهذا ما تقوم به الإحصائيات المعجمية. ولكن، يمكن للنص أن يُحلَّل باعتبار ثلاث درجات رئيسية: الدرجة الميكرو، والميزو والماكرودلالية، وتقابل هذه الدرجات التحليل على مستوى السيميم، ومضمون الحقبة، والبنية النصية. ونشير إلى أن هذه الدرجات الثلاث مقابلة لثلاثة مواضع للمحلية تهم انتشار السمات الدلالية، بحيث يكون الانتشار علويا في خضم المركب؛ ويكون جيدا بين المركبات المنتمية للحقبة نفسها؛ أما بين الحقب، فإن هذا الانتشار يتطلب تحملا من قبل البنيات الماكرودلالية.

كل سمة دلالية تملك طاقة تنشيط تنتشر محليا بالنظر إلى المنع والتسهيلات المضبوطة عن طريق البنيات المورفوتركيبية. وحسب طبيعة السمات ونمط انتشار التنشيط، يمكن التمييز بين حالتين مثيرتين: أ- يحفز تحيين سمة ما تكرارها من جراء اختبار عملية التذكر. وفي هذه الحالة، وحسب وضع هذه السمة، يستدل بهذا الوضع على التشاكل النوعي أو المخصص[204]. ب- يعمل تجلي سمة ما أيضا على تكرار

204. يعد إنتاج الأضداد (أو النقائض)، وهو مؤكد من طرف التجميعيين (associationnistes) في القرن الماضي، مثالا للتنشيط داخل الطاكسيم، بواسطة تكوين تشاكل نوعي أدنوي.

السمات المجاورة في نفس الجزيئة الدلالية. ولهذا السبب، نجد أن المعجمات الجزئية للتيمة نفسها متواردة كثيرا في نفس الحقبة، بل وحتى في نفس المرَكّب. هذه الظاهرة التي يمكن تسميتها «التعالق المعجَمي الجزئي»(paratopie) تظهر في العوائد المشتركة[205]. انتشار التنشيط الكثيف هو الملازم الدلالي للظواهر التي تسميها الجشطلت **قوانين الاستمرار الجيد**، والتي تدرسها السيكولوجيا المعرفية تحت اسم عام، وهو **الإشعال** (priming).

بالاستناد إلى التواردات، تعد التيمة موضوعا للدراسة الماكرودلالية. ولكن، بوصفها وحدة، تنتمي التيمة إلى الميزودلالة و تظهر معجماتها المختلفة عموما في فضاء أصغر من ثلاثمائة كلمة؛ ربما يكفي فضاء مكون من حوالي خمسين كلمة لتحديد أربعة تجليات من كل خمسة تواردات.

إذا أردنا أن نقدم الموضوعاتية بالنظر إلى الميادين المختلفة للتحليل النصي، فسنتجاوز الهدف المحدد لهذا الفصل. إننا نؤكد ببساطة على علاقات التيمة بالمكونات الأخرى للنص. بالنظر إلى التكتيك، للتيمة مواقع قابلة للتحديد - في تمظهراتها المكثفة - ويمكن رصد الأنغام الموضوعاتية. وبالنظر إلى الجدل، للتواردات المُجَمَّعة والمتعلقة بنفس التيمة نفس المواقع في الفاصل الجدلي؛ وبالنظر إلى المستوى الحواري، فإن التواردات متموضعة في نفس العالَم وفي نفس الكَوْن.

يساعد هذا التحليل على تحديد التيمات بالنسبة للوحدات المنتمية إلى المكونات الدلالية الأخرى، التي تطرح اختلافات جدلية، حوارية أو تكتيكية. مثلا، تنخرط التيمة المتكررة في العديد من الفواصل الجدلية في إطار البنيات الجدلية وتعرف على أنها فاعل[206].

من التحليل المعجمي إلى التحليل الموضوعاتي

سندرس بتفصيل الصعوبات النظرية التي تعترضنا عند المرور من التحليل المعجمي إلى التحليل الموضوعاتي. كيف نعرف أن مفردة تمكننا من الولوج إلى تيمة؟ سنصطدم هنا بمشكل الملاءمة. وللتوضيح، سنطرح المشكل بخصوص كلمة

205. مثلا، في الجملة« nous entrâmes dans un fiacre. La promenade fut enivrante » (ركبنا عربة و كانت الجولة ممتعة)، تَعجِم كلمة **جولة** سمة مجالية متعلقة بالعربة. لا نفترض معالجة تحديدية. مفادها مثلا أن انتشار التنشيط يتجَه من الكلمة إلى ما يليها مباشرة، لأن بعض المسارات التأويلية تكون متقهقرة.

206. علاقة التيمة بالمعجمات المسندة إليها متجانسة مع علاقة الفاعل بالمعجمات التي تسند إلى العوامل(actants). نستعمل الكتابة نفسها بخصوص التيمة والفاعل (acteur): تكبير الحرف الأول (majuscule).

وهي كلمة«سُرَّة» عند فلوبير. استلهمنا اختيار هذه التيمة من تصريح محيّر لفردريك نيف Frédéric Nef: «لا يمكن لمدام بوفاري أن تملك أكثر من سرة واحدة؛ فقط لم تكن لها سرة. في كل العوالم التي يمكن اقتحامها انطلاقا من عالمنا، إنه الفرد غير المكتمل الذي لا يتوفر على هذه الخاصية» (1992، ص 10). ولكن، إذا كانت كلمة سرة تتكرر ستة عشر مرة في مؤلف فلوبير، بما فيه سرد الرحلات والمراسلات (دار النشر كونار Conard)، فإنها لا تظهر في رواية **مدام بوفاري**. و بعد إجراء تحقيق، يمكننا مع ذلك طرح بعض الاكتشافات المتواضعة.

في النسخة الأولى لرواية **التربية العاطفية** *(L'Education sentimentale)* (1845)، نجد امرأة ثرثارة «سبعة وأربعون عاما تقريبا، مازالت جد طرية، كساؤها جيد وتتمتع بصحة جيدة، مثيرة وجذابة، العين ثاقبة، ثرثرتها سريعة، ولها صوت ضخم، بما أننا نسمع بواسطة الحنجرة كل ما هو ممتد من الذقن إلى السرة» (ص 39)[207]. يتكرر الموضوع نفسه في *Tentation*(1849) : «في ظل مزرعة العنب، كانت نائمة على العشب، ومدت شفتيها لتلتقط العنب الطازج: سقطت حبة عنب وتزحلقت فوق خدها، وعند تدحرجها ما بين ثديها، دغدغت جسدها كله، من الذقن إلى السرة» (ص 360). تؤكد المراسَلة أيضا هذا المعنى الجديد الذي أعطي للسرة، ألا وهو الحد الأسفل لصدر ممتلئ، بالنسبة للنساء الإغريقيات، سواء كانت عصريات «يأخذن ملابسهن لإخفاء الهيأة ويكشفن عن ما توافق على تسميته بالصدر، أي الحيز الممتد من الذقن إلى السرة» Corr، 1850، ص 136) أو من النساء القدامى، وهذا ما يوضحه النقش الموجود فوق قلعة أثينية: «لم يبق إلا النهدين، منذ ولادة العنق حتى ما فوق السرة» (Corr، 1852، ص 298)[208].

في *Tentation*، العمل الذي ظهر سنة 1874، تتحول السرة الأنثوية إلى عضو إيروتيقي[209] أيضا بل وتعلن الجنس: «أولا بحثت عن امرأة مناسبة: من جنس عسكري، زوجة ملك، جد طيبة، في منتهى الجمال، لها سرة عميقة، وجسد متماسك مثل الماس: وفي وقت اكتمال البدر، ومن دون مساعدة من أي ذكر، دخلتُ في بطنها»(ص

207. في هذا المقطع كما في آخر هذا الفصل، المراجع مأخوذة من بيبليوغرافية Frantex، وموقعه بالأنترنت في متناول الجميع.

208.Corr: تصغير لكلمة correspondance (مراسلات).

209. أنظر *le cantiques des cantiques*: «سرتك كأس لا ينقصه الخمر».

.(123

يُسند إلى السرة معنى آخر، في *Salambô* و *la Tentation*، إذ تربط بما هو إلهي أوسحري، وتشير إلى أصل الحبل السري أو الحبال السرية، بل وحتى إلى سلسلات يمكن أن تفرح المحللين النفسانيين المتخصصين في فلوبير: «يملأ جسدها السقفَ بأكمله، ومن سرتها تتدلى بيضة ضخمة عبر خيط» (*Salambô* ، ص 81). أوهذا النص أيضا: «تنطلق عدة أزقة أمامه، في كل زقاق، صف ثلاثي من السلاسل البرونزية، المثبتة في سرة الآلهة (الباطيك)[210]، وتتمدد من ركن إلى ركن وبصورة متوازية» (ص 162). في Tentation لسنة 1849، «اشترت عاهرات من أحد المجوس صفائح معدنية توضع في السرة» (ص 219). وتظهر السرة المولدة للحياة في الجملة التالية: «أجنة وتوائم [أربع] مقبوضة عند السرة» (*Tentation*، 1849، ص 408)[211].

ولكن السرة أصبحت موضوعا صوفيا[212] في النص التالي: «وأنا أضحك، كنت أتأمل صعود ساق خضراء من سرتي، ومن هذه الساق سيتفتق إلاه جديد» (ص 448). في سنة 1874: «في سرة الإلاه، نبتت ساق من زهرة اللوتوس: وفي كأسه، يظهر إلاه آخر له ثلاثة وجوه» (ص 123).

يوجد معنى آخر للسرة في المراسلات. بالنسبة للرجال، تفصل السرة، في التصور الأفلاطوني، الجسد إلى قسمين: «ينبغي علينا الدخول في الحياة الحقيقية حتى السرة. ولنترك الحركة في منطقة الساق عند الإنسان» (Corr، 1857، ص 46)[213].

تطابق هذه التصورات الثلاث ثلاثة أشكال نصية مختلفة. الشكل الأول يمعجم بصورة ملتوية تيمة المراسَلة، وهي تيمة الصدر الأنثوي[214]. الشكل الثاني هو عبارة عن معجمة جزئية للتطريز الذي يشير إلى الخلق الرهيب، وهو مطرد في الروايات

210.آلهة الباطيك : اسم الآلهة عند البيغمي (إسم قبيلة في أدغال أفريقيا)(المترجم).

211. في سنة 1856، تغير هذا النص و استبدل بما يلي: «أجنة رباعية مقبوضة إلى السرة وتدور مثل الخذروف» (ص 599، معاد حرفيا سنة 1874، ص 197).

212. كانت للسرة دورا محوريا في الجدال الذي كان قائما حول الاتجاه الديني المؤسس على عبادة ومناجاة المسيح والذي يضع في بيزانطا في القرن الرابع عشر بارلام دو سمينارا Barlaam de Seminara في مواجهة غريغوار بالاماس Grégoire Palamas. بالفعل، كان بعض الصوفية يمارسون «صلاة القلب» للوصول إلى رؤية الله ، غير أنهم يعتبرون السرة «كموضع للقلب» وبالتالي وجب التركيز عليها، وهذا ما يبرر اللقب القدحي « omphalopsychiques » (من توجد روحهم في السرة) الذي نعته بهم بارلام.

213.هذا التقسيم، الذي مازال متداولا في تعابير من قبيلau dessus de la ceinture (ما فوق الحزام) يمثل بحق الطوبوس، ولكن تواردە المنعزل في متننا لا يمكن من إقحامه في التحليل الموضوعاتي.

214.أنظر مثلا هذا الوصف لكوشوك-هانيم Kuchuk -Hanem(1850)،corr، t، II،ص 174: «شخصية إمبراطورية، لها نهد كبير وممتلئة بالعضلات».

ذات النزعة الشرقية (*Salambô* و *la Tentation*). أما التصور الثالث، فإنه لا يطابق أية تيمة، إذا وافقنا على الرأي القائل بأنه يجب على الأقل توارد واحد لنجعل منه تيمة. وهكذا، فكلمة سرة تعتبر مَعْجَمة جزئية لتيمة في المراسَلة، ولتطريز في روايتين ومَعْجَمَة لطوبوس معزول في المراسَلة (Correspondance).

باختصار، يمكن للمفردة ألا تمعجم أية تيمة، ولكن يمكنها أيضا أن تمعجم العديد من التيمات. وأخيرا، فعلاقة المفردة بالدرجة الموضوعاتية مرتبطة بخطاب ما (أدبي، طبي، إلخ...)، و بجنس أدبي وبمتن. ثم إن العلاقة بالمتن ليست هي العلاقة نفسها بالنسبة للتحليل المعجمي والتحليل الموضوعاتي. ينبغي على المتن أن يكون في حده الأقصى في الدراسات القاموسية التي تصبو إلى توضيح كل إمكانات اللغة. وفي التحليل الموضوعاتي، يجب على المتن أن يكون مقيدا بإحكام من أجل وصف خصوصية الخطابات و الأجناس، ذلك أن تيمات الرواية مخالفة لتيمات القصيدة والكتابة الفكرية. فمثلا، عند تفحص متن ممتد، تختلط فيه الرواية بالكتابة الفكرية في فترة ما بين 1830 و 1870، لاحظنا أن الأحاسيس في الرواية ليست هي تلك التي توجد في الكتابة الفكرية (essai). مثلا، الإحساس **بالأخوة**، المتوارد في مؤلفات لورو Leroux والإحساس **بالإنصاف** عند برودون Proudhon لم يتم حصرهما في الروايات، ما عدا في البؤساء [لفكتورهوجو]، وهو مؤلَّف تتناوب فيه بحق الفصول الروائية وفصول أخرى تنتمي إلى الكتابة الفكرية.

لنفترض أن الكلمة نفسها تتواجد في أجناس مختلفة، فلا شيء يؤكد أنها تحيل على التيمات نفسها، إذ نجد مفردة حب بالفعل في الشعر وفي الرواية، ولكن تيمة الحب تختلف مع ذلك في هذه الأجناس. ذلك أنها لا تحتوي على الجزئية الدلالية نفسها، ولا تحتوي على المعجمات ولا الأضداد ذاتها. في الرواية، خلافا للشعر، يقابل الحب الطموح الذي يعد تيمة غائبة عن مجال الشعر، ونقيض كلمة حب هو كلمة **طموح** (أنظر إغليش، Erlich، 1995).

وهكذا، فالموضوعاتية تبتعد عن المعجمية النظرية وتبتعد بصورة أقوى عن القاموسية، ونعني بذلك أن المناهج القاموسية غير لائقة للتحليل الموضوعاتي؛ ثم إن العناصر الموسوعية التي تختلط غالبا بالتعاريف تظل عديمة الفائدة. وفي الأخير، نلاحظ أن بنية المدخل القاموسي غير ملائمة للجرد الموضوعاتي. ولكي تتطور

الموضوعاتية، ينبغي أن تتجاوز التحليل المعجمي. ولكنها مرتبطة به، وذلك لأسباب واقعية تعود إلى وضع الحقل المعرفي. فمن جهة إن اللجوء إلى البنوك المُعدة حاسوبيا هي الوسيلة الوحيدة التي تمكن من الاستدلال على بعض الفرضيات، ومن اقتراح معطيات في فضاءات لا أحد يخطر بباله البحث عنها[215]؛ ومن جهة أخرى، تقبل برمجيات المساءلة سلسلةَ الخطوط كوحدة، وهي دال بسيط، ولا تلاحظ إلا تواردات للدوال التي يمكن أن تخضع للمعالجة الإحصائية[216]. وفي هذا السياق، يتمثل الرهان في التحليل القاضي بالمرور من درجة الصفر في المعنى إلى التحليل الموضوعاتي، وفي إخفاء غياب «المعطيات الدلالية»، وذلك بالاستفادة من النظرية الدلالية.

إن الكلمة التي يبدأ منها البحث الموضوعاتي لا تُكون الموضوع، على عكس المدخل [القاموسي] الذي يعتبر موضوعا للبحث القاموسي[217]. سنبحث عن كلمات أخرى و عن تعابير متواردة، مستعملين الوسائل الحاسوبية. وعندما يتم تأويلها، سنعتبر المتواردات (les co-occurrents) التي تم ضبط علاقة دلالية إزاءها، مثل متلازمات، أي مثل معجمات تكميلية لنفس الجزيئة الدلالية. وهكذا تُربط شبكة المتلازمات بالتجليات المعجمية للتيمة، ولكن لابد من رصد أحسن نقط المدخل في هذه الشبكة، أي أن الكلمة- المدخل ليست إلا واحدة من هذه النقط المدخلية، ومن المفترض أنها تمعجم تركيبيا التيمة التي تسعى إلى وصفها.

دراسة تيمة الأحاسيس في الرواية الفرنسية

يحتوي المتن المختار والمأخوذ من بنك فرانطيكس على 350 رواية فرنسية منشورة إبان الفترة الممتدة من 1830 إلى 1970 . ونشير إلى أن امتداد هذا المتن قد مكن من طرح مشاكل الوصف في مستوى مغاير لما هو متداول في الأبحاث. و الأسئلة التي طرحنا هي التالية: ما هو الإحساس في الرواية، ما هي عدد الأحاسيس، وكيف تنظم إذا كانت

215.أنظر بيهار وبرنار Bernard et Béhar (1995) حول وفرة أسماء الأحاسيس عند رايمون روسى Raymond Rousset، بينما تركز كل التقاليد النقدية على منهجية الكتابة التي لا تعطى الأهمية لهذه الأسماء.

216.هذه الوضعية مؤقتة، من دون شك، و تمكن أنساق الوَصْل (systèmes connexionnistes) من إظهار شبكات من التواردات المتميزة بواسطة التعلم والإفصاح عن المتون الكبرى ؛ ولكن دون تغيير، بطبيعة الحال، الشروط الهيرمينوطيقية التي أكدنا عليها.

217.حول البحث القاموسي في اللسانيات الغربية وعند اللغويين العرب القدامى، أنظر بحثنا لنيل دكتوراه الدولة، *Lexicographie arabe; vers un dictionnaire cognitif*, 2002, Faculté des lettres, Rabat (المترجم).

تُكون نسقا ؟ يجب إعادة صياغة مجموعة من الأفكار المسبقة. إننا نصادف مشاكل وازنة ونحن نسير في هذا الاتجاه: كيف الانتقال من الكمي إلى الكيفي، ومن المعطيات إلى الوقائع، من المعجم إلى النص ومن الدلالي إلى الهيرمينوطيقي؟ لا ندعي حل هذه المشاكل ولكننا نطمح لتوضيحها[218].

ما هو الإحساس ؟ في إطار تحليل الحقل المعجمي للأحاسيس (العواطف)، لا نفترض أن هذا الحقل متماسك كما لا نفترض أنه يكوِّن وحدة لغوية؛ إنه يحتوي على مجموعة من المفردات[طاكسيمات]، ولكنه لا يُؤسس مجالا محددا بأثر الممارسة الاجتماعية. إذ إن الأمر يتعلق بتجميع خاص، تمت الاستعانة به عن طريق الممارسة الوصفية.

عندما نقوم بتعداد الأسماء التي تشير إلى الأحاسيس، لا ندعي احتساب العديد من التيمات. ذلك أن بعضها يُعجِم التيمة نفسها (**رحمة، عطف**)، والآخر يمعجم تيمات مختلفة. وفي هذا السياق، تعني كلمة **إحساس** *(Sentiment)* مثلا، وبصورة عفوية، «الحب» (أنظر *Le Rouge et le Noir*، ص 406، *Eugénie Grandet*، ص 57) ونقيضها هو **زواج** (*Nucingen*، 627)، وتعاسة (*Le Rouge et le Noir*، ص 407)، **وفائدة** (*La duchesse de langeais* ، ص 249)[219].

ولتوضيح هذه الصعوبات، سنصف بعجالة المراحل المتبعة في بحث معجمي يعتبر مقدمات لأعمال ملخصة في هذا المقطع. إن الأمر يتعلق بجرد «يدوي» - أي ثقافي - للأحاسيس داخل متن فرعي مكون من 138 رواية، وذلك برصد الواحدة تلو الأخرى في الفاصل الكرونولوجي المختار، ماعدا سنتين لم يرصد البنك فيهما أية رواية. و لهذا الغرض، اصطفينا سياقات **الإحساس والإحساس بشيء ما**، على امتداد الجملة. وبعد وضع القائمة التي حصلنا عليها والتي نفصلها في الصفحات الموالية، تمت عملية التقاطع الذاتي: باستحضارنا لكل الصفحات التي تحتوي على عنصرين على الأقل في هذه القائمة، استطعنا اصطفاء متن فرعي ذي حمولة عاطفية عليا وتجنبنا بالأساس الغموض الذي يرتبط بالتواردات المنعزلة[220].

218. استندت إلى بحث جماعي قمت به مع مجموعة من الكتاب، وهو منشور في كتاب بعنوان *L'analyse thématique des données textuelles. L'exemple des sentiments*, Paris, Didier, 1995.

219. الإحالات تعود إلى بيبليوغرافية فرانطكس على الانترنت.

220. ونعني بذلك الحالة التي نبحث فيها عن كلمة حب في تواردات داخل تعابير من قبيل Pour l'amour de dieu التي يمكن ترجمتها بعبارة : «بالله عليك».

بعض التحفظات حول الجَرْد بخصوص هذه القراءة المؤثرة، صادفنا أولا مشكل الاشتراك وهو مشكل كلاسيكي، ذلك أن كلمة **إحساس** التي كانت تعني القدرة على الإحساس، سواء الإحساس الجسدي أو الإحساس بالوعي، تشير أيضا، في القرن الثامن عشر، إلى المودة وشهوات الروح. وصاحب هذا التطور غزو دواخل الإنسان. في متننا، كان التصور الأول حاضرا، ونجد مثلا تعابير من قبيل Le sentiment de son costume(إحساس معطفه). واستمر وجود هذا المعنى إلى الثلث الأول من القرن العشرين، وخصوصا عند الكتاب المحافظين في السياسة (باريص Barrés) والذين يحبون بعض التعابير القديمة. وهذه وسائل بريئة، الغرض منها استرجاع الأزمنة الجميلة.

لا تملك بعض الأحاسيس معجمة تركيبية، و تتمظهر بواسطة نواة معجمية معقدة؛ في أحسن الأحوال، تتكرر هذه المفردات، ولكن في بعض الأحيان، تستعمل ظاهريا على أنها متوازية. ويمكننا التحدث إذن عن أحاسيس دون تسمية مثل الإحساس بالجمال، والذي يصفه بالزاك بالإحساس الذي لا يمكن التعبير عنه (sentiment inexprimable) (*Le colonel Chabert*، ص 48؛ أو الإحساس بالأمومة، الذي يقال له أيضا الأمومة)*Le plus saint de tous*, Dumas, Monte Cristo, II, 254 ; *tendresse*[221] *des tripes* B. Groult, p. 883)وهناك أيضا الإحساس بأن تكون المرأة **أما**؛ أو **إحساس الأم**، (روبس ،Ropsص597). يتعلق الأمر، من الناحية التقنية ،بتيمات فاقدات للمعجمة المفضلة .وتستحق هذه الأحاسيس الفاقدة للتسمية دراسة خاصة .وتبين دراسة دانييل بوفرو (1995) Danielle Bouverot صعوبة وأهمية هذا النوع من البحوث .كما تؤكد هذه الأحاسيس أيضا محدودية المقاربة المعجمية الخالصة ،هذا فضلا عن أن مناهج المساءلة والحسابات الإحصائية تختلف حسب المعجمات التركيبية ،والمركبات المندمجة أو المركبات غير المندمجة .غير أنه يجب إقحام النتائج المتعلقة بهذه المعالجات المختلفة من أجل التحليل الدلالي في بروتوكول مشترك.

هل من الواجب اعتبار الشِّبه مترادفات مثل **أمل** (espoir) و **رجاء** (espérance) متساوية؟ لإقامة مماثلة بينها، من المستحسن البحث عما إذا كانت تشكل مقترنات

221.ستفقد ترجمة هذه العناوين أو المفردات النص خصوصيته الفرنسية، ولهذا قدمناها في لغتها الأصلية (المترجم).

لفظية (collocation)[222]. و إذا لم يكن الأمر كذلك، فإن هذه المترادفات تعتبر جد قريبة على المستوى الدلالي لكي تكون قابلة للتناوب داخل السياق. غير أن هذا لا يجرنا إلى القول أنهما يحتويان على المتلازمات نفسها. يستحسن مثلا وضع espérance في السياق الديني. باختصار، للشبه مترادفات توزيعات متكاملة، وهذا يوضح أن المقترن اللفظي قليل أومنعدم.

تشريح الأجساد الغريبة: يُظهر ما تم رصده المضامين التي لا تُدرج عادة على أنها أحاسيس. لقد أُبعدت مثلا كلمة «كرامة» عن القائمة الأولى استنادا إلى «الحدس اللغوي» لدى معظم الأساتذة المستجوَبين. ولكننا، نجد «الإحساس بالكرامة الشخصية وبالفخر» عند موباسان(*Contes et nouvelles*، ص 177). ويمكن أن نستنتج أنه على المستوى المحلي، تدخل «الكرامة الشخصية» في طبقة الأحاسيس، ولها مرادف مثل **الفخر**.

ولكن، كيف السبيل إلى تأويل تعابير مرتبة مثل « de vengeance de et fureur» (بعنف وبانتقام) (فرانس France)، «إحساس آخر غير الكبرياء والقوة» (طارو Tharaud)، «إحساس بالانزعاج والنفور» (ايني Ayné)، «إحساس بالغضب والمطالبة» (روبس)، «إحساس بالسكينة والقوة والحرية»، «بالتأسف وبكبح الشهوات (مارتان دي غارMatin du Gard). أغلب الظن أنه يتعايش هنا التصوران اللذان رصدناهما لمفردة إحساس، بنوع من الجناس الدلالي (antanaclase) الدياكروني الذي يظهر بالخصوص في التعبير التالي: «إحساس بفرح غير معروف و باصطفاء جميل» (غراك Gracq)، أو«إحساس بتقزز دائم، بضعف دائم وبتحلل دائم» (سيمون Simon). في هذه الحالة، عوض اعتبار الإحساس غير المنتظر ملازما لإحساس آخر، من الأفيد الإقرار بأن جرد الأحاسيس لا يعد محصورا البتة، وأن المتغيرات السياقية تعكس المعايير الفردية المرتبطة بكتاب معينين.

هنا أيضا، يجب الأخذ بعين الاعتبار بفكرة أن المركب هو دائرة محلية تسهل أكثر انتشار السمات الدلالية. إن الاقتران التضميني (parataxe) بالخصوص يطرح علاقات

222. المقترنات اللفظية (أو المتلازمات اللفظية، المتواردات اللفظية): تلازم كلمتين أو أكثر في تعبير واحد وفي كل السياقات، بحيث حينما تظهر الكلمة الأولى إلا و تتبعها الثانية. هناك المقترنات المعجمية مثل «جريمة نكراء»، «ضباب كثيف» والمقترنات النحوية التي تتمثل في الفعل المتبوع بمفعول ملازم له: ضرب عملة، ضرب مثلا، ضرب في الأرض، أدى الزكاة، خاض معركة،...الخ. (المترجم).

المعادلة مثلا «الحب، الحنان، الإخلاص» (أبيليو Abellio)، ونفس الشيء بالنسبة للمقارنة «إحساس بالغربة التي تشبه الإحساس بالخوف» (دوهاميل Duhamel)، وللتدرج مثال: «إحساس بالمسؤولية، بل بالذنب»، (مارتان دي غار)، «إحساس بالإعجاب، الذي يشبه إلى حد ما الرغبة» (غرين Green). علينا أن لا ننسى أن الخلط بين الأحاسيس هو جزء من السيكولوجيا الروائية. ونصادف تعدادا لمجموعة من الأحاسيس مثل: «صداقة، عاطفة، غواية، نسيان، سكوت، إيروتيقية» (سباتيي Sabatier)، والتي تبدو كروايات مصغرة عوض اعتبارها قفزات شعرية.

الجدولة المقترحة: تم تقسيم الأحاسيس حسب رائزين: من جهة، رتبت حسب بنياتها العاملية (ايكو مفعول، انعكاسي ومتحرك في إطار مجانس أوعدد من المجانسين أو الأشياء)؛ ومن جهة أخرى، رتبت حسب الطاكسيم الذي يؤشر إليهما. يهيمن الرائز الأول على الثاني، ذلك أن الخانات النهائية تحتوي على أحاسيس علائقية. ويظل التقديم الموالي مضخما، بسبب النقص في الترتيب الانعكاسي.

1. **الأحاسيس المعرفية**: أحاسيس وجودية: **خوف، قلق، إحساس بالذنب (يأس)، تيه، ملل، أمل، دهشة، أحساس بالقدر، ضعف، شك، انشغال، لامبالاة، حزن، نوسطالجيا، اعتزال، إحساس بالأمان، بالوحدة (بوحدته)، دهشة، خلط.** الأحاسيس الخاضعة للتوجيه وتكون استباقية: **قلق، أمل، انشغال، لامبالاة**؛ أو مرتدة إلى الماضي:**اعتزال، نوسطالجيا.**

2.**الأحاسيس العلائقية**: **رفاهية، فرح،** مرارة، **نشاط، سعادة، غضب، اشمئزاز، غم، يأس، ضيق، حماس، فزع، تحميس، نشوة، غبطة، غضب، فرح، رعب، لا مبالاة، سخط، فرح، تعب، انزعاج، تعاسة، استياء، هلع، خوف، لذة، كمال، نفور، تقزز، رضا، سكون، مفاجأة، حزن.** يمكن تقسيمها إلى أحاسيس السعادة: **رفاهية، رضا، مرح، فرح، غبطة، سعادة، نشوة** و إلى أحاسيس التعاسة: **مرارة، انزعاج، استياء، تعاسة، يأس، ضيق.**

3. **الأحاسيس العلائقية** : بين الأشخاص: **إعجاب، ود، صداقة، حب، حب الـذات، ضد-تعاطف، نفور، اشمئزاز، عطف، رفقة، تواطؤ، ثقة، خشية، قسوة، فضول، احتراس، لطف، ذعر، ارتباك، رغبة، تقدير، غيظ، كبت، إزعاج، امتنان، كره، خجل، إذلال، الإحساس بالدونية، تسامح، نكران الجميل، سخرية، عجرفة، حياء،**

حقد، عرفان الجميل، احترام، إحساس (بالغياب=حب)، إخضاع، التفوق (تفوقه)، تعاطف، رقة، حشمة، غرور، إجلال. تقسم هذه الأحاسيس بدورها إلى حركية و ساكنة، و إلى أحاسيس تثير الغبطة وأخرى تسبب التعاسة.

الأحاسيس الاجتماعية: أ) أحاسيس القرابة: **حب، بالقرابة، حب الأم، العائلة، إحساس بالقرابة، إحساس متعلق بالأم، عاطفة الأمومة، إحساس أبوي، أحساس بالأبوة، إحساس بالشفقة اتجاه الأقارب، عطف** ، ب) أحاسيس متعلقة بالتحالف: **إخلاص، غيرة، حب** (في تصور آخر). ج) أحاسيس سوسيو-سياسية: **طموح، إحساس استعماري، كرامة، احساس بالواجب، إحساس بواجباته، بحقوقه، إحساس بالنظام، بالأخوة، بطولية، إحساس بالتراتبية، شرف، إنسانية، مصلحة، إحساس بالوطن، إحساس بالقمع، إحساس بالوطنية، عاطفة وطنية، إحساس بالملكية، انتفاضة، إحساس بالمسؤولية، ثورة، إحساس بالتضامن**.

3. **الأحاسيس «الميتافيزيقية»**: أ) أحاسيس دينية: **صدقة، تعاطف، إحساس بالخطأ، رجاء، غبطة، إيمان، خضوع، تقوى، عاطفة دينية، إحساس بالدين**، ندم- تتضمن هذه الخانة الأحاسيس العلائقية، ب) **إحساس بالجمال: إحساس بالفن، بما هو جميل، بالجمال، بالجمال الحقيقي، إحساس غير مفهوم، إحساس شاعري**.

إننا أمام 128 إشارة للأحاسيس، قبل تقليص المفردات التي تعد شبه مرادفات. يرتبط هذا الرقم في معظمه بالمتن المعالج. غير أننا رصدنا حالة تضخم: أثناء القراءة، تصبح الأحاسيس (العواطف) الجديدة جد قليلة. كما أن التمييز المحدد هو بالتأكيد تمييز التقييم الإيجابي أو السلبي. تقسم هذه الأبعاد الدلالية حقل الأحاسيس، وهذا ما يؤكده بوسائل أخرى التحليل العاملي الذي قاده بروني Brunet.[223] وعموما، يلاحظ أن نتائج تحليلنا الدلالي ونتائج التحليل الإحصائي متطابقة إجمالا، رغم أن الدراسات تمت في ظروف منفصلة. وهذا ما يؤكد أن التكهنات الإحصائية كانت مؤسسة استنادا إلى التكهنات الدلالية.

قضية المنهجية: من التوارد إلى التلازم

المرور من التحليل المعجمي إلى التحليل الدلالي يتزامن والعبور من العلاقات

223. أنظر راستيي(1995)، الشكل رقم 5: الجانب الأيسر،الذي يؤشر للتعاسة، مقابل للجانب الأيمن. ونفحص استطرادا التمييز بين الأحاسيس المرتبطة بمعرفة الكائن (في أسفل الجدول) والأحاسيس العلائقية (في أعلى الجدول).

غير المؤولة إلى الوحدات الدلالية التي تنتج عن المسار التأويلي. وتتجسد هذه العملية بالمرور من التواردات إلى المتلازمات.

التوارد يهم الدال: المتواردات الموجودة في السياق نفسه (les cooccurents) ليست إلا دوالا يسميها البعض **أشكالا**، أو **سلسلة من الخطوط**، و ترتبط إحصائيا بمنهجية الانزياح المقلص أو الانزياح ذو الهندسة العليا[224]. من الأفيد التمييز بين مناطق التوارد: توارد لحظي، توارد قريب وتوارد عريض. وعلى العكس من الحدس، ليست للمتواردات اللحظية دائما أهمية بالنسبة للدراسة الموضوعاتية. وإذا قمنا بمساءلة البنك النصي انطلاقا من مفردات معزولة، فإن السبب في الضوضاء الأكثر حساسية يعود إلى مكونات التعابير الجاهزة التي تتكرر باستمرار وإلى التعابير المسكوكة مثل à avoir cœur أو savoir par cœur (عن ظهر قلب) التي تفسد مثلا دراسة أعضاء الجسم البشري. علينا أيضا أن نأخذ بعين الاعتبار ظواهر التواردات المقلَّصة، الخاصة بالمكونات الأقل اندماجا (مثل éprouver un sentiment)[أحس بإحساس أو انتابه إحساس] والتي درسها ملتشوك Mel'čuk تحت اسم الوظائف المعجمية[225]. مثلا، في تحليله لكلمة **فرح** (1981 ص 25) **ويأس** (ص 22)، رأى أن الوظيفة Oper 1 تكون لها القيمة نفسها التي يملكها فعل **أحس**؛ ومن الواضح أن هذا التوارد لا يسمح بالتفريق بين الفرح واليأس. واستنادا إلى القاعدة العامة، نرصد في المكونات التي تكون في طور التجميد اللغوي (figement) عملية نزع المعنى من المكونات التي تكون فيها المفردات مختلفة وممثلة بمفردة واحدة. وهكذا، فتوارد هذه المكونات لا يملك إلا الملاءمة الضعيفة أو المنعدمة.

غير أنه في السياق المستقل عن جاهزية التعابير، نجد المتواردات الأكثر ملاءمة. بالنظر إلى المنهجية الإستكشافية، هل يمكننا أن نطرح الفرضية القائلة إن السياق القريب هو الأكثر حساسية إزاء المعايير المجتمعية المقارنة مع السياق العريض، في حجم الفقرة؟ السؤال صعب، لأننا نجد استعمالات فردية لتيمات متكررة سواء في درجة المُكوِّن (syntagme) أو في درجة الفقرة. بيد أننا سنتمسك بالفكرة التي تفترض أن الفقرة هي المماثلة (وليس النظيرة قياسيا) في درجة التعبير في الحقبة و من ناحية المحتوى. ولهذا،

224. تعيق دراسة الفاصل المطلق ملاحظةَ التباينات، ولا تساعد على البحث عن مبادئ اللسانيات المقارنة.

225. نظرية ملتشوك MEL'ČUK مبنية على الربط بين المعنى والنص ولكن في إطار معجمه الذي أطلق عليه اسم «القاموس التركيبي و التفسيري»، وقد لاقت هذه النظرية بعض النجاح خصوصا في كندا التي يشتغل فيها هذا المعجمي ذو الأصل الروسي. للتفاصيل، أنظر(MEL'ČUK,I., (1984, 1988) (المترجم).

ففي شِبرها (empan) نجد التواردات الأساسية المطابقة للتيمة المبحوث عنها.

التلازم يهم المدلول- تعتبر وحدات التوارد سلسلات من الخطوط، وتتميز بكونها لا تتطابق (كلمة بكلمة) والوحدات المرتبطة بالتلازم. وهذه الوحدات هي المفردات التي تتواجد في مواضع محلية تسهِّل بصورة هبوطية انتشار السمات الدلالية. أما المواضع فهي المكون والحقبة (أنظر راستيي وآخرون، 1994، الفصل الخامس).

يعد وصف المتواردات أساسيا، لأننا نمر بواسطته من الكمي (المتواردات الإحصائية) إلى الكيفي (المتلازمات الدلالية). ويتم تقعيد هذا الوصف انطلاقا من المبادئ الهيرمينوطيقية التي مفادها أن الشمولي [النص] يحدد المحلي[العلامات] وأن الفرضية تتحكم في الموضعة. وهكذا، لا تسمو المتواردات لتصل إلى رتبة المتلازمات إلا إذا كان بالإمكان تأسيس علاقة تشاكل أو «تعالق معجمي جزئي» مع المتواردات الأخرى. مثلا، من بين التواردات المرتبطة بتيمة **الملل**، هناك **الأحد** و**العنكبوت** اللذان يُصطفان بالتبادل في سياق اللاحركة . وتمعجم هذه المتواردات أحد مكونات التيمة المدروسة، وفي هذا الإطار تعد موصوفة. بما أن المتلازمات مداليل، فإن الطبقات المورفولوجية التي تتجلى بواسطتها ليس لها أهمية في هذا المستوى من التحليل: يمكن لنفس السمة الدلالية أن تكون بالفعل ممعجمة بواسطة سابقة (préfixe)، أو اسم أو نعت، أو فعل... الخ[226].

لتحويل المتواردات إلى متلازمات، سنستند إلى الفرضية التي تقول إن السياق القريب منظم عبر تشاكلات (التي تؤشر إلى الانتماء إلى نفس العمق الدلالي) أو عن طريق «التعالقات المَعجمية الجزئية»(paratopies). (التي تؤشر إلى الانتماء إلى الشكل الدلالي نفسه).

كل متلازم مربوط بعلاقة إعرابية (casuelle) وبمتلازم آخر، أو يشترك في سمة واحدة على الأقل مع متلازم آخر. وبناء عليه، يقتسم متلازم **س** السمة **أ** مع المتلازم **ي**، والسمة **ب** مع المتلازم ن، وهكذا، ولكن **ن** تتقاسم السمة **ث** مع **س** أو ع... الخ. إن شبكة العلاقات الإعرابية أو علاقات المعادلة الجزئية التي تم رسمها تكوِّن التيمة. وإذا تعذر تأسيس هذه العلاقات، فينبغي مراجعة الفرضية الأولى، لأننا لم نقم باختيار نقطة دخْل جيدة، وقمنا بطرح المساءلة انطلاقا من سيميم ملازم تلازما ضعيفا لتيمة

226. فحتى علامات الترقيم يمكن أن تخضع لعملية إعادة ضبط المعنى (resémantisés). مثلا، بعض الأحاسيس (عواطف) مرتبطة بعلامات التعجب، و البعض الآخر بنقط الحذف (أنظر بوريون Bouriou، 1998).

مبحوث عنها، أو أننا لسنا بصدد تيمة - أو على الأقل تيمة ثابتة في المتن المختار. إن العودة إلى رصد التواردات والارتقاء ببعضها إلى رتبة متلازم تتم في الدرجة السفلى، ولكن على سلم كيفي جديد، وهي التقنية الهيرمينوطيقية العتيقة التي تهتم بالفقرات المتوازية، وهي تقنية تم التنظير لها من قبل هيليل Hillel القديم، أي ما قبل التاريخ.

سنلخص المراحل الأساسية للبحث الموضوعاتي المبرمج حاسوبيا: أ- اختيار الفرضيات، حسب الهدف العام للبحث (يمكن لبحث إحصائي مسبق أن ينظم البحث عن الفرضيات، ولكن النظر المستمر والأولي في المتن يظل ضروريا بهدف قيادة الحدس)، ب- البحث عن المتوارد استنادا إلى المنهج الإحصائي للمسافات أوحسب الهندسة العليا. ج- التحويل التأويلي للتواردات التي تصبح متلازمات وتكوين شبكات موضوعاتية (تكون هذه المرحلة سهلة إذا مارس الباحث مساءلة متوازية حول العديد من التواردات؛ (أنظر بوريو، 1995، I، 2)[227]. د- التصديق على النتائج، وذلك بتقاطع التحليل الموضوعاتي مع تحليل المكونات الأخرى لنفس المتن، عن طريق تجربة على متن المراقبة، أو بالمجابهة مع أبحاث موضوعاتية أخرى.

من الفيلولوجيا إلى هيرمينوطيقا الأحاسيس

مسائل حول المنهجية: كيف نصوغ الفرضية الأولية، وكيف نختار الكلمة أو الكلمات التي تسمح بالدخول إلى الشبكة الموضوعاتية ؟ تلمح التوصية العامة باختيار كلمات من المتن، وذلك لتجنب الوقوع في الإسقاطات. في محاولة منها لدراسة **الإحساس بالدونية** في رواية القرن 19، لم تجد روزيط كونيRosette Choné (في بحث جديد) إشارات إلى هذا الموضوع. ومع ذلك، فالشعور بالانسحاق؟ يتردد باستمرار، رغم أنه لا يوجد في المعاجم الموضوعاتية ويظل غريبا على المُعتقدات المعاصرة فيما يخص الأحاسيس. وبناء عليه، يجب إعادة صياغة الفرضية المبنية على التساؤل أو التخلي عنها، ذلك أن الشعور بالإنسحاق متعلق بشخصيات من أسفل الهرم الاجتماعي، وهي نتاج القمع والظلم؛ إن هذا الإحساس موصوف من الخارج، لأن هذه الشخصيات لا تملك حق الكلام في هذه الروايات القديمة. و مع ذلك، فالإحساس بالدونية، وهو موضوع معاصر نابع من التحليل النفسي المبسط، يمس شخصيات مرئية من الداخل، شخصيات ليس لها قضية اجتماعية محددة بعناية.

227.يمكن الالتماس الموازي حول مجموعة من التواردات (المنتمية إلى طبقات مورفولوجية مختلفة) من اختيار متن فرعي مكثف ووارد.

كيف إذن تتم عملية اختيار التيمات التي نستطيع بواسطتها التأشير على المؤلفات؟ فإما نعكس المُعتقد الخاص بالموضوع، أو نقوم باسترجاع التيمات المهمة في ذلك العصر. إننا لن ندعي بأننا ستتحمس لمكانة هذه التيمة في العقلية السائدة آنذاك، وذلك لتجنب النرجسية التي تميز الأبحاث التي لا تصطفي إلا ما يتوافق وفرضياتها. سنحاول على الأقل تقديم فرضياتنا للمراجعة والفحص، وذلك بهدف استقبال أحاسيس بدون اسم، وأحاسيس مختلطة أو منقرضة.

إذا كانت الحاجة إلى تحليل دلالي يهدف إلى المعالجة الآلية للنصوص المعترف بها اليوم، فإن استعمال المناهج المعلوماتية لدراسة النصوص الأدبية يظل محط تساؤل، في غياب اعتبار المعلوميات وسيلة تقنية يجب استعمالها بدم بارد، ولكن دون احتشام. إذ أن مواردها الأساسية هي السرعة والذاكرة. المعلوميات ليست أداة نظرية، و لا يطرح استعمالها حكما مسبقا حول جدية الموضوعاتية المعالَجة بالحاسوب.

حينما نفضل بطبيعة الحال الكيفي، فإن الدراسات الأدبية تحتمي من الكمي، والأسلوبيون المرموقون يصيحون بقوة بأنهم لا يحبون الأرقام. وعلى الرغم من هذا التحذير الوقائي، فالكيفي والكمي لا يتقابلان البتة: التحليل الكيفي هو الوحيد القادر على منح معنى للظواهر الكمية الملاحظة. وعلى قدر ما تسمح بتأويل الظواهر الكمية، يمكن لدلالة النصوص أن تكون مبحثا نافعا من أجل هذا الهدف. مثلا، درس إغليش Erlich (1995) التمظهرات الموضوعاتية للطموح (Ambition) والحب (Amour) في رواية بلزاك *Le père Goriot* . ذلك أن السكوت التيماتي، كما يؤكد الكاتب، لا يعد مع ذلك سكوتا تيماتيا؛ عندما تغيب الكلمات من قبيل **حب وطموح**، فتيمات الحب والطموح تغيب أيضا عن المؤلَّف. ويمكننا، وهذه مفارقة، الدفاع عن الفرضية التي تقول بأن الطموح والحب يتمظهران بقوة في هذه الرواية عندما لا يحتويان على تسمية،[228] ويسمُوان للوصول إلى موت الشخصية الرمزية. هذا بالإضافة إلى أن مَعجمة هاته الكلمات المفضلة تكون أيضا غائبة.

من أجل موضوعاتية تاريخية ومقارنة: يمكن المتن الموسع من إحداث قطيعة مع التاريخ العظيم، إذ يحتوي المتن على أكبر المؤلفات التي تظهر فوق خلفية مكونة من مؤلفات أخرى أصغر [حجما وقيمة]، من أجل الإجابة على طلب ما. وفي هذا

228. رأينا في الصفحات السالفة الشيء نفسه بالنسبة للملل في مدام بوفاري.

السياق، يمكن لنسق ما أن يجمع من دون خجل جان ديتور Dutourd ومارسيل بروست، بينما لا يتجرأ أي طالب للأدب من القيام بهذا الجمع. وبالتالي ينبغي وصف المؤلفات استنادا إلى المقارنة مع مؤلفات أخرى، مع أن الجمالية الرومانسية عوّدتنا على اعتبار الأعمال الكبيرة مؤلفات لا يمكن مقارنتها، في الوقت الذي لا تعد الوحيدة في هذا الباب. وكنتيجة لذلك، سنفهم جيدا تفردها.

تظل المؤلفات الكبرى أقل تنبؤا من المؤلفات الأخرى، وتطبق المناهج الإحصائية العادية بصعوبة. كلمة **ملل**، القليلة الاستعمال في **مدام بوفاري**، موجودة بكثرة في الروايات التي تقلد رواية فلوبير، ربما لأن كُتاب هذه الروايات صغار أو لأنهم يعبرون بصعوبة عما يلمح إليه الكُتاب الكبار؟ إنهم لا يستحقون الاهتمام.

على الرغم من كل هذه السلبيات، يمكن الاستكشاف الأولي من إظهار نوعية المعايير الموجودة في متن ما. غير أن الأدب كخطاب يتكون أولا وقبل كل شيء من هذه المعايير. وإذا حددنا الاستعمال الخاص لهذه المعايير، فإننا سنحدد الخاصية التاريخية للمؤلَّف الأدبي الفريد، ليس بطبيعة الحال، بالنسبة للغة المحايدة التي تعد لغة وهمية، ولكن بالنسبة للاستعمال العادي للمعايير الأدبية.

إن التيمات، المعرفة بأنها أشكال دلالية، مرتبطة بالتاريخ الثقافي، وتعد تعبيرا مفضلا له، وخصوصا عندما يصل تواردها إلى درجة التيمة المتكررة. ومثال الأحاسيس يكشف ما نروم إليه: فتاريخ ظهور أحاسيس جديدة لها أهميتها، سواء كان مرتبطا بالتاريخ السياسي مثل **الإحساس بالوطنية** الذي ظهر سنة 1912 وعاد ليظهر من جديد سنة 1940، أو مرتبطا بالميتاسيكولوجيا، مثل الإحساس **بالكبت** الذي ظهر سنة 1960. ويتجسد تطور الأحاسيس الدياكروني في دراسة ف. سيرديل F.Surdel (1995) ابتداء من 1870. وأصبحت الرحمة إحساسا مشبوها، والسبب لا يرجع إلى المتمردين[229] أو المعارضين لهم ،ولكنه يعود إلى الهجوم الصادر عن الكتاب الكاتوليك ،من بلوا Bloyإلى مورياك .Mauriac و النتيجة أن هذا الإحساس ،حين فقد آخر المدافعين عنه، غاب عن الرواية ،وربما عن الحياة ،و أخذت القيم الإنسانية مكانه في كل السياقات الأخرى.

وفي الإطار العام ،بالإمكان وضع تاريخ شمولي لعالم الأحاسيس .مثلا ،استدل

229.أي المتمردون الفرنسيون (les communards) وهم الحرفيون والعمال والنساء ومختلف مكونات المجتمع الباريسي وهم الذين تمردوا على النظام القائم سنة 1871 (المترجم).

بروني على استمرار ظلامية الأحاسيس في الرواية منذ1830 ؛ وقد تمكنت الموضوعاتية المقارنة حسب الأجناس من تحديد خاصيات كل رواية فيما يتعلق بالأحاسيس.

حول الأشكال الثقافية للمعيش: الأحاسيس والمؤثرات: لقد عرَّفنا التيمات والتيمات المتكررة بأنها وحدات دلالية. ولكن هذه المقولات اللغوية الجاهزة تتطابق والتمثيلات المجتمعية المتكررة. كيف ترتبط هذه التمثيلات بالتعبير اللغوي ؟

سنحافظ على الأحاسيس كمثال. وأول طريق سنسلكه للإجابة على السؤال يتمثل في البحث عن كيف تجد الأحاسيس تعابيرها اللغوية. ولكن ألا يرتبط عالم الأحاسيس بتمثيله؟ بالنسبة للكُتاب، هناك شك والشيء نفسه بالنسبة لقرائهم المخلصين. ومع ذلك، فخارج الثقافة الأدبية، هل الأحاسيس غير مرتبطة باللغة التي يُعبر بواسطتها ؟

تفسر الأحاسيس القاعدية الست التي تم رصدها من قبل علماء الأخلاق وجود المؤثرات، ولكنها لا تفسر حقيقة الأحاسيس، وبصورة أقل الطابع التاريخي والثقافي للتعبير عنها. الكآبة الروحية والانهيار العصبي لهما الجوهر البيوكيماوي نفسه، ولكن ليس لهما التاريخ نفسه ولا الوضع الثقافي نفسه. إن الأحاسيس التي تعد أشكالا ثقافية تختلف حسب الحقب والمجتمعات؛ وليست بالضرورة متفردة، لأنها تفترض فاعلا مستقلا ومتمتعا بحياة داخلية. الكل يعلم إلى أي مدى تصعب ترجمة الأحاسيس من لغة إلى أخرى، وحتى في المجتمعات المتجاورة ثقافيا.

باختصار، تحول كل ثقافة المؤثرات إلى أحاسيس. يقول ساكس Sacks إن الإنسان الطبيعي هو الإنسان الذي يستطيع أن يروي حكايته. ولكن هذا المحكي يتطلب تعبيرا (Verbalisation)، وربما يكون معيشنا، أو على الأقل جزءه الذي يظل خارجا عن اللحظي، غير مرتبط بهذا المحكي ؟

المعنى المشترك

إعادة تعريف الطوبوس

يطابق النمط (type)، حسب التعريف الذي قدمه بانوفسكي في الايكولوجيا (1967، ص: 17)، بشكل صريح، الطوبوس في تاريخ الأدب عند كوريتوس

Curtius.[230]التيمات المتكررة والتزويقات هما نوعان من الأشكال الدلالية. و بهذا المعنى، فلهما تاريخ، وهما مرتبطان بالمتن، ودراستهما تدخل في إطار الدلالة التاريخية والمقارنة.

لتعريف الطوبوس[231] ، بالإمكان التمييز بين مستويين:

أ- في المستوى الأول، وهو مستوى الصفات، الطوبوس هو إسناد معياري يقيني. ونفسره بالمثال التالي: les X sont y ، (أو **الحب أعمى**). يمكن تمثيل الطوبوس بواسطة بيان دلالي من نوع [y*] → (Attributif) → [x*](هنا نتبنى خطاطة سووا Sowa، 1984). و في هذا السياق، ينتمي التعريف إلى المعارف المشتركة. ولهذا، أكدنا على أن المعنى المشترك مرتبط بالموضوعاتية في المجال اللغوي-المجتمعي.[232]

ب- في المستوى الثاني، وهو مستوى الوظائف، نفترض وجود تيمات متكررة جد معقدة، تتطابق مثلا مع الوظائف السردية أو مع التطريزات:

ونحصل بالتالي على صيغ من قبيل Amour-inhibe-expression[233]ونصوغه على الشكل التالي:

[Amour]← (ERGatif) ← [Inhibe]→ (Accusatif) → [Expression]

تعد موضوعات الإسناد التي تتطابق مع عقد الخطاطات جزيئات دلالية أو تشكلات منظمة للسمات الدلالية. إنها تحيل إلى ما يسمى تيمات. على سبيل المثال، ما نؤشر إليه بـ [Amour] يتمعجم بألف طريقة، **قوس، الملائكة العمياء، إلاه الحب، الإحساس**،... الخ. وفي كل واحدة من هذه المفردات، تتمظهر سمة أو مجموعة من السمات المكونة للجزيئة.

تعمل التيمات المتكررة المُسنَدة على بناء جزيئات دلالية تُبرز عُقد البيانات

230. سنقترح توضيحا، حسب المثال المقدم من طرف بانوفسكي: يصبح طوبوس المرأة ذات السيف نمطا عندما مثلا نشبهها بجوديث Judith . في هذه الحالة، النمط هو نوع من الطوبوس، الذي تحمل جزيئته الدلالية إسما علما.

231. على الرغم من أنه كان المنهج الأساس للوضعية المنطقية، فإن التعريف ليس وسيلة للمعرفة، على الأقل، علينا ألا نعتقد أنه مرتبط «بطبيعة الأشياء»، وهي موضعة بسيطة لافتراضاتنا: ينبغي على التعريف أن يتطابق وأهدافنا.

232.في نظرية الإستدلال الكلاسيكية ، الطوبوس هو ما تسقط تحته العديد من القياسات الناقصة (enthymèmes). في الذكاء الاصطناعي وفي السيكولوجيا المعرفية، وبلغة العصر، نقول إن الطوبوس يمكن من تهيئة السكريبت Script (يمكن إذن أن يبقى ضمنيا).

233.استقيت هذا الطوبوس من الجرد الذي وضعته جمعية تحليل المعنى المشترك المرتبط بالرواية(ساطور Sator).

المتعلقة بالوظائف. مثلا، في البيان التالي، تتمدد تيمة الحب (Amour) لتصبح على الشكل التالي: [حب] ← [إسنادي] ← [أعمى].

يمكن التحليل الدلالي من تحليل التطريزات أو التيمات في شكل شبكة من السمات، وكل سمة لها عدة معجمات. و على المستوى النظري، فإن عدد المعجمات لا نهاية له. إذا وُصف الطوبوس بأنه جزيئة دلالية، فإنه لا يمكن أن نؤشر عليه، بصورة إقصائية، في مكون، حينما يحتوي على علاقات تنتمي إلى مكونات مغايرة. سنسلم مع ذلك بأن الطوبوس، بالمعنى العام للكلمة، هو سلسلة متكررة لجُزَيئتين دلاليتين على الأقل أو لمجموعة من التيمات. ويعد هذا التسلسل رابطا زمنيا منمطا بالنسبة للتيمات المتكررة الجدلية (السردية) ورابطا جهيا بالنسبة للتيمات المتكررة الحوارية (التلفظية).

وتحتوي كل تيمة على الأقل على سمة قارة[234] تنتمي إلى «المستويات العمومية» المختلفة. ومن جهة أخرى، للسّمات الأخرى التي تبدو على أنها عرضية وظيفة التعيين وهي السمات «الموريلية»: مثلا الأحمر بالنسبة **لذات الرداء الأحمر** (*le petit chaperon rouge*) والرمادي بالنسبة لسندريلا.

تمثل مختلف عُقد الرسم (البيان) الدلالي الطوبوس وتكون متمظهرة بصورة مختلفة، ذلك أن بعضها يتطابق مع الطبقات المعجمية، أو مع معجمة ضرورية، أو مع معجمة موجبة (مثل إسم أرلوكان Arlequin). أما البعض الآخر، فإنه يكون في نهاية المطاف فارغا. و الخلاصة أن «درجتهم التجريدية» لا تكون موحدة الشكل.

أما فيما يخص السمات الدلالية الممثلة بالمعجمات، فيمكن تمييز ما يلي: السمات النوعية المضمنة، مثل (متحرك/ إنساني)...الخ؛ السمات المميِّزة التي تصف التواردات الفريدة؛ السمات التعيينية التي يكون بعضها اختياريا والبعض الآخر إلزامياً، مثل صفات «الطبيعة» في الأجناس الجدلية أو التأسيسية. إذا كانت تنقصنا الوسائل لوصف التركيبة الضيقة لمختلف هذه السمات، فإن التحليل المستند إلى السمات الدلالية يظل أساسيا، لأنه يجب التعرف على تواردين لطوبوس واحد، ليس لهما أية معجمة مشتركة ؛ وهذا هو السبيل الوحيد للخروج من المنطق التوثيقي للكلمة المفتاح.

بالنسبة للإشكالية المنطقية-النحوية، فإن النمط غير مقيد بالزمن، والقرب

234. يميز هذا المعطى الطوبوس عن الوظيفة السردية المجردة، التي يمثلها الرسم الذي يتضمن عُقدا تعتبر كلها متغيرات، كما تعتبر روابطها مُنمَّطة (typés).

أو مطابقة التوارد مع النمط يخضع للتقييم. و هكذا، نتحدث عن **المثال الأفضل**.[235] ونتيجة لذلك، فالإشكالية المنطقية-النحوية لا يمكن أن تطرح تصورا لتاريخ الأنماط، كما لا يمكنها تقييم تنوع التواردات. سنقابلها بالفكرة التي مفادها أن الأنماط تعد ذواتا يعاد بناؤها بطريقة عابرة، حسب أهداف الممارسة المستعملة، ولا تتمتع بأية سلطة أنطولوجية على التواردات. في الإشكالية البلاغية/ الهيرمنوطيقية، يجب مناصرة المقابلة بين التوارد-الأصل و التوارد-المعاد عوض الاهتمام بالمقابلة بين النمط والتوارد. تستطيع التواردات-الأصول أن تصبح شرعية وأن ترقى إلى درجة الأدوات (Parangons). ومن جهة أخرى، بما أن تحول السياقات يجعل، في الواقع، كل تكرار مستحيلا، فإن الإعادة تُغير وتُحول الأصول. وهكذا، فالعلاقة بين النمط والتوارد تتوسطها سلسلة من إعادة الكتابات والتأويلات. ولم يعد يطرح إذن مشكل التأويل بخصوص العلاقة اللازمنية بين النمط والتوارد، ولكن في خضم التقليد، وفي الزمنية السردية والزمنية الخاضعة للتقييم. إن النصية نفسها مكونة من هذه التمظهرات، ومن عمليات التوسيع والإعادات والتغييرات.

هناك أطروحتان متعارضتان حول وضعية الطوبوس: إما أن الطوبوس نمط ذو تمظهر جزئي؛ أو أنه ليس بنمط، لأنه غير مجرد بطريقة منتظمة. ثم إن الطوبوس ليس بنموذج أمثل (Prototype) (بالمعنى الذي تعطيه روتش Rosch لهذا المفهوم)،[236] بما أن له تاريخ. إنه إذن أداة تفتح المجال للتوجه التقليدي، ويحتفظ بمجموعة من السمات التي ستظهر فيما بعد على أنها عابرة، من جراء علاقته بالتوارد الأول الذي أصبح شرعيا. يمكن لسلسلة من التواردات أن توصف بأنها عائلة قائمة على مجموعة من التحولات ولها «صيغتها المحورية» التي تتنبؤ بالتوابث. هذه «العائلة»[237] منظمة في الإطار الزمني، سواء في الصيرورة الزمنية أو في تتابع النص، أو في زمن التقليد الذي لا نستطيع قياسه. إذا كان النظام الزمني واردا، فلأن العلاقات بين الأصل والإعادة هي علاقات التعليم والمنافسة والمزاحمة وإعادة الامتلاك والانسجام. إن هذه العلاقات

235.العلاقة بين النمط والتوارد منبثقة من نظرية التجريد، وهي من بقايا الأفلاطونية في الفلسفة الأرسطية.

236. إذا اعتبرنا المجموعة التي يكونها الطيور، المعرفة بالسمات التالية: 1-حيوان طائر، 2-له منقار، 3-له جناحان، 4-يبيض... ، فإن الدوري هو النموذج الأفضل لأنه يتمتع بجميع هذه الصفات. أما النعامة والبطريق، فإنهما بعيدين عن مركز المجموعة و الذي يمثله الدوري، لأنه ليست لهما القدرة على الطيران. للمزيد من التفاصيل حول نظرية النموذج عند روتش، أنظر بحثنا لنيل دكتوراه الدولة، ن.م. (2002، الفصل الأول، ص ص:78-86) (المترجم).

237.ترجمة لكلمة Famille وللمزيد من التفاصيل حول هذا المصطلح، أنظر كليبر (1990) (المترجم).

مرتبطة بالممارسة التاريخية التي يكون فيها المؤلِّف الفريد محافظا للدور التلقيني: *Le songe de poliphile* لفرانسيسكو كولونا Francesco Colonna و*L'Arcadie* لسنازار Sannazar... الخ.

مشاكل حول المنهجية

مشكل التشفير: تقليديا، وسعت اللسانيات النصية إجراءات التقطيع النابعة من القواعد الصرفية-النحوية لتشمل النص. وتكون الوحدات التي يتم عزلها مثلا عند تحليل المحكي مشفَّرة، ثم متسلسلة في شكل مكونات، ويُبحث بعد ذلك عن قواعد توزيعها.[238] ولكن، بنفس الطريقة التي تبين أن الجملة لا تختزل في متوالية من أقسام الكلم، مهما كانت خاضعة للتراتبية من قبل شجرة التعالقات، فإن النص لا يعد سلسلة من القضايا. ومن جهة أخرى، وفي كل الحالات، لا يتمثل المشكل في وحدات تنكشف على أنها متفاصلة أو تم تمييزها قبلا، ولكن المسألة تتعلق بكشف الأحداث نفسها مثل لحظات المسارات التأويلية. يكون التشفير في غالب الأحيان نافعا، وفي بعض الأحيان ضروريا، ولكن من اللائق أن لا ننسى حدوده :

- يربط كل تشفير بالإشكالية المنطقية-النحوية مثل مفهوم الشفرة نفسه؛
- يفضل التشفير القضوي الوحدات الصغيرة والمتوسطة بالمقارنة مع الوحدات الكبرى التي لا تسمح بالتمثيل لها بطريقة تحليلية. إن الشكل القضوي ينتمي إلى الإشكالية المنطقية-النحوية؛
- يعتبر تصور اللغة المضمَّن في التشفير عبارة عن تفاهم سلمي. إذ يفترض أنه داخل كل نص، قيل كل شيء؛ على الأقل، لا نشفر ما لم يتم قوله؛[239]
- كل تشفير معيار، لأنه لا يحتفظ إلا بعدد قليل من الوحدات والعلاقات، وهذا هو ثمن تجريده. ومن جهة أخرى، يطرح التشفير تماسكا كيفيا بين العناصر المكونة لهذه الصيغ، ويقيم اطرادا بين هذه الصيغ. كيف نشفر مثلا جملة صاد Sade التالية: «أقتل

---

238. ولكن، على العموم ، لم تطبق هذه الإجراءات إلا بعد التشفير القضوي الذي تعود فكرته إلى بروب. وقد نظم في شكل نسق من قبل غريماس، ومنه اقترضه فانديك وكينتش في صمت، ليصبح المعيار المتبع في الأنحاء النصية المنبثقة من النظرية المعرفية الأرثودوكسية. لقي التشفير القضوي نجاحا كبيرا، لأنه يمكن من تجنب المسألة الهيرمينوطيقية. وفي هذا السياق، فإن كل تشفير يعد تأويلا معياريا ولا يعد محط تساؤل حول وضعه. ومن جهة، إنه يقلص النص إلى متوالية من القضايا (Propositions)، وتكميلا لذلك يخضعه لمتطلبات الوضعية المنطقية، وكل قضية تمثل حالة الأوضاع في عالم مرجعي أو في عالم محتمل.

239. هذا إذا تركنا جانبا العملية المسماة الحَفز (catalyse) عند هيلمسليف وغريماس، وعملية تهيئة السكريبت عند شانك Schank، الذي تبنى المبدأ الذي تقوم عليه العملية.

أبواي وارتكب زنا المحارم و أمارس الدعارة واللواط ؟» ينبغي استرجاع الأشياء التي تم مسحها، ويبدو أن هذا المشكل لا يطرح الكثير من الابتذال. وهكذا، مُسح العنف الذي مورس على الفاعلين وعلى اللغة بالتشفير.[240] ينبغي إذن مراعاة إمكانية الاهتمام [بهذا العنف] في مرحلة من مراحل التحليل.

مشكل التاريخ والتعيين: يطرح تعيين التيمات المتكررة بالطبع مشاكل معقدة، مرتبطة بتصور الأشكال التي تحدث ضجيجا. وهذه بعض الأمثلة لهذا التعقيد المتنامي.

أ- التحول بواسطة النفي: كيف يتم التعرف على التيمة المتكررة نفسها ؟ في بداية *Jérusalem délivrée* (I, II)، كتب لوطاس le Tasse ما يلي:

«O Musa , tu che di caduchi allori/Non circondi la fronte in Elicona»[241]

نافيا بواسطة هذا الرند القديم تيمة المناداة وهي تيمة جد معروفة، وتتطلب على الأقل رندا يمثل اللاموت. هذا الرند قديم ومتجاوز لأنه غير ديني؛ في الواقع، عِوض أوراني Uranie، اختار لوطاس إلاهة الفن العذراء ، التي تحمل تاج المجد وسط جوقة سعيدة:

«Ma su cielo nel infra i beati cori/ Hai di stelle immortali aurea Corona[242]».

يهيئ النفي المزدوج بواسطة التضاد وبواسطة الحرف إذن انتقال التيمة المتكررة الوثنية المرتبطة بالتشاكل الديني. إن هيليكون[243] المتواضع يترك المكان للسماء، و يصبح التاج المكون من ورق الشجر تاجا من النجوم. عندما قام بتغيير يهم المدخل التقليدي للملحمة، أشار لوطاس، دون أن يعرف أن دعواته أو متمنياته لن تستجاب، أن لديه النية في تدشين اتجاه نوعي جديد، ألا وهو الملحمة المسيحية.

ب- التسلسل: كيف نرى في البيت الشعري الشهير لأبولينير *Mon beau navire, ô ma mémoire* [قاربي الجميل، يا ذاكرتي] *(La chanson du Mal Aimé,)* (str.11) إعادة لتيمة المناداة المتكررة عند منيموزن Mnémosyne، الذاكرة أم آلهات الفنون(أنظر هومير، فرجيل ،فاليريوس فلاكوس Valerius Flacuss، سطاس Stace ،بواردو Boiardo، أريوسط

240. إذا ذهبنا بعيدا في هذا التحليل، يمكن الإشارة إلى أن تشفير الحكايات مُغر، لأن كل حكاية خاضعة لمعيار وتطرح مسائل أخلاقية بطريقة سرية.

241. «يا إلاهة الفن، أنت التي لا تتوجين جبهتك بالرند البالي على الهليكون».

242. [و لكن في السماء وبين جوقة سعيدة، تحملين تاجا من الذهب ومن النجوم الخالدة].

243. هليكون (Hélicon): هضبة آلهة الفن (المترجم).

و لوطاس)[244]. ولكن هذه التيمة المتكررة مقيدة بطوبوس الكتابة التي تعتبر إبحارا ؟ إذا كانت هذه التيمات المتكررة، المتناولة الواحدة بمعزل عن الأخرى، ليس لها إلا قيمة وصفية ضعيفة، فإن تسلسلها له قيمة كبيرة وقد مكن من التقريب بين قصيدة أبولينير **والكوميديا الإلهية**. هذا القارب الجميل يشبه كثيرا قارب *(navicelle)* دانتي، بحيث إن مناداة آلهة الفن، المنطوقة بصوت عال، توجد في النشيد الأول من **المطهر** وفي النشيد الثاني من **الجنة** .باستطاعتنا توضيح الكيفية التي حولت بها*La chanson du mal aimé* هذه الأغنية الثانية. مثلا، يحيل البيت «عادت شمس الربيع»(Revienne le soleil de Pâques) على يوم الأحد في الربيع ، وهو يوم الرؤية الدانتية. وقد احتفل به في فجر 10 أبريل (وهو عام العفو 1300) الذي تحول إلى هذا البيت الشعري : كان فجر يوم من أيام أبريل(C'était l'aube d'un jour d'avril). ثم تحول يوم الأحد وأصبح متعددا بحيث يقال les dimanches s'y éternisent (أيام الأحد طويلة جدا) والخلود أصبح رتابة. دائما في بداية الأغنية الثانية، يتحول بيت دانتي:

Il mio legno che cantando varca.

إلى:

La barque aux barcarols chantants/[...] voguait.

في الأخير، تبدو بياتريس Béatrice التي سماها الشاعر مادونا Madonna وقد تحولت ليس إلى العذراء ذات المجد الذي أظهره لها سان برنار، ولكن إلى العذراء صاحبة الآلام السبع (السيوف السبعة)... الخ. لم يصل الأمر إلى **القبلات الفلورانسية**، وعند العارفين، لا يمكنها أن توقع بسخرية على إعادة الكتابة المنفرة عند دانتي.

عندما تَمدرس الأدب وانقسم النقد إلى قبائل بعد أهل القرن العشرين، فإننا ننتظر أهل القرن الواحد والعشرين المقتنعين مبدئيا بأن تاريخ الأدب يمكن أن ينقسم إلى قرون. وتاريخ الأدب- أريد أن أقول تاريخ الإبداع الأدبي- يُحتفى به عبر شكل آخر من الزمنية، ويكون منسلخا بالأساس عن التاريخ السياسي والاجتماعي، تاريخ التقاليد والقطائع التي يجسدها المعنى المشترك، والذي يمكن أبولينر من محاورة دانتي، و يمكن بودلير من محاورة سانت أمانSaint Amant، كما سمح بإقامة حوار بين أراغون Aragon *(Paysan de Paris)* و بويس Boèce، وهوبكينس Hopkins أو شار

Gerusalemme liberata, I, XXXVI : « Mente, de gli anni e de l'oblio nemica» .244

Char و هيراقليط، مثل ما كان في الماضي حوار بين مونطين وبلوطارك أوبين ليبنيتز وبلوتان.[245]

ج- التحول بنقل النغم: كيف نتمكن من معالجة التغيرات التي تطرأ على الأنغام؟ تقدم سونات رونصار Ronsard التالية في الكتب المدرسية : «عندما تصبحين بالفعل عجوزا [...] تحلين الصوف وتغزلينه» لاكارد و مشار (Lagarde et Michard) للاستدلال على «رقة الشاعر»؛ ولكن العجوز المتسللة، في الشعر الايطالي الذي ألهم رونصار، هي شخص حقير لم يعد يثير الاهتمام (أنظر مثلا بولسيان ، Rime، CXIV). وبناء عليه، فإن السيدة مهددة بأن تتعرض للتأسف عوض الندم، ولكنها معرضة من جهة أخرى للوهم المضحك: كلمة عجوز وردت كصفة في البيت الأول و أصبحت اسما في البيت الحادي عشر (**هذه العجوز المقرفصة**)، و هذا ما يوضح التهديد.

إذا كان التحول عبر نقل النغم يحول عتبات المقبولية التي تقسم الطبقات الدلالية، فإن التأويل يحتفظ بأثر هذا النقل و يحدث أثرا مفارقا. ذلك أن هذه العلاقة التناصية تعتبر عاملا قويا للالتباس. السخرية والهزل معرضان عادة لهذا التحول في النغم، وهو التحول الممزوج بالنفي المقدم عبر التضاد. لا يمكن فهم أبيات كلوديو رودريغس Claudio Rodriguez:

« ben veo que es morena/ baja , floja de carnes »[246] دون اللجوء إلى التناص البودليري ،الذي أعاد الطوبوس الباروكي للحسناء في حالة حداد .عندما قال بودلير ،«longue, mince en grand deuil»[...]فإنه قد استبدل كلمة baja بالصفةlongue، وتحول المقطعflora de carnesإلى الصفة mince، وفي الأخير تحولت كلمة morena من دون شك إلى عبارةen grand deuil، ولكنها قلبت الشقرة الضمنية التي تميز العابرة البودليرية[247].

245. دانتي أليغيري (1321-1265) شاعر إيطالي تميزت أعماله بالسونات والموشحات وتغنى بحبه المثالي لعشيقته بياتريس بورتيناري. وقد جعلت منه قصيدته **الكوميديا الإلهية** أكبر شاعر إيطالي في عصره. وتنقسم هذه القصيدة إلى ثلاثة أجزاء وهي على التوالي: الجحيم والمطهر والفردوس. وتصف القصيدة رحلة دانتي نفسه في الحياة الأخرة. ويقال بأن هناك تشابه كبير بين رسالة الغفران لأبي العلاء المعري (القرن الرابع الهجري) والكوميديا الالهية وبأن دانتي قد تأثر برائعة المعري. لكن البعض أنكر هذا التأثر واعتبر أن الأمر مجرد تشابه لا يصل إلى مستوى التقليد أو التماثل. بخصوص هذا الموضوع، أنظر عبد الفتاح كيليطو، أبو العلاء المعري ومتاهات القول، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2000 (المترجم).

246. [Je vois bien que tu es noiraude / courte، débordante de chair] ألاحظ أنك سمراء وقصيرة و تفيضين لحما].

247.نضيف أن ben veo قلب الظهور المفاجئ البودليري (البرق)، أنظر أنطونيو غارسيا بيريو Garcia Berrio Antonio، 1999، ص 679.

د. التحويل بتغيير التشاكل: كيف السبيل إلى معالجة السخرية ؟ لنأخذ المثال التالي : «جمال/ غالبا أستعملُ اسمك/ واشتغل في إشهارك/ لست أنا رب العمل/ جمال / أنا مستخدَم عندك» (ج. برفير (Prévert, *Fatras*, Paris, Gallimard, 1966 , p.129 J.) أعاد بريفير القصيدة الوطنية عند إيلوار ،مستغلا بسخرية شكل الدعاء فيها [من الصلوات] المستلهم من التقليد الغزلي المسمىcanso . ولكنه استرجع كلمة جمال بدلا من كلمة حرية، كما أنه تصرف في التيمة الغزلية المتمثلة في إسماع صوت الاسم (وعبارة **استعمل اسمك** عوضت بالطبع أكتب اسمك؛ و اسم المرأة المستعار أصبح إشهارا). غير أن بريفير، وهذا أمر مهم، ينتل التيمة الغزلية لخدمة الحب (منقولة من المقطعية الأرستقراطية) إلى مقطعية البورجوازية الصغيرة. وهكذا، كشف النقاب ليس فقط عن إيلوار، ولكن عن كل التقليد الغنائي الذي يعتقد أنه تجاوزه.

د- التحول باستبدال المفاعل: كيف التعرف إلى الطوبوس الذي تعرض لعملية تحول ؟ مثلا، طوبوس الحسناء النائمة، الذي قدمه هنري كوليHenri Coulet ، بطريقة رائعة في الجملة التالية :«ألقت الفتاة العجوز على نفسها وعدا بأن تحمي هذا الطفل المسكين، الذي أحبته وهو نائم» (*La cousine bette*). في الواقع ،الفتاة ذات ملامح رجالية،و«الطفل المسكين»،حسب فينسيسلاس شطينبوكWenceslas Steinbock النحات، له سمات أنثوية :لها« خصائص الرجال» (ص:31)، وفي الوقت نفسه ،لها «فم وردي ومرسوم بإتقان ،ولها ذقن صغير»(ص :78). قورن الطفل« بنعجة» (ص :97)،رغم أن اسمه يعني العنز البري؛ والثنائي الذي يكوناه مقدم على أنه « زواج بين هذه الطاقة الأنثوية وهذا الضعف الرجالي» (ص59). وهكذا. «فانحراف »توارد المعنى المحوري يكشف حقيقة النوع(gender) لدى الشخصيات.

يستخلص مما سبق أن التعرف على الطوبوس ليس بالأمر السهل، وتحديد الإعادة لا يمكن أبدا من إصدار حكم مسبق حول معناها. يبدو لي أنه يجب أن تكون التناقضات بين الإعاداة موضوعا رئيسيا للبحث وأن رصد التيمات المتكررة ليس إلا وسيلة لكشف هذه التناقضات. من جهة أخرى، يطرح «الحوار» بين الإعادة سمات غير ممثلة في «النمط»: أعاد أبولينير التيمة الدانتية ولم يقلد فيرجيل أو سطاس Stace اللذان استعملا التيمات المتكررة المتعلقة بالإبحار والمناداة. و لكن، إذا لم أكن مخطئا، دون التوصل إلى جمعها. وهكذا، فالاعادات ليست مؤولة استنادا إلى علاقتها بالنمط،

ولكن بعلاقتها المباشرة أو غير المباشرة فيما بينها.

باختصار، نظرية التحولات الخاصة بالطوبوس ضرورية لتعيين السمات المتكررة. من جهة أخرى، تفرض بعض القرارات المنهجية حول التدقيق في المرحلة التي يفقد فيها الطوبوس هويته. وهكذا تتطلب هذه القضية تصورا فيلولوجيا للتناص، يكون أكثر صرامة من تلك التي مازالت متداولة.

يمكن شرح التحولات بفاعلية السياقات الجديدة، وبصورة أعم بالتأثير المحدد للقيود داخل النص (intratextuelles) والمرتبطة بالنصوص الأخرى (intertextuelles) وكذلك بتأثير القيود المتعلقة بتطورات المُعتقدات. إن دراسة تجليات التيمات المتكررة تصبح لها أهمية قصوى عندما توضح، بل وتكشف عن العلاقة الشاملة التي تربط نصين فريدين. ونتيجة لذلك، مكننا طوبوس الكتابة المعتبر كإبحار من اكتشاف أن *la chanson du mal aimé* هي إعادة كتابة يائسة للأغنية الثانية في الجنة [لدانتي].

إعادة بناء السياق: ينتج التجريد التأويلي الذي ينظم تكوين أو تحديد الطوبوس عن نزع السياق. ويمكن هذا الأخير من التقريب بين النصوص المكونة للمتن، حول نقطة معينة. واستنادا إلى هذا العمل، تُستخدم التقنية العتيقة والمتينة، وهي التقنية الهيرمينوطيقية، في الفقرات المتوازية. بيد أنه ينبغي إتباع هذه التقنية بإعادة بناء السياق. وبالتالي نستطيع بحث التغيرات المتلازمة التي تشرح أو على الأقل تصف كيف يتغير الطوبوس مع سياقاته، حسب الأزمنة والمشاريع الجمالية. مثلا، يحتفظ مبدئيا طوبوس Amour - inhibe - expression الذي استقيته من القائمة التي اقترحتها جمعية دراسات المعاني المحورية في الرواية (Sator)، بنفس الدلالة اللفظية في رواية *Princesse de Clèves* وفي رواية *Manon Lescaut* . ولكن تواردہ لا يحمل بالطبع المعنى نفسه، بحيث إذا كان دي غريو [بطل الرواية] يصمت أمام مانون ، مثل نمور Nemours أمام الأميرة *la Princesse*، فهذا لا يُفسَّر بالاحترام، ولكن بالإفراط في الرغبة. كما أن هذا الصمت ينبؤ بالمرور إلى الفعل.[248]

248. سنقدم هنا بعض أوراق هذا الملف: «جلس أمامها، معبرا عن خشية وعن حشمة تنبعان من الأحاسيس الحقيقية. وقف بعض الوقت دون كلام. لم تكن مدام دو كليف Mme de Clèves ممتنعة، مما جعلها تحتفظ بالسكوت لمدة طويلة» (ص: 318، منشورات Niderst للروايات والقصص القصيرة، Garnier-Bordas، 1990). ونورد هذا المقطع أيضا: «لا يمكن التعبير عما يحسه السيد نيمور والسيدة كليف حينما يكونان لوحدهما وفي حالة التحدث لأول مرة. مكثا بعض الوقت دون كلام (...)» (ص: 403، نرى أن الكبت مس الراوي: لا يمكن التعبيرعن الأحاسيس).
غير أننا، نجد هذا الطوبوس على لسان دي غريو Des Grieux نفسه: «كنت في فورة فرح، نزعت عني لبعض

إن المقابلة بين الدلالة اللفظية والمعنى تعكس من دون شك التناقض بين الإشكالية المنطقية-النحوية التي تنظم وتهيكل الطوبوس لتحوله إلى نمط والإشكالية البلاغية/ الهيرومينوطيقية التي تنظم تأويل إعادته. في الواقع، إننا ساعون إلى التمييز بين تصورين للتيمة وللطوبوس: التصور المنطقي-النحوي يجعل منه وحدة نصية منتمية إلى «معجم» وإلى تركيب؛ التصور الهيرمينوطيقي يجعل منه شكلا فريدا يجسد الثوابت والقطائع في تقليد جنس ما؛ وبالتالي، يجب تأويله على هذا الأساس. ومن المفروض أن يكون هذان التصوران متميزين ولكن متعالقين.

الإطار المُعتقدي والإيديولوجية

إذا وسعنا التحليل إلى أبعد من التيمة المتكررة، فإن كل تعريف للنمط يفترض مجموعة من المقولات الكبرى والأساسية (وقد سميناها أبعادا)، مسنودة بتقابلات مثل رجل/ امرأة (جنس)، ذكر/ أنثى (نوع)، سيد/ خادم، مهيمن/ خاضع، ظاهري/ واقعي، طبيعي/ سحري. إذا كانت التواردات التي تمظهر القيم النمطية مقرونة بالمعتقدات و إذا كانت التواردات التي لا تمظهر هذه القيم مفارقة للمعتقدات، فإن المقولة تظل، في كل الحالات، واردة بصورة **قبلية**، وبالغياب، في جنس ما و في خطاب ما (أدبي، ديني... الخ)، بل وحتى في العالم الخطابي.

يُكون مجموع هذه المقولات عمق التقييمات الجماعية التي يمكن أن نسميها **المعتقد الأساسي** أو **الإيديولوجيا الضمنية**. نسلم بأن التحولات المتناقضة بين تواردات الطوبوس لها غالبا نتيجة، إن لم يكن لها هدف، وهو قلب الأشكال النمطية لهذا المُعتقد؛ بحيث إن الخادم هو الذي يعطي الأوامر، والمرأة هي التي تلعب دور الرجل. هذه مثلا بعض الصور المترددة التي تؤكد -على عكس ما هو موجود- المتلازمات المطردة بين المقولات. بالفعل، إن التيمات المتكررة السردية والأكثر أهمية هي التي تفسخ التيمات المتكررة، وهذه المرة، نستعمل مصطلح Topoï بالمفهوم الأرسطي والبلاغي للكلمة المتعلقة بالملفوظات المعيارية، مثل **الرجال يفوزون على النساء**، أو

=الوقت حرية الصوت التي لا يعبر عنها إلا بالعيون. ظهرت الآنسة مانولسكو (هكذا قالت لي أن أدعوها) وهي جد راضية بأثر هذه المفاتن». وأضاف، عندما فقد «حرية الكلام»: «أعترف أنني كنت أقل طفولية مما كنت أعتقد»، لأن الأمر يتعلق بالكشف عن رجولته. لم يخطئ المعاصرون بهذا الشأن- ولا مانون التي رأت في الرجولة، وهي راضية، أثرا لجمالها».

الأسياد يفوزون على الخدم.[249] ويمكننا أن ننعت هذه الأقاويل بالمفارقات، على الرغم من أنها عادية، والنفوس البئيسة مثل النفوس المرحة كانت دائما تتحسر أو تنفجر من الضحك عندما ترى النساء والخدم يفرضون «سلطتهم».

إن التحولات السردية داخل نص ما مترابطة، بطبيعة الحال، بنفس المتلازمات المقترنة بالمعتقدات وبالمفارقات. وهكذا، فالعقول القوية أكدت أن اليسوع باراباس Jésus Barrabas كان عليه، لأسباب بنيوية، أن يظهر للوجود: في الوقت الذي مثل فيه عيسى صورة المتَّهَم، العادل، يجب اللجوء إلى الدعم التكميلي لمجرم قد تم العفو عنه.

باختصار، في جنس أدبي وفي حقبة معينة، تربط المقولات النصية نفسها بالتناصية.

249. كل مفارقة تفترض طبيعيا معتقدا اجتماعيا، بل وتطرحه كهيئة. وفي المقابل، تحدد المفارقة المُعتقد الشخصي الذي يعترضها. ويضاف إلى هذين النوعين من المعتقد نوع ثالث، وهو الذي يستند إليه الأخلاقي لإبراز الأولين: إنها مكونة من أحكام عادية، وبهذا الشكل، فهي ليست بالمقبولة ولا بالمرفوضة، وبالتالي فإنها لا تخضع لمواجهات التقييمات المتناقضة. كتب شامفور Chamfort ما يلي: « حدثني M...، المعروف باستعماله للعالم، بالشيء الذي أثر في تكوينه، وكان ذلك هو ممارسة الجنس، من وقت لآخر، مع نساء يبلغن 40 عاما، والإنصات لعجوزات يبلغن 80 سنة» (§700). تبدو المقابلة بين «ممارسة الجنس» و«الإنصات» غريبة، ولكنها تعيد الربط بين التمييز المعتاد بين الجسد والروح. أما التعارض بين 40 و 80، فإنه يعيد الطوبوس العتيق الذي مفاده أن المرأة ليست إلا نصف الرجل (ولهذا نجد التعبير الحميمي «نصفي» (ma moitié). وهذا يؤكد الإحراج الذي تسببه المفارقة: لتحطيم مُعتقد ما، نحن ملزمون بالاستناد إلى معتقد آخر، ويرتكز نقد الأفكار المسبقة حتما إلى معنى مشترك جد مبتذل، إلى درجة أننا لا ننتبه إليه، بالإضافة إلى أن اللغة نفسها مكونة، من دون شك، من معتقدات متمكنة، ولا يوجد نص خال منها. أنظر المؤلف (1996d).

الفصل الثامن

الشِّعْرِيةُ المُعَمَّمَة

بعدما ناقشنا مشكل التخصيص المميِّز المتعلق بالأسلوب، لنمر إلى التخصيص الجنسي للنصوص. و يبدو الوقت مناسبا لطرح المشكل العام الذي يهم وضع الأجناس في علوم اللغة. لقد رأينا أن تطور الأبناك النصية يفرض على الفيلولوجيا الرقمية مهمة تشفير جنس الوثائق. ومن جهة أخرى، تحتاج لسانيات المتن التي لازالت في مرحلة التطوير حاليا إلى نسج علاقة جديدة مع ما هو أمبريقي، وتقود إلى تجاوز الاعتراضات النظرية التي صيغت ضد مبدأ تصنيف الأجناس.

وإذا كانت مسألة الأجناس تعالج تقليديا من قبل الشعرية، فإن اسم هذا الحقل المعرفي ذاته يحيل دائما على الأدب؛ ومع ذلك، فمجموع المعايير والاستعمالات اللغوية، الشفوية منها والكتابية، الفنية وغير الفنية، هي التي تدخل في نطاق ما نسميه **الشعرية المعمَّمَة**. بما أن التقابل الأفلاطوني بين الممارسة الاجتماعية *(praxis)* والإنتاج *(poiesis)*[250] غير وارد هنا، فإن كلمة **شعرية** تُستعمل بالمعنى التطبيقي وليس فقط بالمعنى الجمالي. ويسمح أيضا اختيار وجهة النظر الموحدة حول الأجناس الأدبية وغير الأدبية بمراجعة الاعتراضات التي غالبا ما تكون متجانسة، والتي وجهها النقد المعاصر ضد دراسة الأجناس الأدبية، ووجهتها اللسانيات النصية التي انتقدت دراسة الأجناس على العموم.

يجب على الشعرية المعممة أن تحدث قطيعة مع كونية الشعرية القديمة المتعالية كما يجب عليها أن تتحمل مهمة جديدة، مفادها وصف التنوع في الخطابات (الأدبية

250.و الإنتاج يعني هنا الإبداع المقابل للتطبيق (المترجم).

والتشريعية والدينية والعلمية... الخ) وربطها بالأجناس[251]. إن الرهان غير ضعيف لأن النصوص مشكَّلة بواسطة الأوضاع الحقيقية التي تساهم فيها؛ ومن جهة أخرى، بواسطة الأجناس والخطابات. وتجدر الإشارة إلى أن النصوص تنسجم مع الممارسات الاجتماعية، هذا فضلا عن أن حالات التلفظ والتأويل تكون عبارة عن تواردات لهذه الممارسات.

بعد التقديم الموجز للأنثروبولوجيا المرتبطة بسيميائيات الأجناس، سنناقش القضايا الابستيمولوجية التي تطرحها دراستها في اللسانيات.

لماذا الأجناس؟

إلى جانب الوظيفة التوسيطية للسيميائيات، تتميز النزعة الإنسانية بتمييز الممارسات وبالتقسيم المتلازم للعمل. إن كل صنف من الممارسة الاجتماعية يقابله مجال دلالي وخطاب ينظمه. لقد شرح دانتي، بعمق فريد، كيف تخطت الإنسانية الخلط في اللغات. ذلك أنه في ورشة بابل، استطاع العمال من مختلف الهيئات المهنية أن يستمروا في التفاهم، لأنهم يتقاسمون ممارسات مشتركة[252]. هذا وفي الوقت الذي يتناقص فيه عدد اللغات بسرعة، تنفتح ورشة ثانية ـ أقل ضخامة ولكنها صعبة ـ أمام اللسانيات، ألا وهي وصف التنوع الذي يختزل في الخطابات وفي الأجناس. وبما أنه لا توجد ممارسة عامة غير متخصصة، فمفهوم لغة عامة يظل معياريا. بالفعل، فحتى المبادلات اللغوية التي تبدو أكثر عفوية تخضع للقواعد بفعل الممارسات الاجتماعية التي تعد موضعا لها والتي تنتمي إلى خطاب وإلى جنس ما[253].

تنقسم كل ممارسة اجتماعية إلى أنشطة مميزة يقابلها نسق من الأجناس المتطورة

251.إن اللسانيات لا تعالج تنوع الخطابات، ما عدا في التطبيقات القاموسية، في حين تدرس الشعرية التقليدية مسألة واحدة وهي الخطاب الأدبي، دون الخوض في الخطابات الأخرى. وعوض أن تكون بعدا تحليليا (أنظر *discours analysis* لهاريس Harris، تحليل الخطاب... الخ) مرتبطا بالثنائية لغة/ خطاب، نعرِّف الخطابات بأنها أصناف من الاستعمال اللغوي المشفر الذي يتطابق مع الممارسات الاجتماعية الاختلافية و الذي ينظم المجالات الدلالية الخاصة. وهكذا، نميز بين الخطاب السياسي والخطاب العلمي...الخ.

252.أنظر: *De vulgari Eloquentia* (1.7) لم تبق اللغة نفسها *(loquela)* إلا لأولئك الذين اجتمعوا لأداء المهمة نفسها .و بناء عليه ،بقيت لغة واحدة للمهندسين ،وأخرى لكل حاملي الحجارة ،وأخرى أيضا لكل الذين ينحتونها ،وهكذا بالنسبة لكل عامل».

253.مآل كل تفاعل أن يصبح معياريا، والمبادلات بين الأشخاص والتي تبدو لنا عفوية تدخل في إطار اللعب بين الأشخاص وفي العقد الاجتماعي. وهكذا، فالمحادثة مثلا لا تكوِّن جنسا ولا خطابا ـ رغم وجود الرأي العادي في التحليل المحادثاتي؛ إذ من المحاورة من أجل تشغيل موظفين إلى المحادثة في المطعم، نملك العشرات من الأجناس المحادثاتية المتميزة والمرتبطة بالممارسات المختلفة.

بشكل جماعي[254]. وتظل الأجناس إذن مسألة خاصة بالخطابات وحتى بالنسبة للحقول التطبيقية. وعلى سبيل المثال، لا يخضع البحث في الفيزياء لنفس المعايير التي تتحكم في البحث في اللسانيات. أما إذا استطاعت الخطابات أن تؤثر فيما بينها، فإن كل نسق جنسي يظل مع ذلك مستقلا ويتطور حسب قوانينه الخاصة (أنظر راستيي وبانسمان، 1999).

و لكونه وسيطا مزدوجا، يتحمل الجنس ليس فقط الربط بين النص والخطاب، ولكنه يتحمل أيضا الربط بين النص والموقف، بالشكل الذي يُوَحد النصوص وما يحيط بها في إطار ممارسة ما. ثم إن العلاقة بين الممارسة والجنس الأدبي تحدد العلاقة التي تربط بين الحركة الجارية والنص المكتوب أو النص الشفوي الذي يرافقه.

إذا سلمنا بعدم تقديم التمييز بين الإبداع والفعل، وبين المؤلِّف والعمل، على أنه فرضية، فإن الشعرية المعممة تفترض براكسيولوجيا، أي نظرية الحركة في اللغة وباللغة، و تستدعي هذه النظرية بدورها الأخلاقيات التي لا يُقصد بها الأخلاق المعيارية، ولكن يقصد بها التفكير النقدي حول علاقات التكييف الانعكاسي بين الوسائل والأهداف المرتبطة بالنشاط الوصفي.

وبما أن اللسانيات مقترنة بالأنطولوجيا[255] التي تؤسس عادة للأصناف المتصلة بالذوات، فإن الارتقاء بالأخلاقيات يعني تبني الإطار البراكسيولوجي الملائم للنصوص، كما يعني التمكين من ربطها بالممارسات أينما أُنتجت وأُولت. إذا كنا نعتبر الشؤون الإنسانية (*pragmata*) بأنها ليست «الأشياء» المقترنة بالوضعية المنطقية، ولكن (مثل ما كان سائدا زمن أرسطو) بأنها كل القضايا الإنسانية، فإن التداوليات كانت

254. يستدعي مفهوم ممارسة بعض التوضيحات. كل الممارسات، ومنها تلك التي تستدعي بالأساس ما هو سيميائي، كانت محط تفكير قائم على منهج ممارسات الإنتاج ـ وهذا ما يبرر على سبيل المثال في تحليل الخطاب وجود مفهوم **شروط الإنتاج**. لم تترك الماركسية «الواقعية» أي مكان متميز للغة، ولم تنتج إلا دراسات حول السياسة اللغوية أو السوسيولسانيات. أما في إطار وجهة نظرها القائمة على أساس التفرقة بين المادي والإيديولوجي، لم تكن باستطاعة هذه الماركسية التنظير لسيميائيات الممارسات. ونتيجة لذلك، منذ بدايتها، طرحت المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب، النابعة من الألتوسيرية، برنامجها في البحث عن لسانيات التلفظ التي يتوجب عليها البحث عن الإمارات الشكلية للخطاب (بالاستناد إلى عمل هاريس discours analysis غير المعتمد على الدلالة) والبحث في نظرية الإيديولوجيات التي تستحوذ عليها هيئة سياسية تقوم بتأويل الخطاب. لا يوجد في هذا الجهاز أي مكان لدلالة النصوص؛ وهذا ما جعل بالطبع كل نظرية لغوية حول الأجناس عملا واهيا إن لم نقل مشبوها.

255. اللسانيات مقترنة بالانطولوجيا في كل الدرجات، على الأقل من ناحية المقولات الأنطولوجية التي أقامت التمييز بين أقسام الكلم، كما أسست، استنادا إلى النموذج المرجعي للدلالة اللفظية، نظرية الإسناد الثنائي وطرحت مفهوم الإسناد... الخ.

من دون شك ستعالج هذه المشاكل. و لكن لم تكن المعايير اللغوية وتنوع اللغات والخطابات والأجناس مدرجة ضمن هذا الحقل المعرفي. إن التطورات التفاعلية قادت التداوليات حاليا إلى الانخراط في الميكروسوسيولوجيا، لكونها جزء من فلسفة اللغة الطبيعية.

إن تقسيم العمل وتخصيص الممارسات وإخضاع الأنشطة إلى طقوس، كل هذا يشكل القاعدة الأنثروبولوجية للشعرية المعممة. ولما كان كل نص يربط اللغة بالخطاب ويربط الخطاب بالجنس النصي(المؤلف، 1989)، فإنه ينبغي على دراسة الجنس الأدبي أن تصبح مهمة ذات أولوية بالنسبة للسانيات. وتحظى دراسة الأجناس بأهمية بالغة، بما أن الجزء الهام من المعجم[256] والتركيب وكذلك مجموع البنيات النصية مقيدة بالأجناس. من جهة أخرى، إذا كانت النصوص غير مقيدة بالقواعد ـ بالمعنى القوي للكلمة أي المعنى المستعمل في اللسانيات ـ ولكن بواسطة معايير، فإن على الشعرية المعممة أن تعمل على عقد رباط بين المعارف التي تدرس بنية اللغة وبين الملاحظات التي تهم بنية النصوص الخاصة. وفي الأخير، ترتبط منهجية اللسانيات الوصفية نفسها بالأجناس و ينبغي عليها أن تتكيف معها، لأن مسارات الإنتاج والتأويل رهينة بأجناس معينة. وهذا ما يفسر الخاصية الأولية لدراستها.

ومع ذلك، لا تتقلص هذه المنهجية لتصبح مجرد تصنيف. وبما أن الخاصية النسبية للتصنيفات كانت منذ عهود قديمة جزءا من الأفكار المكتسبة، فإنه من السهل أن تسخر من تصنيف التصنيفات. وهكذا، طرح جينيت مفهوم الجنس في إطار مقولات أكثر عمومية، وعرف بذلك النص الجامع بأنه مجموع المقولات العامة أو «المتعالية» التي ينتمي إليها كل نص. (أنظر المؤلف 1986، ص 157-158). ولهذا، لا يمتزج الجنس النصي بطبقة بسيطة ولا بنمط؛ إذ إنه يتأسس من جهة أخرى على شكل نظام متكون من المعايير المحايثة وغير المتعالية للنص.

وإذا كانت مجالات النشاط مطابقة للخطابات، ورابطة بين الخطابات والأجناس،

256. يمكن للكسيمات أن تربط بالخطابات، وبخصوصها تعطى المؤشرات القاموسية مثل كلمة مطبخ وبحرية معلومات تقريبية. بالفعل، تنتمي العديد من الكلمات إلى خطاب وإلى خطاب واحد: في لغة مثل الفرنسية، 60 في المائة من الكلمات فريدة المعنى. أما في المعجمية النظرية الخاصة بالمتن، فقد تم توضيح الخصوصيات الخطابية. مثلا، رصدت الدراسة التباينية التي قام بها بيبر Biber (1993) قائمة تحتوي على 6000 كلمة، ومجملها كلمات غير مجردة، خاصة بالنصوص الخيالية(أنظر *impatiently ou sofa*)؛ أو أيضا، حسب المعطيات الجديدة التي جمعها إ.بوريون E.Bourion، لم يشر إلى الحب بأنه أفلاطوني في الرواية، لأن كلمة أفلاطوني لا تنتمي إلى معجم الشعر. وحول التغيرات الصرفية- التركيبية حسب الأجناس، أنظر مالريو وراستيي، 2001.

فإنه يجب الاعتراف بالتوسيط المسمى الحقول الجنسية (champs génétiques). و من المعلوم أن الحقل الجنسي هو مجموعة من الأجناس التي تتباين، بل وتتنافس في الحقل التطبيقي. مثلا، في الخطاب الأدبي، ينقسم المسرح إلى كوميديا وتراجيديا؛ وفي الخطاب التشريعي، تُكوِّن الأجناس الشفوية حقلا جنسيا خاصا (مرافعة، دفاع في المحكمة، حُكم). أما في الحقول التطبيقية، فتُقابِل التطبيقات النوعية الأجناس، كما يقابل مجرى النشاط الذي يعتبر تواردا لهذه التطبيقات نصوصا تشريعية أو كتابية، وما يلي مثال ذلك.

براكسيولوجيا	مجال النشاط	حقل تطبيقي	تطبيق	مجرى الحركة
لسانيات	خطاب	حقل جنسي	جنس	نص

تتطور الخطابات في الزمنية الاختلافية ولا تتنافس (ومن هنا مثلا الدياكرونية الاختلافية لكلمة وجه (face) في الخطاب الأدبي والديني والطبي، (أنظر المؤلف، 1999)؛ وفي المقابل، تتنافس الأجناس في الحقول الجنسية؛ فعلى سبيل المثال ، قامت الدراما الرومانسية بعملية توليف بين عناصر التراجيديا والكوميديا.

لن يتطرق هذا الفصل المخصص لشعرية الأجناس إلى شعرية الخطابات ولا إلى الحقول الجنسية إلا بصورة ثانوية.

الشعرية: هل هي لسانيات الأجناس؟

مازلنا نفاجأ، مثل نورثروب فراي في الماضي، بخصوص الفكرة القائلة إن الأجناس ما تزال موضوعا «جديدا». والسبب في ذلك راجع من دون شك إلى التأخر الذي عرفه مجالان في البحث اللغوي، وهما مجال **النصوص** ومجال **المعايير**، وإليها تنتمي الأجناس؛ كما أن دراستها تربط لسانيات اللسان بلسانيات الكلام، أو بعبارة أخرى، تربط القدرة بالإنجاز. و بموازاة ذلك، تم إهمال بل ونسيان إطارين منهجيين، وهما المنهج المقارن، الذي يفترض وجهة نظر تسلسلية واختلافية في دراسة اللغة من الداخل؛ والإطار التاريخي، الذي تنتظم فيه النصوص بالاعتماد على الخطوط الشكلية التي تكونها الأجناس.

مستوى تحليل أساسي

أ) كل نص يقدم في إطار جنس معين، ويُنظر إليه من خلال هذا الجنس. ولهذا، فاللغة تتحقق في الأجناس. ولكن بما أن عمل النحوي يتمثل في تجريدها، فإنه يجد صعوبة في الموافقة عليها. إن النص هو الوحدة **الأساسية**، في حين تظل الكلمة أو المورفيم بالتحديد الوحدة اللغوية البسيطة. وتجدر الإشارة إلى أن النص لا يعد الوحدة القصوى بما أن كل نص يأخذ معناه من داخل المتن. غير أن متن النص يفرض نفسه بصفة عامة، إذ نحكم على مداولات مجلس الإدارة بالمقارنة مع مداولات سابقة، ونحكم على قصيدة بالمقارنة مع قصائد أخرى وليس بالمقارنة مع الروايات. وبما أن الجنس هو الوسيلة المفضلة للوصول إلى التناص، فإن خلق متن المرجع، الذي يأخذ فيه النص المدروس معناه (وذلك بإيجاد مؤوليه) لابد وأن يأخذ بعين الاعتبار جنسه[257].

ب) ينتصر الجنس الأدبي على الاطرادات اللغوية الأخرى. إن الجنس الأدبي هو **الخطاب بعينه، بل إن الجنس هو الذي يحدد اللغة**. وعلى سبيل المثال، كانت اللاتينية لغة الدين وكانت الإنجليزية لغة علم الطيران.

ج) في موازاة ذلك، تمكن معايير الخطاب والجنس من الترجمة، إذ لا نترجم من لغة إلى لغة أخرى، ولكن من خطاب ومن جنس لغة معينة في اتجاه الخطابات والأجناس المطابقة والمماثلة في لغة أخرى. تكون الترجمات سهلة، بل آلية إذا كانت الأجناس متطابقة. و في المقابل، تظل آلاف التحولات ضرورية عندما لا تكون الأجناس متطابقة وعندما لا يكون لها التاريخ نفسه، وهذا ما يحصل عموما في الأدب.

د) تنتصر اطرادات الجنس على الاطرادات اللهجية أو الأسلوبية. فمثلا خلصت الدراسة التي أنجزها مولي وبروني Mullet et Brunet إلى أن الجنس الأدبي يعلو بالكُتاب. ذلك أنه حين قاما بمقارنة روايات ومسرحيات وأشعار هوجو ولامارتين وموسي، لم يستطيعا التعرف على المؤلِّفين، طالما أن اطرادات **الجنس** تتفوق على اطرادات

257. ولهذا، على العكس مما سبق، تكون دواوين الأعمال الكاملة غير صالحة للبحث المنهجي. ذلك أنها تخلط الأجناس بل والخطابات الأكثر تنوعا، كما لو أن الكاتب نشر كتاباته بطريقة عفوية ومتجانسة. يلاحظ مثلا أن كلمة امرأة قليلة الاستعمال في كتابات دوغراك de Gracq، ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار *la Penthésilée* المترجمة من قبل كليست Kleist، والتي جمعت في أعماله الكاملة في سلسلة la pléiade، فإن الكلمة سيكون لها تردد مؤكد.

«الأسلوب»، بحيث كيفما كان الرائز المختار، فإن الباحثَين كانا يصادفان روائيا وشاعرا وكاتب مسرحيات. و استعمل بودوان (1993,2000,Chap.VIII) من جهته برمجيات التصنيف الآلي وقارن أربع مسرحيات: **أندروماك والكاذب والمترافعون وسرطريوس**، أي تراجيديا وكوميديا بالنسبة لراسين وكورني. و في هذا الإطار، المستوى الأول من التصنيف يقابل بوضوح كل مقاطع الكوميديات بالتراجيديات(أكثر من90%)، ولا يظهر الفرق بين الكُتاب داخل كل جنس إلا في المستوى الثاني من التصنيف.

وأكثر من هذا، لا تحدد الخصوصيات الأسلوبية إلا بالنظر إلى معايير الجنس - وثانيا - بالنظر إلى معايير الخطاب. عرَّفنا ووصفنا لمدة طويلة الأسلوب بالاستناد إلى نظرية الإنزياح التي تفترض وجود لغة عادية مزعومة. و لكن، لا تتخلص الاستعمالات اللغوية العادية من التحديد الذي تفرضه عليها الخطابات والأجناس. لقد استحقت الأسلوبية المرتكزة على الانزياح الانتقادات الشديدة. ولكن الانزياح المزعوم الذي يظهره الاستعمال اللغوي لا يختزل في الاختلافات إزاء الانتظارات المستخلصة من معايير الخطاب والجنس؟ سندرس في نهاية هذا الفصل هذه الرهانات وهذه الانتظارات.

سعى الباحثون فقط إلى إلحاق لسانيات المعايير بلسانيات اللغة (أنظر كوزريو، 1969). وتحدد الشعرية بصفتها نظرية المعايير، «اللسان» الذي يتكون شقه «الكلامي» من الأساليب. لا يفترض هذا القياس، بالطبع، وجود تناقض بين المعايير واستعمالها، إذ القاعدة العامة تقول إن كل رتبة من العمومية (خطاب، جنس ، أسلوب) تنظم في إطار الرخص المخولة لها من قبل الرتبة العليا، في ما يسمى بنحو الجواز. و تُفهم التكاملية في الشعرية كما في الأسلوبية على أنها تكاملية تجمع بين منهجين، عوض حقلين معرفيين، أي أنها منهجية تسلسلية بالنسبة للشعرية و تخصيصية بالنسبة للأسلوبية.

لسانيات ضيقة	شعرية الخطابات	شعرية الأجناس	أسلوبية
معيار عام	معيار خطابي	معيار جنسي	معيار خاص

علينا أن لا نقابل كونية اللغة بخصوصية الأسلوب. ولكن نسعى إلى مقابلة أشكال من العمومية (وهي أساسا أشكال صرفية-تركيبية وصواتية) بالخصوصيات المتطورة. ذلك أنه يمكن للاستعمالات الخاصة أن تتناقض مع المعايير العامة دون أن تلغيها. تستطيع اللسانيات المنفتحة تضمين الشعرية والأسلوبية - رغم أن هذا التوحد ستواجهه لا محالة اعتراضات أكاديمية[258]، بدلا من تركهما جانبا في تخوم الأدب.

(هـ)الجنس الأدبي هو المستوى الاستراتيجي للتنظيم وفيه تُحدد ثلاثة أنماط أساسية في النصية. النمط **الجيني** الذي يحدد أو على الأقل يقيد النص، و النمط نفسه المقيد بالحالة وبالممارسة، والنمط **المحاكاتي** الذي يأخذ بعين الاعتبار نظام الانطباع المرجعي للنص (أنظر المؤلف، 1992). وفي الأخير، هناك النمط الهيرمينوطيقي الذي يتحكم في مسارات التأويل. مثلا، في متن حول الخرافات، نُحَيِّن بدون خجل سمات/ متحرك/ في مركبات أو في مفردات تحتوي في «اللغة» على سمة/ غير متحرك/ ولن تكون لخرافة **أحذية الأماكن السبعة** خاصية المبالغة. و هكذا، فمعايير الجنس لها تأثير على مسارات تحيين السمات. من حيث المبدأ، يجب على النمط الهيومينوطيقي أن يكون مطابقا للنمط الجيني، ويستحسن القيام بعملية التأويل حسب الجنس النصي.

بالفعل، بإمكاننا التصريح بأن مفهوم الجنس أصبح متجاوزا، وهو الموقف الذي تبناه النقاد الذين أتوا بعد الرومانسيين، أي المؤيدون للتصور العاطفي للخطاب أوالتصور التذكاري المبالغ للمؤلّف (أنظر في الماضي رولان بارط في كتابه **لذة النص** [259]). وباستطاعتنا أيضا أن نؤكد، بعد غريماس، أن الأجناس هي تكوينات إيديولوجية لا تستدعي الوصف؛ ولكن، موضوع الدلالة بالخصوص هو وصف التكوينات الإيديولوجية، أو بعبارة أخرى، وصف معايير المُعتقدات، التي تعالج بَنيَنَة المعجم والنصوص على السواء. إن توضيح معايير الجنس استنادا إلى أدوات لغوية لا يستثني، على العكس من ذلك، الاستناد إلى التعريفات الساذجة أو العالمة للأجناس. إن «الحس الجنسي» يعتبر جزءا من «الحس اللغوي»، لأن اللغات تُكتسب في إطار الأجناس، ويحق لنا أن نبدأ بالتعريفات «غير العلمية» لنكملها وننظمها ونحدد أسسها.

---

258. كانت دساتير الأكاديمية الفرنسية تتنبأ بأن اللسانيات المنفتحة تطرح مقولات معرفية مثل الشعرية والبلاغة، ولكنها لم تنتج إلا تقنيات مثل النحو والقواميس.

259. انظر هذا الكتاب، الذي صدر عن دار توبقال (1988) ترجمة : حسب سحبان وفؤاد صفا.

الإشكاليتان

يلاحظ أن الشعرية لم تتمكن من التطور إلا في إطار الإشكالية البلاغية/ الهيرمينوطيقية، لأنها نظرية النص الفني . في الواقع، يبدو أن تاريخ الشعرية الغربية، عرف تصوران متصارعان حول وضع اللغة والإنسانيات، بل وحتى الإنسانية. ويجب التذكير بنهضة القرن الثاني عشر وبجان سلسبوري Jean Salisbury؛ وهنري داندلي Henri D'Andeli الذي أراد قيادة حملة ضد السوربون (معركة الفنون السبعة) ؛ كما يجب التذكير بمآل الرأي الذي أسند بعجالة إلى طوماس داكان حول الشعرية[260]؛ وإقحام النحو في الشعرية في *Leys d'Amors* لغيلهيم مولينييGuilhem Molinier؛ وتدريس البويتيقا (Poetica) في أكاديمية فلورانسا من قبل لاندينو Landino ثم بوليسيان؛ وفي الأخير، نستحضر المكان الذي احتلته الشعرية في الدراسات الإنسانية إبان عصر النهضة [261]. وهكذا، عندما أُهمل المنطق، وهو الجزء الأهم في التعليم الجامعي في القرون الوسطى، أدمجت الشعرية في البلاغة التي ضُخمت، وأعيد الاعتبار للتاريخ وللفلسفة الأخلاقية، ولتعليم اليونانية... (أنظر لاردي، 1992، ص189).

حسب العصور، كان النحو مقترنا بالمنطق ومجاورا للبلاغة. الرهان ليس فقط مدرسيا أو أكاديميا، لأن الإشكاليتين والتصورَين اللذين يطبعان اللغة يعبر عنهما في هذه التحالفات، تحالف النحو والمنطق، المتجاوران في الحقول المعرفية السكولائية المعروفة بالثلاثية (Trivium)، واللذان تطورا معا، واستقرا لمدة طويلة. وفي غضون القرن العشرين، أقيم تحالف بين النحو (الذي أصبح لسانيات) و المنطق، ولكن هذا التحالف قد امتد أيضا في بعض الأحيان إلى البلاغة أو إلى الحقول المعرفية المهتمة بالخطاب وبالنص، والساعية إلى تعويضه. بينما عملت الوضعية المنطقية على تجديد التحالف الألفي بين النحو والمنطق وذلك بخلق الأنحاء الصورية، وسعت «الصورنة» الروسية ومدرسة براغ، ثم البنيوية في الستينات إلى تجديد، عبر مختلف الوسائل، التحالف بين اللسانيات وفنون اللغة المطبوعة برومانسية إينا (Iéna) [262].

جاءت المطالب الداعية إلى تأسيس نظرية الأجناس، عكس ما كان متوقعا، من

260. « Infima inter omnes doctrina »,*Somme théologique* , I a pais, qu.I, art,9

261. *Studia humanitatis* في النص الأصلي (المترجم).

262. كمثال على رمز هذا التيار، يمكن الاستشهاد بمقال جاكبسون «اللسانيات والشعرية» (1963)، الذي كان له دور مهم في فرنسا (أنظر هامون وغريماس وجينيت).

الأسلوبيين بدلا من اللسانيين. أكد كارل فييتور Karl Viétor في سنة 1931 ما يلي: «لا يملك مفهوم «جنس» استعمالا أكثر توحدا مما هو مطلوب من أجل أن نتقدم في الأخير في هذا الحقل الصعب» (أنظر جينيت وتودوروف(.Ed)، 1986، ص.10) وبعد مضي خمسين عاما ،كتبت دومينيك كومب ما يلي:« مازالت المرحلة تتميز بالتنظير ليس فقط فيما يخص الأجناس المكونة، ولكن أيضا فيما يتعلق بالمفهوم نفسه [...] الذي لا يمكنه دائما أن يتلقى تعريفات موحدة بالرغم من شساعة الأعمال المخصصة له» (1992، ص 6-5). غير أن العوائق بقيت قائمة، وملاحظة فرَايْ التهكمية تحتفظ بطراوتها، فهو القائل: «لم تتجاوز قط نظرية الأجناس الأسس الأولى التي وضعها أرسطو [...]. و بفضل الكتاب الإغريق، باستطاعتنا التمييز بين الكوميدي والتراجيدي في المسرح [...]. وعندما نكون بصدد أشكال متنوعة، مثل القناع والأوبرا والسينما والرقص الكلاسيكي والأسرار الخفية والأخلاقيات وكوميديا الأرتي، نجد أنفسنا تقريبا في الوضعية نفسها التي كان عليها أطباء عصر النهضة الذين رفضوا علاج الزهري لأن غاليان Galien لم يتحدث عنه» (1969 [1957]، ص 25).

أحس الباحثون في الشعرية «الأدبية» بالصعوبات التي تعترض التقدم في مجالهم الذي لا تضيف إليه علوم اللغة الشيء الكثير، كما أحس بها اللسانيون الذين يفتقدون إلى نظريات جاهزة حول النص. وبناء عليه، أوكلوا للزملاء «الأدبيين» قضية الأجناس الأدبية، على إثر انعدام القدرة على معالجتها استنادا إلى النحو.

طرق دراسة الأجناس

هناك مسلكان مهمان لدراسة الأجناس، لأن هناك في الواقع تصورين متعارضين للنص ـ ولو أنه، بالاحتكام إلى نزعة التفاهم السلبي أكثر من الاحتكام إلى التوليفية، نتمنى أن تكون بينهما تكاملية فعلية. يمدد التصور الأول مسالك التحليل النحوي إلى النص، عن طريق عمليات التقطيع لتكوين الخط التركيبي ولطرح نظرية توزيع الوحدات النصية. إن هذا التمديد يصطدم بالطبع بشتى الصعوبات، لأن الماكرو- تركيب يرصد بالفعل وحدات ما فوق الجملة، ولكن هذه الوحدات لا تختلف عن الصور غير المجازية في البلاغة التقليدية. وتعود استحالة تعريف الأجناس في الغالب إلى هذا التعريف الضيق جدا للوحدات النصية. و أخيرا، ظل **النمط** (Type)، و هو المصطلح المنطقي والأساسي بالنسبة للإشكالية المنطقية- النحوية، غير ملائم لوصف

التطور التاريخي للأجناس.

وعلى العكس من ذلك، تتصور الإشكالية البلاغية/ الهيرمينوطيقية العلاقة بين الشمولي والمحلي بطريقة مغايرة. في هذه الإشكالية المطروحة مثلا في الدلالة التأويلية، لا تعتبر دراسة الأجناس توسعا متأخرا، ولكنها نقطة بداية بالنسبة لوصف النصوص ولتكوين المتون.

وتظهر الاختلافات جليا بين الإشكاليات فيما يخص الوحدات النصية. ويسعى التصور المنطقي-النحوي إلى تحويل الوحدة إلى عنصر «معجمي» نصي. و بما أن الجملة تعتبر سلسلة من الكلمات، فإن النص ينتج عن سلسلة من الوحدات(قضايا، متواليات، وظائف). وتأسيسا على ما تقدم، اعتبرت اللسانيات النصية النص متوالية منظمة من القضايا، وذهبت السرديات الغريماسية إلى أن الخطاب تسلسل للوظائف السردية... الخ. هذه الوحدات متفاصلة وقابلة للاكتشاف، وهذا ما يؤكده مثلا مصطلح «متوالية» [263].

لا ينكر التصور البلاغي/ الهيرمينوطيقي الاطرادات، ولكنه لا يرجع بصفة حصرية الأشكال الدلالية إلى التموضعات الزمكانية، لأن هذه الأشكال لا تعد موضوعات بالمعنى التشييئي للكلمة. على الأقل، لا يمكننا استباق الحكم حول شكلها المقترن بالتموضع، وذلك بإخضاعها إلى إجراءات التحليل النحوي(تموضع، تعاوض، سلمية مع توحد في الروابط، تنميط (Typage) مشارك في النسيج العلائقي، وصف صوري للهوية المقولية). في الواقع، يمكن لتمظهرات الوحدات النصية أن تظل منتشرة (تشاكلات وشبكات تشاكلية) أو عاطفية (التيمات).

تُسند الأنطولوجيا المنطقية-النحوية إلى الوحدات النصية الاختفاء والحضور، المطابَقة مع الذات ومع الاطراد، ويكون هذا التوجه على الشاكلة الساذجة للموضوعات المادية. وفي المقابل، يفترض التصور البلاغي/ الهيرمينوطيقي أن الموضوعية التي يؤسسها مستمرة وضمنية وتتغير في الزمان وحسب تواردها وسياقها، كما تعرف فيما بينها لامساواة كيفية ولا تنتمي إلى القواعد نفسها.

263.يستعمل هذا المصطلح في اللسانيات النصية كما في السرديات. ويعتبر تعريف الوحدة بواسطة التموضع المكاني-الزمني وبواسطة التماثل حركة مميزة للأنطولوجيا الكلاسيكية، كما كانت سائدة في التقليد الأرسطي. ومنذ ذلك الوقت، توصف كل ظاهرة معقدة بأنها تركيب للوحدات، ويُنظر إلى الوصف العلمي نفسه على أنه تحليل، وبالتالي يفترض هذا التصور تحديد الشمولي عن طريق المحلي، وعن طريق أشكال مختلفة من التأليفية.

هناك خلاف آخر في هذه المسألة ومرده إلى المنبعين الرئيسيين للمعايير المستعملة في تعريف الجنس النصي، وهما فلسفة اللغة واللسانيات. نعلم أن فلسفة اللغة المنبثقة من الوضعية المنطقية قد قسمت دراستها إلى دلالة وتركيب وتداوليات، مع العلم أن الدلالة والتركيب لا يستعملان مفهوم الجنس. بيد أن التداوليات المنشغلة بالفعل (action) انتبهت إلى الربط بين الجنس النصي والفعل. هل هذا يعني أنه باستطاعتنا تعريفه بتمديد مفهوم الفعل اللغوي (acte de langage)؟ هل الجنس عبارة عن ماكرو-فعل، كما يعرفه مانغونو Mangueneau (أنظر 1990، ص 11-12)[264]؟ماهو الماكرو-فعل الذي يناسب **مصارعي سامسون** *(Samson Agonistes)* أو **الجنة المفقودة** *(Paradise Lost)*؟[265]

خلافا لما هو سائد في التداوليات، تسعى الإشكالية البلاغية/ الهيرمينوطيقية إلى إعادة صياغة الرابط بين النصوص والمحيط الاجتماعي والتاريخي المتحكم في الأجناس والممارسات الاجتماعية التي تحددها. عوض المسلك الدوغمائي الذي يفترض وظائف قبلية للغة، فضلنا إذن مسلكا تاريخيا-نقديا، وثيق الصلة بالتقليد الفيلولوجي في اللسانيات، وهو المسلك الذي يعتبر النص من حيث وضعه وفي إطار متن المرجع.

في الواقع، هناك موقفان متعارضان في تاريخ الشعرية: فإما أن نستخلص عددا قليلا من الأجناس التامة، أو وظائف قبلية من تصور مسبق للغة، ونسقط هذه الشبكة المتعالية على النصوص قيد الدرس، طبقا للإشكالية **المعيارية** (وهي عموما إشكالية ذات جذور منطقية-نحوية)؛ وإما أن نتبنى إشكالية وصفية يمثلها البلاغيون والشعراء مثل كانتليان وبلتيي دي مان Peletier du Mans وسدني Sydneyوفوكلان دولافريناي Vauquelin de la Fresnayeوحتى بوالو Boileau). بالنسبة لهؤلاء ،تظل التصنيفات القبلية للأجناس ناقصة ،ويبحثون في تعداد ووصف الأجناس في عصرهم ،دون البحث عن أمر إخضاعها للمقولات العامة[266]. وسنعيد صياغة مقترحات مطبوعة

264.من جهتها، بحثت كيربرا Kerbrat في إطار تخصصها عن السمات التصنيفية وتبنت «أصناف المبادلات» في موضع ومكان الأجناس، حسب عدد وطبيعة المشاركين وهدف التفاعل ونوع «الصيغة» (1990). تبرز التصنيفات التداولية، سواء كانت تلفظية أو ميكروسوسيولوجية كما هو الشأن هنا، وجهة النظر التمييزية عند جينيت: تدرس الشعرية الأجناس، بينما تدرس التداوليات أنماط القول.

265. **الجنة المفقودة و مصارعو سامسون** مؤلفان دراميان كتبهما الشاعر البريطاني جون ملطون John Milton (1608-1671).

266. وهذا ما لخصه جيدا الشكلاني الروسي طوماشفسكي Tomachevski حول الأدب، إذ قال: «يجب تحقيق

بالاحتراس في هذا الاتجاه في الفقرات اللاحقة.

نحو إعادة تجميع الحقول المعرفية

في واقع الأمر، تظل التفرقة صارمة بين الشعرية واللسانيات، خصوصا في فرنسا، البلد الذي لا تدمج فيه اللسانيات مع تدريس الأدب، اللهم عن طريق النحو الذي تعتريه بعض الشبهات. ومن جهة أخرى، لا تطابق الشعرية، وهي مبحث وصفي، المقولات العلماوية الجاهزة، التي يحبذها اللسانيون حتى وقت قريب. وهكذا، كان تودوروف في الماضي يطرح مقابلة بين الشعرية، المعتبرة بأنها علم الخطاب، واللسانيات، المعرفة بأنها علم اللغة (1968، ص 105) [267]. بالنسبة له، على الشعرية أن تدرس الخاصية الأدبية، طبقا لبرنامج الشكلانيين الروس. غير أن مفهوم الخاصية الأدبية (وهو مفهوم جوهراني (essentialiste)، ورثه الشكلانيون الروس عن الرومانسية الألمانية المتأخرة) لا يسمح بتعميم الشعرية وبدراسة الأجناس في إطارها الاجتماعي واللغوي. ولكن، حينما نتخلى عن البحث الوهمي عن الخاصية الأدبية، تصبح الشعرية ذلك الجزء من اللسانيات الذي يعالج المعايير الخطابية والجينية، طبقا للمشروع السوسيري حول لسانيات الكلام.

الأجناس والتلفظ

الشعرية الديوميدية و«الأجناس» الثلاثة

في الكتاب الثالث من **الجمهورية**، يميز أفلاطون بين المحاكاة الخالصة، التراجيديا والكوميديا، والسردي (المدح) والمحاكاة المختلطة (الملحمة). وتجدر الإشارة إلى أن المحكي السردي *(diegesis)* هو اللحظة التي يتكلم فيها الشاعر باسمه «دون أن يحاول إقناعنا بأن شخصا آخر هو الذي يتكلم» بينما المحاكاة *(mimesis)* تنتج عندما ينقل الشاعر أقوال الآخرين مباشرة. عالج أفلاطون إذن مشكلا أخلاقيا-سياسيا، وطرحه كالتالي: كيف السبيل إلى التوفيق بين سلطة الحقيقة وسلطة الفضيلة، مع التحقق أن كل واحد منهما يتحمل مسؤوليته في أقواله، بدلا من التفريق، كما يفعل البلاغيون

مقاربة وصفية في دراسة الأجناس واستبدال التقسيم المنطقي بتقسيم تداولي ونفعي، مع الأخذ بعين الاعتبار توزيع المعدات في الإطارات المحددة» («Thématique Todorov.in T(.éd) , 1965 p306 »).

267.لا يوقفنا التقابل الاصطناعي بين علم الخطاب وعلم «اللغة»، ولا تستطيع لسانيات النصوص إهمال أي من هذين البعدين: اللغة ليست إلا إعادة بناء معياري للاطرادات المثبتة في الخطاب. أكد سوسير نفسه، وهو الذي عاب عليه النقاد كثيرا تفضيله لسانيات اللغة على حساب لسانيات «الكلام» أو الخطاب، على الخاصية الالتحامية لهذين الجنسين في البحث اللغوي(أنظر سوسير، 2001).

والشعراء بتهكم، بين القول والمتكلِّم[268]؟ لقد جمع أرسطو هذين الصنفين تحت مفهوم المحاكاة، مميزا بالتالي بين المحاكاة المباشرة والمحاكاة غير المباشرة (أو *diegesis*، أنظر *Poétique*، 1460a)، وكان لهوميروس الفضل في إقامة تناوب بين الصنفين. في الواقع، فرق أرسطو بين الأنماط الدرامية والسردية، العليا أو الدنيا، وقد مُثلت بالتراجيديا والملحمة والكوميديا والسخرية؛ ويظل التقابل بين الدرامي والسردي أساسي بالنسبة للتقليد الذي رسخه.

ويعود التمييز الثلاثي للأجناس الملحمية والغنائية والدرامية إلى ديوميد ، في القرن الرابع الميلادي[269]، على الرغم من أنه مُسنَد إلى أفلاطون من قبل تودوروف و مسند إلى أرسطو من قبل باختين وآخرين. وعرفت نظرية هذا النحوي [أي ديوميد] إقبالا فائقا، وقد كانت مستندة إلى استمرارية التقاليد المدرسية، وستستمر خفية إلى يومنا هذا. يسمي ديوميد أجناسا الصيغ المحاكاتية الأفلاطونية، ويرفقها بأنواع نسميها اليوم أجناسا. فمثلا، في *genus imitativum* الذي تتكلم فيه الشخصيات، هناك التراجيدي والكوميدي و السخري. وسيستأنف منظرو شعرية القرون الوسطى هذا العمل ، مثل جان دوغرلاند Jean de Garlande.

ابتداء من عصر النهضة، ستأخذ الثلاثية الديوميدية صورتها المعاصرة، التي تتمثل في الجنس الغنائي[270] والملحمي والدرامي. ونجدها في كل مكان، عند كاسكال Cascales، ادريدان Dryden، ميلطون Milton، هودار دولاموط Houdar de la Motte، بومغارتنير Baumgartner – المؤسس للجماليات–...الخ[271].

نقل فريديريش شليغل هذه الثلاثية إلى المستوى الفلسفي ،مؤكدا أن الشعر الغنائي يكون ذاتيا والشعر الدرامي موضوعيا، ويكون الشعر الملحمي ذاتيا–موضوعيا[272] في

268. وهذا هو أحد الثوابت في تفكير أفلاطون وسقراط: لا تراعي سخرية سقراط فيدر Phèdre عندما تواضع وهو في غمرة حماسه لإعادة خطاب قدمه ليزياس Lysias.

269. أستند هنا إلى التوليف الجيد الذي قدمه جينيت (1986). بطرح مقابلة معيارية بين المحكي والمحكي المختلط (hétérodiégétique)، يعيد جينيت في نظريته حول السرد معيارا أفلاطونيا يتمثل في طرح السؤال: من المتكلم؟

270. يقال غنائي لكل أصناف الشعر غير المحاكاتي.

271. ذهب الأب رابان le P.Rapin إلى حد التأكيد بأن الأجناس تتقلص إلى ثلاثة أجناس من الشعر الكامل، أو أنها أشعار غير كاملة: «تميز الشعرية المعممة بين ثلاثة أصناف من الشعر الكامل، الملحمة والتراجيديا والكوميديا. و تختزل هذه الأصناف في صنفين فقط. يتمثل الصنف الأول في الحركة والثاني في السرد» (1674 ،II،1).

272. تعد نظرية الأجناس وتطبيقها عند ف.شليغل أكثر تعقيدا مما يظهر في هذا التقسيم الثلاثي.

آن واحد. بحيث إن هذا الأخير يطرح جنسا مخضرما، استنادا إلى المعيار الفلسفي. أما أخوه أوغوست فيلهيم، فإنه قد نظم هذا المجال الثلاثي في سلسلة جدلية ينتظرها مستقبل زاهر. لقد اقترح في هذا السياق ثلاثة أصناف وهي الجنس الملحمي والغنائي والدرامي، وتقابلها الأطروحة و الأطروحة المضادة و التوليف (II، 1963 ، ص 306-305). ثم أعادها هيجل في كتابه **الجماليات**، معارضا فكرة شليغل الذي فضل الترتيب التالي: الخطاب الغنائي و الملحمي و الدرامي. ونجد التقسيم نفسه أيضا عند ستيغير Staiger (1946) الذي ميز بين ثلاثة خطابات: الخطاب الشعري والخطاب الروائي ثم الخطاب المسرحي.

«الأجناس» الثلاثة وشعرية المؤشرات

لا يتوقف تاريخ الأجناس الثلاثة هنا، لأنه بعد عامين، طرح وولفغانغ كايزر wolfgang kayser في كتابه *Das Sprachliche kunstwerk* (1948) المعادلة التالية: « يطابق الضمير أنا الجنس الغنائي و أنت الجنس الدرامي وهو (أوهي) الجنس الملحمي. ستعاد فكرة إنشاء تصنيف الأجناس على أساس الضمائر من قبل نظريات التلفظ المعاصرة، التي وسعتها لتشمل مجموع الأمارات التلفظية والأزمنة الفعلية. في مقال مشهور (1966، ص 273 وما يليها) أهملنا أصوله، أقام بنفنست تقابلا بين استعمال المؤرخين (تاريخ الإغريق عند غلوتز Glotz) ومصطلحات الروائيين (*Gambara* لبالزاك)، بهدف التمييز بين نظامين للتلفظ، المحكي والخطاب.

المعيار الذي تبناه بنفنست ظل هو معيار أفلاطون (**من الذي يتكلم؟**). وبخصوص نظام التلفظ الذي سماه محكيا، كتب بنفنست ما يلي: «لا أحد يتكلم هنا». وقد أشار إلى غلوتز (ص 241) [273]كمثال. وفي المقابل، في الخطاب، هناك شخص يتكلم- وهو بالزاك، وظاهريا فالراوي وبالزاك ملتبسان في روايته *Gambara*[274]. وفي هذا السياق، يضيف بنفنست قائلا: «يجب فهم الخطاب في معناه الواسع. فكل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا، وعند الأول هناك النية في التأثير على الآخر بطريقة ما. ونجد أولا تنوع الخطابات الشفوية كيفما كانت طبيعتها وكيفما كان مستواها، ومن

273. يبقى الغموض واضحا بين نظام التلفظ المسمى حكي (histoire)، وهو مفهوم لساني، والتاريخ الذي يعد موضوعا للمؤرخين و الاسم الذي يشير إلى حقلهم المعرفي.
274. يذكرنا هذا بالتقليد الأفلاطوني، الذي يكون فيه الالتقاء بين التلفظ الممثَّل والتلفظ المتحمَّل نقطة حاسمة في الأخلاق.

المحادثة المبتذلة إلى الخُطبة الأكثر تنميقاً. و لكن مجموع الكتابات هي التي تعيد إنتاج الخطابات الشفوية أوهي التي تفترض المنعطفات والمرامي: مراسلات، مذكرات، مؤلفات تربوية، باختصار كل الأجناس التي يخاطب فيها شخص ما شخصا آخر، ويتخذ موضع المتكلم وينظم ما يقوله في مقولة الشخص» (ص 242-241). و يبقى المشكل المطروح يتمثل في الدفاع عن الفكرة الغريبة التي تقول بأن الرواية (أو القصة القصيرة، مثل *Gambara*) تعيد إنتاج الخطابات الشفوية أو تقترض منها المنعطفات والمرامي.

يعيد تعريف الخطاب عند بنفنست التيمة الأفلاطونية التي تقول بتفوق الشفوي على الكتابي (أنظر أفلاطونVII، *Lettres*). وظلت هذه الفكرة أساسية بالنسبة للمدرسة الفرنسية المهتمة بتحليل الخطاب، و مكنت إلى يومنا هذا من طرح مقابلة بين الخطاب، الذي يحدد التلفظ، والنص الذي ينتج عنه[275].

انطلاقا من «العلامات» التلفظية، القليلة والقابلة للنقاش (بما أن أي مؤرخ يمكن أن يقول أنا، والروائي يستعمل الزمن التام مثل ألبير كَامُوفي في **الغريب**، عمد بنفنست إلى مقابلة الجنس (البحث التاريخي وليس التاريخ) بمصطلح الخطاب، الذي يظل هشا، اللهم إذا فكرنا شموليا في مجموعة من الأجناس غير المُعرَّفة بطريقة مغايرة. وهذا الطرح يستدعي بعض الملاحظات والتساؤلات.

ـ هل التلفظ –ولو في التاريخ– لا يفترض متكلما و مستمعا، أو مؤلِّفا وقارئا، ويكون للأول النية في التأثير على الآخر بطريقة ما؟

ـ في كل الأجناس، نجد شخصا يخاطب شخصا آخر، ويضع نفسه كمتكلم وينظم كل ما يقوله في مقولة الشخص. ذلك أن ضمير الغائب لا يفترض ضميرِ المتكلم أقل من افتراضه للمخاطَب. وخلاصة القول، نحن لا نخلط بين الرواة والمؤلِفين، ولا بين التلفظ الممثَّل والتلفظ الحقيقي – الذي ينتمي، على كل حال، إلى السيكولوجيا وليس إلى اللسانيات.

ـ لا ينبثق السؤال الأفلاطوني ـ من الذي يتكلم؟ ـ عند بنفنست من المشكل

275. أنظر غيسبان:Guespin «عُوِّض مصطلح نص، وهو مصطلح فضفاض وغير فعال (ماعدا إذا أردنا البحث عن مصداقيته في عمل د. سلاكطا D.Slakta) بمفهوم الملفوظ والخطاب» (1971، ص 3). ومن بين الأعمال المتعددة التي سارت على هذا المنوال، أنظر فيالا Viala، 1999، 15-12 والمقطع المعنون «الخطاب بدل النص».

الميتافيزيقي والأخلاقي للحقيقة؛ ولكنه يفترض مع ذلك ارتقاء[276] قوله من قبل فاعل التلفظ. وبهذا العمل، فالكاتب لم يأل جهدا في إلحاق التمييز بين المحكي والخطاب بقضايا الموضعة المختلفة التي تترجم بأنماط متنوعة من الانطباع المرجعي.

أما في إطار الشعرية المعمَّمة، فإن القيمة المعيارية تعتبر «علامات التلفظ» مسألة قابلة للنقاش. إذ لا نربح شيئا، مثلا، عندما نخلق صنفا من النصوص مبنيا على الضمير **أنا**، وسيتضمن هذا الصنف مثلا رواية بروست **البحث عن الزمن الضائع** والقسم [باليمين] والرسائل والوصايا. في حين أن النصوص التي تستعمل الضمير هو تجمع بالزاك وتقارير الشرطة. و بعبارة أخرى، لا يمكن البتة لأنماط التلفظ أن تكتفي بتحديد الأجناس ـ ولم يكن بالمناسبة هذا هو الهدف الأولي لأفلاطون وأرسطو.

---

276. لهذا الغرض، يلجأ بنفنست إلى الدلالة اللفظية للضمير **أنا**: «لا يمكن تعريف **je** إلا عن طريق مفهوم «القول»، وليس عن طريق الموضوع، مثل ما هو الأمر بالنسبة للعلامة الإسمية. والضمير **أنا** يعني «الشخص الذي يتلفظ بالواقعة الحاضرة للخطاب الذي يحتوي على «أنا» » (252،I، 1964). من الشخص بالمفهوم النحوي للكلمة ينتقل الكاتب إلى الشخص بمعنى الفرد» هذا الضمير هو «الفرد الذي يتلفظ بوجود الخطاب الذي يتضمن المجرى اللغوي». (ن.م.) يستند هذا الاشتطاط الواضح إلى الشكل الطباعي الذي لا يفرق بين أنا النحوي وأنا الفلسفي، بين الإشارة والمفهوم. ثم إن مصدر شهرة هذه المماثلة المفروضة والتي تتعلق بضمير الفاعل يعود إلى كونها تدقق لغويا في الحكم المسبق الأنطولوجي الذي كان في التقليد النحوي، وراء الخلط بين الفاعل في الجملة وفاعل التلفظ الممثَّل والفاعل «العادي»: و مازال تماثل هذه المفاعيل الثلاثة يشهد على هذا الخلط.

سنترك جانبا الأسطورة العنيدة القائلة بأن الأسماء تمثل الأشياء، وسنقتصر على الضمير **أنا**. إذ حسب الوضعية المنطقية، التي أعادها هنا بنفنست، فإن للمؤشرات مثل **أنا** محتوى مرجعي خالص، وهذا ما يبرر تسميتها، ولكنه مرجعي بخصوص الحالة التواصلية. ومن هنا يبرز الخلاف حول حدود المؤشرات بين الدلالة التي تعالج قضية المرجع، والتداوليات التي تصف الحالة.

تعد فكرة أن أنا تحيل على الشخص الذي يتكلم من المسلمات، ومع ذلك فهي خاطئة، لأنه لا نستطيع الخلط بين الفاعل المتكلم والمتلفظ والمتكلم. ومن جهة أخرى، نعمل دائما على الإشارة إلى ضمائر المتكلم المسندة إلى أشخاص آخرين، أو إلى ضمائر منطوقة من طرف أشخاص آخرين، ونعترض بالقول إن المسألة هنا هي مسألة إشارة (mention) أو تباين أو تعدد أصوات، وهذا ما يفترض ثابتية نظرية الارتقاء الضميري. ومن جهة أخرى، يمكن لمن يتلفظ بالقول أن يحيل على نفسه عن طريق **أنت** (أنظر أبولينير، *Zone*)، وبالضمير **هو**(دوغول *Mémoires*, De Gaule)وبواسطة **نحن**(كاتب هذه السطور نفسه،I، supra)وبواسطة **أنتم** (*La Modification*، Butor) . هناك أيضا تغيرات جد موسعة توجد في الكلام الشفوي .مثلا ،يحيل **أنا** الديداكتيكي أوهو المتنقل على المخاطب. ولكن بالخصوص، يتغير مضمون الضمائر، وهذا شأن السيميمات أيضا، بتغير السياقات و تتغير على طول النص بتغير مضمون العوامل المشار إليها. فالضمير **أنا** الذي يحيل على كومبراي Gombray ليس هو الضمير **أنا** في الزمن المسترجع *(Temps retrouvé)*. وقد يتغير أيضا حسب الخطابات. مثلا، في وصيته، يعمد فيلون Villon إلى تناوب متقن بين **أنا** العاطفي و**أنا** التشريعي. ويتميز هذا الضمير في الأخير بحسب الأجناس. مثلا، عند لافونطين La Fontaine، نشك بأن **je** الموجودة في الخرافات (Les Fables) هو نفسه الموجود في الفقرات المخصصة للدعوات. ربما تكون هذه النقطة الأخيرة محرجة إذا ما سعينا إلى تأسيس تصنيف للأجناس استنادا إلى الضمائر. باختصار، الضمير أنا يعني، دون زيادة، بأن المتلفظ الممثَّل داخل النص متموضع مؤقتا في منطقة هوياتية (أنظر المؤلف، a1996) ونفس الملاحظة تنطبق على **نحن** في حالات أخرى، مثل *la natian française* أو *le Stade toulousin*.

إذا كان بنفنست، شأنه في ذلك شأن الأب رابان P.Rapin، في الماضي يستمد أفكاره، بطريقة مختلفة، من ديوميد و أفلاطون ، فإنه يكتفي بالجنسين الخالصين، الدرامي أو الحركة التي تصير حَكيا، والسرد أو المحكي الذي يتكلم فيه الكاتب باسمه والذي يسمى **خطابا**. دون أن يكون التقليد الفلسفي محط إشكالية، فإن هذا التقابل يظل مبنيا على المعيار النحوي، ويفرض نفسه على الطلبة الذين يجدون أنفسهم مجبرين في امتحانات الباكالوريا على البحث عن «أمارات التلفظ».

كون علامات التلفظ الممثّل تكفي لوصف جنس أو خطاب ما، بل و حتى طبقة عابرة لخطابات الأجناس، أمر مشكوك فيه. الواقع أن العلامات لا تكون إلا جزءا صغيرا من المكونات النصية (بخصوص المستوى الحواري، أنظر أعلاه الفصل الرابع)، و لا يستطيع أي مكون نصي لوحده أن يحدد الجنس الأدبي.

من جهة أخرى، تقود الفرضية القائلة بأن المتكلم يتحمل خطابه إلى نظرة اختزالية للاستعمال اللغوي. و تطرح هذه الفرضية مشكل النزاهة. إذ بما أنها أصبحت غير قابلة للتقرير بواسطة التلفظ المعوج، يُفضّل التلفظ المباشر و التعبير الشفوي و يهمَل كل ما يمكن أن يعيق شفافية التلفظ، مثل قواعد الجنس النصي.

وخلاصة القول، تجد نظريات التلفظ صعوبة في التفكير في مفهوم الجنس الأدبي، لأن فاعل التلفظ هو الفاعل المتعالي في الفلسفة-وليس الفاعل المتموضع في علم النفس و في علم الاجتماع.

التلفظ وتحليل الخطاب

يستدعي الباحثون عادة مفهوم التلفظ لمقابلة النص، المعتبر بأنه إنتاج، بالخطاب المعرف بأنه مجموع الشروط المتعلقة بهذا الإنتاج. وتطابق هذه المقابلة الثنائية الأرسطية بين القوة و الفعل الثنائية الهومبولتية بين الطاقة والمؤلَّف. وهكذا، فوصف الخطاب يعالج النص، وعلامات التلفظ قد تشهد، على سبيل الأثر، على النشاط الخطابي في النص نفسه. و مع ذلك، لا يعرف النشاط الخطابي أجناسا، أوعلى الأقل لا يستدعي الأجناس لوصفها، لأنها معرفة بأنها تعبير خالص لفاعل ما.

يبدو بطبيعة الحال أن التلفظ يتموقع بجانب «الحياة»، لأن «الخطاب» يعد وليد الجنس الغنائي.[277] وتذكرنا الدعوة إلى التلفظ و إلى البداهة الذاتية بأن نظريات التلفظ

277. وهذا ما نجده في الجنس الغنائي الكثير الحماس بل وحتى الظلامي الخفي: فترة سقراط هي الفترة التي عرفت ازدهار القراءات الترميزية للملحمة. فكل الالتواءات المعاصرة (علم النص، السرديات، السيميولوجيا)

المعاصرة مستمدة من تيار المثالية الذاتية المرتبطة بالرومانسية، بينما البنيوية فلسفة منبثقة من التيار الموضوعي.[278]

لكونه مبنيا على دعامات متناقضة، يقيم تحليل الخطاب نظرية التلفظ على أساس الوضعية المنطقية(التي ظلت آنية و بداخلها انتعشت التداوليات) و على أساس أسطورة الحضور، أي حضور فاعل التلفظ، الذي يعد أحد ركائز الأنطولوجيا الغربية. وقد عملت مدرسة تحليل الخطاب الفرنسية، في الواقع، على تطابق نظرية التلفظ مع أهدافها الخاصة، وذلك بالاحتفاظ على الرصيد اللساني الذي رسخه بنفنست؛ ولكن من أجل تحقيق هدف صريح يتمثل في إبعاد المعنى و ربطه بشروط الإنتاج الاجتماعية. وفي نفس النقطة، لم تتنوع المدرسة الفرنسية، بدءا من برامج دُوبْوَا أو غيسبان وغيلهمو وآخرون، 1994، وانتهاء بأدم Adam، 1999، ص86 [(279)].

وبالتالي، فالمدرسة الفرنسية تفترض ارتقاء العبارة بالمتلفظ. أجاب جان دوبوا، في مقال يُعد البرنامج الذي أعطى الانطلاقة الرسمية لهذا التيار النظري، على السؤال: من الذي يتكلم؟ بما يلي: «يفترض تحليل الخطاب أن كل نص صادر من متكلم يتحمله بطريقة أو بأخرى المؤلف وأنه توجد علاقة مباشرة بين فاعل التلفظ ونصه» (1969، ص 118-119) [(280)]. وإن افتراض هذه العلاقة يفرض عدم التمييز بين التلفظ الحقيقي، المعتبر كفعل، والتلفظ «الممثَّل» بالمؤشرات وبمختلف العلامات؛ أو طرح ما مفاده أن

=التي تسعى إلى حمل النصوص التي جمعت في معسكر الأدب على الاعتراف تحت التعذيب، ليس لها أصل. ولكن لم يتم أبدا إرغام جثة على الاعتراف. لا يطفو المعنى اللفظي إلا في التلفظ، ولكنه يفرض نفسه ببداهة (دوبون Dupont ، 1994، ص 108). هذه التيمة الاحيائية ليست نادرة في اللسانيات الايجابية، وهذا ما عبر عنه موقف أورو التي ترى أن «النص المكتوب شيء ميت، لا يمكن من التحاور أو التساؤل أو الانسجام مع السياق» (1996، ص 194). و هذه هي حجج فيدر Phèdre (275c-e) التي أوردها الكاتب ضد تقنيات المعلوميات.

278. قد تستدعي هذه النقطة توضيحا خاصا، ذلك أن الرومانسية الألمانية كانت تؤسس القاعدة الفلسفية للشكلانية الروسية: مثلا، اعترف جاكبسون ، في فترة لاحقة، أنه اقترض من نوفاليس Novalis مفهوم البنية، ويذكر بروب بأن المفتاح التأويلي لكتابه **مورفولوجية الحكاية** يوجد في العبارات التوجيهية، التي اقترضها كلها من أعمال غوته Goethe حول المورفولوجيا.

279. «إن مهمة[...] تحليل الخطاب، في إطار التعقيد الأكثر شساعة، هو إقحام معطيات سوسيوتاريخية في التحليل. و لتحقيق هذا الهدف عليه أن يقترح مقولات ومفاهيم تمكن من التفكير في الشروط النفسية-الاجتماعية للإنتاج والتلقي». ثم إن الوظيفة الرمزية عند باختين هي بالتحديد الإشارة إلى «أشكال الخطاب الملموسة والمرتبطة بعلاقات الإنتاج وبالبنية السوسيو-سياسية» (أدمAdam، 1999، ص 87).

280. تستند نظرية الارتقاء هاته إلى تماثل المتكلِّم، والمؤلِّف والفاعل- المتكلم. ويجب على هذا الفاعل أن يكون مماثلا لنفسه ليؤمِّن استقرار الارتقاء: «**كل تحليل للخطاب يفترض أن الملفوظ متجانس بالنظر إلى الفاعل الذي أنتجه**» (أنظر دوبوا، 1969، ص 119)، هذا « التضمين» المفرط ضروري لطرح ما مفاده أن الإيديولوجية هي التي تتكلم عبر الفاعل ، وهذا ما يعتبر صحيحا في بعض الأحيان، استنادا إلى الشاهد نفسه.

هذه العلامات تشهد بالتلفظ الحقيقي - كما لو أنه - في عبارة ما - كل كلمة وكل علاقة لا تشهد أيضا بهذا التلفظ.

بالإضافة إلى ما سبق، يقابل الملفوظ (النص) التلفظ الذي يحول الملفوظ إلى خطاب: «الخطاب هو الملفوظ الذي يعتبَر من وجهة نظر السيرورة الخطابية التي تفرض عليه شروطا. وبالتالي، فمعالجة نص ما من حيث تنظيمه في شكل «لغة» تجعل منه ملفوظا؛ وكل دراسة لغوية حول شروط إنتاج هذا النص تجعل منه خطابا» (غسبان Guespin، 1971، ص 10). إن «شروط الإنتاج» التي تمكن من المرور من الملفوظ إلى الخطاب هي بالطبع «الإطار المؤسساتي، الجهاز الإيديولوجي الذي يتموقع داخله (الملفوظ)، هي التمثيلات التي تتضمنه، الظرفية السياسية، العلاقة االصراعية، التأثير الاستراتيجي المتوخى... الخ» (روبان ، 1973، وقد تمت إعادة هذه الأفكار من قبل غيسبان، 1976، ص 45)[281].

ولكن، مفهوم **شروط الإنتاج** مقتبَس من المادية التاريخية ومستعمل في تحليل الخطاب بهدف وضع تعال للمعنى إزاء النص، لأن هذه الشروط تدرس من وجهة نظر عملية على أنها تحديدات سببية. ويُنزع المعنى من النص بواسطة الحركات المتوالية (علما أن النص لا يظهر من المعنى إلا العلامات): الحركة الذاتانية، التي تفترض ارتقاء النص-الملفوظ من قبل فاعل التلفظ، والحركة المرتكزة على علم الاجتماع، والتي تُحلل النص بالنظر إلى شروط إنتاجه الإيديولوجية. هاتان الحركتان مجتمعتان تميزان الفرويدية-الماركسية الالتوسيرية (أنظر غيلهومو ومالديدي Guilhaumon et Maldidier، 1979؛ سرفاتي ، Sarfati، 1997).

نفهم إذن أنه بالنسبة لتحليل الخطاب، أصبحت دراسة الأجناس النصية في أحسن الأحوال ثانوية، لأنها مرتبطة ببُعد الملفوظ؛ وفي أسوئها، كانت محرجة، لأنها تفترض ربط العلاقة بالمجتمع من خلال المعايير اللغوية المتداخلة التي تنتمي

281. كان بيشو Pêcheux ، باعتباره منظرا رئيسيا لتحليل الخطاب، يريد توضيح «العناصر المنظمة لشروط إنتاج الخطاب» واستخلص ما يلي: «يوجد في آليات كل تكوين اجتماعي قواعد إسقاط تعمل على تأسيس روابط بين الحالات (التي يمكن تعريفها موضوعيا) والواقع (وهي تمثيلات هذه الحالات)» (1990 [1969]، ص 118). يمكن هذا الإسقاط من إسقاط ما هو اجتماعي على ما هو فردي، أضف إلى هذا أن التلفظ يمكن من إسقاط ما هو شخصي على ما هو لغوي. وهذا يفسر لماذا تعني كلمة موقع هنا موقع طبقي وموقع كلامي. وترتبط العلاقة بين الحالات والواقع بالمادية التاريخية، وهذا ما يفسر أن تحليل الخطاب يستند إلى « تحليل البنية الفوقية الإيديولوجية في علاقتها مع نمط الإنتاج الذي يسيطر على التكوين الاجتماعي قيد الدرس» (بيشو وفوكس Pêcheux et Fuchs، 1975، ص 15)

إليها الأجناس، وليس عبر «شروط الإنتاج»، علما أن الأسباب الاجتماعية الخارجية تكمن في هذه الشروط التي تختزل النص. و بما أن التصور التقليدي للعِلم ينطلق من الأسباب للوصول إلى النتائج، فإن تحليل الخطاب يسعى إلى الانطلاق من النص لاستكشاف التحديدات الاجتماعية والإيديولوجية التي أنتجته.

عمليا، تثير تصنيفات الخطابات حسب المواقع الإيديولوجية تمييزات مثل الثنائيات «خطاب بورجوازي/ خطاب فيودالي؛ خطاب جاكوبي / خطاب «فاضح» (غيلهومو ومالديدي، 1979، ص 19). واستنادا إلى هذه المعطيات، أصبحت الأجناس متغيرات غير ضرورية: « نتقدم مستندين إلى أكبر عدد من الملاحظات الموجودة في ما يسمى «كلاسيكيات الماركسية» التي تحتوي عليها حتما التكوينات الإيديولوجية، وتعد واحدة من مكوناتها، واحدة أو عدة مكونات خطابية[282]، متداخلة، وتحدد كل ما يمكن وما يجب قوله[283] (محقق في صورة خُطبة، قَسَم، عرض، برنامج... الخ) انطلاقا من موقع معين وفي ظرفية معينة (هاروش، هنري، بيشو، 1971، بحث أعيد في غيلهومو ومالديدي، 1979، ص 17). في هذه الإشكالية، تطابق الخطابات أو التكوينات الخطابية مواقع الطبقات (مثلا الخطاب الفيودالي) مهما كانت الأجناس التي يتم التلفيظ بداخلها، إذ يستغل الجنس النصي نفسه، مثل المقالة النقدية، من قبل مختلف الطبقات الموجودة، دون تحديد أو تقديم شروط حول «ما يمكن وما يجب قوله».

ولكن، إذا توقفنا عن البحث عن «شروط إنتاج النص» في الأسباب الاجتماعية الخارجية، فإنها تتمثل بالخصوص في معايير الخطاب والجنس النصي، و هي المعايير التي لا تستطيع ادعاء أن لها وضعاً سيئاً يتمثل في كونها أسباباً. إنها تنتمي ببساطة إلى المستوى السيميائي المتعلق بالممارسة، ولا تختزل في الالتقاء بمستويات أخرى، سيكولوجية أو سوسيولوجية. من هنا، تصبح اللسانيات النصية في الأخير مستقلة عن المستوى السياسي الموكل له قول الحقيقة حول المعنى.

اقتراحات وصفية

المكونات النصية

لتأسيس الإطار التصوري لدلالة الأجناس، يمكن تصور إنتاج وتأويل النصوص كتفاعل غير تسلسلي لمكونات مستقلة: موضوعاتية وجدلية وحوارية وتكتيكية

282.هذه الجمل مكتوبة بالحروف الكبيرة: FORMATIONS DISCURSIVES, CE QUI PEUT ET DOIT ETRE DIT

283. نفسه.

(أنظر الفصل الأول). كل واحد من هذه المكونات يعتبر مصدرا لمعايير تصنيفية متنوعة، ولكنها لا تكفي لوصف الجنس النصي. مهما كانت أهمية الروائز الحوارية أو «التلفظية»، فإنها لا تتمتع بأية سلطة مبدإ. وهكذا، نطرح الفرضية التالية: على المستوى الدلالي، الأجناس هي **تفاعلات مميزة** بين المكونات التي ذكرناها. وتحدَّد الخصائص الفردية لكل نص بالتفاعل الذي يهم مكوناته الدلالية، التي تميز التفاعل التعريفي للجنس. أما على المستوى الدلالي، فإن الموضوعاتية والتكتيك هما المكونان الوحيدان اللذان يعتبران ضروريان في كل نص، وهذه هي الحالة القصوى للتعداد. أما التفاعلات الثنائية الأخرى والمثبتة، فإنها تربط الموضوعاتية والمستوى الحواري من جهة، والموضوعاتية والمستوى الجدلي من جهة أخرى.

توصف **موضوعاتية** نص ما بحسب امتداده، أي بحسب قسط الكون الدلالي المطروح، كما يوصف بحسب تقلُّصه. حينما يرتبط بالتكتيك، يصبح هذا الامتداد خطيا في شكل تشاكلات أو محددا في شكل جزيئات دلالية، ولا توصف الأولى ولا الثانية استنادا إلى موقعها النسبي داخل النص.

عندما ترتبط **بالجدل**، تصبح الجزيئات الدلالية، إثر إضافة السمات الإعرابية النصية، عبارة عن فاعلين أو وظائف، بل وحتى، -بعد المطابقة - تدخل في إطار أطراف الصراع أو المتواليات. أما حين ترتبط بالمستوى الحواري، فإن التشاكلات والجزيئات الدلالية تتموضع في الفضاءات الجهية. وبالنسبة للنصوص السردية، فإن هذا المنهج يمكن من وصف الدوائر الممكنة أو غير الحقيقية للمحكي. بالنسبة للنصوص الوصفية، يمكن المنهج نفسه من معالجة «وجهات نظر» وتقييمات متلاحمة. وتحدد جدلية نص ما بجنس السيرورة التي تحققها، وخاصة حسب ما إذا كانت قابلة للانعكاس أولا، أوكانت ذات سلسلة متوالية صارمة وكاملة. النصوص التطبيقية، أوعلى الأقل تلك التي تصف الإجراءات، لا تستعمل حذف الوظائف، بما أن لها أهدافا تربوية؛ وبالمقابل، تستعمل النصوص الأسطورية هذا الحذف، إذ أنها تقوي الانتماء إلى ثقافة واضحة القواعد. إن السلسلة المتوالية الخاضعة للأفكار النمطية والمرتبطة بالوظائف داخل المكونات الوظيفية تلعب دور المؤول و تُعوض الوظائف المتوقعة و الناقصة.

دُرس المستوى **الحواري** جيدا بالنسبة للنصوص الأدبية، ولكن النصوص الأخرى لم تدرس بما فيه الكفاية. في الواقع، يقود تصور اللغة التمثيلي إلى اعتبار النصوص

العلمية والتقنية بأنها موضوعية، والأهم من ذلك أنها تخضع لهذا التصور وتعدد طقوس التموضع. وعندما ترتبط بالموضوعاتية وبالمستوى الجدلي، فإن التغييرات الحوارية تُدخل تراتبية بين العوالم و التشعبات الزمنية.

حينما يكون المكون التكتيكي مرتبطا بالمكونات الأخرى، فإنه يحدد الإيقاعات الدلالية (الموضوعاتية والجدلية والحوارية) المحددة بواسطة ربط وحدة أو طبقة من الوحدات، وكذلك بسلسلة من المواقع في تركيب المدلول.

يمكن استكشاف التفاعلات الثلاثية والرباعية بين المكونات. لنأخذ مثال تقنية التشويق السردية. يتكون المحكي من خلال التفاعل بين البنية الموضوعاتية والبنية الجدلية. إن الانفصال عن البنية التكتيكية يتم بطريقتين مقننتين: بالاستباق حينما يكشف الراوي في البداية الكيفية التي سينتهي بها الحكي؛ وبواسطة التستر عندما يخفي بداية المحكي حتى نهاية القصة. إن البنية الموضوعاتية والبنية الجدلية تعملان على مقابلة(من بين مقابلات أخرى) التراجيديا بالرواية البوليسية، وفيها يعكس التستر استراتيجيتين حواريتين، وهما استراتيجية الخفاء بالنسبة للراوي، واستراتيجية الكشف بالنسبة للمؤوِّل.

ينبغي دراسة الأجناس في نطاق الخطابات والممارسات الاجتماعية التي تعتبر الفضاء المناسب لهذه الأجناس. إذ باستطاعتنا إيجاد فائدة نظرية في مقارنة البنية الجدلية في إخبارية التوضيب وفي الوصفات الموجودة في كتب الطبخ. و لكن لا يمكننا التغاضي عن كونها لا تنتمي إلى الخطاب نفسه، وليست مؤولة ولا مطبقة بالطريقة نفسها، إذ أن أحسن الطباخين يتبعون إلهامهم. ومن جهة أخرى، تقدم الخطابات عدة أجناس، من الواجب إعادة نسقيتها لفهم خصوصيات كل جنس نصي.

السيميوزيس النصي

إذا كان ما سبق يهم مستوى المدلول، فإن معايير الأجناس على مستوى الدال لها أهميتها؛ غير أن مكونات التعبير، وهذا نقص، لم توصف بالنظر إلى علاقاتها مع مكونات المدلول.

مكونات المدلول	مكونات الدال
الموضوعاتية	إعلامي (مكتوب، شفوي، متعدد السيميائي)
الجدلية	إيقاعي
المستوى الحواري	تطريزي- نغمي
التكتيك	توزيعي (مقاطع)

حسب الفرضية القوية، يطبق شرط التلازم بين مكونين أيضا على مستوى الدال. إذ لتحديد جنس بالنظر إلى هذين المستويين، من اللائق تعيين على الأقل تلازم على مستوى الدال، وآخر على مستوى المضمون. في الواقع، تجمع أوصاف الأجناس «الارتجالية» عادة المعايير المرتبطة بالمضمون وبالتعبير - وهكذا، اعتبر دانتي أن السونيت (Sonnet) هي الجنس الأدبي الأفضل للحروب ولتيمة الحب.

في الشعر الفارسي الكلاسيكي، عند الرومي مثلا، يتميز الغزَل على المستوى الدلالي: بغياب التشاكل النوعي المهيمن على مستوى الموضوعات، وبحديث الراوي باسمه على المستوى الحواري مُكْثِراً من اللعنات، وبحضور كل ما يَدل على الجنس الغنائي، وبغياب السردية، على مستوى الجدل ولكن مع وجود بدائل متناقضة؛ أما في إطار التكتيك، فيلاحظ وجود أنظمة القلب مثل **تعطي/ تأخذ** (أنظر مثلا الرومي، 1999، ص 98-99). أما على مستوى الدال، فيتميز بازدواجية التكرار و بتسلسل الأبيات الشعرية[284] التي تحتوي على البنية نفسها، وكلها تنتهي بتكرار نفس الكلمة. وهذا ما يعطي الانطباع الشامل بأن الدال والمدلول يلتقيان في نفس النقطة. وهو الأمر الذي يتماشى والإيطوس الإستحوادي في هذا الجنس المتميز بالحب والصوفية.

من الناحية التقنية، وبالاعتماد على مناهج التصنيف الآلي، توصل بودوان، في دراسة حول مسرح كورني وراسين، إلى إنشاء تقاطع معايير الدلالة المعجمية (وصف الحقول الدلالية والطاكسيمات) مع معايير التعبير المنتمية إلى التمفصل الأولي والثانوي: طول الكلمات، إيقاع البحر الإسكندري وبنية عروضية لشطر البيت [الشعري] (أنظر المؤلف، 2000، الفصل الثامن). وتوضح هذه الدراسة تلازمات واضحة، و ينظِّم التقاء هذه المعايير حول مفهوم الجنس، وهي مقولة محدِّدة لوصف

284. يستعمل المؤلف مصطلح distiques في النص ويعني «بيتان متكاملا المعنى» (المترجم).

التلازم بين المضمون والتعبير.

تقود دراسة الأجناس إلى طرح مشكل **السيميوزيس النصي**. يُعرَّف السيميوزيس عادة في درجة العلامة بأنه علاقة بين دال ومدلول؛ ولكن لا نتساءل عن الدرجات العليا، كما لو أن معناها يُستنبَط من تأليف الدلالة اللفظية المرتبطة بالعلامات. ولكن الجنس يحدد بالتدقيق العلاقة المميزة بين الدال والمدلول في درجة النص. مثلا في جنس المقالة العلمية، يقابل عادة الفقرة الأولى، في مستوى الدال، مقدمة، في مستوى المدلول. أما في جنس القصة القصيرة، فيتعلق الأمر في غالب الأحيان بالوصف.

إذا أخذنا بعين الاعتبار التحليل المنطلق من المورفيم إلى الجملة، فإننا نلاحظ أن السيميوزيس الضيق المنتمي إلى اللغة في الدرجات السفلى لا يصبح حقيقيا إلا إذا كان مطابقا لمعايير الجنس النصي، بل وحتى لمعايير الأسلوب، التي تؤَمن السيميوزيس النصي[285]. ولهذا، فالكلمة تختلف من كاتب لآخر، ولا تقدم القضية (proposition) النحوية معنى إلا في حقبة معينة، أي كونها فقرة في النص.

إلى جانب أنظمة إنتاج وتأويل النصوص، يحدد السيميوزيس النصي، على ما يبدو، نمط المحاكاة. وحسب القاعدة العامة، تزداد مميزة الروابط بين مستويي النص إذا ازداد أثره في الواقع الأمبريقي أو المتعالي، وهذا ما تؤكده النصوص الوعظية أو الدينية.

في بعض الخطابات، مثل الخطاب الأدبي، يمكن تأسيس معايير إضافية ويمكن طرحها لتكوين «أساليب المؤلفين»؛ ولكن، سواء تعلق الأمر بتدقيقها (أو تخصيصها) أو لأجل الاعتراض عليها، فإنها تستند إلى المعايير الجنسية.

باختصار، يُنقل مشكل اعتباطية العلامة إلى درجة النص بالنسبة لما يمكن أن نسميه، مؤقتا، **اعتباطية النص**. وتنتج الاعتباطية عن الالتقاء العارض بين البنيات الأجناسية في مستوى المدلول ومستوى الدال[286]. ولكن، حتى محتوى مفهوم

285. إذا كان نسق اللغة، من منظور اللسانيين، لا يحدد السيميوزيس النصي، فإنه مع ذلك يفرض عليه قيودا في الدرجات القليلة التعقيد. في درجة المورفيم، تقترح اللغة تحالفات من قبيل دال/ مدلول (مثلا، السابقة re- في الفرنسية تدل على التكرار). في درجة الوحدات المعجمية، الكلمات هي أصلا وحدات «الخطاب»، وربطها بمورفيماتها مقعَّدة بواسطة التركيب «الداخلي»، بحيث إن دلالتها اللفظية ونمطية السيميوزيس مرتبطة بالسياق. في درجة المكون والجملة، يكوِّن التركيب النمط التعالقي المفضل بين الدال والمدلول، إذ ينتمي التركيب إلى الدال من خلال الصرف-تركيب و»البنيات السطحية»، وينتمي إلى المدلول عن طريق «البنيات العميقة»، التي تنتمي إلى مستوى المدلول (الأدوار الإعرابية...الخ).

286. مثلا، يتكون الموشح الغنائي الفرنسي من عدد قار من المقاطع، ولكن عدد أبياته غير قار، ولا يكون تقريبا سرديا. أما الموشح الغنائي الأنجلوساكسوني، فإن له مقاطع غير قارة، ولكن عدد أبياته لا تتغير، ويكون على

الاعتباط يتغير حالما نمر من إشكالية العلامة إلى إشكالية النص. في الواقع، تنحدر اعتباطية العلامة من الحادث التاريخي الذي يربط المدلول بالدال. ولكن في درجة النص، ينبغي التخلي عن مفهوم الاعتباطية وعن التمييز العتيق بين الطبيعة *(phusei)* والتوافق *(thesei)*، بحيث إن الكل يعد توافقا في ثقافة ما. فالنص لا يملك من الشرعية الداخلية إلا معاييره، وبالخصوص جنسه - ونفس الشيء بالنسبة للمواضيع الثقافية الأخرى.

من الأجناس إلى التناص

أدبيات ومنهجية

يستدعي توسع اللسانيات المقارنة ثمانية مشاريع تصنيفية: 1-تصنيف اللغات، طبعا، 2-بما أن كل لغة تعرف، في مختلف مراحل تطورها التاريخي، استعمالات خاصة بأصناف من الممارسات الاجتماعية، فلابد أن يتكلف تصنيف الخطابات العلمي (العلمية والأدبية والتشريعية... الخ) بهذا الموضوع 3- كل حقل معرفي يتوفر على عدد محدد من **الحقول الأجناسية** (مثلا، المسرح في الأدب) 4-تنقسم الحقول الأجناسية إلى أجناس تحتوي على تصنيف يعالج تنوع النصوص الخارجي. 5- يعالج تصنيف **النصوص** بعد ذلك تنوع الأجناس الداخلي. 6- يدرس التصنيف الذي يستهدف أجزاء النص المقاطعَ (Sections)، وهي أجزاء النص المحددة بروائز التعبير وتمظهراتها- وهي أجزاء النصوص المحددة بواسطة روائز المحتوى. 7- يعالج تنوع المورفولوجيات الداخلي علاقة القرابة بين النصوص، بمعزل عن الأجناس. يوجد في النصوص «معجم» خاص بالأشكال الدلالية، يكون بعضها مرصود ومرتب حسب التقاليد البلاغية والشعرية، وحسب الصور غير البلاغية مثلا، ولكن البعض الآخر غير مسمى، مثل **الجزيئات الدلالية**؛ باستطاعة هذا التصنيف أن يعلو على الحدود اللغوية (مثلا، التطريزات الفولكلورية). 8-وأخيرا، يميز **تصنيف الاستعمالات الأجناسية طبقات** من المستعملين أو «الأساليب»[287].

العموم سرديا. لقد اعتبرت الشعريات الجوهرية والمعيارية، مثل شعرية بوالو Boileau هذه العوارض الجنسية كتوافقات مؤسسة طبيعيا؛ وهذه الفكرة غير خاطئة، إذا أطلقنا اسم طبيعة على العادات الملازمة لكل مجتمع.

287. مثلا، وهذا ما أشار إليه سويور Sueur (1982)، في إجابات مفتوحة على أحد التحقيقات، استعمل المتكلمون بدون دبلومات، على مستوى الشفوي، الضمائر بكثرة والنفي و أفعالا يفوق عددها المتوسط. أما أصحاب الدبلومات في التعليم العالي، فإنهم يستعملون عددا أكبر من الأسماء ومن الصفات (النعوت). في *Romances sans paroles*، يستعمل فرلين Verlaine ضمائر المخاطب أكثر (أربع مرات) من رامبو Rimbaud في *Illuminations* ...الخ.

على الرغم من أنها تكون مختلطة في أغلب الأحيان ، فإنه يمكن تمييز ثلاثة تصورات للجنس الأدبي: **الطبقة والصنف والسلالة**.

أ-على التصور المنحدر من **الطبقة** أن يواجه كل مشاكل التصنيفات العادية ، وأقلها يتعدى مشكل تغير الروائز. بالفعل، كانت هناك محاولة لإصلاح هذا التصور، وذلك باستعمال مفهوم «محيط العائلة». وفي هذا الطرح خطورة تتمثل في تكثير وإضعاف الروائز دون امتلاك الوسائل الكفيلة بإقامة تراتبية بينها[(288)].

ب-ينبغي على التصور **التصنيفي** أن يصف العلاقة بين النمط و التواردات[289]. غير أن أنواع النصوص تعد نماذج افتراضية، و تواردداتها لها معنى لأنها تُحيِّن النمط مثلما تبعده. للتذكير، لم تستطع أية نظرية للأنماط تكوين دلالة تغيرات التواردات إزاء الأنماط. لقد أقحمت نظرية النماذج (Théories des prototypes) الضبابية (Flou) في التصنيفات، ولكن دون التوصل إلى نعت هذا التغير، لأنها لا تصف العلاقة بين الأمثلة المحورية والهامشية إلا بالقياس الكمي لعدد السمات (la cue validity)[(290)].

ينتمي التصور الأول والثاني [أي الطبقة والصنف] حول الجنس الأدبي إلى الإشكالية المنطقية-النحوية، بحيث يعود الأول إلى المتخيل التقسيمي للنحو والثاني إلى المنطق.

ج-يعتبر التصور الثالث النص «جيلا» داخل سلالة إعادة الكتابات. وفي ثنايا **الأجناس**، يعتبر ما سمي **بالأجناس الفرعية** سلالات جينية مخصصة. مثلا، منذ

288. لا نركز هنا على مفهومي **اللعب اللغوي** أو **محيط العائلة** اللذين يبدوان غير دقيقين لتحديد تصور رابع للجنس. المفهوم الأول غير خاص بالنصوص، شأنه في ذلك شأن مفهوم الفعل في اللغة. أما المفهوم الثاني، فتعود شهرته إلى عدم دقته، وهذا ما جعل البعض يستعمله في جميع السياقات.

289. في الفلسفة، «التوارد» هو الظهور المحلي للعلامة، و»النمط» هو العلامة نفسها. في الجملة التالية: أكل ال-ولد ال-تفاح-ة ، هناك 6 كلمات و ال- تظهر مرتين في الموضع الثاني و الرابع. أداتي التعريف «ال» تعتبران تواردات لنفس الكلمة النمط. والتمييز بين النمط والتوارد جد مهم في الدلالة التي اقترضته من فلسفة الذهن. وهكذا، يتحدث الباحثون في هذا المجال عن الأنماط و التواردات المرتبطة بالحالات الذهنية. وفي اللسانيات، تنتمي الأنماط إلى اللغة (أو إلى القدرة) بينما تنتمي التواردات إلى الخطاب (أو الإنجاز) . ويُدرس هذا التمييز في ثلاث مستويات: في مستوى الكلمة، يمكن من الفصل بين التعبير القانوني ومتغيراته الخطية و الصوتية وبين الدلالة المعيارية ومتغيراتها السياقية .و لمعالجة العلاقة بين المعنى كنمط ومختلف المقاصد في السياق ،اقترضت الدلالة المعرفية من علم النفس مفهوم النموذج .في مستوى الجملة ،هناك تمييز بين الجملة كنمط والقابلة لتأويل حرفي ،و الملفوظ القابل لعدة تأويلات مشتقة .وهكذا ،تؤول الجملة التالية «الجو بارد» بالجملة « أغلق النافذة» . وهذا التحليل يحيل على التداوليات. وفي مستوى الجملة، تعتبر الأجناس أنماطا والنصوص تواردات. أنظر
Olivier Houdé (sous la direction de),1998, *Vocabulaire des sciences cognitives*, PUF, pp.440-441 (المترجم).

290. للمزيد من التفاصيل حول نظرية النماذج، أنظر بحثنا لنيل دكتوراه الدولةLexicographie arabe vers un dictionnaire cognitif، 2002، كلية الآداب، الرباط، الفصل الثاني (المترجم).

ظهور La Celestina، قلد كتاب الروايات التي تصف المغامرات بعضهم البعض ؛ وقد فتحت *l'Alcadia* لسنزار Sannazar[291] الطريق لانطلاق سلالة الرواية الرعوية[292] في أوروبا... الخ.

يختلف وضع الأجناس، مثل العلاقة بين النصوص وأجناسها، حسب الخطابات: في الخطابات المعيارية، تنتج النصوص وتؤول على نمط الثبات (الاستمرار)، مثل إنتاج وتأويل التواردات على نمط النمط؛ أما في الخطابات المبنية على المعايير المجتمعية وفي الخطابات غير الخاضعة للمعايير، فإن النصوص تنتج وتؤول مثل تحولات تمس أصولها.

يفترض قياس التنوعات التفكير في الروائز. ذلك أنه حتى لو افترضنا أنها مؤسسة، فالتقابلات مثل **خيال/ لا خيال** تنقصها الدقة وتفصل، على الأرجح، بين طبقات الخطاب وليس بين الأجناس. ولهذا سنحترس من الخلط بين «أصناف النصوص» والأجناس، إذ إن أصناف النصوص هي عموما طبقات لا تستند إلا على رائز واحد. مثلا، رأينا أن الأجناس الشهيرة عند ديوميد لا تتغير إلا بروائز التلفظ الممثَّل.

سنأخذ مثال ترتيب الأنواع دون الادعاء بأن الأجناس الثقافية تشبه الأجناس الطبيعية. إذ ما قيمة نظرية تجمع القطة والاخطبوط والعنزة تحت ذريعة أن هذه الحيوانات العليا لها بؤبؤ مائل أفقيا؟ التصنيفات التي تمنح الخاصية التحديدية للرائز الواحد، مثل تصنيف بنفنست، تقوم مع ذلك بهذا الإجراء، وتظل تصنيفات معيارية- وهي مصحوبة بحجج أقل صلابة من تلك التي توجد في *le Lévitique* [أحد الكتب المكونة للعهد القديم (التوراة)]، عندما رتب الحيوانات حسب ما إذا كانت تملك قوائم

---

291. نورد هنا أهم النصوص الروائية المعروفة، التي يتكون شخوصها من الرعاة، وقد صدرت في القرنين السادس و السابع عشر الميلاديين:
- *Eclogae piscatoriae* لسنزار ()باللاتينية).
- *Arcadie* (1504) لسنزار.
- *Les 7 livres de Diane* (1559) لجورجي دي مونتيمايور.
- *Aminta* (1573) لتوركطو طاسو.
- *Le berger fidèle* (1590) لجيوفاني باتستا غاريني (مسرحية).
- *L' Astrée* (1607) لأونوري دورفي.
- *Sylvanie* (1625) لأونوزي دورفي.
- *Le berger extravagant* (1627) لشارل سوريل (المترجم).

292. مؤلف بوفيزاج *Beauvisage* (2001) هو مثال أقل نبلا ولكنه حديث الصدور، وقد وضح في دراسة إحصائية للتغيرات الصرفية-التركيبية كيف أن جان باتريك مانشيط Patrick-Jean Manchette أعطى في فرنسا انطلاقة السلالة الجنسية التي قادت إلى التفريق بين البولار (Polar) والرواية البوليسية.

مشقوقة أو تتوفر على زعانف.

حينما ألحقنا نظرية الأجناس[293] بتصنيف النصوص، نسينا أن نشير إلى أن تعريف صنف من النصوص مقترن بالمحلل. من أجل قضية أو تطبيق، يمكنه اختراع صنف ما يـمكنه من تقسيم المتن: مثلا رواية بضمير المتكلم **أنا** أوبضمير الغائب **هو**، نصوص طويلة أو قصيرة، نصوص ما قبل أو ما بعد 1945، مثل ما هو معمول به في الخزانة الوطنية في فرنسا... الخ. ينتقد المعارضون لدارسة الأجناس هذا المنهج مستندين إلى نسبية إن لـم نقل تفاهة هذه التصنيفات. إذا افترضنا أنه كان بإمكان التصنيف أن يتحمل مبدأ المتعة، فينبغي على نظرية الأجناس أن تحترم مبدأ الواقعية، لأنه لا ينبغي للباحثين في الشعرية أن يخلقوا الأجناس.

بالفعل، على الشعرية أن تنتج وتقيِّم سلمية الروائز الوصفية، ولكن عليها أن تبحث بالخصوص في تفاعلاتها. الواقع أن الأجناس محددة بواسطة شبكة من الروائز. وللتذكير، تكمن خاصيتها الموضوعية في تعددية هذه الروائز. ينظم تماسك شبكة الروائز، على مستوى المدلول وعلى مستوى الدال، النصية ويحدد السيميوزيس النصي. ويحلل التطور الدياكروني لهذه الشبكة تطور الجنس، بينما تظل «أصناف» النصوص المؤسسة على رائز واحد في وضع مناف للتاريخ.

وبـما أن الأجناس خاضعة للخطابات، فإن وجود الأجناس العابرة للخطابات يظل محط شك، لأن مجاورة أجناس أخرى (أو إذا تعلق الأمر بأجناس مضمنة، وبسياقات أخرى للتضمين) تكفي لتغييرها. إذ إن المثل الشعبي مثلا ليس له المعنى نفسه في خطاب يرتكز على اللعب أو في خطاب تشريعي؛ ولا يوجد تقريبا أي قاسم مشترك بين الرسالة التجارية والرسالة الشخصية المرتبطة بالخطاب الشخصي، لأن التلازم بين المحتوى والتعبير يظل مستندا إلى عدة روائز لتحديد الجنس[294]. في الواقع، لا يوجد أي تصنيف للنصوص مبني على روائز مستقلة عن الأجناس (مثل شفوي/ كتابي، عمومي/ خاص... الخ)، بإمكانه عزل الأجناس. مثلا، خلصت محاولات الترتيب الآلي التي قادها ببير Biber إلى تغيرات جد مهمة حسب المتن، ولكن دون التوصل إلى

293. مقابل كلمة genre هو «نوع» ولكن عمدنا إلى ترجمتها «بجنس» تماشيا مع المصطلح المفضل لدى النقاد (المترجم).

294. يبدو مشروع التصنيف العابر للخطابات وهميا: مثلا، لا يمكن تشبيه النص التقني بالنص العلمي؛ فحتى في الخطابات القريبة مثل الخطابات العلمية، لا نقبل الأجناس المقارنة، لأن لكل حقل معرفي تقاليده ومعاييره.

عزل الأجناس[295].

سيعترض البعض قائلا إن الجنس ليس إلا صنفا من بين عدة أصناف، بل إنه «جنس من الأصناف». سيحسم في القضية عندما يتم إنتاج شبكة من الروائز القارة والمنسجمة المستقلة عن كل معرفة مسبقة للأجناس والخطابات، التي لم تتقاطع لا مع الأجناس ولا مع الخطابات، والتي لها ملاءمة نظرية وتطبيقية. و هكذا، أعطيت انطلاقة التحدي، وسيصبح تصنيف النصوص مستقلا عن نظرية الأجناس. ولكن لا تطبق الروائز التصنيفية الجديدة المقترحة في لسانيات المتن بصورة فعالة إلا بمراعاة اختلاف الأجناس، ويتعين عليها توكيدها عوض دحضها.

وكما طرحنا في فرضيتنا، دراسة الأجناس هي التي تسمح بتحديد ملاءمة الروائز، وكل تصنيف ناجع للنصوص مستمد من تصنيف الأجناس. ومع ذلك، حول هذه النقطة، تختلف المهمة العلمية الخاصة باللسانيات عن المهام التقنية (ديداكتيكية ...الخ)، ومن أجلها يمكن أن نسلم بتصنيفات متنوعة، كما تختلف عن مهام الحقول المعرفية الأخرى مثل السوسيولوجيا والتاريخ واللسانيات النفسية.

ستبحث دلالة الأجناس في روائز التلازم بين المكونات الدلالية، مثل الروائز التي نورد بعضها للإشارة فقط: موضوعاتية منفتحة/ مغلقة، مركزة/ منتشرة؛ بنية جدلية منظمة، غير منظمة، غير واردة، موجَّهة نحو هدف إيجابي أو سلبي؛ حوارية تقوم بتغيير (أو لا تقوم بذلك) منابع (foyers) التلفظ والتأويل الممثَّلَين: تكتيك وارد أو غير وارد... الخ.

إن التأليف بين المكونات لا يعد حرا قط، لأن العديد من التركيبات الممكنة غير مؤكدة. مثلا، لا نصادف في أي مكان في تاريخ هذا الجنس القصائد(ballards) غير السردية، التي تحتوي ربما على عدد متغير من المقاطع الشعرية، والتي يكون عدد أبياتها قارا، أو أيضا، مثل ما لاحظ زومثور Zumthor، كان بالإمكان إعادة البنيات السردية في أغنية الحائكات ، نظريا، في الحكايات الخرافية، ولكنها ظلت متسمة بخصوصياتها. ولكي تظهر على أنها طارئة، فتركيبة السمات التعريفية للجنس لم تكن أقل إلزامية.

إن نسق الأجناس أو التجمع الأجناسي مرتبط بالخطاب. وكل مجموعة من

295. استنادا إلى تحليل متعدد الأبعاد، درس ببير Biber (1939) التواردات التي تجمع 67 سمة صرفية- تركيبية في الكلمات الأولى (وعددها ألف) لمختلف النصوص الإنجليزية المعاصرة، للنقاش، أنظر مالريو وراستيي، 2001.

الممارسات الاجتماعية المطابقة لخطاب ما تنقسم إلى أنشطة خاصة (مثلا، لجنة الرسالة الجامعية، المحاضرة، الدرس، تصحيح أوراق الامتحان... الخ)، وكل نشاط له أجناسه. على سبيل المثال، في الخطاب الطبي، يمكننا التمييز بين الأجناس المكتوبة التي يتوفر عليها بروفسور في المستشفيات أثناء ممارسته المهنية، إذ إن هناك ثلاثة أجناس: ملخص الملاحظة السريرية، المقال العلمي والرسالة الموجهة إلى زميل.

ولربط الأجناس بالخطابات، تتحدد مهمة الشعرية المعممة في دراسة تجميع الأجناس، في تخصصاتها وفي تطوراتها المشتركة. و في هذا الإطار، مازلنا في بداية الأبحاث. وقد أظهرت التجربة أن طلاب الآداب، بل وحتى أساتذتهم، ينزعجون حينما نطلب منهم جرد الأجناس التي يستعملونها. وتتفاقم الصعوبة حين نلاحظ أن كل الخطابات ليس لها النظام الجنسي نفسه. إذا تمكنت الخطابات من التأثير فيما بينها والتشارك في سمات داخل ما يسميه فوكو البيستيمي، فإن كل نسق أجناسي يظل مع ذلك مستقلا ويتطور حسب قوانينه الخاصة، وهذا ما تشهد به تطوراتها الدياكرونية المختلفة.

يُطرح مشكل تجميع الأجناس ويُنقل، حينما ندرس العلاقات بين الأجناس في مؤلف لكُتاب مارسوا العديد منها. مثلا، عند بريمو ليفي Primo lévi، تُقحم الأشعار في الشهادات والروايات والكتابة الفكرية، على أنها شواهد وتفاسير. كما تمكن هذه الأشعار من إقامة تواصل بين موضوعات هذه المؤلفات ذات الأجناس المختلفة ومن استرجاع وحدة كونها الدلالي، رغم أنها تعالج تيمات خاصة، لم يكن بالإمكان ظهورها في الأجناس الأخرى. حينما تكون كل قصيدة مقيدة بجنس من التناص الخاص بالمؤلف، فإنها تشير في كل كتاب إلى حضور قصائد أخرى. بتدوين هذه القصائد، استطاعت القصيدة التي تحمل عنوان «**في وقت غير مؤكد**» *(ad ora incertra)* (1984) من ربط محكيات الشهادة مثل قصيدة «**وإذا كان رجلا؟**»*(se questo é un uomo)* (1957)، و قصيدة «**الهدنة**»*(La tregua)* (1963)، بمحكي الأسفار مثل « **إذا لم يكن الآن، فمتى؟**»*(se non ora, quando ?)*(1989) وببحث فكري مثل «**الغرقى و الناجون**»*(I sommersi e i salvati)*(1986).

يمكننا اعتبار الجنس كمستوى قاعدي لترتيب النصوص، وذلك لثلاثة أسباب متداخلة:

أ-لا توجد أجناس عليا (ليس هناك جنس الأجناس)، لأن روائز تجميع الأجناس هي الخطابات والممارسات التي تطابقها. وهكذا، تقود المقولات التعبيرية الكبرى ، مثل النثر أو الشفوي إلى تجميعات واهية (إذا أخذنا مثال الشفوي، من المحادثة العادية إلى المرافعة، فإن الشفوي لا يتمتع بالطبع بوحدة أكثر من النثر).

ب-إن أجزاء الأجناس نفسها مرتبطة بهذه الأجناس. مثلا، الوصف الاستهلالي في القصة القصيرة في القرن التاسع عشر ليست تواردا بسيطا للوصف.

ج-الأجناس الفرعية، مثل رواية «التكوين» أو الرواية البوليسية معرفة بمختلف التقلصات التي تهم إما مستوى التعبير (مثلا الرواية المحتوية على مجموعة من الرسائل، الرسالة المكتوبة بالأبيات الشعرية) وإما مستوى المدلول. يجب تمييز هذه الأجناس الفرعية حسب المكونات المطروحة، أي المكونات الموضوعاتية والجدلية بالنسبة للرواية البوليسية، والمكونات الحوارية بالنسبة للرواية الفانطاستيكية والمكونات التكتيكية فيما يخص السونات التمهيدية... الخ. سنتجنب اعتبار الروائز الطارئة. وبناء عليه، تعتبر الرواية في القرن التاسع عشر إبداعا أكاديميا خالصا[296].

من المتن إلى التناص

الدراسة المتأنية للأجناس تمهيد لتكوين المتون المستعملة كليا في إطار مهام تتعلق بالوصف اللغوي. وكيفما تكون الروائز المختارة، لا يمكننا الحصول على نتائج مهمة في دراسة متن غير متجانس، لأن خصوصيات الأجناس تُلغى انعكاسيا، ويستحيل تأويل التنافر الذي يمكث بهدف دراسة النصوص. غير أنه، مع تطور الرقمية، نجد أنفسنا، في غالب الأحيان، أمام نصوص غير متجانسة، مثل المتون الصادرة عن نفس المقاولة الصحافية (أنظر إيللوز وآخرون، حول يومية لوموند)، بل وحتى المتون الأخرى المدونة على الشبكة.

تتوقف بالطبع المسارات التأويلية داخل المتن نفسه على الأدبيات التي أشرفت على تكوين المتن، وكذلك على أنماط التناص. وتتمدد المسارات التناصية المفضلة بالدرجة الأولى بين نصوص من السلالة نفسها، ونصوص من الجنس نفسه، وبعد ذلك بين أجناس من الخطاب نفسه. إن العلاقات بين الخطابات لا تعد بتاتا مباشرة، ولكنها

296. سنظهر الكيفية التي يقسم بها مؤلَّف جامعي المسرح: «الجنس الدرامي: ويضم التراجيديا والكوميديا و الفكاهة والكوميديا ديلارتي و المسرحية الهزلية الخفيفة- الكوميديات المتخصصة: وتشمل الكوميديا- البالي و كوميديا السلوكات و الكوميديا البطولية و كوميديا العادات- أما الدراما، فتحتوي على الدراما البورجوازية في القرن 18 والدراما الرومانسية و الدراما الرمزية و الميلودراما.

تمر دائما عبر التنقلات (أنظر مثلا صورة الخطاب القانوني في روايات بالزاك).

تهيمن الروابط داخل الجنس على الروابط بين السلالات. أما في داخل الخطاب، فتفترض العلاقات التي تربط جنسا بآخر عمليات نقل (المحتوية على التضمينات وعلى الشواهد... الخ). مثلا، عند بريمو ليفي، يمكن الاستشهاد بالنشيد 26 من **الجحيم** لدانتي في الفصل 11 المعنون ب «**وإذا كان رجلا؟** من إقامة رباط مع قصيدة **الناجي** *(Il) superstite* التي تستشهد بواسطة التلميح بالنشيد33 الذي يترك آثاره في الفصل نفسه، أي الفصل 11. غير أن المسارات التناصية ،سواء الجينية أو التأويلية ،تتأسس تفضيليا بين نصوص من الجنس نفسه[297].

نقاش حول لسانيات الأجناس

لم ينسلخ النقد الأدبي بعد من الرومانسية المتأخرة. بعد كروس Groce، الذي ندد، وفق جماليته المثالية، بوجود تصنيفات خاطئة في الأجناس، ومنها التصنيفات المتموضعة بين كونية وتميز المؤلفات، جاء بارط الذي دعا في كتابه **لذة النص** إلى محاربة اللهجات الجماعية ذات الذوق الخشن. ذلك أن النص، الذي كان يعتبر المؤلَّف الرمزي، والذي يخلق جنسه الخاص، سيظل غير قابل للمقارنة [298]. اللجوء إلى التصنيف غير مستحب. لذلك نجد البعض يصرح بأنه مستحيل أو غير نافع، استنادا إلى التيار الحداثي، أي التصور المطروح بعد الرومانسية، والذي يؤكد على رغبة المبدعين في أن يصبحوا غير قابلين للتصنيف. سيكون هذا الرفض غير مبرر بالنسبة للنصوص الأدبية القديمة، وكذا بالنسبة للنصوص التقنية والعلمية... الخ.

---

297. لا تأخذ الدراسات اللغوية حول نسق اللغة بعين الاعتبار تغيرات الجنس، بحيث إن كل نص فرنسي ينتمي إلى متنها. إذا كانت الدرجة الدنيا من التجانس هي وحدة اللغة، فحتى خارج الأبحاث اللغوية «الموحدة»، تظل الأبحاث المتداخلة الخطابات مشروعة. لنقارن روسو في اعترافاته حول امرأة تتعمد إخفاء اسمها : «لم أكن حتى في حاجة إلى الملكية :كانت تكفيني المتعة؛ وقد قلت وأحسست لمدة طويلة أن المالك والمتمتع هما شخصان جد مختلفان ،وحتى وأننا نترك جانبا الأزواج والمحبين(Livre V، p.72) »؛ وفي جنس آخر مخالف، كتب برودون ، في تقديم كتاب بعنوان*Qu'et-ce que la propriété* 1840، ص 157 ما يلي: «إذا كان بإمكاني استعمال هذه المقارنة، المحب متمتع (possesseur)، أما الزوج فهو مالك». لم يكن بإمكان البحث المقتصر على النصوص الأدبية أن يسمح بملاحظة الحضور الواسع لهذا الطوبوس.

298. بالنسبة للمورفولوجيات التاريخية، تعرف الأجناس التطور «اللاماركي» بدلا من التطور «الدارويني». على الأقل في الخطاب الأدبي، فتاريخها متقطع بفعل الاكتشافات الفردية. بينما في التقليد العتيق، كانت إشكالية التقليد والمنافسة هي الأقوى، منذ عصر النهضة، مع تكوين صورة المبدع المعاصرة و كانت علاقة المؤلف بالجنس دائما خاضعة لتأكيد الفرد-العبقري. وهكذا، يرى جيوردانو برونو Giordano Bruno في كتابه*les Fureurs héroïques* أن الشعراء يخلقون الأجناس [الأدبية] وليس العكس. وسيتم تطوير التيمة البروميثيوسية لخلق الأجناس من قبل الرومانسية، وذهب فريدريك شليغل أحيانا إلى حد التأكيد بأن عدد الأجناس يساوي عدد المؤلفات. سيستعيد هذا القول الذي أصبح مبتذلا طراوته مع الطليعة المعاصرة.

في ثنايا الشعرية واللسانيات، واجهت نظرية الأجناس اعتراضات مختلفة، وسنعالج أطروحتين بالتتابع. الأطروحة الأولى تفترض أن الأجناس محددة بوظائف اللغة، والأطروحة الثانية ترى أنه توجد أجناس أولى؛ وسنتطرق إلى أربع اعتراضات: الاعتراض الذي يخص التأشير (النص لا يشير إلى جنسه)، الاعتراضات التي تهم الغياب أو تعدد الأجناس(يمكن لنص ما أن ينتمي إلى عدة أجناس أو أن لا ينتمي إلى أحد منها) ؛ وفي الأخير، سنتطرق إلى الاعتراض الخاص باللاتجانس، أي أن النص يتقلص إلى وحدات من درجة دنيا، وهذا ما يجعل التصنيف عملية وهمية أو غير أساسية.

وظائف اللغة والأجناس الأولية

إذا كانت **وظائف اللغة** تحيلنا على أنثروبولوجيا الأجناس غير التاريخية، المرتبطة بفلسفة اللغة، فإن الأطروحة القائلة بوجود **أجناس أولية** تحيل على الأنثروبولوجيا التاريخية، شريطة أن ينتمي مفهوم الأصل إلى الحقل المعرفي نفسه.

كانت الشعرية المثالية المنتمية إلى المدرسة الألمانية متناقضة مع نفسها حينما كانت تؤكد على تاريخية الأجناس، مستعملة مقولات متعالية[299] لتصنيفها، وبالتالي فهي مقولات لا تاريخية، مثل ما كان عليه الشأن بالنسبة للأجناس الديوميدية.

تصطدم التصنيفات الوظيفية المعاصرة بنفس الصعوبات، لأنها تُعرِّف الأجناس بالنظر إلى وظائف قبلية للغة. إن المدارس الوظيفية، وخصوصا المدرسة الإنجليزية (مع هاليداي Halliday) والمدرسة البراغية (مع جاكبسون) التي طورت هذه التصنيفات، ترتكز على الأطروحة الفلسفية الدائمة والتي مفادها أن اللغة أداة[300] - وليست جزءاً جوهريا مرتبطا بالوسط السيميائي الذي نعيش فيه. وتُعدد هذه المدارس إذن أجناس الاستعمالات الذي يمكن للإنسان أن ينجزها بواسطة اللغة، وتكمن الغرابة في أنه لا يحتفظ إلا بالقليل منها. بعدئذ، ميز لونغاكر Longacre أربعة أجناس من الخطابات: الخطاب السردي والإجرائي والاستعراضي والوعظي؛ وميز دو بوغراند de Beaugrande ودرسلير Dressler ثلاثة أنواع من الخطابات: الخطاب الوصفي والسردي والحجاجي، مع العلم أن هذه الوظائف تهمين بصورة متفاوتة في الأجناس النصية الثلاثة التي

299. يرى فييتور Vieter (1931) أن هذه الأجناس الثلاثة تقابل ثلاثة مواقف أساسية عن الإنسان.

300. ينحدر تعريف الأجناس عن طريق المقولات التلفظية من أحد أشكال الوظيفية: إنه يرتكز على ما يسميه بوهلر Bühler **الوظيفة التعبيرية** ليعطي الأساس اللغوي لوجهة نظره المتعالية.

ميزوها (النص الأدبي والشعري والعلمي). أما فان ديك، فاكتفى بخطابين: السردي والحجاجي، وقد عرفها بأنها خطاطات نصية أو بنيات عليا[301]. إن الخطاب السردي والوصفي يعتبران من أنماط التمثيل، وهما معرفان على هذا النحو منذ شعرية أرسطو. كما أنهما يقابلان الخطاب الإجرائي والحجاجي اللذين يعدان نمطان للحركة التي تقع على الأشياء والعقول على التوالي، ويتقابلان بطريقة ما مثل الفعل وفعل الفعل[302].

يصدر كل نص عن «مقدار» معين من هذه الوظائف. مثلا، يلاحظ أن مختصر المحادثة يُكَون نصا إجرائيا وإيعازيا. وبناء عليه، تحدد الأنواع الوظيفية طبقات مؤسَّعة وتجمع نصوصا غير متجانسة. إذا كنا مثلا نرتب مجموعة من النصوص يهيمن عليها الحِجاج، فإننا سنتمكن من ربط أطروحة الفيلسوف بمرافعة المحامي. وهكذا، فتوصيات مبادرة تشفير النصوص (Text Encoding Initiative) (TEI)[303] تميز بين أربعة وظائف وهي: **المحادثة والإقناع والإخبار والتعبير**[304]، ويتم توجيه (modulées) هذه الوظائف بمختلف الدرجات. ومن بين الأمثلة المقدمة من قبل المؤلفين، نستغرب لكون المحادثة العائلية والرواية لهما نفس الصيغة الوظيفية (محادثة: درجة عليا؛ إخبار: درجة وسطى). ويظل الرابط بين التشكلات النصية والوظائف غير متوقع، والسبب أن البرهنة يمكن أن تكون فظة وتشارك بالتالي في الترفيه؛ ويمكن للوصف أن يتميز بوظيفة برهانية... الخ. من جهة أخرى، لا يمكننا استخلاص وظائف لغوية مزعومة انطلاقا من الممارسات المتنوعة التي يُطرح فيها النص.

باختصار، تعلو التصنيفات الوظيفية على التقسيمات (الخطابات والأجناس) دون التمكن من تأسيسها. يبقى أن تؤسس وظائف اللغة، هذا إذا كانت تتوفر عليها، بالاستناد إلى التصنيف البينثقافي: لماذا يكون للغة الوظائف نفسها في كل زمان وفي كل مكان، بينما تشفر الثقافات استعمال اللغة نفسها تشفيرا متسما بالتنوع؟

301. يمكننا طبعا تخيل وظائف أخرى، مثلا الخاصية الديداكتيكية التي تميز، حسب باكو ومورانet Beacco Moirand، الدرس اللغوي والمقالة التبسيطية والمحاضرة في كوليج دوفرانس والشرح العفوي لوصفة أكلة (أنظر برانكا روزوف Branca-Rosoff، 1999، ص 15).

302. نصادف مرة أخرى هنا المحاور الرئيسية لنماذج كبرى وغريبة في الدلالة اللفظية، المبنية على التمثيل وعلى القصد. و تستعمل هذه النماذج ببساطة من الناحية الاثنو-مركزية، وهذا لا ينقص من قيمتها الوصفية حينما يتعلق الأمر بالنصوص النابعة من ثقافتنا، ولكن لا تصفها لتأسيس تصنيف يدعي الكونية.

303. حول TEI، أنظر أعلاه، الفصل الثالث.

304. بالإنجليزية في النص: entertain , persuade ,infrom ,express (المترجم).

بتخلينا عن الفكرة القائلة بأن اللغة تحدَّد بعدد صغير من الوظائف القبلية، يمكننا وضع مشكل وظيفة الأجناس وعلاقتها ببنية النصوص. إذا كان كل جنس يشغل وظيفة خاصة في ممارسة اجتماعية، فإن كل نص يحددها؛ مثلا، في الخطاب المتعلق بالأكل، كل الوصفات لها وظيفة ديداكتيكية، ولكنها ليست، مع ذلك، متكافئة... وتتغير وظائف النصوص المثبتة بحسب الممارسات الاجتماعية، وعددها يظل غير متوقع. وحينما نخلق، في الحالات الجديدة، أجناسا جديدة، فإننا سنخلق دون توقف وظائف لغوية جديدة.

ينعكس تحقير الكتابي في سلالة الأجناس، عندما نحدد لها أصلا في النصوص الشفوية، بحيث يُفترض أن الأجناس المكتوبة مشتقة من الأجناس الشفوية. وهكذا، ميز باختين الأجناس الأولية والأجناس الثانوية قائلا: «تظهر أجناس الخطاب الثانوية - الرواية والخطاب والمسرح و الخطاب العلمي والخطاب الإيديولوجي... الخ - في إطار التبادل الثقافي (وهو مكتوب بالأساس) - والفني والعلمي والسوسيو-سياسي - أكثر تعقيدا، ونسبيا، أكثر تطورا. في مرحلة سيرورة تكوينها، تمتص هذه الأجناس الثانوية وتحول الأجناس الأولية (البسيطة) التي تكونت في ظروف التبادل الكلامي العفوي. وعندما تتحول الأجناس الأولية إلى مكونات للأجناس الثانوية، فقد تعترضها تحولات وتمنح لنفسها ميزة خاصة. إذ تفقد علاقتها المباشرة بالواقع الموجود وبالواقع المرتبط بملفوظات الآخرين» (1984، ص 267). هذه الفرضية الفلسفية مستوحاة على الأقل من الأنحاء العامة التي اقترحها فلاسفة فكر الأنوار. إذا كانت تنقصنا المعطيات، فعلى الأقل يمكننا صياغة بعض عناصر التفكير:

أ-لماذا يكون للأجناس «الأولية» المفترضة بعض التفوق، ولماذا يمنحها سبقها التاريخي المفترض حمولة سببية؟ يمكننا الشك في النظرية التي ترى أن الأجناس الأولية تسهل العبور إلى الأجناس الثانوية.

ب-إذا أخذنا بعين الاعتبار الأوصاف الاثنولوجية والإثنية-المنهجية، فإنه لا شيء يدعو إلى افتراض أن المحاورة الشفوية التي ينظر إليها على أنها «سهلة» و«عفوية»، ليست دائما خاضعة للطقوس. إن العفوية قيمة فردوسية.

ج-الأجناس المكتوبة غير مشتقة من الأجناس الشفوية. وفي هذا السياق، كيف سنعالج تذكرة السفر بالطائرة وورقة الضمان الاجتماعي...الخ؟

د-ليس للشفوي علاقة متينة بالواقع مقارنة مع المكتوب -اللهم إذا كنا نخلط بين الواقع والحالة، أو كنا نحدد الحالة في ما هو آني، مثل ما كان معتادا عند مؤيدي الوضعية. لماذا يتمتع الجنس الشفوي مثل الدعابة بعلاقة حسنة مع الواقع أكثر من الوصية؟ يبدو أن الأجناس المكتوبة تعد مادة إضافية لأن اللسانيات أسست اللغة على نسيان هذه الأجناس. ومع ظهور ممارسات جديدة، تُخلق بدون توقف أجناس جديدة، أجناس شفوية ومكتوبة، مثل مونولوج المساكين في مقصورات قطار الأنفاق [الميترو] والمراسلات أو الرسالة المسجلة على المُجيب الآلي. وهذه أجناس لا تدين بأي شيء للأجيال السابقة.

ومع ذلك، فنسالة الأجناس تظل مشكلا مفتوحا يضاف من دون شك إلى نسالة اللغة[305].

بعض الاعتراضات

حول بعض الأجناس التي لا يشار إليها على أنها أجناس

تسعى النظرية الرومانسية إلى جعل الرواية جنسا مستعليا عن الأجناس الأخرى، من *La Lucinde* لشليغل، إلى **البؤساء** لهوجو، وصولا إلى **أوليس** لجويس... الخ. وكما وضح الكاهن في الفصل 37 من **دون كيخوط**[306]، فإن اختلاط الأجناس خاصية مرتبطة بالروايات، والشك يمتد إلى محتوى المؤلفات مثل ما يمتد إلى الاسم الذي نعطيه لها.

لنبدأ بالاسم. هناك استراتيجيتان تعملان على زرع الشك: عدم وضع اسم رواية على غلاف الروايات، أو وضعه على الكتابات المتنوعة - سُميتْ *Igitur* دراما، و اتخذ مؤلِّف سوليرس (**جنة**) اسم «رواية» كعنوان صغير. الاستراتيجية الأولى هي الأكثر كلاسيكية. من بين 250 رواية ظهرت في فرنسا في الفترة ما بين 1700 و 1715، حسب إحصائية دولوفر Deloffre، لم تعنون أي منها باسم **رواية**، ولكنها كانت تسمى **حكايات** أو **مغامرات**، حسب ميولها إلى الواقعية.

305.نسالة (phylogenèse): مبحث يهتم بتكون الأنسال وتطورها (المترجم).

306. فيما يخص روايات الفروسية، ارتأى الكاهن أن «الكتابة المفككة تخلق مؤلِّفا له القدرة على الظهور على أنه ملحمي، عاطفي، تراجيدي، هزلي» . يتم التأكد من رشاد الكاهن من خلال تعب النقاد؛ وهكذا لاحظ ألاسطير فولير Fowler Alastair ما يلي: «احتوت «الرواية» أجناسا أخرى من النثر الخيالي. و يمكن للجنس الأدبي، بهذا المعنى، أن تكون له قوة توحُّد ضعيفة». بالفعل، لم تعد الرواية توظف على أنها جنس عادي» (1982، ص 118).

لقد لاحظ جينيت، عندما صاغ بعض الشكوك حول إمكانية تصنيف الأجناس، ما يلي: «في كل الأحوال، النص نفسه غير مطالب بالتعريف، وبالتالي التصريح، بخصوص صفته الجنسية؛ لا يشار إلى الرواية بصراحة على أنها رواية، والشيء نفسه بالنسبة للقصيدة» (1992، ص 12). و يمكن تمديد هذه الملاحظة دون عناء. مثلا، المختصر المخصص لاستعمال Word 98 لا يعنون ب **مختصر الاستعمال** ولكن يسمى **كن ناجعا مع وورد (word) 98** [307]، وكلمات **أوراق نقدية** غير مكتوبة على الأوراق النقدية... الخ. وحدها سونية أورونتي Oronte تسمى بهذا الاسم: إذا كان النص لا يبرز جنسه الأدبي، فإنه لا يعني أنه لا يملكه.

كون النص لا جنس له أو كونه يملك عدة أجناس

الأمثلة المتنازع عليها مكونة عموما من الأدب، ففي الأدب تنتمي صعوبة التصنيف إلى لعبة المثقف. تحسر جينيت على كون تحديد الجنس «ضمني ومحط نقاش (مثلا: إلى أي جنس تنتمي الكوميديا الإلهية ؟» (1992، ص 12)؛ سؤال أساسي يفرض على القارئ التدقيق، دون التوصل بالضرورة إلى نتائج، في الأنظمة المحاكاتية والهيرمينوطيقية للنص. وبهذا الصدد، يعد مثال دانتي أكثر وأقل إقناعا في الوقت نفسه. فهو أقل إقناعا، لأن كلمة كوميديا نفسها كانت مختارة، من بين عدة أسباب، للإشارة إلى مزج الأجناس، أو على الأقل مزج الأنغام[308]. وفي المقابل، فهذا المؤلَّف ينتمي حقيقة إلى جنس [أدبي]، جنس الرؤية، المشترك مع الخطاب الصوفي. و لكن، استنادا إلى حداثته، فتح الباب أمام سلالة جنسية و كان هو أول من سينتسب إليها لاحقا، كنموذج غير متجاوز[309]؛ بحيث ينقل هذا المؤلَّف بالفعل الرؤية من الخطاب الديني إلى الخطاب الأدبي، ومن اللاتينية إلى اللغة الشعبية. وبناء عليه، استنادا إلى الأطروحة المشتركة القائلة بأن المؤلَّف الكبير[310] يخلق جنسه الخاص، لا يجب علينا

307. être efficace avec Word 98 (المترجم)

308. يستعمل دانتي النغم المنخفض بالنسبة للجحيم، والمتوسط بالنسبة للمطهر والعالي بالنسبة للجنة – مثلا، يشير في هذه الأماكن إلى رجل عجوز بكلمة *vecchio*، *veglio* و*sense* على التوالي في رسالته إلى كانغراندي (Cangrande)، ويوضح من جهة أخرى أن كلمة كوميديا تطبق على محكي يسير في اتجاه التحسن، عكس التراجيديا.

309. وهذا هو السبب الذي جعل الأجيال اللاحقة تنعت هذه الكوميديا بالإلهية.

310. تمتد هذه النقطة إلى الفنون الأخرى، مثلا، *In Nomine*، وهو جنس إنجليزي متعلق بفانطازيا الاغتصاب، ومتكون على أساس تطريز الغناء المرتبط بالقداس الممجد للتثليث عند دجون طافيرنير John Tavernner.

أن نفهم أن المؤلِّف يجعل الجنس الأدبي مفهوما متجاوزا، ولكنه يعيد خلق جنسه بسلالة إعادة الكتابات التي يفتحها وبالتحولات غير القابلة للتراجع والتي يفرضها على جنسه.

الاعتراض القائل إن النص نفسه يتلقى عدة تصنيفات وينتمي إلى عدة أجناس يستحق أيضا المناقشة. طرح أدم Adam مثال رسالة زولا المعنونة «أتهم» : «سنستند إلى هذا المثال لنؤكد منذ اليوم أن النص قليلا ما يكون أحادي الصنف. التركيب الجنسي مكن الرسالة من أخذ شكل نص موجه إلى أعلى هيئة قضائية في الدولة، ومن التدوين في صحيفة تضخم مسألة تحمل الكاتب لأفكاره وذلك بتوسيعها في تحريرجريدة. وفي الأخير، مكنت البلاغة القانونية من الدفع إلى الأمام بالفعل غير القانوني للاتهام الذي أقدم عليه زولا «عندما وجهتُ هذه الاتهامات، لا أجهل أنني أضع نفسي تحت ضربة البند 30 و 31 من قانون الصحافة الصادر في 29 يوليوز 1881، والذي ينص على معاقبة جنحة القذف. وأعرض نفسي لهذه الجنحة عن طواعية» (أدم، 1999، ص 37). في الواقع، لا تملك الروائز التي تسمح بالعديد من التقسيمات نفس الوزن.إذ أن نشر رسالة في صحيفة يعتبر أمرا عاديا؛ وكونها تعبر عن تحدي قضائي، فهذا يعد أيضا جزءا من موارد الجنس. و هكذا، فالوصف الصحيح للجنس النصي يُنظم مجموع السمات الخاصة بالنص وعلى الخصوص حينما يخرق المعايير.

تميز الخطابات أجناسها بدقة. مثلا، في الخطاب القانوني، لا يمكن الخلط بين الاتهام والدفاع، بين القرار [الرسمي] ونص القانون؛ وفي الخطاب التقني، ليس هناك أي غموض بين مختصر الاستعمال وقسيمة الضمان،... الخ. لقد بعثر مؤخرا الخطاب الأدبي الغربي بعض الحدود بين أجناسه الخاصة، ولكن هذا التوجه لا يعتبر حاجزا أمام برنامج الشعرية المعممَة.

ومع ذلك، يبقى التفكير في الأجناس مرتبطا بالأنطولوجيا الرومانسية، التي كانت تطرح شكلين من الكلية: فردية المؤلِّف، ومنها يشتق المفهوم العصري للنص كبنية مغلقة، وكينونة التناص (أو النص الجامع) الذي يعطي القيمة لكل الأدب. الجنس النصي، مفهوم غير صاف، وتاريخي، ومتذبذب، لا ينتمي إلى أي من هذين المستويين للانطولوجيا، لأنه لا يعد فريدا مثل المؤلِّف، كما أنه لا يعد كونيا مثل التناص. وفي إطار تصور النص على أنه عمومية نسبية، وطبقة بسيطة وخالية من أي تأثير على

النصية، ألحق بعضهم الجنس الأدبي بإشكالية النص الجامع، والنص «مسلوب»من هذا النص الجامع، كما لو أن النص الجامع غير مؤسس على نصوص أخرى، وبالدرجة الأولى على نصوص من الجنس نفسه.

إشكالية التباين (Hétérogénité)

قُدم تباين النص على أنه فرضية[311]حتى أنه أصبح محددا للسانيات النصية نفسها. ومع ذلك، تظل هذه الفرضية رومانسية بالمعنى القوى للكلمة، لأنها لا تصلح إلا للرواية، التي اعتُبرت الجنس الرمزي للرومانسية. وتابعت النظرية الباختينية (حول الرواية) التي تنحدر بوضوح من الجماليات الرومانسية تأثير هذه الفرضية، عاملة على إخفاء مصدرها، لأسباب بديهية تعود إلى الإحساس بالوطنية وإلى اللياقة السياسية.

إذا كان التباين خاصية تقليدية تميز الجنس الروائي المعاصر، فإنه لا يُضعِف مع ذلك مفهوم الجنس، حتى بالنسبة للرواية. بالفعل، اختلاط الأجناس فكرة في صالح الأجناس. و قد حُددت العديد من الأجناس الأدبية من جراء تباينها: تعنيSatire مثلا الخلط،(sature) مثل كوميديا[312]. وفي الأخير، نلاحظ أنه، استنادا إلى الصورة، يعتبر المشوي-المختلط (le mixed-grill) طبَقا، وليس خليطا من الأطباق؛ أساليب نابليون الثالث، البيدرماير أو الأسلوب الما بعد-حداثي هي أساليب مركبة، ولا تعد - مع الأسف- مؤشرا على غياب الأسلوب. باختصار، لا تستطيع القيمة الأدبية الحديثة المتعلقة بتباين كل نص أن تكون حاجزا أمام مشروع الشعرية.

خارج الممارسات اللعِبية أو الأدبية، تظل الأجناس المركبة قليلة جداً، لأن جل النصوص تحترم المعايير الصريحة: تقارير حول الأنشطة، الأمر بمهمة، دون الحديث عن الصكوك [البنكية] والأوراق المرقمة. كيف سنتعامل مع التباين الملاحظ في مختصر التوضيب؟

سنميز عموما بين معنيين للتباين. ذلك أنه إذا كان الأمر يتعلق بعدم المساواة الكيفية بين مقاطع النص، فإن الأطروحة مبتذلة ولكنها حقيقية. وإذا كان الأمر متعلق

311. لنأخذ المثال المطرد الذي قدمه أدم :«النص بنية تسلسلية متباينة بالأساس» (1990، ص 117). «هدف اللسانيات النصية بسيط: استعمال التحليل اللغوي إلى ما يفوق الجملة المركبة وأزواج الجمل، ورغم أن هذا التوجه يبدو جد صعب. كما أن الهدف يتمثل في القبول بالتموقع على حدود ما هو لساني بغرض معالجة تباين كل تأليف نصي» (1992، ص 20). «نموذج البنية التأليفية الذي أقترحه، والذي دشن قطيعة مع فكرة تصنيف النصوص» (1996، ص 31).

312. يبدو أن الأجناس المركبة مصنفة عادة على أنها وضيعة، مثل المنتوجات الخاصة بالقوانين التي تأتي من الخارج، بينما الأجناس المتعالية تكون متماثلة.

بمصادر متنوعة، فإن هذا خاطئ بالنسبة للعديد من الخطابات، ولكنه مبتذل بالنسبة للخطاب الأدبي، وفيه يعيد النص كتابة نصوص أخرى.

المتواليات والوحدات النصية. - سندقق في وضعية اختلال المساواة بين الوحدات. قبل أن تكون مقتصرة على بعض المجازات، كانت البلاغة تعرِّف الوحدات في درجة الحقبة أو الفقرة بأنها صور غير بلاغية، ومثال ذلك الوصف أو الحوار. وقد أعيدت الحياة بصورة ضمنية إلى نظرية الصور غير البلاغية، التي كانت تسمى **متواليات**. وهكذا، اقترح أدم تعريف النص كما يلي: «النص بنية تراتبية معقدة تحتوي على العديد من المتواليات – المضمرة أو الكاملة - من الصنف نفسه أو من أصناف مختلفة» (1992، ص 91، التعريف رقم 2)[313].

الرهان النظري مهم. وفي هذا الإطار، يطرح السؤال التالي: هل يمكن اعتبار نص ما تأليفا لأجزائه، الشيء الذي يمكن من تمديد المبدأ المنطقي-النحوي حول العملية التأليفية ؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن النصية ستحدَّد في درجة الماكرو-تركيب؛ واستنادا إلى هذا المعطى، سمى أدم المتواليات أصنافا نصية. واستمر إذن الاختزال النحوي للنص حين تم تحديد المتواليات ذاتها بواسطة تركيبات الوحدات المنتمية إلى المستوى السفلي، والمستوى البين-جملي، وخصوصا«أمارات التلفظ». وينتهي هذا الاختزال بتحديد الأجناس على أنها أصناف مرتبطة بتسلسل المتواليات. تمكن الروائز النحوية التي يرتكز عليها في رصد أمارات التلفظ من معالجة النصية، وحتى التناص المتعلق بالأجناس.

دون الإشارة إلى مشكل كونية المتواليات التقليدية في ثقافتنا، تظل سلطتهما الرائزية محط نقاش على أكثر من مستوى.[314]

أ) وظيفة المتوالية لا تعد معطى لذاته. مثلا، يعتبر وصف الطبيعة في بداية فيدر Phèdre مدحا للطبيعي، الذي يهيئ نقد الخطاب الضمني المصطنع عند ليزياس Lysias.

ب) تختلف المتواليات حسب الأجناس والحقول الأجناسية. إذ يختلف الوصف

313.مهما كان جنس النص، فالمتواليات المحتفظ بها تنتمي إلى خمسة أو ستة أجناس: سردي ووصفي وحجاجي وتعليماتي-إيعازي وشرحي-استعراضي وحواري-محادثاتي. سنوضح لاحقا علاقتها بنظرية وظائف اللغة.

314. خالفنا النص الأصلي وفضلنا الرجوع إلى السطر لتقديم كل فكرة (من أ إلى هـ) (المترجم).

الروائي عن الوصف الشعري؛ في الشعر، ليس هناك أي قاسم مشترك بين السخرية والرثاء. و لا يقتصر الأمر على تحديد المتوالية، لأن العمل المتبقي يتجلى في وصف الشيء الذي يمكن من القول إن هذا الحوار أو هذا الوصف روائي أو شعري. بالفعل، ترتبط استعمالات المتواليات بالجنس، ولكنها لا تحدده. فمثلا، يوجد الحوار في الشعر الساخر أو الخفيف، ولكن لا يوجد في الشعر الغنائي.

ج) يُعتمد الاعتراض نفسه بقوة عندما يتغير الخطاب: الوصف السريري [من طرف الطبيب] لا علاقة له بالوصف الروائي.

د) إذا كانت المتواليات وحدات مُعرِّفة، فإنه يتعين علينا ترتيب الرواية المستندة إلى الرسائل والرواية المتضمنة للحوار في تصنيفات مختلفة.

هـ) و تكملة لما سبق، فالرسالة المقحمة في الرواية هي صورة جنس أدبي داخل جنس آخر، ولا تعد مجرد إقحام.

باختصار، مفهوم المتوالية غير نافع لتعريف الجنس ولكنه يكمله في الدرجة التحليلية الدنيا ؛ و أكثر من هذا، **الجنس النصي هو الذي يحدد المتواليات** وليس العكس. ذلك أن هذا الطرح يعد أثرا عاديا للمبدأ القائل بأن المحلي يحدد الشمولي. وبناء عليه، يمكننا الاعتماد على التأليفية الجنسية. إذ لا يعرَّف الجنس بالنظر إلى متوالياته، بالمعنى الذي يختزل ببساطة في الأثر الذي يحدثه تأليفها. في الدرجة المزو دلالية والماكرو-تركيبية، يتعين على لسانيات النصوص بالطبع أن تصف التشكيلات (Configurations) المطابقة للصور غير البلاغية [315]. إذا كانت الأمارات «الصورية» تستطيع أن تساعد على رصد هذه التشكيلات، فإنها لا تقتصر على «علامات» التلفظ الممثَّل. وهكذا، مثل ما نجد في نص الخبير التربوي ، يمكن أن يشير إلى حالة خاصة وإلى حالة مطردة وحالة غير مُثبتة،... الخ (أنظر المؤلف وآخرين، 1994، الفصل السابع).

315. نفضل الاحتفاظ بالمعنى السردي لكلمة متوالية ، ونسمي **تشكيلات** هذا الجنس من الصور غير البلاغية، التي ينبغي تفصيلها، بالطريقة الموجودة في بعض «ألعاب اللغة» حسب فتغنشتاين Wittgenstein: تقديم مثال وإقحام مستملحة،... الخ. أحسن المقدمات حول المشكل موجودة في شيشرون Cicéron، XXXIX 136-134، *L'Orator* (sed sententiarum ornamenta maiora sunt) الذي يقدم الصور غير البلاغية «ليس كأشياء، عبر أسماء الذوات الإغريقية المنحدرة من اللغة الخاصة والمشيئة، ولكن بواسطة أفعال، لاتينية، متداولة، مثل العديد من الحركات ومن العمل المتقن الذي ينبغي على الخطيب أن يتقمصه...» [أعيد هنا ما قاله فراسوا دوي François Douay من خلال مكالمة شخصية]. التشكيلات هي إذن حركات نمطية للتلفظ الممثَّل، وتنتمي إلى المستوى الحواري.إنها بالفعل أفعال لغوية، ليس بالمفهوم الأوستيني، الذي يفترض فاعلا فلسفيا، ولكن بالمفهوم اللغوي المرتبط بالمواقع التلفظية الممثلة: أي شخصية ما أو خطيب أو راوي، مثل ما هو عليه الأمر في المقال العلمي، حيث يضع الكاتب فقرة في الهامش أو يقدم مثالا.

يبدو التباين، الذي طُرح كمبدأ، مفهوما مصطنعا نابعا إما من نظرية توليفية (أنظر رولي Roulet، 1991، ص 120)، أو من تركيبة من وظائف خالصة أو مقولات خالصة **معرفة قبلا**[316]. فحتى في الأجناس المتعددة الأشكال و في الأشكال العاطفية مثل الرواية، لا ينتمي النص إلى أجناس متعددة، ولكن إلى جنس متميز بتشكيلاته غير المتجانسة.

التضمين من حيث هو انتقال :

يمكن اعتبار مع ذلك الصور غير البلاغية أو **التشكيلات** أجناسا مُتضمَّنة. ويبدو هذا التضمين عاديا بالنسبة للأجناس المتضمَّنَة التي تدرج عادة في الصنف الغامض المرتبط بالمحيط النصي. يفترض عادة العنوان والإهداء والتوطئة وهوامش الكاتب وجودَ مؤلَّف - حتى وإن كان باستطاعتنا التلذذ بقراءة قوائم العناوين[317]. وتخضع هذه الأجناس المتضمَّنة لمعايير دقيقة مثل المعايير الأخرى، بحيث لا يخضع عنوان رسالة (traité) لنفس القواعد التي تتحكم في عنوان أطروحة أو كتاب فكري.

يمكن للأجناس الأخرى أن تتخذ شكلين للوجود، الشكل المستقل أو الشكل غير المستقل، سواء كان الجنس منفردا أو متضمَّنا. مثلا، يعتبر وصف هيئة الإنسان أوالرسالة أجناسا تقحم أو تنقل إلى الرواية؛ وهكذا، قام بوسي رابوتان بتطعيم روايته **حكاية الغال الغرامية** بالعشرات من الرسائل وأوصاف الهيئة. وقد ساعدت هذه الإبداعات على خلق شكل الرواية الفرنسية الكلاسيكية. و لم تكن هذه الأجناس الاجتماعية (الجنس الأول خصوصي والثاني كان مقيدا بالصالونات) مندمجة كليا في الخطاب الأدبي الذي كان في طور الإصلاح.

وهنا نصطدم بمسألة دقيقة، وهي قضية الروابط بين الأجناس المضمَّنة والأجناس المتضمِّنة. الجنس المتضمِّن لا يدمج إلا صورا منقولة من الجنس المضمَّن. وهكذا، فالرسائل الموجودة في الروايات المبنية على أساس الرسائل لا تنتمي إلى الجنس نفسه الذي تنتمي إليه الرسائل الموجودة في ديوان المراسلات. ولا تحتوي بطبيعة الحال على الشكل نفسه فيما يخص النصية، ولا على الخطاب نفسه - فالخطاب الخاص أو

316.كل واقع غير صاف، وقد كان الصفاء النحوي يقف دائما في وجه الممزوج.

317. أفكر في العناوين التي تعبر عن برامج بالزاك، مثل ما هو متوقع دائما في تشريح هيئات التدريس. لقد فاز باتريك رامبوPatrick Rimbaud بجائزة الكونكور لأنه كتب الرواية التي تنقص بالزاك والتي كان من المتوقع صدورها بعد العنوان البالزاكي: **المعركة**.

الشخصي يختلف عن الخطاب الأدبي، حتى وإن كان هذا الأخير خطابا حميميا[318]. ونجد مثالا ذكيا للتنقلات في وصفة الحبار الممزوج بالشمر التي أقرضها جيونو Giono في **رحلة إلى ايطاليا** لنادل من البندقية. ذلك أنه قلب في آن واحد قواعد المطبخ، بما أن الوصفة تشير إلى علاقات النادل مع بائعة الخضر ومع بقالة، كما تشير أيضا إلى محكي يهم السفر، لأن المحكي البيوغرافي الذي يتضمن الوصفة يعد شبه خيالي[319].

وبالإضافة إلى ذلك، يمكن القول إن الأجناس التي تتضمن حوارات الأجناس المستقلة والتي تمثل الرواية نموذجا لها هي أجناس عاطفية. مثلا، **في الحياة، طريقة الاستعمال** *(La vie, mode d'emploi)* التي يشار لها بعنوان صغير روايات (بالجمع !)، يقحم بيريك Perec مواضيع إنشائية، شجرة سلالية، محتوى مجلة بلجيكية، وسم انخراطي، بطاقة بريدية توجيهية، قائمة الوجبات في المطاعم، بطاقات الزيارة المتسمة بالدعابة... الخ[320].

رهانات التصنيف والأنظمة الهيرمينوطيقية

مقارنة مع مجمل الخطابات، فإن الخطاب الأدبي يراهن على مسألة الالتباس التصنيفي. غير أن التماثل ليس هو التعدد المعنوي. إذ أنه لا يفتح المجال للإمكانات اللامتناهية، ولكن يفتح بعض السبل المحاطة بعناية بالأشواك. إذا كان الأدب يلعب بهذه الأجناس، فهذا لا يدل على أنها تسميات عابرة. على العكس من ذلك، فإنها تعطي معنى لأنظمة التصنيف.

إن الأجناس المضمَّنة، وبالخصوص تلك التي تنتمي إلى محيط النص، لها عادة وظيفة تقويم النظام الهيرمينوطيقي. لنأخذ مثال العنوان: عندما كان، في الصيغة الأولى، عنوان **كاهن تور** (Le curé de Tours) هو **القس تروبي**(L'abbé Troubert)،

318. تخلق التنقلات من خطاب إلى آخر مشاكل دقيقة. مثلا، أوحت العلاقات الخطيرة للوزاه Lauzun بكتابة مذكراته والتي تعد كتابة حميمية وغير معدة للنشر. في محاولة لتقليد فالمون Valmont الذي قال كل ما لديه لميرتوي Merteuil، حرر لوزاه مذكراته سنة 1783 لإهدائها لماركيز دوكوانيي La marquise de Ciogny . ألا يعود نجاح الأشخاص الجذابين، حتى أولئك الذين أصبحوا منهزمين ، إلى هيأتهم الروائية؟

319. هذه هي البداية: «سألني إذا كنت أحب الحبار المحشي. كان يتخذ بستانية صديقة له وكانت تجدف بقاربها ذي الفصول الأربعة فوق القناة. كان يكفيه الوقوف بجانب المتراس؛ مررت له قرعة وتفاحة من الحب وحفنة من الخس، كانت له علاقة حميمية مع امرأة تمتهن البقالة في زاوية شارع ريوتيرا *(rio Terra)*، وراء المعبد الإسرائيلي. وكانت ضخمة، بمعنى أنه كان لديها سيقان وأقدام الفيل. إنه مَرَض مصدره شاطئ دالمات. لا يمكنها التحرك. و يتعامل معها كما هي. كانت تمنحه أكياسا من الأرز. يجب خلط السلاطا و السرفيل مع القليل من الثوم و الكثير من البقدونس. إن البقدونس مفيد للرجال. لأنه يمنحهم المشية الجميلة. سنقطع مِجسات الحبار الصغير[...]»

320. (*Journal, poèmes, essais*,Gallimard, « Bibliothèque de la pléiade», 1995, p.596).

فإن إسناد الأدوار للفاعلين كان شيئاً آخر، وكان القارئ يرى في الصيغة الأولى لظهور تروبي مثالا لظهور الشيطان في المسرحية. في حين أن العنوان النهائي جعل من الألعاب أحداثا، وقد كان القديس فرانسوا بيروتو François Birotteau الشخصية الرئيسة. أما القارئ فلم يكتشف المكيدة التي كانا ضحيتها إلا لاحقا.

تقوم الخصائص التعبيرية،التي تبدو ثانوية، بتقعيد النظام الهيرمينوطيقي. عندما ظهرت رواية*la cousine Bette*في جريدة *Le constitutionnel* ، لم تكن تحتوي إلا على 38 فصلا؛ وفي في الطبعة المخصصة للمكتبات، في سنة 1847، ارتفع هذا الرقم ليصل إلى 132، وبعناوين أكثر جاذبية. وحينما أقدم على تقطيع روايته، هل أراد بالزاك التذكير، بالاتهام الموجه له والمتعلق بخاصيته المسلسلية (feuilleton) بينما لم يكن مقيدا بنشر إبداعه. يبدو الأمر صحيحا، لأن هذه الرواية كانت الجواب على النجاح الفائق الذي عرفته أوجين سو التي نشرت في تلك الفترة عملها في الجريدة نفسه. الحقيقة أن هذه الرواية يجب أن تقرأ كمسلسل طريف، بينما يقرأها النقد التقليدي، المرتبط بالنماذج التي تطرحها، على أنها رواية «جادة»، مع أنها تعد من الدرجة الثانية.

ولكن، هل يجب الاحتفاظ بفكرة النظام الهيرمينوطيقي المفضل، أم ينبغي اعتبار أن كل مؤلف قابل لأن ينتمي إلى العديد من الأجناس، وبالتالي إلى عدة أنظمة؟ ونورد الملاحظة الطريفة التي قدمها ألبرطو مانكيلAlberto Manguel: «عندما تصنف رواية جوناطان سويفت Jonathan Swift وعنوانها **أسفار كوليفير** ***(Les voyages de Culliver)*** في جنس الخيال، فإنها تصنف ضمن رواية المغامرات الطريفة؛ وفي السوسيولوجيا، هي دراسة ساخرة لحالة انجلترا في القرن الثامن عشر؛ و في أدب الطفل، هي خرافة مسلية تحكي قصة أقزام وعمالقة وخيول تتكلم؛ وفي إطار المتخيلات، تعتبر عملا رائدا في مجال الخيال العلمي؛ وفيما يخص الرحلات، تعتبر رحلة خارقة للعادة؛ وعندما نصنفها ضمن الكلاسيكيات، فإنها تعد جزءا من التراث الغربي» (1998، ص 257). كل هذه التصنيفات ترتكز على خاصية المؤلَّف، ولكنها غير متساوية. إذ إن كل مؤلَّف، مهما كان جنسه، يمكن أن يصبح كلاسيكيا؛ ولكونه يقدم عناصر خارقة للعادة مثل الحيوانات التي تتكلم لا يجعلها مع ذلك عملا مخصصا للأطفال،...الخ. إن الشعرية ليست مسألة تصنيف فوق رفوف المكتبة. ابتداء من القرن السادس عشر، ومن طوماس مور Thomas Moreو رابلي Rabbelais إلى سيرانو Cyrano، ومن الكتاب الثاني

في دون **كيخوط** انتهاء **بدولة الشمس** (Città del sole) لكامبانيلاCampanella، ومنذ ظهور **الأسفار العجيبة** *(Voyages extraordinaires)* للأب دوبينياك حتى ظهور إيكاري *(Icarie)* التي ألفها كابي Cabet [321]، تطور في أوروبا جنس أدبي بدون اسم، وهو الرحلة الفانطاستيكية التي تابعت الهدف المزدوج المتمثل في النقد وإصلاح المجتمع. وتعد **كوليفر** *(Gulliver)* من بين هذه الروايات .إبان القرن التاسع عشر ،انقسم هذا الجنس وأنتج رواية الخيال العلمي ،الذي التحق بالقسم الثاني من الخطاب الأدبي ،مثل اليوطوبيا الاجتماعية ،التي ألحقت بالخطاب السياسي.

إن القراءة بالنسبة للجنس تبقى ضرورة فيلولوجية ونقدية وهيرمينوطيقية ،حتى وإن كانت القراءة «المناهضة للجنس»محتملة حسب هوى الأشخاص .النص الذي يجهل جنسه هو نص لا نعرف قواعده .في محاضرته حول الرواية البوليسية(1999) ص 762 و ما يليها) ،تخيل بورخيس قارئا لهذا الصنف من الرواية يقوم بقراءة بداية قصة دون **كيخوط** حسب مزاجه العادي :« في بلدة تسمى المانتشا، التي لا أريد تذكر اسمها[...] .» إذا كان الراوي لا يريد تذكر هذا الاسم، فلأنه من دون شك هو المتهم ! تخيل بورخيس بعد ذلك قراءة **تقليد المسيح** على أنها رواية لسيلين، ولن يستطيع إيكو، رغم موهبته الإبداعية، التوصل إلى ذلك. مبدئيا، توضح هاتان «التجربتان الفكريتان» اعتباطية قراءة نص منسوب إلى جنس أدبي معين حسب القواعد المنسوبة إلى جنس آخر. و يبدو هذا التيه الخفيف من جهة أخرى نادرا، لأننا لا نصادف إلا الأمثلة المصطنعة.

يعد تعيين الجنس أحد الأهداف الفيلولوجية في النقد الإسنادي، الذي لا يجب عليه فقط الإفصاح عن هوية الكُتاب، ولكن يجب عليه أيضا تعيين الجنس النصي. وانطلاقا من هذا التعيين يتحدد نمط القراءة أو العقدة الهيرمينوطيقية، وبالتالي المسارات التأويلية. لنأخذ مثال **رسائل إلى سارة** *(Lettres à Sara)* لروسو، هل هذا المؤلَّف مكتوب حميمي أم مؤلف أدبي؟ لم يفصح تاريخ الأدب، رغم كونه يفشي الأسرار، عن المرسل إليه، والراوي يظهر في هيئة عجوز متسم بالغلو، يعيد كل الكتابات التافهة حول العواطف، ورسائله مبنية على أساس بنية سردية ضمنية؛ ويتعلق الأمر، على

---

321. تتميز كتابات طوماسو كامبانيلا (1568-1639) و لابي دوبينياك (1639-1699) و ايتيان كابي (1788-1856) بالطوباوية، حيث تُطرح فكرة المجتمع الذي يحكمه الفلاسفة (كامبانيلا) أو المجتمع الاشتراكي المثالي (دوبينياك و كابي) (المترجم).

سبيل الاحتمال، بقصة ساخرة أصلها مجموعة من الرسائل.

خلال قرنين من الزمن، قرأنا **الرسائل البرتغالية** *(les Lettres portugaises)* على أنها شهادة حول العاطفة المستحيلة التي ألمت براهبة ايبيرية، وكان علينا انتظار بداية الستينات لنكتشف أن هذه المرأة المنعزلة البعيدة كانت تساند لويس الرابع عشر، وهذا أمر مدهش. أصبح هذا الديوان المصطنع إذن مكتوبا مخصصا للبلاط وأصبح أيضا واحدا من أولى الروايات المرتكزة على الرسائل. وهكذا تحول من حيث الخطاب والجنس، إذ انتقل من الكتابة الحميمية إلى مستوى المؤلف الأدبي، ومن التعبير عبر الرسائل إلى جنس الرواية، ومن صوت العاطفة إلى التحليل النفسي. بطبيعة الحال، كان نظامه التأويلي يتحول أيضا من الكل إلى الكل، وتخلت النفوس المرهفة عن المؤلَّف، الذي أصبح غداء للنفوس القوية.

إن المشكل الفيلولوجي والمشكل الهيرمينوطيقي يُطرحان كما لو كانا مرتبطين، لأن تعيين الجنس الأدبي مرتبط بالتأويل الذي يعد أيضا أحد شروطه . وبخصوص النصوص الأدبية، يرتبط كشف الجنس بفهم **المشروع الجمالي**. لنأخذ مثال ندجة *(Nadja)* التي أثير حولها نقاش: هل هي رواية أو محكي بيوغرافي؟ سنعتبر العناصر الخارجة عن النص، وبالخصوص الصور الفوتوغرافية التي لها وظيفة تصديقية مثل التواريخ. ألا يمكن اعتبار ندجة محكيا فانطاستيكيا؟ من المعلوم أن الفانطاستيك يحتاج إلى سرد الحياة اليومية ليمنحه الغرابة.[322] وهنا كان الحمق هو العامل الذي لعب دور القوة السحرية.

المشكل الجمالي الذي تجيب عنه ندجة يمكن صياغته كما يلي: ما الذي يمكن عمله بعد مؤلف نيرفال *(l'Aurélia)* ، وكيف يمكن تجاوزها؟ هنا، أسنِد حمق الراوي النيرفالي إلى البطلة، ولكن التيمات الأساسية تظل، في المرتبة الأولى، تيمات المسرح: أنظر في ندجة إلى صور المسرحية التي تحمل عنوان **المجانين** (Les Détraqués) (1992، II، ص 671)، وصور الممثلة بلانش ديرفال (ص 673)، وملاحظة بروتون على الممثلات، وبعض الأحكام المتحيزة بخصوصهن، والتي يحتفظ بها في منزله « مذكرات دو فينيي،

322. تؤكد مادلين بوني ، عكس ما نقول بأن:« ندجة هي من دون نقاش سيرة ذاتية و كل شيء يحيل فيها ليس فقط على الحقيقة، بل على الدقة (in Breton، 1988،I، p.1496). ارتكزت الكاتبة على «الرسائل التي وجهها بروتون الى سيمون، ورسائل من ندجة إلى بروتون» وارتكزت أيضا إلى المحادثات مع « الشهود القلائل الذين كانوا على قيد الحياة»؛ ولكن هذه الوثائق لا تنتمي إلى الخطاب الأدبي، وبوجودها في هذا المتن، لا يمكن بالطبع لندجة أن تربط بمشروعها الجمالي.

نيرفال» (تعليق على الهامش في 1962، المرجع نفسه).[323]تبدو **ندجة** قصة قصيرة من جنس الفانطاستيك، مثل **أوريليا** التي اشتقت منها وحاولت مضاهاتها. والشاهد على ذلك هو النمط البيوغرافي التي يؤَمن المحاكاة التجريبية، الظهور المفاجئ للحمق الذي يؤمن المحاكاة المتعالية. هذان النوعان من المحاكاة يتجليان في علاقة تناوب دون الافتراق، وهذا يعتبر سمة مميزة للفانطاستيك. وبناء عليه، تتبدد الشكوك حول جنس **ندجة**، القصة القصيرة الفانطاستيكية التي تقترض مادتها من رواية الحب ومن الشهادة البيوغرافية. كما تطرح، من جراء الاقتراض المزدوج، الشك الذي ينتمي إلى المشروع الجمالي السوريالي نفسه. وهكذا، تضاعف التردد في القرارات الفانطاستيكية في المحكي على المستوى الفني بواسطة التردد على مستوى السرد.

يصوغ **مستهل** الكتاب ضمنيا الفرضيات الأولى التي تكون غالبا مصيرية بالنسبة لعقدة القراءة. سنتناول ثلاثة أمثلة منسجمة مع عناصر الإنكار التي تكشف عن الجنس الأدبي.

أ. بدءا بالسطر الأول في **أركادي** لسانازار ،يعلن وصف المكان الذي يخضع لقواعد الأمكنة الجميلة عن الجنس الرعوي عن طريق كلمات[324] من قبيل «جبل غير متواضع». إذا كان هذا الجبل غير **متواضع**، وغير **رائع** أو **متكبرا**، فإن الغرض هو إدخالنا، عن طريق هذا الإنكار، في «الأسلوب» المتواضع أو المتوسط، وهو الأسلوب المتطابق مبدئيا مع الرعاة و القطيع.

ب .في مدخل **الجنة المفقودة** ، استعمل ملتونMilton (مناديا أوراني الآلهة

323. إذا كان بروتون، الذي لم يكن من المتحمسين للتعليق على الهامش في أسفل الصفحة، يضيف تعاليق في ندجة ثلاثين سنة بعد ظهورها، لأن مشروعه لم يُفهم. عندما أشار إلى فينيي و نيرفال، فإنه يلمح إلى ماري دورفال Marie Dorval و إلى جيني كولونJenny Colon . من المحتمل أن في اسم الممثلة بلانش ديرفال، التي اختارها ربما عن قصد، تشير ديرفال إلى ماري دورفال. ومن جهة أخرى، تذكر بلانش كل قارئ متعود على نيرفال بالطبيب النفساني الذي كان يعالجه وتعلن عن البروفيسور جوزيف بالينسكي، طبيب الأمراض العصبية الشهير و كان بروتون أحد نزلائه في مستشفي لابيتيي la Pitié، وقد كان بالينسكي مستشارا لكاتب رواية المجانين (نفس المرجع). من المؤكد أن نغمة الجملة التي تستدعي التعاليق في الهامش حول بالينسكي ونيرفال هي نغمة نيرفالية: « كان الدور مسندا إلى الممثلة الأجمل و الوحيدة في زمانها، والتي رأيتها تلعب دور«القناعين» في عدة مسرحيات لم تكن فيها جميلة، ولكن، ولشدة خجلي، لم أسمع بها (المرجع نفسه). و الأكثر من هذا، يبدأ التعليق الثاني في سنة 1962 على النحو التالي:«ماذا أريد قوله؟ كان علي التقرب منها ومحاولة كشف هويتها» (ن.م.).

324. «Giace nella sommità del Partenio, non umile monte de la pastorale Arcadia, un dilettevole piano».
«Au sommet du Parthénion, non humble montagne de la pastorale Arcadie, s'étend un délicieux replat].»
في البانطيون، من الجبل المتواضع للراعية أركادي تمتد سطحية لذيذة».

السماوية وملهمة موسى في الوقت نفسه)، أيضا الإنكار ليدل على رغبته في الارتقاء بأسلوبه بهدف تجاوز الأسلوب المتوسط: « I thence /Invoke thy aid to my adventrous Song, /That with no middle flight intend to soar/ Above th'Aonian Mount, while it persues / Things unattempted yet in Prose or Rime » (I , v. 12-16) [325].

ج.وفي الأخير، في البيت الأول من قصيدة أبولينير *Zone* والتي يقول فيها: «الراعية يا برج إفيل، ثغا قطيع الجسور هذا الصباح» وهنا أيضا نفس «الأسلوب» المتواضع أو المعتدل الذي يشار إليه بكلمات تُعد كعلامات (راعية، قطيع، ثغا). ثم بعد ذلك يتم رفضها في بداية البيت التالي: «**سئمت من العيش في العصر القديم، العصر الإغريقي و الروماني**». في كلتا الحالتين، يتأتى تعريف الوضع الأجناسي من جراء الإنكار الأول، الذي قاد أبولينير إلى أسلوب الشعر الغنائي الذي يحمل رؤيا، وهو إنكار متعلق بما يشبه رجعة طيرانية للمسيح، ومتعلق بالتعالي الحداثي، النقيض لكل توجه رعوي (أنظر المؤلف، 1989، II ، الفصل الخامس).

تؤكد هذه الإنكارات الثلاثة سلمية الأجناس الشعرية و الروائية، والأكثر من هذا، فإنها تؤكد سلمية الأنغام أو «الأساليب»، كما كان يقال في الماضي. يوسم اختيار نغم ما منذ البداية بالتلميح الإنكاري إلى النغم العالي أو الأدنى. من جهة أخرى، بالطبع، تشير هذه الخاصية الملتوية للقول إلى التواضع الذي يسطره مؤلف المناداة، حينما يتموضع تحت الرحمة الإلهية، أو البابوية، بخصوص أبولينير.

غير أنه، عندما يتلف الكاتب أمارات الجنس الأدبي أو عندما يرفض إعطاءها، فإن القراءة تأخذ منحى مرعبا أو مضحكا. مثلا، يفاجئ القارئ أو «نموذج القارئ» عندما يعلم، في الفصل الثامن من رواية **دون كيخوط**، بأنه بصدد قراءة ترجمة عربية مشكوك فيها؛ وتزداد حيرته في الكتاب الثاني، عندما يكتشف أن الشخصيات قد قرأت الكتاب الأول. إذا كان يتمتع بوضعية القارئ المضطرِب، فإنه يكون في وضعية المعاصر.

الأجناس و التوسيط الرمزي

ستتابع البحث في الأنثروبولوجيا التي كانت مدخلا لهذا الفصل. تنتمي الأجناس إلى توسيطين متكاملين: **التوسيط الرمزي** الذي ينظم

325. «وهنا أرجو مساعدتك من أجل أغنيتي المغامرة: ولا يمكن أن يعلو فوق جبال أوني Aonie ، بواسطة الطيران المعتدل، بينما يتابع أشياء لم تجرب قط لا في النثر ولا في الشعر» (ترجمة شاطوبريون).

كل ماهو فـردي أواجتـماعـي(أنظر كليفورد غيرتز Geertz Clifford، 1989) والتوسيط السيميائي الـذي يفصل المـادي عـن التمثيلي (المؤلـف، c 1996).

تطرح الشعرية المعمَّمة في مجملها التوسيط الرمزي، بحيث إن الجنس النصي يقدم في الوقت نفسه الخاصية العمومية للعمل الفردي المتسم بالطابع المجتمعي والخاصية العمومية للمعيار الاجتماعي الذي يتواجد فيه. إن استعمال الأجناس الشاذة يعني عدم الانتماء للمجتمع، مثل الطفل الذي يتعلم الكلام، أو مثل الأحمق الخارج عن الكلام العادي. تقيَّم الانجازات السيميائية على أنها مطابقة للواقع أم لا، سواء تعلق الأمر بكتابة تقارير الأنشطة أو الرقص (البازو دوبل)، وذلك بحسب توافقها مع معايير الجنس النصي.

في كل مكان، كان المزج بين الأجناس محط شكوك وكان يتعرض للعقاب من الناحية الأخلاقية[326]، وهذه علامة على الازدواجية أو الخلط، بل و حتى الهدم. والملاحظ أن المؤلفات الهدامة تبقى عموما غير قابلة للتصنيف. وهكذا، فالرواية تعتبر من دون شك إبداعا لا أخلاقيا، ليس فقط لأنها تتحدث عن الحب، ولكن لأن بنيتها العاطفية تمكنها من هدم المعايير، بما في ذلك المعايير التي تتبناها.

إننا لا ندعي بأنه لا توجد قوانين إلا قوانين الجنس، ولكننا نقر مع ذلك بوجود الوضع التاريخي الأساسي الذي يحَيِّن ويُمَعير اللغة. إن القواعد اللغوية لا ترتبط مباشرة بالحالات الاجتماعية أو السياسية المعينة، ولكن معايير الجنس النصي تتطابق مع هذه الحالات، أو تطابقها عبر وسائط متنوعة. ثم إن دراسة القواعد، المضافة إلى دراسة المعايير، تعالج تفاعل الاجتماعي مع الاستعمال و بالتالي مع اللغة.

تمكن دراسة الجنس الأدبي، تكملة لما سبق ذكره، من إدراك تميز النص، وهو التوجه الذي يشبه حالة المعايير الاجتماعية التي تُكون الخلفية التي نستطيع بواسطتها فهم الأعمال الفردية. إذا كانت الأجناس ترسم بطريقة تجويفية «en creux» ، وبالاعتماد على المواقع التلفظية و التأويلية المشفَّرة ، الشخصَ على أنه مجموعة من الأدوار الاجتماعية، فإن الشخصية تتضح، بل وتُكوَّن بالاستعمال الفريد للأجناس[327].

326. كان هذا المزج محرما على الفتيات.

327. بين التوجه السوسيولوجي عند باختين و الفردية التي يتميز بها فيتغانشتاين، يجب العودة إلى تاريخ الحوارية عند شليرماخير، و فوورباخ Feuerbach، وكييركرارت Kierkeraart، و سترنير Stirner. تعرض التاريخ شيئا ما للتشويش من قبل أبيل و هابيرماس، ولم نفطن إلى أن حوارية باختين تظل مجرد إعادة متأخرة للتيمات الرئيسة في جدلية شليرماخير.

وكنتيجة لذلك، يمكن اعتبار تعلم الأجناس كفضاء سيميائي تظهر فيه البينذاتية التي يتم توسيطها بالقانون.

في الكتابات البيداغوجية، أدرك شليرماخير جيدا رهانات تعليم الأجناس. إذا كان التعليم يعني التخلي عن الأجناس الشاذة، فإن«اللغة تُعتبر على الرغم من كل هذا شيئا مشتركا، وللتذكير، [فالأطفال الصغار] يتخلون بسرعة عن اختراعاتهم اللغوية لكي يندمجوا في حياة اللغة الجماعية» (1876، ص 231؛ ترجمة برنير، 1995، ص 207). وفي إطار التطبيق، وبالخصوص في علوم التربية، تُفتح آفاق واعدة أمام نظرية الأجناس، بما أن اللغة تنتج في ثنايا الأجناس ولا تُدرك إلا من خلالها.

النُّصوصُ وعُلومُ الثَّقَافَة

التحدي: توجد العلوم الاجتماعية في منعطف الطريق، إذ لم يعد باستطاعة النزعة السوسيولوجية المنحدرة من بعض الأشكال المستهلكة للماركسية اقتراح أو فرض لغة مشتركة؛ إنها معرضة لتحولات الاختزال الآتية من علوم الأعصاب والعلوم المعرفية. وأخيرا، لا يستطيع التوجه التكنولوجي المتطور في البحث العلمي منح التمويل الفعلي إلا للبرامج القابلة للوصول إلى براءة الاختراع.

غير أنه مع تزايد فك الانتساب إلى العلوم«الصلبة»، بل الشك في مصداقيتها، أصبحت العلوم الاجتماعية، منذ عشرات السنين، موضوعا لطلبات مستعجلة تهم المعنى[328]، ولكنها كثيرا ما تصاغ بطريقة غير موفقة. إن لديها المادة اللازمة للإجابة على هذه الطلبات، لأنها راكمت معارف غير مسبوقة حول تنوع اللغات وتنوع المجتمعات الإنسانية. و يستدعي حاليا المجهود غير المسبوق في ما يخص جرد وصيانة الموروث الثقافي العالمي التفكيرَ النظري من أجل التأمل في هذا الموروث، في الزمان و المكان. وها هي الآن العلوم الاجتماعية تواجه تحدي إبراز التنوع الثقافي، لتتجنب تقليصه مرة أخرى. دون مقابلة النسبية الباردة و الكونية الدوغمائية، يقود هذا التوجه إلى تأكيد فكرة استقلالية خصوصية المجال الثقافي، وإلى متابعة، في إطار التوجه الذي سطره كاسيرر، مشروع فلسفة الأشكال الرمزية. كما يرسم هذا المشروع تقاطيع سيميائيات الثقافات، ويكشف عن مشروع إعادة تأسيس خاص بالعلوم الاجتماعية، التي مازالت

328.ونتيجة لهذا الاهتمام المتزايد ، أصبحت هذه العلوم موضوع هجمات متكررة ، بل وهجمات دائمة التجديد، وهذا ما تشهد به قضية سوكال.

ضحية مختلف الإيديولوجيات[329].

لقد مكنت مسألة النص و تأويله من توضيح هذا المشروع. من جهة، يتهم تعقيد النصوص النقص الحاصل في مفاهيم الشفرة العادية، وفي نسق العلامات والتواصل، ...الخ، ويلزمنا بالتفكير في الممارسات الاجتماعية التي تنتج النصوص وتؤولها. و من جهة أخرى، يلاحظ أن معنى النصوص مرتبط بالتأويل و بإقحامها في السياق الداخلي بواسطة البحث عن الفقرات المتوازية وربطها بنصوص أخرى في المتن. وبناء عليه، يستدعي المعنى طرح نظرية عامة لتأويل الموضوعات الثقافية.

الموضوعية المفارقة للمعنى: تظهر الأعمال المثالية التي قدمها الفيلولوجيون الكبار من أمثال سبيتزر و أويرباخ و بولاك خصوبة المشروع الذي يهدف إلى توحيد الهيرمينوطيقا و الفيلولوجيا. و بما أن معنى النصوص غير محايث، فإنه يجب الأخذ بعين الاعتبار الخاصية التي مفادها أنها تكوينات ثقافية، وذلك لتأسيس المحايثة. وتشارك مجموعة من الحقول المعرفية، من حيث نزعتها و مشروعيتها، بل وانطلاقا من الواقع، في هذا المشروع التجميعي.

غير أن اللسانيات ومجموع العلوم الاجتماعية تتردد انطلاقا من تكوينها المتأرجح بين نماذج علوم الطبيعة وعلوم الحياة و العلوم المنطقية-الصورية. ذلك أن كل المشاريع الاختزالية ترتكز على هذا التردد الذي يجب تجاوزه، موضحة النمط الخاص بالموضوعية النقدية للموضوع الثقافي و أشكال زمنيته. ويتطلب تجميع علوم

329.في محاضرة ألقيت في جامعة كل العلوم، والمعنونة بـ« الإنسانيات أو نقد التخصص»، أكد مارك فومارولي Marc Fumaroli ، بخصوص الماركسية المعرفة بأنها « أول العلوم الإنسانية» ما يلي: «حطم الاستنكار الموجه للماركسية مباشرة مصداقية كل «العلوم الإنسانية» الأخرى، التي ظهرت في محيطه أو التي أعيد تأسيسها على منوالها [...]. ولم تنج الحقول المعرفية من الشك المحيط بمفهوم «العلم»، المطبق على غرابة الفاعل الإنساني الملموس. وهذه الحقول المعرفية هي البنيوية التي بنيت على أساس اللسانيات التي أظهرت بسرعة محدوديتها ، وتاريخ العقليات غير الشخصية، التي انقسمت على ذاتها، والأنثروبوجيا، التي تجزأت وتحولت إلى عدة تخصصات لا تستطيع طرح تعميمات، ونفس الشيء بالنسبة لعلم الاجتماع « (لوموند، 21 نونبر2000، ص 16). ويتعين على أصحاب الفكر المتنور الإيمان بفكرة أن العلوم الإنسانية مشكوك فيها سياسيا. لقد كانت هذه الحقيقة للأسف مشتركة بين كل الأنظمة الشمولية، ومنها تلك التي تستند إلي الاشتراكية الواقعية. وقد عمدت هذه الأنظمة إلى منعها أو إلى تقليصها، بدعوى أنها علوم بورجوازية-أو علوم تم إخضاعها إلى المنظومة البلشفية. غير أنه، حسب فومارولي، كانت مصدرا للمجازر التي أدمت القرن الماضي. إذ لم نستطع إلا تضميد «المجازر و الويلات»، فهل يعتبر أستاذنا الموسوعي مؤهلا لجعلها تحت «الحذلقة ومرض العظمة»؟ والمتحذلقون هم السبب في كل آلام الإنسانية- والإنسانيات. ثم لماذا لا نكون أحرارا أمام التاريخ، وفوق كل هذا، إنه مجرد علم إنساني...أما بخصوص اسم الإنسانيات، فإننا حين نكرر أن الإنسان غير قابل للوصف و لا يمكن أن يكون موضوع العلم، وأننا حين نهين العلوم الإنسانية باسم الفاعل-أو الايكو- ألا نخاطر بتعرضنا للشعوذة النرجسية؟

الثقافة تصورا مشتركا حول الموضوعية.

نعلم أن التجربة الساذجة تتغير دوما مع الشخص الذي يحس بها، وتسعى المنهجية التجريبية إلى إزالة هذه التغيرات. لقد حاولت الوضعية تقليصها، ولو بإهمالها، ولكن دون جدوى، لأن هناك دائما بقايا يصعب إزالتها. فحتى في علوم الطبيعة، في الفيزياء الكمية مثلا، تعتبر حالة الملاحِظ جزءا من الحالة التجريبية. لقد استعمل في هذا الصدد كل من فيردنان كونصيت Ferdinand Gonseth و جيل كوهن-تانودجي Gilles Cohen-Tannoudji صورة الأُفُق: إنه ينتمي إلى حقل رؤيتنا، ويبدو أنه يحاول رسم حدوده. لا يُتصور الواقع كمجموعة من التوقعات ففي اللغة الموحِّدة، هناك ما نستند إليه لرسم أُفُقنا؛ وفي اللغة التوحيدية، الواقع مشكل من كل الآفاق الممكنة. وتظل هذه الحالة العامل المشترك بين جميع العلوم، وتظل مشتركة في القسط الهيرمينوطيقي الأدنى . ولكن في علوم الطبيعة، أو على الأقل في علوم الفيزياء، يحدد وضع الملاحظ بعناصر التحديد التي تكون نفسها منتمية إلى الفيزياء، وتكون قابلة للكشف في الزمكان، في العلوم الاجتماعية، يُتوسَّط المكان بالثقافة، والزمان الفيزيائي بالتاريخ و التقاليد. وهكذا، فإن الوضع الزمكاني للملاحِظ قد تضاعف بالوضع التاريخي-الثقافي للمؤوِّل. غير أن اللساني لا يعد فقط ملاحظا، ولكنه أيضا مؤوِّلا. يلعب النقد الفيلولوجي بشكل ما دور المنهجية التجريبية، ليس من أجل الإزالة الوهمية للموضوعية، ولكن من أجل إقامة تراتبية فيما يخص الذاتيات. وبناء عليه، تتكون موضوعية علوم الثقافة بالاعتراف بالمنحى النقدي في جزئها الممثل للذاتية[330].

حينما نفترض بأن المعنى ليس محايثا للنص ولكن للممارسة التأويلية، فإننا نعترف بأن كل قراءة «عالمة» أو غير عالمة ترسم مسارا تأويليا يطابق أفق القارئ. وفي هذا السياق، تقترح دلالة النصوص وصفا للمسارات التأويلية: المعنى الحالي

330. أنظر ما قاله زوندي بخصوص الفيلولوجيا، ولكن قوله ينطبق على كل علم اجتماعي تواق إلى منهج العلوم الطبيعية: « عندما تحاول الفيلولوجيا وضع الذات العارفة بين قوسين باسم الموضوعية المزعومة، فإنها تتعرض لخطر تغيير طبيعة الوقائع المتسمة بالذاتية، وذلك بالاستعانة بالمناهج غير اللائقة، ودون أن تكون مؤهلة لإدراك خطئها (1981، ص 15).
ظلت السخرية، وهي مظهر آخر للمسافة النقدية، مغلوطة، ومن الواجب استرجاعها: « كون أن السخرية الرومانسية، مع شليغل ، قد أفرزت موقفا فيلولوجيا و علميا أصيلين (وخصوصا الاندفاع المحدِّد الذي مُنح للسانيات الهند-أوروبية) ، فهذا يعد ظاهرة لم نعمل على مساءلتها بالقدر الكافي في انتظار مؤسسة نقدية للعلوم الإنسانية)» (أكامبين Agamben، 1998، ص 9).بفضل السخرية، يمكننا التمييز بين العلماء (ونفتقر إليهم) والمشتغلين بالعلم بطريقة عادية.

للنص ليس إلا واحدا من تجلياته الممكنة؛ ويكون المعنى «الكامل» مكونا من مجموع التجليات، وبعبارة أخرى، من مجموع الآفاق الممكنة. لا يقبل النص الانغلاق إلا بتوقف القراءات، التي تنتمي إلى الماضي، و يتخلى بالتالي عن التقليد و الحياة، وهذا الانغلاق يشهد على الإغلاق أكثر مما يشهد على الامتلاء. لأن الكتاب المغلق لا معنى له. وفي المقابل، تحتفظ النصوص التي تعاد قراءتها بمعنى مفتوح. ومعناها له تاريخ حي، أي تاريخ التقليد التأويلي، وهو سلسلة غير مختومة من إعادة الكتابات، التي تعتبر قراءات جديدة: إنها مرتبطة بالممارسة التي تتموضع فيها وتحترم الأهداف الأخلاقية والجمالية و المعرفية. غير أن اللذة و الواجب و الإرادة تظل في حالة عدم الإشباع. وحول هذه النقطة الأساسية، تميز دلالة النصوص بين البنيات المغلقة، التي ترهق النص، والبنيات المفتوحة التي تمكن القارئ من تحويل الملتبس إلى اللانهائي.

إن إبراز خاصية علوم الثقافة يمكن من جهة أخرى من تجاوز التمييز المشكوك فيه بين «العلوم الإنسانية» و «العلوم الاجتماعية»، وهو صدى بعيد لمعارك مستهلكة بين النزعة الإنسانية و الماركسية.

إن غناها يتمثل في نوعين من التنوع: تنوع الثقافات، التي تجعل علوم الثقافة تتحرك في أزمنة و أماكن مختلفة؛ وبالنسبة لكل موضوع ثقافي، تعدد البرامترات غير المنتجة التي تمنع كل تجربة بالمعنى الدقيق للكلمة وتزيح بالتالي نموذج العلوم الفيزيائية. ومهما ارتقت إلى درجة ما يمكن ملاحظته ، فإن الظواهر الإنسانية و الاجتماعية تظل نتاجا للأبنية التأويلية.

يكمن دور علوم الثقافة في معالجة الخاصية السيميائية للكون الإنساني. وللتعرف على الإنساني من قبل الإنسان، يجب على هذه العلوم أن تتعرف على الجزء الذي يأخذه في هذه المعرفة، ليس فقط كمرسل إليه ينتقد «النتائج»، ولكن كممثل يتمتع بحواس وبمسؤوليات.

المشروع الأنثروبولوجي والتخصيص: في إحدى كتاباته الشبابية، قدم هومبولت هذا البرنامج: «يجب دراسة خاصيات الجنس والعمر و الأمزجة والأمم،...الخ.، بعناية فائقة تشبه تلك التي نجدها في العلوم الطبيعية حين تدرس الأعراق وتنوعات العالم الحيواني. مع العلم أن المسألة تتعلق بمعرفة إلى أي مدى يكون الإنسان متنوعا، ينبغي رسم منهجية كما لو أن الأمر يتعلق بتحديد إلى أي مدى يكون الإنسان الفرد متنوعا.»[331] لقد عرف البرنامج الأنثروبولوجي عند هومبولت ثلاث مراحل متسلسلة:

331. Plan d'une anthropologie comparée، GS،I، p. 119.

دراسة الاختلاف الأجناسي، ثم الاختلاف الأممي و في الأخير الاختلاف اللغوي. وهذا ما قاده إلى التخصص، من سنة 1819 حتى وفاته، في اللسانيات المقارنة. بينما كان عدد الأجناس جد متقلص، حسب البعض مع الأسف ، فإن الأمم تعد بالمئات و اللغات بالآلاف. ولكن التنوع لا يتوقف هنا. وقد كان هومبولت ينظر إليها من زاوية تنوعها الداخلي، حتى أصبح الأمر متعلقا بمعالجة استعمالاتها الفردية. وهكذا، تدرج مشروعه الأنثروبولوجي من الإنساني إلى الفردي، وتوصل إلى تحديد النسبة نفسها من اللغات ومن الأشخاص.

لم تؤسس أنثروبولوجيا التنوع إلا مع مونطين، بشكل جذري و من دون ادعاء علمي. ذلك أنها وجدت عند هومبولت الأسس الابستيمولوجية وليس فقط الأسس الأخلاقية. وحينما تكون فلسفة اللغة مندرجة في الكونية، فإن دراسة اللغات تفترض أن اللسانيات تصل إلى المرحلة الايديوغرافية و تستطيع تجاوز المرحلة التشريعية، ويمكنها كذلك التعرف عبر القوانين اللغوية على تعميم الظواهر الفريدة و ليس الظواهر غير المكررة، على عكس الظواهر المادية. [332]

يحظى برنامج الوصف و الدراسة بأهمية ابستيمولوجية كبرى، وقد لاحظ هومبولت ما يلي:« في العالم غير العضوي، لا توجد فردية يمكن اعتبارها ككائن قائم بذاته، وفي العالم العضوي، لا تتنزل العلوم البتة إلى مستوى الفرد» (GS، VI ، ص 150؛ ترابان Trabant، 1999، 129). وفي هذا الإطار، فإن سيرورة الوصف تعد عاملا محددا لعلوم الثقافة. و في موازاة ذلك، يمكن لوحدة الموضوع، التي ترتقي في مؤلف فني لا يقبل النسخ، أن تصبح خاصية الموضوع الثقافي. وفي الأخير، الوصف سيرورة تقدمية لانهائية، بحيث يمكن أن تمدد إلى أجزاء الموضوع، وأن تقود إلى معرفة السبب الذي يجعل كلمة ما في دراسة نص ما عبارة عن حالة شاذة . [333]

---

332. عندما ننقل التمييز الهوسيرلي، فإننا نفترض أن العلوم البحتة تعتبر تشريعية، وأن العلوم الصارمة إيديوغرافية. إن علوم الثقافة صارمة، بمعنى أنها تقتضي النقد.

333.ينطبق برنامج التخصيص (الوصف) على اللغات: « لنفترض بنية لغوية معينة، الخاصية هي أثر التحولات المستخلصة على مجرى التاريخ بواسطة متكلمين يستعملون اللغة. ليس هناك شيء ثابت، هناك عادات تسجل في اللغة، ليس فقط على المستوى الدلالي و الأصواتي، بل وفي التنظيم التركيبي نفسه. إن اللغات ليست معطى يأتينا دفعة واحدة، بل هناك بعض المعطيات التي تظهر والبعض الآخر يندثر. [...] خاصية لغة ما هي مترسّب أفعال الخطاب من حيث كونها موضوعة في اللغة. وقد اهتمت اللسانيات الهومبولتية بالإنجازات الفردية للمتكلمين ، الذين يسجلون إبداعاتهم في الأدب. [...]. و يمكن مفهوم «خاصية» (caractère) ، بالمعنى الدقيق و المستعمل من قبل هومبولت ، من ربط المقاربات السانكرونية بالمقاربات الدياكرونية في اللغة. وعندما يتعلق الأمر بالمؤلفات، يمكن هذا المفهوم من استشراف تطوير اللسانيات النصية، التي تدمج في حقلها الانجازات الفريدة للخطاب» (توار،2000a، ص 170).

يبدو لنا أن الوزن الإبستيمولوجي للتنوع ذو قيمة. كيف يمكن تحويل الفرضيات الكونية التقليدية حول نظرية المعرفة وحول الابيستيمولوجيا إلى وجهة نظر حول التنوع ؟ إلى حدود تكوين اللسانيات العامة، كان تنوع اللغات، بل والعلاقة السلالية فيما بينها، معروفا، ولكن لم يكن موضوع برنامج للمقارنة، لأننا كنا نكتفي بإخضاعها إلى مبادئ عقلانية مشتركة و معبر عنها بالأنحاء العامة التي تدعي الكونية. و لم يصبح مشكلا علميا إلا في الوقت الذي خرجنا من الكونية، وفي الوقت الذي أصبح فيه إمكان حدوثه ذا معنى.

اتبع قياس التنوع الثقافي الطريق نفسه الذي اتبعه تصور التنوع اللغوي. في الواقع، إن اكتشاف «الثقافات» الحيوانية في العقدين الأخيرين ، وخصوصا عند القردة التي تملك شكلا بدائيا من إرسال العادات المُكتسَبة، يفترض أن الإبداع والإرسال لا يكفيان لتحديد الثقافات الإنسانية. إن تنويع الممارسات التقنية و السيميائية يميز الثقافة الإنسانية عن الثقافات الحيوانية، وهذا يجعل التخصيص التقدمي في مرتبة برنامج موحِّد بالنسبة لعلوم الثقافة.

ودون الرجوع إلى النقاش الذي دار بين هيردير Herder و كانط، سنذكر بالرهان الثقافي الذي يتمثل في جعل التنوع الثقافي موضوعا للبحث. وبما أن العقل عند كانط يتطور كليا في النوع وليس في الفرد، فإن التنوع يظل غير أساسي من وجهة نظر العقل، ومن هنا تلاحظ الكونية والمواطنية العالمية اللتين تنبثقان منه. ولكن يجب إعادة صياغة مفهوم مواطنة عالمية(cosmopolitisme) لنحد من الكونية التي أفرزته.

الواقع أنه بإمكان التوقع السيميائي أن ينفصل عن الفلسفة المتعالية وذلك «بتعويض» (حتى في حال كونه شرطا للمعرفي) العقل بالثقافات، وباسترجاع الخاصية النقدية لوصف الموضوعات الثقافية، مع العلم أن الخاصية النقدية قد استعارتها الفلسفة الكانطية من الفيلولوجيا. وإذا كان العقل خالصا، فإن الثقافة لا يمكن أن تكون كذلك، لأنها نتاج تاريخها. إن مقارنة اللغات والثقافات تعني المرور من الكوني إلى العام، وأيضا من الهوية المفترضة إلى المعادلة المعرضة للغزو وتعني كذلك المرور من الكوني إلى العالمي.

ينبغي لسيميائيات الثقافات، بتتبعها لهدف التخصيص، أن تكون مبنية على الاختلاف ومستندة إلى المنهج المقارن، لأن الثقافة لا تُفهم إلا من خلال وجهة النظر

العالمية والبينثقافية. إذ بالنسبة لكل منهما، كل الثقافات الأخرى، المعاصرة منها و القديمة، تلعب دور المتن. في الواقع، ليست الثقافة كلية، لأنها تتكون وتتطور وتنقرض في المبادلات وفي النزاعات مع الغير.

إن اللسانيات التاريخية و المقارنة قد اكتسبت بخصوص هذا الموضوع تجربة ينبغي تطويرها ونشرها. الرهان مفيد: كيف سنعيد بلورة مفهوم الإنسانية خارج التيولوجيا الدوغمائية وخارج البيولوجيا المتنافستان حول الحتمية؟ كيف نتصور الإنسانية انطلاقا من الإنسانيات- ونفهم منها على الخصوص العلوم الاجتماعية؟

توسيطات: إن مكانة العالم السيميائي، الموجود في وضعية الوسيط بين العالم المادي وعالم التمثيلات، تحدد الوظيفة الابيستيمولوجية للسيميائيات ذاتها. لقد تبنينا سيميائيات الثقافات، ورفضنا السيميائيات الكونية أو العابرة للسيمائيات، وهي نوع من فلسفات المعنى الدائم النسيان للبعد التأملي.

وتفرض بعض التوضيحات المصطلحية نفسها هنا. لقد استعملنا تعبيرين وهما **علوم الثقافة** و **سيميائيات الثقافات** ، ولا تصلح أي منهما لما نود طرحه. وهكذا، فالمصطلح الأول مستعار من كاسيرير (1991 [1939-1936]) و الثاني يحيل ضمنيا على مدرسة تارتي (Tartu). وصيغة الجمع التي تؤكد وضعهما جنبا إلى جنب تمكن من طرح سؤالين: هل الأمر يتعلق بعلم واحد أم بعلوم؟ هل المسألة مسألة ثقافة أم ثقافات؟

بالنسبة لكاسيرير، يقابل مفهوم **علوم الثقافة** ضمنيا **علوم الطبيعة** ، وهذا التقابل يوازي التعارض التي سطره دايلتي بين علوم الفكر وعلوم الطبيعة، غير أن كاسيرير نقل ضمنيا إلى الثقافة ما أدخله دايلتي في نطاق الفكر. ربح التفكير الرهان، لأنه حتى ولو أن الألمانية تميز الثقافي*(geistig)* والروحي *(geistlich)*، فالشكل الذي صاغه دايلتي يشهد بالروحانية الذاتانية التي لا تساعد حقيقة على طرح حقل علمي.

وفي المقابل، سعت الماركسية، التي اختزلت الثقافات في بنيات عليا غير أساسية، أو على الأقل غير محدِّدة، إلى تقعيد العلوم الاجتماعية، ولكنها لم تبذل جهدا لتوحيدها، مع أنها وفرت لها مرجعا «ماديا» كان ضروريا.

إذا كان مصطلح **علوم الفكر** فضفاضا وشاسعا، فإن مصطلح علوم اجتماعية يبدو اختزاليا، منذ البدء في وصف تعقيد المجتمعات الحيوانية؛ وعلى وجه التدقيق، فإن الثقافة والتنوع الثقافي هما اللذان يميزان المجتمعات الإنسانية.

بين الوحدة الدايلتية والتوظيف الماركسي، ينبغي تطوير تصور نقدي. ويمكن للسيميائيات أن تسهم في هذا التوجه، ولكن هل باستطاعة سيميائيات الثقافات المعاصرة أن تنجز هذه المهمة؟ بالنسبة لمدرسة تارتي، ينبثق مصطلح **سيميائيات الثقافات** (أو **سيميائيات الثقافة**) من الدراسات الأدبية، وهو المجال الذي اشتهر فيه منشطه الرئيسي يوري لوطمان Iouri Lotman. غير أن سيميائيات الثقافات التي أصبحت **علم الثقافة** (culturologie) قد عوضت في الدروس التعليمية الروسية **المادية الجدلية** محتفظة في الغالب بنفس الأساتذة. وتحاول تعويض جدلية الأقسام المتنافسة جدلية الثقافات المتنافسة، الأمر الذي يؤدي إلى **إخفاقات وطنية**. إن العقليات مكونة من اللغة و الأمة، وبالتالي فغير المنتسب إلى روسيا لا يمكنه فهم نص روسي، الشيء الذي يذكرنا ببعض أطروحات هايدغر حول *Grund*، العمق الإنتمائي للوطن وللتقاليد الذي يعتبر شرطا لكل فهم. و من جهة أخرى، تقدم كل ثقافة كأنها شيء فريد ومحاصر، ولا تحس أمام الآخر إلا بالتقدير المبالغ أو بالنفور، حسب «درجة تطوره». إن هذه الازدواجية، على الرغم من ترددها في التاريخ الثقافي الروسي، لا يمكن أن تعتمد كركيزة لتعريف الثقافة.

هل يحيل مصطلح سيميائيات الثقافات على علم واحد أم على مجموعة من العلوم؟ في الحالة الأولى، نميل إلى الأنثروبولوجيا الفلسفية ، التي نجدها مثلا عند كاسيرير في كتابه *Essai sur l'homme* وهذا الحقل المعرفي، الضروري، لا يجب بالطبع أن يزعم العِلمية. وفي الحالة الثانية، سنبحث في السبل الكفيلة باسترجاع وحدة العلوم الإنسانية، والتفكير في السيميائي باعتباره مجالا علميا، بدلا من التفكير في السيميائيات باعتبارها علما. بالفعل، يعوق الحضور الدائم للعلامات تكوين السيميائيات كمبحث. أو لا تكون سيميائيات الثقافات علم العلوم؟ وبغض النظر عن كونها مبحثا، فهي مشروع ثقافي، أي المشروع الذي يعيد تعريف خصوصية العلوم الإنسانية و الاجتماعية: إن الثقافات تعالج كل الوقائع الإنسانية، بما في ذلك تكوين الفاعلين (*Sujets*). غير أنها تظل صعبة التصور، نظرا لغياب وجهة نظر سيميائية حول الثقافة. وبعبارة أخرى، فإن الاعتراف بخصوصية العالم السيميائي و باستقلاليته هو الذي يحدد حقل علوم الثقافة، ويضع حدا للثنائية التقليدية التي كانت تتحكم في التقسيم المقترح من قبل دايلتي.

نشأ المشروع السوسيري الساعي لبلورة السيميولوجيا من الرغبة في تحديد النظام العلمي الذي تنتمي إليه اللسانيات: « لقد ناقشنا مسألة ما إذا كانت اللسانيات تنتمي إلى العلوم الطبيعية أو إلى العلوم التاريخية. إنها لا تنتمي لأي منهما، ولكنها تنتمي إلى خانة من العلوم التي، إذا لم تكن موجودة، ينبغي لها أن توجد تحت اسم **سيميولوجيا [...]** إن النسق السيميولوجي «اللغة» هو الوحيد[...] الذي واجه امتحان التواجد أمام الزمن ، وهو الوحيد الذي لا يؤسس بالجوار و لا بالتوافق المتبادل، وكذلك بفعل المصادفة التي تحدث شيئا ما في هذا التقليد، وكل ما هو خارج عن هذه الأمور يعتبر غير ذي تجربة، وغير معروف وغير موصوف» (1974، II، ص 47). إذا كان واضحا هنا أن السيميائيات قد اعتبرت كخانة *(compartiment)* وليس كمبحث إضافي، فإن مفهوم الزمن التقليدي، المنفصل واقعيا عن الزمن التاريخي، يستحق الكثير من العناية. إن الانجازات السيميائية تتجلى في الزمن التقليدي، وهو شكل من الزمنية المخصصة للموضوعات الثقافية، علما أن هذه الزمنية لا تختلط بالزمن المادي ولا بزمن التاريخ.

إذا كانت العلوم الطبيعية راضية بالزمن الدارويني للتطور، فإن علوم الثقافة تتحرك في الزمن اللاماركي (lamarkien) ، المكون من التقاليد ومن القطائع. ثم إن الزمن التقليدي لا يخضع لمقاييس الزمن التاريخي؛ ذلك أنه غير مطرد وغير مترابط وغير محدِّد، ويترك باب المراجعات و التوقعات مفتوحا، ويقيم تواصلا بين المعاصرين و القدامى، بين المقربين و الغرباء. إن الهيرمينوطيقا و الفيلولوجيا تمكنان من مقاربة هذا الزمن الداخلي المرتبط بالعالم السيميائي.

بوجوده ما بين الزمن المادي و الزمن التقليدي، يشغل الزمن التاريخي، الموجود ما بين الزمن المادي و الزمن التقليدي، موقعا يمكنه من لعب دور الوسيط المزدوج، بحيث يعتبر زمنا خارجيا فيما يخص ثنائية المجتمعات وبيئتها و زمنا داخليا فيما يخص التفكير الذاتي للمجتمعات. وفي هذا الزمن تختار المجتمعات ما يُكون الحدث.

ظلت صيغ مشروع سيميائيات الثقافات مشتتة عند العديد من المؤلفين، ولم تبن كمبحث مستقل. بالفعل، تحتفظ هذه الصيغ بالنزعة الابيستيمولوجية، وذلك بتجميع علوم الثقافة حول مفاهيم اللغة و التأويل ونقل التقابل الميتافيزيقي بين الفاعل والموضوع لتصبح تمييزا نسبيا بين التأويل و العلامة واسترجاع التعقيد الجذري للنصوص

وللإنجازات السيميائية، دون السعي إلى توحيدها في إطار كلية. وبما أن الكلية تعرف بالتوحد مع الذات فإنها لا تملك معنى، وبما أن المعنى مؤلف من اختلافات فهي غير قابلة للاختزال و معترف بها، وموضوعة وموصوفة من قبل المسارات التأويلية. وبالتالي، فإن سيميائيات الثقافات تجد نفسها مضطرة، في إطار بناء ذاتها، لإنشاء قطيعة مع الأنطولوجيات، سواء كانت أنطولوجيات العلوم الطبيعية أو العلوم المنطقية-الصورية.

وتنفتح سيميائيات الثقافات على علم السلوك الحيواني المطبّق على المجتمعات الإنسانية، وعلى فلسفة الأشكال الرمزية. و في مواجهة البرامج الاختزالية التي تهدد مجموع علوم الثقافة، يظل تطورها رهانا بالنسبة للسنين المقبلة. إذ من جهة، يبدو أن سيميائيات الثقافات هي الإطار الشامل الوحيد الذي يستطيع مقابلة الحوسبة التي راهنت على الإشكالية و على نتائج العلوم المعرفية. و من جهة أخرى، يعتبر فهم الوساطة السيميائية ضروريا لوصف العوامل الثقافية في المعرفة، التي لم تحظ إلى حد الآن بالمكانة اللائقة بها. لتثقيف العلوم المعرفية، ينبغي الاعتراف بالخاصية المتموضعة ثقافيا لكل نشاط معرفي، ومنه النشاط العلمي.

إن الثقافي ملتصق هنا بالإنساني، لأن الوساطة السيميائية ، المميزة للمعرفة الإنسانية، تعرِّفها على هذا النحو. وهكذا، ينفتح فضاء التفكير في تكوين الثقافات، المرتبطة بالطبع بالنسالة، ولكنه لا يخضع للوصف الدرويني الجديد. إن تمييز الأشكال الرمزية وتنويع اللغات و تنويع الممارسات الاجتماعية والفنون، كل هذه السيرورات تواصل التجانس عبر الأنسنة، ولكن تحتفظ باستقلالها اتجاه زمن النوع، وتطرح شروطا على تكوين الزمن التاريخي دون الارتباط بتقطيعه السريع .

بعض المصطلحات وتعريفها (المؤلف)

بعض المصطلحات وتعريفها (المؤلف)

(*Arts et sciences du texte,* pp. 297-303)

- actant (عامل)

مجموعة من السمات الدلالية التي تحتوي على سمة إعرابية

- acteur (فاعل)

وحدة منتمية إلى المستوى الحدثي في الجدل، وهي مكونة من الجزيئة الدلالية التي ترتبط بها عدة أدوار.

- afférence (تخصيص مجالي)

استنباط يمكن من تحيين السمة المجالية.

- agoniste (مصارع)

صنف من المفاعلين، وينتمي المصارعون إلى المستوى الصراعي الذي ينتمي بدوره إلى الجدل .

- ancres (مرساة خطية)

في النص الرقمي، الإحالة على أجزاء أخرى من النص (علامة الشاهد أسفل الصفحة) وإلى نصوص أخرى (المرجع) أو إلى سيميائيات متباينة (مثلا نقط إقحام الصور).

- balise (علامة خطية)

علامة ملحقة بالنص الرقمي. ونميز أربعة أصناف: التمفصلات والوسم والفهرس والمرساة الخطية.

-caractérisation (تخصيص)

تحديد تميُّز نص ما أو إنجاز سيميائي، التخصيص هو منتهى النقد.

-cas (sémantique) («حالة «دلالية)

العلاقة الدلالية بين العوامل. وبصفتها أوليات دلالية في المنهجية، لا تختلط الحالات بالوظائف التركيبية.

- champ générique (حقل جنسي) -

مجموعة من الأجناس المتباينة، بل والمتنافسة في حقل تطبيقي. مثلا، في الخطاب الأدبي، ينقسم الحقل الجنسي للمسرح إلى كوميديا و تراجيديا؛ وفي الخطاب التشريعي، تُكون الأجناس الشفوية حقلا خاصا (مرافعة، دفاع، حُكم).

-complexe sémique (مجموعة دلالية)

بنية دلالية مؤقتة تنتج عن تجميع المَغْنَمات في المركب (عبر تنشيط وإعاقة السمات الدلالية ، وعبر التوكيد و الحذف، ثم عبر تجلي السمات الإعرابية). في درجة النص، تعتبر المجموعات الدلالية المتطابقة متواردات للجزيئة الدلالية نفسها.

- composante (مكوِّن) -

مجرى منظم يقوم بتقعيد إنتاج وتأويل المتواليات اللغوية، و ذلك بالتفاعل مع عدة مواقع من نفس الصنف. بخصوص مستوى المضمون، نميز بين أربع مكونات: المكون الموضوعاتي والجدل والحواري و التكتيكي.

-configuration (تشكيلة)

تنظيم في الدرجة الميزودلالية (مثلا، الحوار و الوصف) ، وقد اعتبرت في الماضي صورة غير بلاغية.

-contenu (مضمون)

درجة من النص أو من الإنجاز السيميائي المؤلف من مجموع المداليل.

- contexte (سياق)

السياق هو مجموع الوحدات التي تتفاعل مع الوحدة الدلالية (سياق نشيط) كما تكون هذه الأخيرة متفاعلة معه (سياق جامد). للسياق مجموعة من المناطق الموضعية التي يساوي عددها عدد درجات التعقيد. في الدرجة العليا، يختلط السياق مع نغمة النص.

- contrat (تعاقد)

وظيفة جدلية متعلقة بتبادل سيرورة الإرسال المتموضع في العوالم الممكنة والمرتبط بالفاعلين.

- cooccurrent (متوارد)

شكل متكرر يوجد في سياق شبيه بشكل الدخْل الموجود في المتن الرقمي.

- corrélat (متلازم، متعالق)

تعتبر المتواردات التي ترتبط بعلاقة دلالية متعالقات أو معجمات تكميلية لنفس الجزيئة الدلالية.

- dialecte (لهجة)

لغة وظيفية- أو اللغة السانكرونية، في مقابل اللغة التاريخية.

- dialogique (مستوى حواري)

مركب دلالي ينظم العلاقات الجهية بين الأكوان وبين العوالم. ويعالج وصف هذا المستوى التلفظ الممثَّل.

- discours (خطاب)

مجموع الاستعمالات اللغوية المشفَّرة و المرتبطة بنوع معين من الممارسة الاجتماعية. مثلا: خطاب قانوني، طبي، ديني...

- Dissimilation (تحيين السمات المجالية)

تحيين السمات المجالية المتقابلة في متواردَين لنفس السيميم، أو في سيميمين شبه مترادفين.

- dominance (هيمنة)

يهيمن تشاكل على تشاكل آخر إذا كان يحتوي على أمارات التلفظ الممثَّل و/ أو إذا كان يحدد الانطباع المرجعي.

- esthésie (وحدة استتيقية)

«رؤية للعالم» مستمدة و مقيدة بنوع من المورفولوجيا الدلالية. تقحم الوحدات الاستتيقية مختلف المجالات لوصف (تخصيص) المدى المتصاعد: وحدات الأشكال الدلالية مثل المجازات ؛ أصناف الانطباع المرجعي؛ الأنغام و التشاكلات التقييمية.

- Esthétique fondamentale (جماليات أساسية)

مجموعة من عناصر التقييم التي تكوّن الجوهر السيميائي الذي تبنى على أساسه فنون اللغة. عند الربط بين الأبحاث حول التقييمات الثقافية، تتمركز دراسة الجماليات الأساسية في موضع تنظيمي بين الأبحاث المعرفية والعلوم الاجتماعية، ولكنها تظل في مرتبة أدنى من الجماليات الفلسفية.

- Fonction (dialectique) وظيفة جدلية

تفاعل نمطي بين المتفاعلين.

- Forme sémantique شكل دلالي

تجميع ثابت من السمات المنظمة بعلاقات بنيوية، مثلا الجزيئة الدلالية.

- Genre (جنس نصي)

برنامج من التعليمات (الايجابية أو السلبية) والرخص التي تنظم إنتاج النص وتأويله. كل نص ينتمي إلى جنس و كل جنس ينتمي إلى خطاب. و للإشارة، فإن الأجناس لا تنتمي إلى نسق اللغة بالمفهوم الحرفي لكلمة نسق، ولكن إلى المعايير الاجتماعية.

- Grammème (وحدة نحوية)

مورفيم ينتمي إلى طبقة جد مغلقة، في حالة سانكرونية معينة. مثلا، donc و ir-(في courir).

- Herméneutique matérielle (هيرمينوطيقا مادية)

الشكل المكتمل للهيرمينوطيقا الفلسفية.

- Herméneutique (هيرمينوطيقا)

نظرية تأويل النصوص. ونتجت تاريخيا عن مهمة تأسيس النصوص القديمة، وكانت بذلك تضع معنى النصوص، من حيث ارتباطها بالوضع (أو السياق) التاريخي الذي أنتجت فيه. أما الهيرمينوطيقا الفلسفية، المستقلة عن اللسانيات، فإنها تسعى لتحديد الشروط المتعالية لكل تأويل.

- Hétéronome (متفرق)

تفَرق المعايير في النص أو في الانجاز السيميائي عموما.

- Hiérarchie (تراتبية)

تقييم نسبي، في الكون الدلالي، لمختلف الطبقات المحددة للتشاكلات النوعية؛

تقليديا، في الاستعارة، يتمتع المقارَن بتقييم أعلى من المقارِن.

- Idiolecte (لهجة فردية)

استعمال لغة ومعايير اجتماعية خاصة بمتلفِّظ ما.

- Impression référentielle (انطباع مرجعي)

تمثيل ذهني مقيد بتأويل فقرة أو نص. ويُحَدَّدُ هذا التمثيل كشكل متعدد الأوجه.

- Infratexte (نص أدنى)

بتكوينه من مجموع الوسمات الموضوع على نص رقمي، يظل النص الأدنى غير قابل للتأويل في استقلالية عن النص الذي تشفره الوسمات.

- Interprétant (مؤول)

وحدة سياق لغوي أو سيميائي تمكن من وضع علاقة دلالية واردة بين الوحدات المرتبطة بالمسار التأويلي.

- Interprétation (تأويل)

إسناد معنى لفقرة أو لنص ما.

- Isonomie (اطراد)

اطراد نسقي.

- Isosémie(تشاكل نحوي)

تشاكل مطروح في نسق اللغة الوظيفي (مثلا، التطابق، الربط العاملي).

- Isotopie sémantique (تشاكل دلالي)

الأثر الذي يحدثه تكرار السمة نفسها. وتستدل علاقات التماثل بين التواردات المتعلقة بسمة تشاكلية على علاقات المعادلة بين السيميمات المتضمَّنة.

- Lecture (قراءة)

النتيجة المحصلة من جراء تأويل النص. عندما تدون، تعتبر القراءة نصا منتجا عبر التحول الذي يطرأ على النص- الأصلي، المفروض وصفه وصفا علميا أو غير علمي. نميز بين القراءة الوصفية التي تفترض السمات الدلالية المحققة في النص، والقراءة المنتِجة التي تضيف السمات؛ وأخيرا، هناك القراءة الاختزالية التي تهمل السمات.

- Lexème(ليكسيم)

مورفيم ينتمي إلى طبقة أو عدة طبقات مغلقة إغلاقا ضعيفا، في حالة سانكرونية

معينة، مثلا، -cour في الفعل courir.

- Lexie (وحدة معجمية، مفردة)

تجمع ثابت للمورفيمات، بحيث يكوِّن هذا التجمع وحدة وظيفية.

- Logico-grammaticale (problématique) إشكالية منطقية-نحوية

حينما تعرف الدلالة اللفظية بأنها علاقة تمثيل، فإنها تفضل العلامة و القضية وتطرح بالتالي مشاكل المرجع والحقيقة، حتى و لو كانت خيالية؛ وتربط مظاهر اللغة بقوانين الفكر العقلاني وتركز على المعرفة.

- Massif (تكتل)

مجموعة من المجازات-أو قطوف من البلاغة-المنتمية إلى النمط المحاكاتي نفسه.

- Mérémorphisme (ميريمورفيزم)

علاقة بين أجزاء نص ما ، تقدم بشكل مكثف ومحلي الأشكال المضخمة والمقدمة في أماكن أخرى بطريقة شمولية و مطنبة. مثلا، التشكيلات المشفرة (مثل الوصف الأولي، المثل، الحلم المعبر عنه) التي تُنقل إلى بقية النص بواسطة الأشكال الأكثر امتدادا.

- Métamorphisme (ميتامورفيزم)

تحول موضوعاتي وجدلي (سردي) وحواري (جهي، حسب «وجهات النظر» و«المواقف الكلامية») أو تكتيكي-موضعي.

- Mode génétique (نمط جيني)

يحدد هذا النمط الخاضع للجنس النصي وللأسلوب إنتاجَ النص ويقيده؛ وهو نفسه مقيد بالوضع والممارسة.

- Mode herméneutique (نمط هيرمينوطيقي)

نمط تنظيمي يتحكم في مسارات التأويل.

- Mode mimétique (نمط محاكاتي)

نمط تنظيمي يحدد نظام الانطباع المرجعي للنص.

- Molécule sémique (جُزيْئة دلالية)

تجمع ثابت من السمات، غير معجمة بالضرورة ، أو له معجمة قابلة للتغيير. مثلا، تتكون التيمة أو الفاعل من جُزيْئات دلالية.

(عالم) Monde.

مجموعة من المركبات الدلالية المرتبطة بالفاعل وموجهة في الفاصل الزمني النصي نفسه.

(مورفيم) Morphème.

علامة صغيرة، غير قابلة للتقسيم في حالة سانكرونية معينة. مثلا، تحتوي كلمة rétropopulseurs على خمسة مورفيمات.

(مورفودلالة) Morphosémantique.

دراسة الأشكال الدلالية، وعلى الخصوص الجزيئات الدلالية. واتسع معنى هذا المصطلح فأصبح يعني دراسة الأشكال والخلفيات الدلالية، وكذلك العلاقات بين الأشكال والخلفيات.

(مورفولوجيات دلالية) Morphologies sémantiques.

الخلفيات والأشكال الدلالية.

(كلمة) Mot.

تجمع مورفيمات مكتملة الاندماج.

(تطريز) Motif.

بنية نصية معقدة تنتمي إلى الماكرودلالة. يحتوي التطريز على عناصر موضوعاتية، وجدلية (بتغيير الفاصل الزمني) وحوارية (بتغيير الوجه). على سبيل المثال، التطريز المرتبط بالميت المعترف يُكون بنية موضوعاتية و جدلية معقدة، تطرح وظائف الموت والإحسان والاعتراف، فضلا عن تمظهر الفاعلين البشر. وهكذا، فالتطريز يعتبر مكونا سرديا نمطيا، ويعبر عنه بواسطة التيمات المتكررة.

(مستوى صراعي) Niveau agonistique.

مستوى جدلي مكون من الفاعلين و من الوظائف.

(تحليل مسمياتي) Onomasiologie.

وصف ينطلق من وحدة مضمون لدراسة أنماط معجمتها.

(نظام هيرمينوطيقي) Ordre herméneutique.

نظام شروط إنتاج النص و تأويله. و يشمل ظواهر التواصل. ولكنه يتجاوز العوامل التداولية، وذلك باستعمال مقامات التواصل المشفرة وغير المباشرة وغير المتبادلة

بالضرورة بين الأشخاص. ولا ينفصل هذا النظام عن الأوضاع التاريخية والثقافية المحيطة بالإنتاج و التأويل.

- Ordre paradigmatique (نظام جدولي)

نظام الترابط المشفَّر. لا تمنح قيمة لوحدة دلالية إلا بالنسبة لوحدات أخرى تكون قابلة للاستبدال معها و التي تكوِّن جدول التعريف.

- Ordre référentiel (نظام مرجعي)

نظام يحدد تأثير اللغوي على الطبقات غير اللغوية في الممارسة. ويساهم هذا النظام في تكوين الانطباع المرجعي.

- Ordre syntagmatique (نظام تركيبي)

نظام خطي في اللغة وفي الامتداد الفضائي أو الزمني. ويعالج العلاقات البنيوية و العلاقات الوظيفية. وهكذا، يعد هذا النظام موقعا للعلاقات السياقية.

- Paratopie (تعالق معجمي جزئي)

علاقة بين مختلف المعجمات الجزئية المتعلقة بنفس الوحدة الميزو-دلالية أو الماكرو-دلالية.

- Perception sémantique (إدراك دلالي)

بناء الأشكال الدلالية و تكوينها؛ وتُقعَّد هذه العمليات بواسطة عمليات من نوع تصوري.

- Pertinence (ملاءمة)

تنشيط سمة دلالية. ونميز بين ثلاثة أنواع من الملاءمة (اللغوية و الجينية و السياقية)، حسب ما إذا كان التنشيط مرهونا بنسق اللغة ، أو بالجنس النصي أو بالممارسة الجارية.

- Philologie (فيلولوجيا)

حقل معرفي يضع النصوص على جميع مستويات التحليل و يدرسها. وتعتبر الفيلولوجيا المنبع الذي صدرت منه اللسانيات. أما الفيلولوجيا الرقمية، فإنها تعالج الوثائق المرقَّمة، بما فيها النصوص المتعددة الوسائط.

- Phrase (جملة)

بنية تركيبية لملفوظ يحتوي على معيار أولي.

- Poly-isotopie (تشاكل متعدد)

بالمعنى الضيق، خاصية المتوالية اللغوية التي تحتوي على عدة تشاكلات نوعية، تكون سماتها الدلالية في علاقة تنافر؛ بالمعنى العام، خاصية المتوالية اللغوية التي تحتوي على عدة تشاكلات.

- Pratique sociale (ممارسة اجتماعية)

نشاط مشفَّر يطرح روابط خاصة بين المستوى السيميائي (وإليه ينتمي النص) و مستوى التمثيلات الذهنية والمستوى المادي.

- Praxéologie (براكسيولوجيا)

دراسة الانجازات السيميائية في علاقتها مع المستويين الآخرين للممارسة وهما المستوى التمثيلي و المستوى المادي.

- Réalisme empirique(واقعية أمبريقية (تجريبية))

جهاز محاكاتي يؤسس الانطباع المرجعي للعالم الواقعي.

- Réalisme transcendant (واقعية متعالية)

جهاز محاكاتي يؤسس الانطباع المرجعي للعالم المتخيَّل.

- Référence (مرجع)

علاقة بين الفقرة أو النص و الوضع الذي أُنتج فيه وأُول. لتحديد مرجع ما، يجب توضيح الشروط التي بواسطتها نستدل على الانطباع المرجعي لفقرة أو لنص ما.

- Réseau associatif (شبكة ترابطية)

مجموع العلاقات التي تمكن من تعيين اطراد جزيئة دلالية.

- Rhétorique / herméneutique (problématique)- بلاغية (إشكالية) هيرمينوطيقية :

إشكالية قليلة التوحد ، نابعة من التقليد البلاغي أو الهيرمينوطيقي، وموضوعها النصوص والخطابات والانجازات السيميائية المعقدة من حيث الإنتاج والتأويل. بتركيزها على التواصل وعلى الإرسال بصفة عامة ، تسعى هذه الإشكالية إلى تحديد شروطها التاريخية وآثارها الفردية والاجتماعية، خصوصا على المستوى الفني.

- Rôle (دور)

تركيب جدلي أولي متعلق بفاعل. كل وظيفة تسند دورا لكل فاعل يشارك فيها.

- Sémantème (سيمانتيمات)

مجموع السمات المخصصة لسيميم ما.

- Sémasiologie (تحليل أدالي)

وصف ينطلق من الوحدة التعبيرية لدراسة دلالاتها الموجودة أو الممكنة. ضد تحليل مسمياتي.

- Sème (سمة)

عنصر ينتمي إلى السيميم، ويعرف بأنه أقصى علاقة وظيفية ثنائية بين السيميمات. السمة هي أصغر وحدة دلالية يضعها التحليل. مثال، / قمة/ في كلمة رأس.

- Sème afférent (سمة مجالية)

رأس علاقة غير متوازية بين سيميمين ينتميان إلى طاكسيمات مختلفة. و تتحقق السمة المجالية بالتعليمات السياقية. مثلا، يعتبر / غير كحولي/ سمة تميز «المشروبات» في التعابير الآتية : «مشروبات» : 6 فرنكات؛ «بيرة»: 8 فرنكات.

- Sème générique (سمة نوعية ، عامة)

سمة دلالية تبرز انتماء السيميم إلى طبقة دلالية (طاكسيم أو مجال أو بُعد).

- Sème inhérent (سمة ملازمة)

السمة التي يرثها التوارد من النمط، بالغياب. مثلا، / أسود/ بالنسبة «للغراب».

- Sème spécifique (سمة مخصصة)

عنصر ينتمي إلى السيميم الذي يقابل مجموعة من السيميمات التابعة لطاكسيم ما. مثلا، سمة / أنثى/ بالنسبة «للمرأة».

- Sémème (سيميم)

مدلول المورفيم.

- Sémie (مَعنَم)

مدلول الوحدة المعجمية.

- Sens (معنى)

مجموع السمات الملازمة والمجالية المحققة في فقرة أو في نص ما. ويحدَّد المعنى بالنظر إلى السياق و إلى الوضع (المقام) في إطار الممارسة الاجتماعية.

ـ Signification (دلالة لفظية)

مدلول وحدة لغوية (لفظة)، معرفة بالنظر إلى السياق والوضع. وتعتبر كل دلالة لفظية أداة مصطنعة.

ـ Signifié (مدلول)

مضمون الوحدة اللغوية.

ـ Sociolecte (لهجة اجتماعية)

استعمال لغة وظيفية خاصة بممارسة اجتماعية معينة.

ـ Style (أسلوب)

استعمال لهجة اجتماعية خاصة بمتلفظ؛ وهي أيضا المعيار اللهجي-الفردي.

ـ Texte (نص)

متوالية لغوية مستقلة (شفوية أو كتابية) تُكوِّن وحدة أمبريقية، وينتجها متلفظ أومجموعة من المتلفظين في إطار ممارسة اجتماعية واقعية. وتعتبر النصوص موضوع دراسة اللسانيات.

ـ Thématique (موضوعاتية)

دراسة التيمات والجزيئات الدلالية في الدرجة الميزودلالية.

ـ Thème générique (تيمة نوعية ،عامة)

خلفية دلالية مكونة من اطراد سمة أو عدة سمات نوعية. وتحدد التيمات النوعية «الموضوع» المحوري للنص ، وذلك باستخلاص الانطباع المرجعي المهيمِن من خلال الشبكات التشاكلية.

ـ Thème (spécifique) (تيمة مخصصة)

جزيئة دلالية منتمية إلى الدرجة الميزودلالية.

ـ Topique (معنى مشترك)

دراسة الأشكال الدلالية النمطية.

ـ Transposition (نقل)

1. داخلي – تغيير الخلفية الدلالية. 2- خارجي- المرور عبر نصيْن، خطابين، لغتين، بل وحتى عبر سيميائيتين.

(عابر للسيميائيات) Transsémiotique.

سيميائيات تسعى لعلاج العديد من الوسائل التواصلية عن طريق نظرية موحَّدة.

(كون)Univers.

مجموع القضايا أو الوحدات النصية المسندة إلى فاعل الملفوظ أو فاعل التلفظ الممثَّل.

(كون الصعود) Univers d'assomption.

جزء من الكون الدلالي المؤلف من القضايا المسندة لفاعل الملفوظ أو فاعل التلفظ الممثَّل.